هنري ميللر

مدار السرطان

ترجمة أسامة منزلجي

رواية

Author: Henry Miller
Title: Tropic Of Cancer
Translator:Ossama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2012

المؤلف: هنري ميللر
عنوان الكتاب: مدار السرطان
المترجم: أسامة منزلجي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٢
تصميم الغلاف: ريم الجندي

دار المدى للثقافة والنشر

سورية: دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٨٣٦٦ ـ تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ ـ ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box.: 8272 or 7366 - Tel: 2322275 - 232226, Fax: 2322289
www.almadahouse.com Email: al-madahouse@net.sy

بيروت ـ الحمراء ـ شارع ليون ـ بناية منصور ـ الطابق الأول ـ تلفاكس: ٧٥٢٦١٦ ـ ٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email: info@daralmada.com

بغداد ـ أبو نواس ـ محلة ١٠٢ ـ زقاق ١٣ ـ بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

ISBN: 978-2-84306-135-6

هنري ميللر

مدار السرطان

ترجمة: أسامة منزلجي

هنري ميللر: سيرة حياة

وُلِدَ هنري ميللر في بروكلن، نيويورك، في عام ١٨٩٠[١] من أصلٍ ألماني. التحق بمدرسة بروكلن الثانوية، ومن ثم عمل في مركز إدارة مدينة نيويورك، لكنّه تركه على الفور تقريباً ليعملَ أولاً في شركة لصناعة الإسمنت ثم في شركة البرق التي أصبحَ لاحقاً مدير المُستخدمين فيها. وبدافعٍ من رغبته في ممارسة الكتابة انتقلَ إلى باريس وألّفَ عدّةَ روايات، أوّلها كان "مدار السرطان"، التي تقوم في أساسها على تجاربه في تلك المدينة، وقد نشرتها دار أوبيليسك بريس في عام ١٩٣٤. تبعتها رواية "ربيع أسود" (١٩٣٦)، و "مدار الجَدي" (١٩٣٩)، ورواياتٍ أخرى، اختتمها بثلاثيّة "الصَلْبْ الوردي" (سكسوس، بليكسوس، نكسوس). كتاباته الأخيرة تتضمّن كُتُباً في ذكريات عن رحلات، وألّفَ أيضاً مسرحية عنوانها " ابتسامة عند أسفل السُلّم ". توفي في عام ١٩٨٠.

---

١ - وفي رواية أخرى ١٨٩١ .

" هذه الروايات سوف تفسح الطريق، شيئاً فشيئاً، لليوميات أو السِيَرْ الذاتية - الكتب الآسرة، هذا إذا عرِفَ الإنسان كيف ينتقي من بينَ ما يُسمّيه تجاربه وكيف لا يُسجِّل إلا الحقيقة "

رالف والدو إمرسُنْ

أنا أُقيمُ في فيلاً بورغيز. لا توجد ذرة غبار واحدة في أي مكان، لا كرسي في غير مكانه. وحيدون نحنُ هنا وأموات.

في الليلةِ الفائتة اكتشف بوريس أنه قمِلْ، وتوجَّبَ قصّ شعر تحت إبطه، لكنّ الحكّ لم يتوقف حتى بعد القصّ. كيف يمكن للمرء أنْ يُقمَّل في مكانٍ جميل كهذا؟ ولكن لا يهمّ، فلم يكن في الإمكان التعرُّف على بعضنا معرفة حميمة، حميمة، بوريس وأنا، لو لم يتعلّق الأمر بالقمل.

أعطاني بوريس لتوّه ملخّصاً لآرائه. فهو مُتنبِّئ طقس. يقول إنَّ الطقس سيستمر على رداءته. سيقع المزيد من الكوارث؛ المزيد من الموت، المزيد من اليأس، وليس هناك بارقة أمل في حدوث أدنى تغيير في أي مكان. سرطان الزمن ينهشنا حتى يفنينا، أبطالنا قتلوا أنفسهم، أو هم يقتلون أنفسهم الآن. إذن، البطل ليس الزمن، بل اللا زمن. يجب أنْ نتّخذ خطوة، خطوة الخِتام، نحو سجن الموت. لا مفرّ، فالطقس لن يتغيّر.

*

الآن أمضي خريف العام الثاني في باريس. لقد أُرسِلْتُ إلى هنا لسببٍ لم أعرفه بعد.

إنني لا أملك أي نقود، وليست لدي آمال؛ أنا أسعدُ إنسان على قيد الحياة. قبل عام، قبل ستة أشهر، كنتُ أظن أني فنان. لم أعدْ أفكر

في هذا، فأنا فنان فعلاً. كل ما كان أدباً سقط مني. ولا مزيد لكتبٍ تُكْتَبْ، فشكراً لله.

فما هذا إذنْ؟ هذا ليس كتاباً؛ إنه تشهير، افتراء، تشويه سمعة؛ هذا ليس كتاباً، ليس بالمعنى العادي للكلمة. كلا، بل هو إهانة مُطوَّلة، بصقة على وجه الفن، رفسة على قفا الله، والإنسان، والقَدَر، والزمن، والحب، والجمال... وكل ما تريد. سأغنّي لكَ، ربما بشيءٍ من النشاز، لكني سأغني، سأغني بينما أنتَ تنعق. سأرقصُ فوق جثتكَ القذرة...

من أجل أنْ تغني عليكَ أولاً أنْ تفتح فمك، ويجب أنْ تكون لديك رئتان، وقليل من المعرفة بالموسيقى. ليس من الضروري أنْ ترافقك آلة أكورديون، أو قيثارة. الأمر الأساسي هو " إرادة الغناء ". وعليه فهذا أغنية، وأنا أغني.

*

إنني أغني لكِ يا تانيا. أتمنى لو أستطيع أنْ أغني بشكلٍ أفضل قليلاً، بمزيد من الغنائية، لكنكِ عندئذٍ ربما ما كنتُ وافقتِ على سماعي. لقد سمعتِ الآخرين يغنّون وقد أشاعوا فيكِ البرودة، لأنهم غنّوا بجمالٍ فائق، أو ليس بما يكفي من الجمال.

الوقت هو العشرون - من شيءٍ ما من شهر تشرين أول. لم أعُدْ أحفظ تسلسل التاريخ. هل يناسبك القول - حُلمي الواقع في الرابع عشر من تشرين الثاني الفائت؟ هناك فواصل، لكنها موجودة بين الأحلام، ولم يبقَ شيء من الوعي بها. العالم من حولي يتحلّل، تاركاً هنا وهناك بقعاً من الزمن. العالم سرطان ينهش نفسه حتى الهلاك...

يخطرُ لي أنَّ الصمت الأعظم سيهبط على كل إنسان وكل شيء سيبقى، النصر الأخير للموسيقى. بعد أنْ ينسحب كل شيء إلى رحم الزمن من جديد سيعود العماء، والعماء هو السجلّ الذي يحتوي الحقيقة. أنتِ عمائي يا تانيا. وهي سببُ غنائي. وأنا لستُ أنا، أنا العالم المُحتضَر، يسلخ جلد الزمن. لا أزال حياً، أرفسُ داخل رحمكِ، حقيقة تستقبل ما يُكتَبْ عليها.

أنعسُ. علِم وظيفة الحب. الحوت بعضوه ذي الستة بوصات في حالة راحة والواطواط – ذو القضيب الحر Penis libre. حيوانات بعضو ذي عظْمة. إذن فانتصابه عَظْمي... يقول غورمون: " لحسن الحظ أنَّ الشكل العظمي مفقود لدي الإنسان ". أيقول لحسن الحظ؟ نعم، من حسن الحظ. تصورَّْ سلالة بشرية تتجوَّل بعَظْمة منتصبة. للكنغر عضو مزدوَج – واحد لأيام الأسبوع وواحد لأيام العُطل. أنعسُ. رسالة من أنثى تسألُ إنْ كنتُ وجدتُ عنواناً لكتابي. عنوان؟ تأكدي أنه " السحاقيات الفاتنات "

يا لحياتكَ المُفعمة بالنوادر! هذه إحدى عبارات م. بوروفسكي. في أيام الأربعاء أتناولُ طعام الغداء مع بوروفسكي. زوجته، البقرة العجفاء، ترأسُ قداّساً. وهي الآن تدرس اللغة الإنكليزية – وكلمتها المفضّلة هي " بذيء ". ويمكنك أنْ تدرك في الحال أي ألم المؤخرة هم آل بوروفسكي. ولكن انتظر...

يرتدي بوروفسكي بذلات قطنية ويعزف على الأكورديون. هو مُركَّب لا يُقهَرْ، ولاسيما إذا أخذت في حسابك أنه ليس فناناً رديئاً. هو يدَّعي أنه بولندي، وهذا غير صحيح، طبعاً. فصاحبنا بوروفسكي يهودي، وأبوه كان جامع طوابع بريدية. والحقيقة هي أنَّ سكان مونبرناس كلهم

تقريباً من اليهود، وهذا أسوأ. هناك يقطن كارل ولولا وكرونستاد وبوريس وتانيا وسيلفستر ومولدورف ولوسيل. كلهم ما عدا فيلمور. وهنري جوردان أوزفولد اتّضح أيضاً أنه يهودي. لويس نيقول يهودي. وحتى فان نوردن وشيري يهوديان. فرانسيس بليك يهودي، أو بالأحرى يهودية. تيتوس يهودي. إذاً وكما ترى فاليهود ينهمرون عليّ حتى يغمرونني. أنا أكتب هذا إكراماً لوالد صديقي كارل اليهودي. ومن المهم أنْ نفهمْ هذا كله.

وأحبّهم إليّ تانيا، وإكراماً لها سأصبحُ يهودياً. ولِمَ لا؟ لقد بدأتُ للتو بالتحدث كاليهود. وأنا قبيح الخلقة كيهودي. ثم، مَنْ يكره اليهود أكثر من اليهودي نفسه؟

ساعة الغسق. زُرقة هندية، سطح الماء زجاجي، أشجارٌ متلألئة سائلة. سكك الحديد تنهار وتقعُ في القناة عند جوريه. اليرقة الطويلة ذات الجوانب المورْنَشَة باللّك تغطس كسكة حديد أفعوانية في مدينة ملاهٍ. إنها ليست باريس. ليست كوني آيلند. هي مزيج غسقي لجميع مدن أوروبا ووسط أميركا. ساحات سكة الحديد تحتي، والخطوط الحديدية سوداء، متشابكة، لم يُخططها مهندس، لكنَّ تصميمها طوفاني، تشبه تلك التصدعات الكئيبة في الجليد القطبي الذي تسجّله الكاميرات بتدرّجات اللون الأسود.

*

الطعام هو أحد الأشياء التي أستمتع بها أيّما استمتاع. وفي فيلا بورغيز الجميلة هذه نادراً ما يظهر له أي أثر. وأحياناً يكون فظيعاً تماماً. طلبتُ من بوريس مراراً وتكراراً أنْ يُحضِرَ خبزاً للإفطار، لكنه

دائمـاً ينسى. يبـدو أنـه يتناول الطعـام في الخـارج. ويعـود وهو يُخلّل أسنانه وقـد علّقَ بيضـة صغيـرة من طرف لحيـتـه الصـغيـرة المُشـذّبة. إنه يتنـاول طعـامـه في المطعم دون أنْ يحـسب حسـابي. ويقـول إنـه يؤلمه أنْ يتناول وجبة دسمة بينما أنا أكتفي بالنظر.

يُعـجبني فـان نوردن وإنْ كنتُ لا أشـاطره رأيه في نفـسـه. لا أوافق مثلاً على أنه فيلسوف، أو مفكّر. كل ما في الأمر أنه خارِطٌ. ولم يكن أبداً كاتباً. ولا حتى سيلفستـر، على الرغم من أنَّ اسمَ هذا الأخير يسطع بأنوارٍ حمراء بقـوة ٥٠٠٠٠ شمعة. الكاتبان الوحيدان اللذان يعيشان معي وأكنُّ لهـمـا شيئـاً من الاحتـرام حاليـاً هما كـارل وبوريس. إنهـمـا ممسوسان. يتوهجان من الداخل بلهبٍ أبيض، مـجنونان ومُصابان بصمم النغم. إنهما مُعانيان.

من ناحية ثانيـة فـمولدورف، الذي يُعاني بدوره على طريقته الخاصة، ليس مـجنوناً. مـولدورف ثمل بالكلمة، ليس لديه عـروق أو أوعـيـة دمـوية، أو قلب أو كلى. هو صندوق خفيف مملوء بعددٍ لا يُحصى من الأدراج وعلى الأدراج رُقَع مكتـوب عليـهـا بالحـبـر الأبيـض، والبُني، والأحـمـر، والأزرق والفيـروزي، والزعـفراني، والخبـازي، والتـرسينا، والمشـمشي، والعـقـيقي، والآنجو، والإهليلي، والرنكي، والزنجاري، والأزرق الغرعنزولاوي...

نقلتُ الآلة الكاتبة إلى الغرفة المجاورة حيث يمكنني أنْ أشاهد نفسي في المرآة وأنا أكتب.

تانيا مثل آيرين، تتوقع أنْ تصلها رسائل ضخمة. ولكنْ هناك تانيا أخرى، تانـيـا تشبـه بذرة هائلة تنثر غبـار الطلع في كل مكان - أو لنقُلْ، على طريقة تولستـوي قليلاً، إنـها مـشـهد ثابتٌ يُبرزُ فـيه جنين. تانيـا هي

أيضاً حُمّى – les voies urinaires (المسالك البولية). مقهى الحرية، ساحة الفوسج، ربطات عنق في بولفار مونبرناس، حمّامات سوداء اللون، حقيبة يد، سجائر عبد الله، سوناتة[2] Pathetique ذات الإيقاع البطيء، مكبرات سمعيّة، جلسات سرد الحكايات، أثداء بلون الترسينا المحروقة، أربطة جوارب ثقيلة، كم الساعة الآن؟ طيور تدرج ذهبية محشوّة بالجوز، أصابع من التفتة، أوقات غسق كئيبة تتحول إلى لون البلوط الأخضر، تضخُّم الأطراف، السرطان والبِطاح، خُمُرٌ دافئة، فيش البوكر، سجاد من الدم والأفخاذ الناعمة. تقول تانيا بحيث يسمعها الجميع: " أنا أحبه، وبينما بوريس يحرق نفسه بالويسكي تقول هي: " اجلس هنا! آه يا بوريس... روسيا... ماذا أفعل؟ إنني أتفجَّر بها! "

حين أنظر إلى لحية بوريس الصغيرة المُشذَّبة ليلاً ممددة على الوسادة تُصيبني الهستيريا. آه يا تانيا، أينَ كسّك الدافئ الآن، وأربطة الجوارب الثخينة الثقيلة، وفخذاك الناعمان المنتفخان؟ في أيري عَظْمة طولها ستة بوصات. سوف أسحل كل تغضّنٍ في كسّك المترع بالمني، يا تانيا. سوف أُعيدكِ إلى حبيبك سيلفستر مع ألمٍ في بطنك ورحمك مقلوب إلى الخارج. يا لحبيبك سيلفستر! نعم، هو يعرف كيف يضرم ناراً أما أنا فأعرف كيف ألهِبُ كساً. إنني أُطلِقُ قذائف حارة فيكِ يا تانيا، وأجعل مبيضيكِ ملتهبين. هل أصبح حبيبكِ أكثر غيرة الآن؟ إنه يشعرُ بشيءٍ، أليس كذلك؟ يشعرُ بآثار أيري الضخم. لقد جعلتُ الحواف أوسع قليلاً.

---

٢ – بيانو سوناتة للودفيغ فان بيتهوفن ، مقام دو الصغير ، مصنّف ١٣ .

كويتُ الغضون كلها. يمكنكِ بعدي أنْ تقْبلي تحدّي الفحول، والثيران، والكباش، وذكور البط، والقديس برنار. يمكنك أنْ تتغوّطي توقيعات متعاقبة إذا أردت، أو أنْ تُثبّتي أوتاراً عبر سُرّتك كآلة القانون. إنني أنيكك يا تانيا، وهكذا ستظلين مُناكَة. إذا كنت تخافين أنْ تُناكي عَلَناً فسأنيككِ خفية. سوف أنتفُ الشَعر عن كسّكِ وألصقه على ذقن بوريس. سوف أقرصُ بظركِ من الداخل وأُخرِجُ منه فرنكين...

*

سماءٌ نيليّة ونظيفة تماماً من نُتَف الغيوم، وأشجارٌ نحيلة تنتشر إلى ما لا نهاية، أغصانها الكالحة تومئ كالسائر في نومه. أشجارٌ كئيبة كالأطياف، جذوعها شاحبة كرماد السيجار. صمتٌ علويٌ ويغلبُ عليه الطابع الأوروبي. النوافذ موصدة، والمخازن مُرتجة، وهنا وهناك يسطع وَهَج أحمر ليدل على مكان لقاء. الواجهات فظّة، تكاد تكون مُنفرة، نقيّة ما عدا بقعة من الظل تُلقيها الأشجار. عند مروري بمنطقة أورانجري أتذكّر باريس أخرى، باريس موم[٣]، وغوغان، باريس جورج مور[٤]. أفكّر في ذلك الأسباني الرهيب[٥] الذي كان في ذلك الوقت يُذهِلُ العالم بقفزاته البهلوانية من أسلوبٍ إلى أسلوب. أفكّرُ في شبنغلر[٦] وإقراراته المُرعبة، وأتساءل إنْ كان الأسلوب، الأسلوب بشكله العظيم، قد استُهلكَ. أقول إنَّ عقلي مشغولٌ بهذه الأفكار، لكنَّ هذا غير صحيح، إذْ إني لم أسمح

---

٣ – المقصود هنا الروائي الإنكليزي سمرست موم (١٨٧٤ – ١٩٦٥) ، صاحب "في العبودية الإنسانية"
٤ – جورج مور (١٨٥٢ – ١٩٣٣) : كاتب أيرلندي .
٥ – المقصود هنا هو الرسام الأسباني بابلو بيكاسو (١٨٨١ – ١٩٧٣) .
٦ - أوزفولد شبنغلر (١٨٩١ – ١٩٣٦) : فيلسوف ألماني . له " انحدار الغرب " .

لعقلي أنْ يلهو بتلك الأفكار إلا بعد ذلك، بعد أنْ عَبَرتُ السَين، بعد أن خلّفتُ ورائي مهرجان الأضواء. أما الآن فأنا عاجزٌ عن التفكير في أي شيء - ما عدا التفكير في أنني كيانٌ حسّاس مطعون بمعجزة هذه المياه التي تعكس عالماً مجهولاً. الأشجار الموجودة على طول الضفتين تنحني بتثاقُلْ فوق المرآة الفاقدة اللمعان، وعندما تهبُ الرياح، وتملؤها بالغمغمة الهاسّة ستسفح بعض الدموع وسترتعش كلما دوَّمَ الماء قربها. إنني مخنوق بهذه الصورة. غير قادر على نقل جزءٍ بسيط من مشاعري لأي إنسان...

مشكلة آيرين تكمنُ في أنَّ لديها حقيبة بدل الكس. تريد رسائل ضخمة تملأ بها حقيبتها. وهي مُتخمة بـ avec des choses inouies (بأشياء لم يسمع بها أحد من قبل). أما ليونا، فلديها كس. أعلمُ هذا لأنها أرسلتْ لنا بعض شعراتٍ منه. ليونا - مؤخرة متوحشة تشمُ رائحة المتعة في الهواء. تقوم بدور المومس فوق كل هضبة عالية - وأحياناً تقوم بذلك في أكشاك الهاتف وفي المراحيض. ابتاعتْ سريراً للملك كارول مع وعاء للحلاقة محفورٌ عليه الأحرف الأولى من اسمه. وكانت تستلقي في توتنهام كورت رود وقد رفعَتْ ثوبها إلى أعلى وتداعب نفسها بإصبعها. كانت تستخدم شموعاً، شموعاً رومانية، ومقابض أبواب. إذْ لا يوجد في أي مكانٍ أير بالضخامة التي تلائمها... ولا واحد. يدخل الرجال فيها ويلتفّون حول أنفسهم. كانت تريد أيور ممتدة، قذائف ذاتية الانفجار، زيتاً يغلي مؤلّفاً من الشمع وسائل الكريوسوت. إنها تودّ لو تقطع أيرك وتُبقيه فيها إلى الأبد، إذا سمحت لها. ليونا! هي كسٌ تنتقيه من بين مليون! كسٌ لإجراء التجارب بلا ورق عبّاد

الشمس ليُخلّصها من لونها. وهذه الليونا كانت كاذبة أيضاً. لم تبتَعْ سريراً لحبيبها الملك كارول، وتوّجته بزجاجة ويسكي ولسانها يملؤه القمل والوعود. مسكين كارول، كل ما استطاعَ أنْ يفعله هو أنْ يلتفٌ حول نفسه داخلها ويموت. شهَقَتْ مرةً واحدة وإذا به يسقط - كسمكة بطليموس ميتة.

رسائل مملوءة avec des choses inouies (بأشياء لم يسمع بها أحد من قبل). حقيبة بلا شرائط. ثقبٌ بلا مفتاح؟ كان لها فم ألماني، وأذنان فرنسيتان، ومؤخرة روسية. عاهرة عالمية. وحين رفرَفَ العلمُ كان أحمر حتى الحنجرة. وتدخل بوليفار جول فيرن، وتخرج منه إلى ميناء دو فيليت، وترمي بنكرياساتك إلى داخل العربات - عربات حمراء بدولابين، طبعاً، عند التقاء نهرَيّ الأورك والمارن، حيث يتدفّق الماء من خلال فتحات التحكُّم بالماء في السدود ويستقرّ كصفحة الزجاج تحت الجسور. هناك تستلقي ليونا الآن، والقنال مملوء بالزجاج والشظايا، والميموزا تبكي، وهناك ضراط رطب ضبابي على زجاج النوافذ. ليونا يا كسّ فريد من نوعه! كلها كس ومؤخرة من زجاج عليها تقرأ تاريخ العصور الوسطى.

*

أول ما يوحي به مولدورف هو أنه صورة ساخرة لرجلٍ. له عينان درقيّتان، وشفتا ميشلان، وصوت يشبه شوربة الفاصوليا. يحمل تحت بزته ثمرة إجاص صغيرة، وكيفما تنظر إليه ترى المشهد الشامل نفسه: صندوق النشوق، المقبض العاجي، رقعة الشطرنج، مروحة، رسم كنيسة. لقد طال أمد تخمّره حتى أصبحَ معدوم الشكل، خميرة مسلوبة من فيتاميناتها، مزهرية بلا نبتة اصطناعية.

لقد بُجِّلَتْ الإناث مرتين في القرن التاسع، ومرة أخرى خلال عصر النهضة. وقد مرَّ عبر عمليات تقزُّح[٧] هائلة تحت بطونٍ صفراء وبيضاء. وقبل سِفر الخروج بزمنٍ طويل بَصَقَ تتريٌّ في دمه.

مشكلته هي مشكلة قَزَم، بعينيه الصنوبريتيّ الشكل، يرى جانب وجهه مرسوماً على ستارة هائلة الحجم. صوته المتزامن مع ظل رأس دبوس، يُسكِره. يسمعُ زئيراً حين لا يسمع الآخرون إلا صريراً.

ثم هناك عقله، وهو عبارة عن مُدرَّج روماني عليه يقومُ الممثل بأدوار متقلّبة متنوعة. ومولدورف، بأشكاله المتعددة ودون ارتكاب أي خطأ، يتنقَّل بين أدواره – مهرّج، مشعوذ، مُحرِّف، كاهن، فاسق، دجّال. المدرَّج صغير جداً. يشحنه بالمتفجرات، ويُخدِّر المشاهدين، ثم ينسفه.

أحاول بلا طائل أنْ أقترب من مولدورف. كأنني أحاول الاقتراب من الله، لأنَّ مولدورف هو الله – ولم يكن قط أي شيءٍ آخر. إنني فقط أدوِّن الكلمات...

كوَّنتُ عنه آراءَ نبذتُها لاحقاً، وكوَّنتُ أخرى لا أزال أراجعها. ثبّته أمامي بدبوس واكتشفت أنَّ ما بين يدي ليس خنفساء الروث، بل يعسوب. لقد أهانني بألفاظه الفظّة وبعد ذلك غمرني برقَّته. كان مهذاراً حتى الاختناق، وهادئاً كنبتة الجنائن.

حين أراه يخبُّ نحوي مُرحِّباً، ماداً مخالبه الصغيرة، وعيناه تنزّان عَرَقاً، أشعر أنني بصدد الاجتماع بـ... ولكن كلا، ليس هذه هي الطريقة المُثلى للتعبير عنه! إنه:

---

٧ – التقزُّح : استحالة الضوء الأبيض إلى الأضواء ذات الألوان المتدرّجة من الحمرة إلى البنفسجية بواسطة موشور من زجاج .

"Comme un oeuf dansant sur un jet d'eau"

(كبيضةٍ تتراقص فوق دفقٍ من الماء)

لم يكن لديه إلا عصا واحدة من الخيزران - متوسطة الحجم. في جيبه قصاصات من الورق تحوي وصِفات ضد " الأسى العالمي ". وقد شُفيَ منه الآن، والفتاة الألمانية الصغيرة التي كانت تغسل قدميه تُحطّمُ قلبها. إنه مثل السيد عَدَم[8] Nonentity الذي يحمل معه قاموس الغوجاراتي إلى كل مكان. " المحتوم لكل إنسان " - وهو، بلا شك، يعني أنه لا غِنى عنه. إنَّ بوروفسكي سيرى كل هذا عصيّاً على الفهم. وبوروفسكي لديه خيزرانة لكل يوم من أيام الأسبوع، وواحدة من أجل عيد الفصح.

إننا نشترك في كثير من النقاط حتى كأنني أنظرُ إلى نفسي في مرآةٍ مشروخة.

كنتُ ألقي نظرة على مخطوطاتي، وهي صفحات محشوّة بالمراجعات. صفحات من ***الأدب*** . وهذا ما أخافني قليلاً. إنه جدير بمولدورف. غير أني لستُ يهودياً، ولغير اليهود طُرُق مختلفة للمعاناة. إنهم يعانون دون عُصاب، وكما يقول سيلفستر، الرجل الذي لم يبتلِ بالعُصاب لا يعرف معنى المعاناة.

أذكرُ بجلاء كم استمتعتُ بمعاناتي. كأنَّ المرء يصطحب معه جرواً صغيراً إلى السرير. وإذ به فجأةً يخدشك - وينتابك خوفٌ حقيقي. ففي

---

٨ - السيد عَدَم : سيردُ ذكره بالتفصيل في موقع قادم من الكتاب . - المترجم

الحالة العادية لا يكون هناك خوف - ويمكنكَ دائماً أنْ تطلق سراحه، أو أنْ تقطع رأسه.

هناك أناس لا يستطيعون مقاومة إغراء ولوج قفصٍ مملوء بالضواري ليُمثَّل بهم. فيدخلون دون مسدس أو سوط. والخوف يجعلهم غير خائفين... بالنسبة لليهودي العالم قفص مملوء بالضواري. الباب موصد وهو في الداخل دون مسدس أو سوط. وشجاعته من العِظَم بحيث إنه لا يشمّ رائحة الروث المكوَّم في الركن. ويُصفّق له المشاهدون استحساناً لكنه لا يسمعهم. فالدراما، في اعتقاده، هي التقدُّم داخل القفص. والقفص، في اعتقاده، هو العالم. ويقفُ هناك وحيداً عاجزاً، الباب موصد، ويُلاحظ أنَّ الأسود لا تفهم لغته. لم يسمع أي منها بسبينوزا. سبينوزا؟ لكنهم لا يستطيعون غرز أسنانهم فيه. ويزمجرون كأنما يقولون " أعطنا لحماً! " وهو واقف هناك كالمصعوق، أفكاره مُجمَّدة، ونظرته العالمية Weltanschauung أرجوحة بهلوان بعيدة المنال. تكفي ضربة واحدة من مخلب الأسد وتتهشَّم نظرته عن نشأة الكون.

والأسود، أيضاً، يخيب أملها. لقد توقّعتْ دماً، عِظاماً، غضروفاً، عَصَباً. فتمضغ وتمضغ، لكنَّ الكلمات هي كالصمغ والصمغ لا يُهضَم. والصمغ مادة أوليّة يمكنُ أنْ تُمزَج بالسُكَّر، وخميرة الهضمين، والزعتر وعرق السوس. والصمغ، إذا جمعه جامعو الصمغ يكون رائعاً. لقد أتى أولئك الجامعون على متنِ قارةٍ غارقة، وجلبوا معهم لغةً جبرية. في صحراء أريزونا قابلوا المنغول الشماليين، اللامعين كبشرة الباذنجان بعد أنْ اتّخذتْ الأرض ميلها التوازني بوقتٍ قصير - وذلك حين انفصلَ تيار الخليج عن التيار الياباني. في قلب التربة وجدوا الصخر المساميّ.

زخرفوا أعمق أعماق الأرض بلغتهم. أكل بعضهم أحشاء بعض وانغلقَتْ الغابة عليهم، على عِظامهم وجماجمهم، على حجرهم المساميّ المُخرَّم. وضاعت لغتهم. ولا يزال المرء يعثر هنا وهناك على بقايا مجموعة من الوحوش، على قحف دماغ مُغطّى بالأرقام.

*

ولكن ما علاقة كل ذلك بكَ يا مولدوروف؟ الكلمة التي تتردَّد على لسانك هي الفوضوية. قُلها يا مولدورف، إنني أنتظرها. لا أحد يعرف الأنهار التي تنضح مع عرقنا عندما نتصافح بالأيدي. وأنتَ تصيغ كلماتك، منفرج الشفتين، يُقرقر اللعاب داخل خديك، أكون قد قطعتُ نصفَ الطريق الموصلة إلى آسيا. لو أتناول خيزرانتك، على الرغم من تواضعها، وأفتح بها ثغرة في جنبك لاستطعتُ أنْ أجمع مواداً كافية لملء المتحف البريطاني. ونقف خمس دقائق نبدِّد أثناءها قروناً. أنتَ المنخل الذي ترشح من خلاله فوضاي، وتحلّ نفسها في كلمات. وخلف الكلمة يكمن العماء. كل كلمة هي شريط، سلك، ولكن لا يوجد ولن يوجَد أبداً ما يكفي من الأسلاك لصنع الشبَك.

أثناء غيابي عُلِّقَتْ ستائر النوافذ. وبدتْ كأنها مفارش مائدة من التيرول غُمسَتْ في سائل مُطهِّر. الغُرَف تتلألأ. أجلسُ على السرير مذهولاً، أفكِّرُ في الإنسان قبل ولادته. فجأةً تبدأ الأجراس بالقرع، موسيقى بهديرٍ طويل متمهِّل، بعضها الآخر ينطلق سكران نشوان. والآن ساد صمتٌ من جديد، إلا النغمة الأخيرة التي لم يبقَ غيرها يمسّ برفق سكون الليل – ضربة واحدة عالية واهنة انطفأتْ كما اللهب.

عقدتُ ميثاقاً صامتاً مع نفسي على ألاّ أغيِّر سطراً واحداً مما أكتب. لستُ مُهتماً بجعل أفكاري مُكتملة، ولا حتى أعمالي. إلى جانب اكتمال تورغينيف أضعُ اكتمال دوستويفسكي (وهل هناك ما هو أكثر اكتمالاً من رواية *الزوج الأبدي*) . هنا لدينا ، إذن، وفي الوسط نفسه، نوعان من الاكتمال. أما في رسائل فان غوخ فاكتمالٌ يتجاوز كلاً من تينك النوعين؛ إنه انتصارُ الفرد على الفن.

*

هناك أمرٌ واحد ووحيد يُثير اهتمامي بحيوية، وهو أنْ أسجِّل كل ما حذَفَته الكُتُب. فحسبما أرى لا أحد يستغل هذه العناصر المنثورة في الهواء والتي تعطي حياتنا اتجاهاً ودافعاً. القَتَلَة وحدهم، على ما يبدو، يحصلون من الحياة على مقدارٍ مُرضٍ من ثِمار ما يُضيفونه إليها. إنَّ هذا العصر يتطلَّب العنف، لكننا لا نحصل بالنتيجة إلا على تفجيرات مُجهَضَة. فالثورات تُدهَس وهي براعم، أو تنجح بسرعة مشكوك فيها. وسرعان ما يُستنفد الحماس، ويتهافت الناس على الأفكار، comme d'habitude (كالمعتاد)، ولا يُتوقَّع لأي شيء أنْ يدوم أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة. إننا نعيش مليون حياة على مدى جيلٍ واحد، ونحن بدراستنا لعلم الحشرات، أو الحياة في أعماق البحار، أو الانشطارات النووية، نحصلُ على دفقٍ أغزر من...

ويقطع رنين الهاتف هذه الأفكار التي لم أتمكَّن قط من إكمالها. لقد جاء أحدهم لاستئجار الشقة...

يبدو وكأنَّ حياتي في فيلا بورغيز توشك أنْ تنتهي. حسن، سألملمُ هذه الصفحات وأذهب. ستحدث الأمور في مكانٍ آخر. والأمور تحدثُ

دائماً. ويبدو أنه حينما أذهب تقع أحداث عنيفة. الناس كالقمل - يدخلون تحت الجِلد ويدفنون أنفسهم هناك. وتحكّ وتحكّ حتى يخرج الدم، لكنكَ لا تتخلّص من القمل طويلاً. أينما أذهب أجد الناس يجعلون من حياتهم كتلة من الفوضى. لكل إنسان مأساته. باتت المأساة تجري مع الدم الآن - وسوء الحظ والسأم، والأسى والانتحار. الجو مُشبّع بالكارثة، والإحباط، والعُقم. وتحكّ وتحكّ - حتى يهترئ الجِلد كله. على كل حال، فتأثير ذلك عليّ مثير. فبدل أنْ أُحبَط أو أُصاب بالكمد، أستمتعُ به وأصرخ طالباً المزيد والمزيد من النوازل، والكوارث والفشل الأعظم، أريد من العالم كله أنْ يخرج عن طوره. أريد من كل إنسان أنْ يهرش نفسه حتى الموت.

*

أنا مُضطر إلى أنْ أعيش بوتيرة سريعة وبهياج بحيث لا يكاد يتوفَّر وقت لأسجِّل هذه الشذرات. بعد المكالمة الهاتفية بقليل وصلَ رجلٌ وامرأة. صعدتُ إلى الطابق العلوي لأتمدد خلال إجراء الصفقة. أتمدد هناك وأتساءل ماذا ستكون خطوتي التالية. لن تكون طبعاً العودة إلى سرير اللوطي والتسكُّع في كل مكان أدحرج فُتات الخبز بطرف حذائي. يا لابن الحرام الحقير! إذا كان هناك ما هو أسوأ من لوطي فهو البخيل. إنه رعديد، لوطي حقير عاشَ حياته في خوفٍ مستديم من أنْ يُفلس يوماً - في الثامن عشر من آذار، ربما، أو الخامس والعشرين من أيار على وجه الدقة. قهوة بلا حليب أو سكَّر، وخبز بلا زبد، ولحم بلا مَرَق، أو حتى بلا لحم على الإطلاق. بلا هذا أو بلا ذاك! بخيلٌ حقير قذر! أفتحُ درج طاولة المكتب ذات يوم فأجد نقوداً مُخبّأة في جورب. أكثر من ألفيّ فرنك -

وشيكات لم يُحمِّل نفسه عناء صرفها. ومع ذلك ما كنتُ لأهتم لو لم أكنْ أجد دائماً تفلَ القهوة في قلنسوتي ونفاية على الأرض، ولا تحدَّث عن برطمانات الكريما المُثلّجة والشحم على المناشف والمغسلة مسدودة دائماً. وأؤكد لك إنَّ ابن الحرام الحقير ذاك يفوح بالروائح الكريهة كريهة - إلا حين يُغرِق نفسه بماء الكولونيا. أذناه قذرتان. عيناه قذرتان. ومؤخرة قذرة. كان مزدوج المفصل، مُصاباً بالربو، وقملاً، وتافهاً، ومملوءاً بالأمراض. كان في وسعي أَنْ أغفر له كل شيء لو أَنه قدَّمَ لي ذات مرة إفطاراً محترماً؛ ولكنَّ رجلاً مثله يخفي ألفيّ فرنك في جورب قذر ويرفض أن يرتدي قميصاً نظيفاً أو أنْ يضع قليلاً من الزبدة على خبزه، رجل كهذا ليس فقط لوطياً ولا حتى مجرَّد بخيل - إنه معتوه!

لكنَّ هذا اللوطي لا أهمية له ولا شأن. إنني أصيخ سمعي لما يجري في الطابق السفلي. إنهما مستر ورن وزوجته جاءا ليُعاينا الشقّة. إنهما يتناقشان حول استئجارها. الأمر لا يتعدّى النقاش فشكراً لله. للسيدة ورن ضحكة رخوة - ثمة تعقيدات تلوح في الأفق. الآن " المستر " ورن يتكلّم. صوته أجش، يصرّ صريراً، يهدر، سلاح ثقيل كليل يشقّ طريقه خلال اللحم والعَظم والغضروف.

ينادي بوريس عليّ أنْ أنزل ونتعارف. إنه يفرك كفّيه كمُسترهِنْ. وهم يتحدثون عن قصةٍ كتبها المستر ورن، قصة حول حصان مُصاب بالورم العرقوبي.

" ولكن ظننتُ أنَّ السيد ورن رسّام؟ "

ويقول بوريس، غامزاً بعينيه، " طبعاً هو رسام، لكنه يكتب في الشتاء، وهو يكتب جيداً... جيداً جداً "

وأحاولُ أنْ أُقنع المستر ورن بالكلام، بقول شيء، أنْ يتحدَّث عن الحصان المُصاب بورمٍ عرقوبي إذا لزِمَ الأمر. لكنَّ مستر ورن ممتنع عن الإفصاح. وعندما يحاولُ أنْ يتكلَّم عن تلك الشهور الموحشة بواسطة القلم يُصبح غامضاً. ويقضي شهوراً طويلة قبل أنْ يكتب كلمة على الورق. (والشتاء لا يتألّف إلا من ثلاثة أشهر!)، فبماذا يفكّر طوال تلك الأشهر المديدة من الشتاء؟ وليُسامحني الله لأنني لا أرى في هذا الشاب مستقبلاً ككاتب. ومع ذلك فالسيدة ورن تقول إنه ما أنْ يضع نُصب عينيه الكتابة حتى يجلس ***ويفيض***.

وينساب الحديث. من الصعب متابعة ما يجري في رأس المستر ورن لأنه لا يقول شيئاً. ***إنه يفكّر طوال الوقت*** - هكذا تقول السيدة ورن. السيدة ورن تصِفُ كل شيء حول زوجها بأبهى صورة. "إنه يفكّر بلا انقطاع" - شيء ساحر، ساحر حقاً، على حد قول بوروفسكي، غير أنه مؤلم حقاً، ولاسيما حين لا يكون المفكّر أكثر من حصانٍ مُصابٍ بالورم العرقوبي.

أعطاني بوريس نقوداً لأبتاع مشروباً. وسكِرتُ وأنا لا أزال في الطريق لشرائه. أعرف كيف سأبدأ عندما أعود إلى المنزل. يبدأ الخطاب الفخم داخلي وأنا أطرق الشارع، مُقرقراً كضحكة السيدة ورن الرخوة. ويبدو لي أنها كانت تتمتع مُسبقاً بشيء من الأفضلية. وهي تصغي بشكلٍ جميل عندما تكون يقظة. أسمعُ، أثناء خروجي من محل بيع الخمور، تغرغر المبولة، كل شيء سائب ويُحدِث طرطشة. أريدُ من السيدة ورن أنْ تصغي...

يفرك بوريس يديه من جديد. والسيدة ورن لا تزال تتمتم وتجمجم. أضعُ زجاجة من الخمر بين ساقيّ وأقحم فتّاحة الفلّين. تفتح السيدة ورن

فمها قليلاً بترقُّب. الخمر يترشرش من بين ساقيّ والشمس تتدفق من خلال المشربية. وداخل عروقي ألف شيء جنوني يُقرقر ويترشرش وقد بدأ الآن ينبجس خارجاً مني في كل اتجاه. وأنا أخبرهم بكل ما يخطر على بالي، بكل ما كان محبوساً داخلي وأطلقَتْه ضحكة السيدة ورن الرخوة. وأثناء وجود الزجاجة بين ساقيّ والشمس تترشرش من خلال النافذة أمرُّ من جديد بتجربة روعة تلك الأيام البائسة الأولى لوصولي إلى باريس، وأنا شخص مرتبك مُبتلٍ بالفقر، يسكن الشوارع كشبح في مأدبة. يعود إليّ كل شيء بسرعة كبيرة - المراحيض التي لا تعمل، الأمير الذي لَمَّعَ لي حذائي، وسينما سبليندد حيث نمتُ على معطف صاحبها، وقضبان النافذة، والإحساس بالاختناق، والصراصير السمينة، والشرب والسُكر أثناء فترات الراحة، وروز كاناك ونابل يحتضران تحت ضوء الشمس. أزرعُ الشوارع رقصاً ببطنٍ خاوية وبين وقتٍ وآخر أنادي على أناسٍ غرباء - على مدام ديلورم، مثلاً. لم أعُد أذكُر كيف تصادف ودخلتُ منزل مدام ديلورم. لكنني دخلتُ إلى هناك، بطريقةٍ ما، ماراً بالساقي، وبالخادمة التي ترتدي المئزر الأبيض الصغير، ودخلتُ مباشرةً إلى قلب القصر ببنطلوني الجوخ وسترة الصيد - ولم يكن هناك أي زر في فتحة بنطلوني. ولا أزالُ أشعر حتى الآن بجو الغرفة الذهبي حين جلستْ مدام ديلورم على عرشها بلباسها المُسترجل، والسمك الذهبي في الأحواض الزجاجية، وخرائط العالم العتيق، والكتب المُجلَّدة تجليداً جميلاً. أكاد أشعر من جديد بثقل كفّها وهي ترتاح على كتفي، وتُخيفني قليلاً بمظهرها السُحاقي الثقيل الوطأة. ارتحتُ أكثر وأنا وسط الزحام الشديد المتدفق في محطة القديس أليعازر، والعاهرات يقفنَ على ممر الأبواب،

وزجاجات سيلتزر على كل طاولة، ودفق سميك من المني يغمرُ المجاري. بين الساعة الخامسة والسابعة لا شيء أفضل من أنْ تجد نفسك مُقحَماً في هذا الحشد، تتعقَّب ساقاً أو نهداً جميلاً، تنجرف مع التيار وكل شيء يدوِّم في عقلك. تلك الأيام منحتني نوعاً من رضاً عجيباً. لا ارتباطات، لا دعوات على العشاء، لا تخطيط ولا دراهم. فترة ذهبية، لم أعُدْ أحتفظ خلالها بصديق واحد. في صباح كل يوم هناك السير الموحش نفسه إلى مقهى أميركان إكسبريس، وفي صباح كل يوم الجواب الحتمي نفسه من الموظف. أندفعُ هنا وهناك كالبقّة، أجمعُ أعقاب السجائر بين آنٍ وآخر، تارةً بمكرٍ، وتارة بصفاقة؛ أجلسُ على مقعدٍ أعصرُ أمعائي لتتوقف عن النخر، أو أتمشّى عبر حدائق التويلري وينتصبُ عضوي وأنا أنظرُ إلى التماثيل الخرساء. أو تراني على طول شاطئ نهر السين ليلاً، وأتجوَّل، ويكاد يُصيبني الجنون من جماله، بالأشجار المنحنية، والصور المتكسّرة على صفحة الماء، واندفاع التيار تحت أنوار الجسور الشيطانية، والنسوة النائمات على عتبات الأبواب، النائمات على أوراق الصحف، النائمات تحت المطر، وفي كل مكان شرفات الكاتدرائيات البالية والمستعطون والقمل والعجائز المُصابون بالرقص، وعربات اليد مكوَّمة في الشوارع الجانبية كبراميل النبيذ، ورائحة التوت في السوق العامة والكنائس العتيقة مُسوَّرة بالخضروات وبأنوار قوسيّة زرقاء، والمجاري زلِقة بالنفايات ونساء يلبسنَ خِفافاً من الساتان يترنّحنَ وسط الفحش والهوام بعد السُكر طوال الليل. وساحة كنيسة القديس سولبيس، الهادئة جداً والمهجورة، التي تأتي إليها عند منتصف كل ليلة المرأة ذات المظلّة المكسورة والبرقع الجنوني، تنام هناك كل ليلة على

مقعدٍ تحت المظلة الممزقة، بدعاماتها المتهدّلة وثوبها المُخضرّ، وأصابعها النحيلة وفوح الفساد ينزّ من جسمها، وفي الصباح أجلسُ بدوري، آخذ غفوة هادئة تحت أشعة الشمس، لاعِناً الحَمام اللعين الذي يلتقط الفُتات من كل مكان. ساحة كنيسة القديس سولبيس! أبراج النواقيس الضخمة، والمُلصقات المُبهرجة المُعلّقة فوق الباب، والشموع موقَدة في الداخل. الساحة التي أحبَّها أناطول فرانس حباً جمّاً، بالأزيز والطنين الصادرَين عن المذبح، وطرطشة ماء النافورة، وهديل الحَمام، والفُتات التي تختفي كالسحر والقرقعة الخافتة في فراغ الأحشاء. هنا كنتُ أجلس على مرّ الأيام مفكّراً في جيرمين، وفي الشارع الصغير القذر قرب الباستيل حيث قطنتُ، والطنين المتصاعد من خلف المذبح، والباصات تهدر أثناء مرورها، والشمس تخترق بأشعتها الإسفلت، والإسفلت يخترقني أنا وجيرمين، وتخترق الإسفلت وكل باريس في أبراج الأجراس الكبيرة الضخمة.

قبل هذا بعام تعوَّدتُ أنا ومونا أنْ نتمشّى كل مساء في شارع بونابرت، بعد أنْ نستأذن بوروفسكي. حينئذٍ لم تكن ساحة كنيسة القديس سولبيس تعني الشيء الكثير لي، ولا أي شيء في باريس. واستنزفني الكلام، وأسقمتني الوجوه، وسئمتُ مرأى الكاتدرائيات، والساحات، ومعارض الحيوانات وكل شيء. أتناولُ كتاباً في غرفة النوم الحمراء والكرسي الخيزران غير مُريح، مللتُ من طول الجلوس على مؤخرتي، ومن ورق الجدران الأحمر، ومن رؤية عدد غفير من الناس يبربرون بكلام فارغ. غرفة النوم الحمراء وصندوق الملابس مفتوح دائماً، وأثوابها مُبعثرة في فوضى عارمة. غرفة النوم الحمراء وأحذيتي الشتوية

وعصي الخيزران ودفاتر الملاحظات التي لم أمسّها، والمخطوطات مُلقاة باردة وميتة. باريس! تعني عصي بوروفسكي، وقبعات بوروفسكي، ولوحات بوروفسكي المائية، وسمكة بوروفسكي الما قبل تاريخية، ونكاته الما قبل تاريخية. باريس تلك من عام ٣٨ - لا يبقى منها في ذاكرتي غير ليلة واحدة - هي الليلة السابقة لإبحاري إلى أميركا. ليلة فريدة، لعِبَ الخمر فيها برأس بوروفسكي قليلاً وأصابه شيء من الاشمئزاز مني لأنني لا أترك عاهرة واحدة في المنطقة إلا وأراقصها. لكننا راحلون في الصباح! أقولها لكل عاهرة أتشبَّثُ بها - ***راحلون في الصباح***! أقولها للشقراء ذات العينين بلون العقيق. وبينما أنا أخبرها تتناول يدي وتعصرها بين ساقيها. وفي المرحاض أقفُ أمام الحوض وعضوي في انتصاب أعظمي، أشعرُ به خفيفاً وثقيلاً في آنٍ واحد، كقطعة مُجنّحة من الرصاص. وبينما أنا واقف هكذا تدخل عاهرتان - أميركيتان. أُحييهما بحرارة، وأنا ممسكٌ بأيري. تغمزانني وتمرّان. في الردهة بينما أُزرِّر فتحة بنطلوني، ألاحظ إحداهن واقفة تنتظر صديقتها لتخرج من المرحاض. الموسيقى ما تزال تعزف وقد تأتي مونا لتبحث عني، أو بوروفسكي بعصاه ذات المقبض الذهبي، لكنني الآن بين ذراعيها وهي تضمني ولا يهمني مَنْ يأتي أو ماذا يحدث. وننحشر في المرحاض وهناك أجعلها تقف، وأسندها إلى الجدار، وأحاولُ أنْ ألجها لكنه لا يدخل فنجلس على مقعد المرحاض ونحاولُ بتلك الطريقة ولا تنجح الفكرة أيضاً. وكيفما حاولنا نفشل. وكانت طوال الوقت تقبضُ على أيري، تتشبَّث به كأنه مُخلّصها، ولكن لا فائدة، إننا حاميان جداً، شبقان جداً. الموسيقى لا تزال تصدح فنرقص الفالس ونحن خارجان من

المرحاض إلى الردهة وأثناء الرقص في بيت الخراء أقذفُ عليها وألطِّخُ ثوبها الجميل كله فتثور كالجحيم. أتراجعُ متعثّراً إلى الطاولة وإذا بي أرتطمُ ببوروفسكي بوجهه المحمرّ ومونا بنظرتها المُستاءة. ويقول بوروفسكي " هيا نذهب جميعاً إلى بروكسل " ونوافق، وعندما نعود إلى الفندق أتقيّأ حتى يتلوّث المكان كله، السرير، ووعاء الاغتسال، والبذلات والفساتين، والأحذية الشتوية وعصي الخيزران، ودفاتر الملاحظات التي لم أمسسها والمخطوطات الباردة والميتة.

تمرُ بضعة أعوام. المكان هو الفندق نفسه، والغرفة نفسها. نطلُ على الفناء حيث تركنا الدراجات، وثمة غرفة صغيرة فوقنا، تحت العلّية، حيث يُديرُ ألِكْ الشاب الوسيم جهاز الفونوغراف طوال النهار مُردِّداً مقطوعات صغيرة جميلة بأعلى صوته. أقول " نحن " متجاوزاً بذلك نفسي قليلاً، لأنَّ مونا رحلتْ منذ وقت طويل واليوم بالذات أنا ذاهب لأقابلها في محطة القديس أليعازر، وقرابة المساء أقفُ هناك ووجهي محشورٌ بين القضبان، ولكن لا أثرَ لمونا، وأُعيدُ قراءة البرقية فلا تقدِّم لي أي مساعدة. وأعود إلى الحيّ وأُعِدُّ لنفسي وجبةً دسمة لا ألوي على شيء. وبينما أنا أتسكعُ بعدها بقليل ماراً بالدوم أرى فجأةً وجهاً شاحباً مُثقلاً وعينين متّقدتين - والثوب المخمل الصغير الذي طالما عشقتُه لأنَّ تحت المخمل هناك ثدييها الدافئين، والساقين الرخاميتين، مستكينتان، هادئتان، قويتان وعضليتان. تنهضُ وسط بحرٍ من الوجوه، وتعانقني، تعانقني بهوى - وألفُ عينٍ، وأنفٍ، وقامةٍ، وساقٍ، وزجاجة، ونافذة، ومحفظة، وصحن، كلها تحدِّقُ إليّ، ونحن غائبان كلٌ بين ذراعَيّ الآخر. أجلسُ إلى جانبها وتتحدَّث - فيضاً من الكلام. ملاحظات متوحشة

مُهلكة حول الهستريا والانحراف والجُذام. ولا أسمعُ كلمة واحدة مما تقول لأنهَا جميلة وأنا أحبها والآن أنا سعيد وأودّ لو أموت.

نمشي في شارع دو شاتو، نفتشُ عن أوجين. نخطو فوق جسر سكة الحديد حيث تعوَّدتُ أنْ أراقبَ القطارات تخرج وأشعر بالاشمئزاز في كياني كله وأتساءلُ أين يمكن أنْ تكون بحق الجحيم. كل شيء رخيّ وفاتن ونحن نسير عبر الجسر. يمرُّ الدخان بين سيقاننا، والخطوط الحديدية تصرُّ والإشارات الضوئية في دمنا. أشعر بجسدها قرب جسدي - كله لي الآن - وأتوقّفُ لأفركَ كفَّيّ على المخمل الدافئ. كل ما حولنا يتقوَّض والجسد الدافئ تحت المخمل يتوجَّعُ شوقاً إليّ...

نعودُ إلى الغرفة نفسها مع خمسين فرنكاً للطيبين، شكراً لأوجين. أطلُّ على الفناء لكنَّ الفونوغراف صامتٌ. صندوق الملابس مفتوح وأغراضها مُبعثرة في كل مكان كما كانت. وتستلقي على السرير بملابسها. ومرة مرتان، ثلاث مرات، أربع مرات... أخشى عليها أنْ تجنّ... ما أجمل ملمس جسدها من جديد، في السرير، تحت الملاءات! ولكن إلى متى؟ هل ستطول علاقتنا هذه المرة؟ يُخامرني من الآن شعورٌ بأنها لن تطول.

تتحدث إليّ بهياج - وكأنَّ الغد لن يأتي. " اصمتي، يا مونا! اكتفي بالنظرِ إليَّ... ولا تتكلمي! ". أخيراً تتهالك وأسحبُ ذراعي من تحتها. عيناي مغمضتان. ها هو جسدها إلى جانبي... وسيبقى هكذا حتماً حتى الصباح... كنا في شهر شباط عندما أقلَعَتْ من الميناء وسط عاصفةٍ عاتية. وآخر ما وقعَ عليها نظري كان من النافذة عندما لوَّحَتْ بيدها تودِّعني. هناك رجلٌ يقفُ على الجانب المقابل من الشارع، عند

الناصية، قبعته مُسدلة على عينيه، وفكّاه مُستقران على طيّة سترته. وجنين يُراقبني، جنينٌ يضع سيجاراً في فمه. ومونا عند النافذة تلوِّح بيدها مودِّعة. وجهها أبيض مسموم، وشعرها ينهمرُ وحشياً. والآن أضحتْ غرفة النوم ثقيلة، وهي تتنفَّس بانتظام من خلال خياشيمها، ولا يزال السائل ينزُّ من بين ساقيها، وعبقٌ سنّوري دافئ يفوحُ وشعرها في فمي. عيناي مغمضتان. كلٌ منا يتنفَّس من فم الآخر. مُلتصقان بإحكام، وأميركا تبْعُد ثلاثة آلاف ميل. ولم أرغب قط في رؤيتها ثانية. ووجودها معي هنا في السرير، أنفاسها عليّ، وشعرها في فمي - هو لعمري من قبيل المعجزة. لا يمكنُ لأي شيء أنْ يحدث من هنا وحتى بزوغ انبلاج الصباح...

أستيقظ من غفوةٍ عميقة لأنظر إليها. ثمة نورٌ شاحب يتسرَّب. أنظر إلى شعرها الوحشي الجميل. وأشعرُ بشيء يزحفُ على رقبتي. أنظرُ إليها من جديد، عن قُرب. شعرها حي. أزيح الغطاء، هناك المزيد منه. إنه يحتشد تحت الوسادة.

الوقتُ بُعَيد انبلاج الفجر بقليل. نحزم أغراضنا على عجل ونتسلل خارجين من الفندق. لا تزال المقاهي مُغلقة. نمشي، وبينما نحن سائران نهرشُ بعضنا، ينبلج النهار ببياض حليبيّ، السماء مُخطّطة بخطوط قرمزية بلون السلمون، والحلازين تغادرُ أصدافها. باريس. باريس. كل شيء يحدثُ هنا. جدران عتيقة تتقوَّض وصوت الماء العذب يجري. في المبولات. رجالٌ عند البار يلعقون شواربهم. مصاريع نوافذ تُفتح بقوة وجداول صغيرة تغرغر في المجاري. وعبارة Amer picon مكتوبة بحروف هائلة الحجم. " خطٌ منكسر ". في أي طريق سنتجه ولماذا أو أين أو ماذا؟

مونا جائعة، ثوبها رقيق. لا ترتدي إلا غلالات مسائيّة، زجاجات عطور، أقراط همجية، أساور، مواد مُزيلة للشَعر. نجلس في قاعة لعب البليارد في شارع ميسن ونطلب قهوة حارة. المرحاض معطّل. علينا أنْ نجلس بعض الوقت قبل أنْ ننطلق لنجد فندقاً آخر. في تلك الأثناء نلتقط بق الفِراش كي تحصل على هذا. يجب أنْ تنال ذلك. يجب، يجب، ويجب...

" كم بقيَ معك من نقود ؟ "

نقود! لقد نسيتها تماماً.

فندق " الولايات المتحدة ". فيه مصعد. نأوي إلى السرير ونحن في وَضَح النهار. عندما ننهض يكون الظلام قد حلّ وأول ما أفعله أنْ أجمع نقوداً تكفي لإرسال برقية إلى أميركا. برقية إلى الجنين ذي السيجار الرطب في فمه. في تلك الأثناء هناك امرأة إسبانية تقفُ في شارع راسبيل - دائماً هي طيّبة لهدف الحصول على وجبة دافئة. وبحلول الصباح سيقعُ أمرٌ. على الأقلّ سنأوي إلى السرير معاً. لم يعُدْ هناك بق فراش الآن. بدأ موسم الأمطار. الملاءات نظيفة...

في فيلا بورغيز تنفتح أمامي حياة جديدة. لا تزال الساعة العاشرة وقد تناولنا الإفطار وانطلقنا نتمشّى. تسكن معنا الآن فتاة تُدعى إلزا. ويُحذّرنا بوريس قائلاً لبضعة أيام فقط.

يبدأ النهار بداية رائعة: سماء براقة، هواء منعش، والبيوت المغسولة حديثاً. في طريقنا إلى مكتب البريد نتناقش بوريس وأنا حول الكتاب. الكتاب الأخير - وسيكتب بدون ذِكر اسم المؤلف.

نهار جديد يبدأ. شعرتُ به هذا الصباح ونحن واقفان أمام إحدى رسومات دوفريسن Dufresne المتلألئة على القماش، تمثّل dejeuner intime (وجبة إفطار وديّة) في القرن الثالث عشر، sans vin (بلا خمر). هناك فتاة عارية رائعة غزيرة اللحم، متينة، رجراجة، قرمزية، كالظفر، تغطيها وسائد من اللحم المتلألئ، فيها كل المميزات الثانوية، وقليل من الأولّية. إنه جسدٌ يغني، فيه نداوة الفجر. حياة جامدة، غير أنَّ لا شيء جامداً، لا شيء ميتاً هنا. المائدة تتصدَّع من كثرة الطعام، إنه وفير حتى ليكاد ينزلق من الإطار. هي مائدة تميِّز القرن الثالث عشر - مع كل الملاحظات الهمجيّة التي حَفَظها عن ظهر قلب. وقطيع من الغزلان والحمير الوحشية تقرض سعف النخيل.

والآن صار معنا إلزا. هذا الصباح كانت تعزف لنا ونحن في السرير. ***كوني خفيفة لبضعة أيام*** ... عظيم! إلزا هي الخادمة وأنا

الضيف. وبوريس هو قِرص الجُبن الكبير. هناك مسرحية جديدة تبدأ. إنني أضحك مع نفسي وأنا أكتب هذا. إنه يعرف ماذا سيحدث، ذلك الوَشَق، بوريس. لديه حاسّة لشمّ الوقائع أيضاً. كوني خفيفة...

بوريس على أحرّ من الجمر. فقد تظهر زوجته في أي لحظة بيننا. إنها تزِنْ أكثر بكثير من ١٨٠ رطلاً، زوجته تلك. وبوريس إلى جانبها مجرَّد قبضة يد. ها قد بتُّ مُلِمّاً بالوضع. ويحاول أنْ يشرحه لي في طريقنا إلى المنزل ليلاً. إنه أمر مأساوي وسخيف معاً حتى لقد اضطررتُ إلى الضحك في وجهه أكثر من مرة. ويقول بلطف: " لماذا تضحك هكذا؟ ". ويبدأ بالضحك بدوره، وفي صوته تلك النبرة الآنّة، الهستيرية، كبائس لا حولَ له ولا قوة يُدرك فجأةً أنه مهما ارتدى من معاطف الفروك السوداء فلن تجعل منه رجلاً. يريد أنْ يهرب، أنْ ينتحل اسماً جديداً. ويعوي " يمكنها أنْ تحصل على كل ما تريد، تلك البقرة، شريطة أنْ تدعني وشأني ". ولكن أولاً يجب أنْ تؤجر الشقّة، وتوقع الأوراق، وأول تفصيل آخر يجب القيام به قبل أنْ يصله المعطف. ولكن، يا لحجمها! - هذا ما كان يُقلقه حقاً. إذا ما تصادف ورأيناها فجأةً واقفة على عتبة الدار لدى وصولنا يُغمى عليه - إلى هذا الحد يحترمها!

إذن علينا أنْ نساير إلزا لبعض الوقت. إلزا موجودة فقط لتُعِد الإفطار - ولتُعرَض الشقة على الزبائن.

وإلزا تهلكني. بسبب دمها الألماني. وتلك الأغاني الكئيبة. هذا الصباح هبطتُ الدَرَج، والقهوة الطازجة تملأ أنفي، ورحت أهمهم بصوت خافت... "Es war' so schon gewesen" وأعنى به الإفطار. وبعد برهة قصيرة إذ بالولد الإنكليزي في الطابق العلوي يبدأ مع باخ. وكما تقول

إلزا: " إنه بحاجة إلى امرأة "، وإلزا بحاجة إلى شيء أيضاً. لم أذكُر أي كلمة عن هذا لبوريس، ولكن بينما كان يُنظِّف أسنانه هذا الصباح راحتْ إلزا تُصغي بانتباه إلى حديثه عن برلين، والنساء اللواتي يبدون جميلات من الخلف، وما أنْ يستدرن - ***واو، سفلس***!

يبدو لي أنَّ إلزا تنظر إليّ بتوقٍ كئيب. هناك بعض البقايا تركت على مائدة الإفطار. هذا اليوم بعد الظهر كنا جالسين ظَهراً إلى ظهر، نكتب في الاستديو. كانت قد باشرت بكتابة رسالة إلى عشيقها في إيطاليا. وتعطّلتْ الآلة الكاتبة. وكان بوريس قد ذهبَ ليفتش عن غرفة رخيصة سينتقل إليها حالما تؤجِّر الشقة. لم يبقَ أمامي إلا أنْ أمارس الحب مع إلزا كانت تلك رغبتها. ومع ذلك شعرتُ بشيء من الرثاء لأجلها. لم تكن قد كتبت غير السطر الأول إلى حبيبها - قرأته من بطرف عيني وأنا أميل عليها. ولكن لم يكن هناك من مفرّ. يا لتلك الموسيقى الألمانية، ما أشدّ كآبتها، وعاطفيتها. إنها تهلكني. بالإضافة إلى عينيها الصغيرتين، الحارتين جداً والحزينتين في وقت واحد.

بعد أنْ انتهينا طلبتُ منها أنْ تعزف لي شيئاً. إنها عازفة مُحترمة، إلزا، على الرغم من أنَّ عزفها يبدو كقرقعة قدورٍ مكسورة وعِظام، وفوق هذا كله بكت وهي تعزف. لا ألومها. تقول، يحدث لها الشيء نفسه أينما ذهبت. تقابل رجلاً في كل مكان، ثم تضطر إلى تركه، ثم تقوم بعملية إجهاض وتنتقل إلى عمل جديد وإلى رجل آخر ولا أحد يهتم بها إلا ليستغلّها. كل ذلك قالته بعد أنْ عزفَتْ لي مقطوعة لشومان - شومان، ابن الحرام الألماني العاطفي السخيف ذاك! شعرتُ نوعاً ما برثاء جحيميّ لأجلها ومع ذلك لم آبه. عاهرة مثلها تعزف بتلك الصورة يجب

أنْ يكون لديها من الحس ما ينقذها من الوقوع في براثن كل شاب له أير ضخم يمرّ بها. أما ذلك الشومان فيجري في دمي. إلزا لا تزال تجهشُ بالبكاء، لكنَّ ذهني رحلَ بعيداً. أفكر في تانيا وكيف تعزف الأداجيو. أفكّرُ في أشياء كثيرة انتهت واندثرت. أفكّر في عصر يومٍ صيفيّ في غرينبوينت حين كان الألمان يعيشونَ فساداً في بلجيكا ولم نكن قد خسرنا الكثير من المال إلى درجةٍ تدفعنا إلى الاهتمام باغتصاب بلدٍ حياديّ. وقتها كنا لا نزال أبرياء بما يكفي لنصغي إلى الشعراء ونجلس حول طاولةٍ عند الغسق وندقُّ عليها استدعاءً للأرواح الراحلة. وطِوال بعد الظهيرة والمساء يظلُ الجو مُشبعاً بالموسيقى الألمانية، فالمنطقة المجاورة كلها ألمانية، بل أشدّ ألمانيّة من ألمانيا نفسها. لقد نشأنا على سماع موسيقى شومان وهوغو وولف وتناول طبق السوكروت وشراب الكومل وحلوى زلابية البطاطا. وقرابة المساء تجلس حول طاولة كبيرة والستائر مُسدلة وهناك فتاة بلهاء ضخمة الرأس تدقُّ استدعاءً لروح يسوع المسيح. كنا نتماسكُ بالأيدي تحت الطاولة وتضعُ السيدة الجالسة إلى جواري إصبعَين من أصابعها في فتحة بنطلوني. وأخيراً نستلقي على الأرض، خلف آلة البيانو، بينما أحدهم يغني أغنية شنيعة. الجو خانق وأنفاسها كريهة. الآلة تعلو وتهبط، بحركةٍ عنيفة، آلية، مجنونة، عقيمة، وكبرجٍ من الروث يستغرقُ بناؤه سبعة وعشرين عاماً لكنّه يُحافظ على الوقت الصحيح. وأجرُّها فوقي واللوحة المُصوِّتة في أذني. الغرفة مظلمة والسجادة دبقة من الكومل المسفوح على الأرض. وفجأةً يبدو وكأنَّ الفجر ينبلج: كأنَّ ماءً يُغرغر فوق ثلجٍ والثلجُ أزرق اللون بفعل الضباب المتصاعِد، وقِطع من الجليد تغوصُ في لونٍ أخضر زمرّدي،

وشاموا وأنتيلوب، وسمك اللوز الذهبي، وأبقار بحرية تتسكَّع وشراب الأمبر جاك يقفز عبر حافة القطب الشمالي... إلزا تجلس في حضني. عيناها كعُروتين صغيرتين. أنظرُ إلى فمها الكبير، رطبٌ جداً ومُتلألئ، وأغطّيه. الآن هي تُهمهم... "Es war' so schon gewesen" آه، يا ليزا، أنتِ لا تعرفين حتى الآن ماذا يعني لي هذا، صاحبك نافخ البوق فون ***ساكنغن***، وجمعيات الغناء الألمانية، وقاعة شفابن، والنادي الرياضي... ***إلى اليسار، إلى اليمين*** ... ثم ضربة على المؤخرة بطرف حبل.

آهٍ من الألمان! إنهم يحتلّونكَ كسيارة عامة؛ يُسبّبون لكَ عِسر هضم. في ليلةٍ واحدة لا يستطيع المرءُ أنْ يزور المشرحة، والمشفى، وحديقة الحيوان، والرموز الفَلَكيّة، وسجون الفلسفة، وكهوف المعرفة، وأسرار فرويد وشتيكل... فعلى متن الدويخة لا يصل المرء إلى أي مكان، بينما مع الألماني يستطيع أنْ ينتقل من فيغا إلى لوب دو فيغا، وذلك كله في ليلةٍ واحدة، ويُصبح أبله كبرسيفال.

كما قلتُ بدأ النهار بفخامة: لم أعِ من جديد تلك الباريس الحسّية التي جهلتُها طوال أسابيع مضتْ إلا في صباح ذلك اليوم. ربما لأنَّ الكتاب كان قد بدأ ينمو داخلي. إنني أحمله معي إلى كل مكان. أجوبُ الشوارع وأنا حَبِلٌ بطفلٍ وترافقني شرطة الحماية لأعبر الشارع. تنهضُ النسوة ليتخلّين لي عن مقاعدهن. لم يعُدْ أحد يدفعني بفظاظة. أنا حَبِل؛ أتهادى بارتباكٍ، وبطني المنتفخة تُكافحُ ضد وزن العالم.

في صباح ذلك اليوم، في طريقنا إلى مكتب البريد، أعطينا موافقتنا الأخيرة على الكتاب. وكنا قد استنبطنا، أنا وبوريس، نظرية جديدة في الأدب. سيكون كتاباً مقدّساً جديداً - ***الكتاب الأخير***. وكل

مَنْ لديه شيء يقوله سيضعه هنا - ***دون ذِكر اسمه***. سوف نستنفد العصر. بعد كتابنا لن يظهر أي كتاب - ليس قبل مرور جيلٍ كامل، على الأقل. كنا حتى ذلك الحين نحفرُ في الظلام، وليس لدينا إلا الغريزة ترشدنا. منذ ذلك الحين سيصبح لدينا وعاءٌ نسغي نضخُّ فيه الدفق الحيوي، قنبلة عندما نُلقيها ستنسف العالم. سوف نضعُ فيه من المواد ما يكفي كُتَّاب الغد ليستوحوا منه حبكاتهم، مسرحياتهم، وقصائدهم، وأساطيرهم، وعلومهم. سوف يتمكّن العالم من أنْ يقتات عليه خلال الدورة الألفية القادمة. إنه جبّار في إمكانياته. ومجرَّد التفكير فيه يُشتتني.

منذ أكثر من مئة عام، والعالم، عالمنا، يحتضر. وخلال المئة عام تلك أو نحوها لم يظهر رجلٌ واحد من الجنون بحيث يحشر قنبلة في طيز الخليقة وينسفها. العالم يتعفَّن، يحتضر على مهل. لكنه يحتاج إلى رصاصة الرحمة، يحتاج إلى أنْ يُنسَف شذراً. ليس بيننا واحدٌ سليم، ومع ذلك نحملُ داخلنا كل القارات والبحار التي تفصل بينها وبين طيور الجو. سوف ندوِّنه - أعني تطوُّر العالم الذي مات ولم يُدفَنْ بعد. نحن نسبح على سطح الزمن وكل ما عدانا يغرق، أو سيغرق. سيكون الكتاب هائلاً. ستكون هناك محيطات من الفراغ نتجوَّل فيها، نجتاز المسافات، نغني، نرقص، نتسلَّق، نستحم، نتشقلب، ننتحب، نغتصب، نقتل. سيكون كاتدرائية، كاتدرائية حقيقية، داخل بنائها يساعد الجميع كل مَنْ فَقَدَ ذاته. سوف تُقامُ قداديس على أرواح الأموات، وصلوات، واعترافات، وتراتيل، أنين وثرثرة، نوع من اللا مبالاة الإجرامية؛ ستكون هناك نوافذ وردية وغرغيلات وقندلفتات وحاملو بساط الرحمة.

وفي إمكانكَ أنْ تُدخلَ أحصنتكَ وتخبَّ بها متجولاً بين الأجنحة. في إمكانك أنْ تضرب رأسك بالجدران - فلن تتهدَّم. في إمكانكَ أنْ تصلي بأي لغة تختارها، أو أنْ تلتفّ حول نفسك وتستغرق في النوم. هذه الكاتدرائية ستخلد ألفَ عام، على الأقلّ، ولن تكون هناك نسخة مُطابقة لها، فسوف يكون البنّاؤون قد ماتوا وأبيدت التصاميم. وسوف نطبعُ بطاقات بريدية ونُنظِّم جولات سياحية. وسوف نبني بلدة حولها ونُنشئ كوميوناً حراً. لا حاجةَ لنا إلى العبقرية - فالعبقرية اندثرت. نحن في حاجةٍ إلى أيدٍ قوية، إلى أناسٍ يتخلّون عن الروح ليستبدلوها باللحم...

*

النهار يحثُّ خطاه على وقع إيقاعٍ جميل، وأنا واقفٌ في شرفة منزل تانيا. المسرحية مُستمرَّة في الطابق السُفلي في غرفة الجلوس. الكاتب المسرحي متوعك، ومن أعلى تبدو فروة رأسه أشد تعقيداً من ذي قبل. شعره مصنوع من القش، وأفكاره قش، وزوجته أيضاً قش، لكنها لا تزال رطبة قليلاً. المنزل كله مكوَّن من القش، وها أنا ذا أقفُ في الشرفة، أنتظرُ بوريس. آخر مشكلاتي - وهي الإفطار - حُلَّتْ. لقد بسَّطتُ كل شيء. وإذا ظهرت أي مشكلات جديدة ففي وسعي أنْ أحملها في حقيبة الظهر، مع ملابسي القذرة. إنني أرمي قروشي كلها. فما حاجتي أنا إلى النقود؟ أنا آلةٌ كاتبة. لقد وُضِعَ آخر برغي. وبدأ الكلام بالتدفُّق. لا تنائي بيني وبين الآلة، فأنا الآلة...

لم يُخبروني بعد عن موضوع المسرحية الجديدة، لكنني أحسُّ بها. إنهم يعملون على التخلُّص مني. ومع ذلك ها قد حضرتُ لأتناول طعام العشاء، بل وأبكر قليلاً مما توقعوا. أخبرتهم أين سيسجلون وماذا

سيفعلون. وأسألهم بأدب إنْ كنتُ أزعجهم، ولكن ما عنيته حقاً، وكانوا يعرفونه، هل ستزعجونني؟ كلا، أيها الصراصير المباركة، إنكم لا تزعجونني. أنتم تغذّونني. أرى أنكم تجلسون متقاربين وأنا أعلم أنَّ ثمة هوّة تفصل بينكم. إذا انسحبتْ لن يتبقّى لكم حيزاً لتسبحوا فيه.

يُسيطرُ على تانيا مزاجٌ عدواني - أشعرُ به. إنها تمقتُ أنْ أكونَ منشغلاً بأي شيء آخر غيرها. وهي تعرف من مقدار إثارتي أنَّ قيمتها لديَّ قد انخفضتْ إلى الصفر. تعرف أني لم آتِ هذا المساء لأُخصبها. هي تعلم أنَّ هناك شيئاً ينبتُ داخلي سيدمّرها. إنها بطيئة الفهم، لكنها تفهم هذا على أي حال...

سيلفستر يبدو أكثر رضى. هذا المساء سيُعانقها على مائدة العشاء. والآن هو يقرأ مخطوطتي استعداداً ليُلهِب أنانيتي، ليُثير أنانيتي ضدَّها.

سيكون غريباً اجتماعنا هذا المساء. خشبة المسرح أُعِدَّتْ. أكاد أسمعُ رنين الكؤوس. والنبيذ يُحضَّر. وسوف تجري الأنخاب وسوف يتخلَّص سيلفستر المريض من مَرَضه.

خطّطنا لإعداد هذا المشهد بالأمس فقط، في منزل كرونستات. لقد كُتِبَ على النساء أنْ تعاني، وأنه بعيداً عن خشبة المسرح يجب أنْ يكون هناك مزيد من الرعب والعنف، مزيد من الكوارث، والمعاناة، والكرب والبؤس.

ليس من قبيل المُصادفة أنْ يندفع أناس مثلنا إلى باريس. إنَّ باريس هي ببساطة خشبة مسرح مصطنعة، خشبة مسرح دوّارة تسمح للمشاهد بأنْ يُلمَّ بأبعاد الصراع كلها. باريس لا تستلهم من نفسها

المسرحيات؛ إنها تبدأ في مكانٍ آخر. باريس مجرَّد أداة توليد تنزع الجنين الحيّ من الرحم وتضعه في آلة الحضن. باريس هي مهد الولادات الاصطناعية. في هذا المهد بينما يُهَدهَدُ كلُ واحد يعود بذاكرته إلى تربته الأصلية: يحلم ببرلين، ونيويورك، وشيكاغو، وفيينا، مينسك، وفيينا لا تظهر بأجلّ صورها إلا من باريس. ويُرفَع كل شيء إلى مرتبة التأليه. ويتخلّى المهد عن صغاره ويحتلُّ جُددٌ أماكنهم. هنا يمكنكَ أنْ تقرأ على الجدران أين عاشَ زولا وبلزاك وستريندبرغ وكل مَنْ كان له أي حظ من الشهرة. كلهم عاشوا هنا في وقتٍ من الأوقات. لا أحد **يموت** هنا...

إنهم يتحدثون في الطابق السفلي. لغتهم رمزية. يدخل فيها "صراعه العالم". وسيلفستر، الكاتب المسرحي المريض، يقول: " إنني فقط أقرأ البيان الرسمي "، وتقول تانيا - " بيان مَنْ؟ ". نعم يا تانيا، أسمعكِ. أنا هنا في الأعلى أكتبُ عنك وأنتِ تُحدسين بدقّة بما أكتب. زيديني من كلامك، حتى أدونّه. فعندما نتوجّه إلى المائدة لن أتمكّن من تدوين أي ملاحظة... وفجأة تُعلّق تانيا: " لا يبدو أنَّ في المنزل صالة ". والآن ماذا يعني هذا، إنْ كان له أي معنى؟

الآن يُعلّقون الصور. وهذا أيضاً يترك تأثيره عليّ. إنَّ لسان حالها يقول: " أترى، نحن مُرتاحون هنا ونعيش حياة زوجية. نجعل المنزل جذاباً. وسوف نتجادل حول الصور، إكراماً لكَ فقط ". وتعود تانيا لتعلّق: " كم تُخدَع العين! ". آه يا تانيا، ما أروع ما تقولين! هيا استمرّي، أطيلي أكثر هذه المهزلة. أنا هنا لأتناول العشاء الذي وعدتني، ولأستمتع بهذه المسرحية المضحكة بشكلٍ هائل. والآن يستلم سيلفستر زمام الحديث. إنه يحاولُ أنْ يشرح إحدى لوحات بوروفسكي المائية.

"اقتربي، أترين؟ أحدهم يعزف على القيثارة، وآخر يضمّ فتاة بين أحضانه". معك حق يا سيلفستر معك كلّ الحق. يا لبوروفسكي وقيثاراته! والفتيات اللواتي يضمّهنّ بين أحضانه! لكنّ الناظر لا يتأكد تماماً ماذا يضم بين أحضانه، أو إنْ كان رجلاً حقاً مَنْ يعزف على القيثارة...

بعد قليل سيدخل مولدورف وهو يحبو على أربع مع بوريس بضحكته الصغيرة البائسة. سيُقدَّم على مائدة العشاء تدرُج ذهبي وآنجو وسيجار قصير ثخين. وعندما سيحصل كرنستات على آخر الأخبار سيعيش خلال خمس دقائق حياة أصعب قليلاً، وأكثر إشراقاً بقليل، ثم سيستقرّ من جديد في حمأة أيديولوجيته، وقد تولَدُ قصيدة، جَرَسُ قصيدة ذهبي كبير بلا لسان.

*

كان عليَّ أنْ أتوقّف عن العمل لساعة أخرى أو نحوها. أتى زبونٌ آخر ليُعاين الشقّة. وفي الطابق العلوي يتمرَّن الإنكليزي الملعون على مقطوعة باخ. بات من الضروري الآن كلما أتى أحدهم لكي يُعاين الشقة أنْ أهرع إلى الطابق العلوي وأطلب من عازف البيانو أنْ يكف عن عزفه قليلاً.

تتصل إلزا هاتفياً ببائع الخضار. والسمكري يُركّب مقعداً جديداً على حوض المرحاض. وكلما رنَّ الجرس يفقد بوريس توازنه. وفي غمرة انفعاله أسقطَ كأسه، فيركع على يديه وركبتيه، ومعطفه ينسحب على الأرض. إنه يُشبه قليلاً مشهداً من غينول العظيم[٩] - الشاعر المعوز الذي جاء ليُعطي دروساً لابنة اللحام. وكلما رنَّ الهاتف يتندّى فم الشاعر.

---

٩ - غينول العظيم : مسرحية قصيرة مملوءة بالإثارة والرعب .

ويبدو مالارميه أشبه بمذاق شريحة طرية من لحم البقر، وفيكتور هوغو كمذاق foie de veau (كبد العجل). وتطلب إلزا إحضار وجبة خفيفة لبوريس - تقول: " شريحة صغيرة رطيبة من لحم الخنزير "، فأرى على قطعة الرخام سرباً كاملاً من قطع لحم الخنزير الوردية، رائعاً موسّداً بالشحم الأبيض. وأشعر بجوعٍ ضارٍ مع أننا تناولنا الإفطار قبل بضع دقائق، وسوف يتوجب عليّ أنْ أتغاضى عن وجبة الغداء. أنا لا أتناول وجبة الغداء إلا في أيام الأربعاء، والفضل في ذلك لبوروفسكي. لا تزال إلزا تتكلّم في الهاتف - نسيَتْ أنْ تطلب قطعة لحم الخنزير. تقول: "نعم، قطعة لحم خنزير صغيرة جداً، قليلة الشحم "... ! Zut alors. أضيفي بعض بنكرياس العجل، وبعض محار الجبل ومحار بطلينوس! أضيفي بعض حشيشة الكبد المقلية ما دمتِ فيها، في وسعي أنْ أبتلع مسرحيات لوب دو فيغا الألف والخمسمئة كلها في جلسةٍ واحدة.

كانت المرأة التي جاءت لترى الشقة جميلةً. أميركية، طبعاً. أقفُ عند النافذة مُديراً ظهري لها، أراقبُ طائر سنونو يلتقطُ الروث الطازج. مذهلةٌ السهولة التي يتزوَّد بها السنونو بقوته. الدنيا تُمطرُ قليلاً وحبّات المطر كبيرة جداً. كنتُ أظنُ أنَّ العصفور لا يستطيع أنْ يطير إذا تبلل جناحاه. مذهل كيف تأتي تلك السيدات الثريات إلى باريس ويعثرن على كل الاستوديوهات المرفّهة. قليلٌ من الموهبة ومِحفظة ضخمة. إذا أمطرتْ فهي فرصة لهم لعرض آخر ممطراتهن. الطعام لا يهم: أحياناً يكنَّ من الانشغال بحيث ينسين موعد الإفطار. تكفي شطيرة صغيرة، رقاقة، يتناولنها في مقهى السلام أو بار الريتز " الخاص ببنات الأكابر " - كما تقول اليافطة المعلّقة على الاستديو القديم للبوفي دو شوفان. وتصادَفَ

أنْ كنتُ ماراً من هناك، فشاهدتُ أميركيات يُعلّقنَ صناديق أصباغ من أكتافهنَّ. قليل من الموهبة ومحفظة منتفخة.

طائر السنونو يقفزُ بهياج من حصاة رصف إلى أخرى. اقترِبْ وسوف ترى كم يبذلُ من مجهود جبار. أينما ذهبت ترى الطعام منثوراً في كل مكان - أعني، في المجرور. المرأة الأميركية الجميلة تسألُ عن مكان المرحاض. المرحاض؟ دعيني أُدلّلكِ، يا غزالة يا ذات الأنف المخملي تريدين، أتريدين المرحاض؟ من هنا مدام. لا تنسي أنَّ الأماكن المذكورة مُخصّصة لمشوَّهي الحرب.

بوريس يفركُ يديه - إنه يضعُ اللمسات الأخيرة على الصفقة. الكلاب تنبح في الفناء، تنبحُ كالذئاب. في الطابق العلوي تُغيِّرُ السيدة ميلفرنس أماكن الأثاث. ليس لديها ما تفعله طوال النهار؛ إنها ضجِرَة؛ إذا عثرتْ على ذرّة غبار في أي مكان تنظّفُ المنزل بأكمله.

على المائدة كمية من العنب الأخضر وزجاجة من النبيذ - vin de choix، عشر درجات. يقول بوريس " نعم يمكنني أنْ أضعَ لكِ مغسلة، انظري هنا من فضلك. نعم، هذا هو المرحاض. وهناك آخر في الأعلى أيضاً، طبعاً. نعم، ألف فرنك في الشهر. تقولين إنكِ لا تأبهين بأوتريللو[10]؟ كلا، هذه هي. تحتاج إلى مغسلة، لا أكثر... "

سوف ترحل حالاً. هذه المرة لم يُكبّد بوريس نفسه حتى مشقّة تقديمي إليها. ابن العاهرة! عندما تكون عاهرة ثرية ينسى أنْ يعرّفني عليها. بعد دقائق سأتمكّن من أنْ أجلس ثانية وأكتب. عموماً لم أعد أشعر بميل إلى الكتابة اليوم. حماستي تخبو. قد تعود بعد ساعة أو نحوها وتأخذ

١٠ - موريس أوتريللو (١٨٨٣ - ١٩٥٥) : رسام فرنسي .

الكرسي من تحتي. بحقّ الجحيم كيف يمكن لإنسان أنْ يكتب إذا لم يكن يعرف أين يجلس خلال النصف الساعة القادمة؟ إذا استأجرت بنت الحرام الثرية هذا المنزل فلن أجد لي مكاناً أنام فيه. ومن الصعب عليك، حين تقع في ورطة مماثلة، أنْ تعرف أيّهما أسوأ - ألاّ يكون لكَ مكان تنام فيه أم ألاّ يكون لديك مكان تكتب فيه. يمكن للمرء أنْ ينام في أي مكان، ولكن يجب أنْ يتوفّر له مكان ليكتب. حتى وإنْ كان ما تكتب ليس قطعة فنية نادرة. حتى الرواية الرديئة تتطلّب كرسياً لتجلس عليه وفُسحة من العزلة. ولا يمكن لأولائي العاهرات الثريات أنْ يفكّرن في هذا. وكلما رغبنَ في خفض مؤخراتهن الناعمة فثمة دائماً كرسي في انتظارهن...

*

بالأمس تركنا سيلفستر مع ربّه جالسَين أمام الموقد. سيلفستر ببيجامته، ومولدورف مع سيجار بين شفتيه. سيلفستر يُقشّر برتقالة. ويضعُ القشور على غطاء المقعد. ويقترب مولدورف منه. يسأله السماح له بقراءة تلك المُحاكاة الساخرة الرائعة ***بوابات السماء*** ثانية. أنا وبوريس نستعد للذهاب. فمرحنا الزائد لا يناسبه جو غرفة المرضى هذه. تانيا ذاهبة معنا. هي مرحة لأنها ستهرب. وبوريس مرِح لأنَّ الإله الذي في مولدورف قد مات. وأنا مرِح لأننا بصدد إنجاز فصلٍ آخر.

صوت مولدورف وقور وهو يقول " هل يمكنني البقاء معك يا سيلفستر، إلى أنْ تأوي إلى السرير؟ " وبقيَ يلازمه طوال الستة أيام الأخيرة، يشتري الدواء، يُلبي طلبات تانيا، ويُهدّئ، يواسي ويحرس الأبواب من الدخلاء الحاقدين أمثال بوريس من الأنذال. إنه كشخص همجي اكتشفَ أنَّ وَثَنَه قد شُوِّه أثناء الليل، ها هو جالس، عند قدمَيَ

الوثن، مع ثمار الخبز والزيت، والصلوات المُبرّرة. يخرج صوته زلِقاً، وقد شُلَّتْ أطرافه للتو.

ويتحدَّث إلى تانيا وكأنها كاهنة حَنَثَتْ بنذورها. " يجب أنْ تكوني فاضلة. فسيلفستر هو إلهك ". وبينما سيلفستر في الأعلى يتألّم (كان صدره يُصدِر شيئاً كالأزيز) يلتهم الكاهن والكاهنة الطعام. ويقول، وصلصة اللحم تسيل من بين شفتيه، " أنتِ تدنّسين نفسك "، فهو قادر على الأكل والمعاناة في الوقت نفسه. وبينما هو يردّ عنه شر الخطرين يمدُّ مخالبه الصغيرة الثخينة ويشدُّ بها شعر تانيا، " لقد بدأتُ أحبك. أنتِ تشبهين عزيزتي فاني "

بعبارة أخرى كان يوماً رائعاً بالنسبة إلى مولدورف. فقد وَصَلَته رسالة من أميركا. " مو " ينال علامة ممتازة في المواد كلها. موري يتعلّم ركوب الدراجة. والفيكترولا أُصلِحَتْ. وتفهم من التعبير المُرتسم على وجهه أنَّ هناك أشياء أخرى تحتويها الرسالة إلى جانب التقارير المدرسية والدراجات الثلاثية. ويمكنك أنْ تتأكد من هذا لأنه بعد ظهر ذلك اليوم اشترى بما قيمته ٣٢٥ فرنكاً مجوهرات لأثيرته فاني. بالإضافة إلى أنه كتب لها رسالة من عشرين صفحة. أحضرَ له " الجرسون " ورقة بعد أخرى، ملأ قَلَمه بالحبر، وقدمَ له قهوته وسيجارته، وهواه حين تعرق، وأزال الفُتات عن مائدته، وأشعل سيجاره حين انطفأ، وابتاع له طوابع، وأسرف في تدليله، رقص على أطراف أصابع قَدَميه، وضرب له سلاماً... وكاد يقصم ظهره. كان البقشيش سخياً. أكبر وأثخن من سيجارة كورونا-كورونا. لعل مولدورف ذِكر هذا في يومياته. كل ذلك من أجل فاني. السِوار والأقراط كانت تستحق كل ما صَرَفَه. فمن

الأفضل إنفاقه على فاني بدل تبديده على عاهرات حقيرات أمثال جيرمين وأوديت. نعم، وأخبرَ تانيا بذلك. أراها صندوق ملابسه. إنه مزدحم بالهدايا - لفاني، ولمو وموري.

" عزيزتي فاني هي أذكى امرأة في العالم. طالما بحثتُ وبحثتُ لأجد فيها عيباً واحداً.

إنها كاملة. سأقول لكَ ماذا في وسع فاني أنْ تفعل. إنها تلعب البريدج كمحتال، ومهتمة بالحركة الصهيونية، أعطِها قبعة قديمة، مثلاً، وانظري ما تستطيع العمل بها. تلْويها من هنا قليلاً، وتضع شريطاً هناك. وهاك شيئاً جميلاً! أتعلمين ما هي النعمة الكاملة؟ هي أنْ أجلس بالقرب من فاني، بعد أنْ يأوي مو وموري إلى الفراش، وأستمع إلى المذياع. وتجلس هي في دِعة. إنني حين أتأملها أُكافأ لجميع صراعاتي وهموم قلبي. إنها تنصت بذكاء. وحين أفكر في حي مونبرناس القذر الذي تحبينه ثم الليالي التي أمضيتها في بيه ريدج مع فاني بعد تناول وجبة دسمة، أؤكد لك لا أجد مجالاً للمقارنة. بوجود أشياء بسيطة كالطعام، والأولاد، والمصابيح الخافتة الضوء، ومرأى فاني جالسة هناك، تعبة قليلاً ولكنها مبتهجة، وراضية، ممتلئة بالخير... كنا نكتفي بالجلوس هكذا ساعات دون أنْ نتفوهَّ بكلمة. ذاك هو النعيم!

واليوم ها هي تكتب لي رسالة - ليست من الرسائل التي تشبه التقارير. إنها تكتب لي من قلبها، بلغةٍ يفهمُها حتى صغيري موري. فاني مُرهفة حيال كل شيء. تقول إنَّ على الأولاد أنْ يتابعوا تعليمهم لكنَّ تأمين المصروفات يُقلقها؛ سوف يُكلّف إرسال موري إلى المدرسة ألف دولار. وطبعاً سينال مو منحة دراسية: أما موري الصغير، هذا

العبقري الصغير، فماذا سنفعل لأجله؟ وكتبتُ لفاني أقول لها ألا تقلق. قلتُ لهـا، أرسلي مـوري إلى المدرسـة. ومـاذا يهمّ ألفـاً أخـرى من الدولارات؟ سأكسب هذا العام نقوداً أكثر مما كسبتُ في أي وقت مضى. سأقوم بهذا إكراماً للصغير موري - لأنه عبقري، هذا الولد "

أودّ لو أكون هناك عندما تفتح فاني الصندوق. انظري يا فاني ماذا ابتـعت لك من بوخـارست، من يهـودي عـجـوز... هذا مـا يلبـسـون في بلغاريا - إنه صوفٌ صِرف... وهو يخصّ دوق إحدى المقاطعات - لا، لا تلفّيه بل عرّضيه للشمس... أريدك أنْ تلبسي هذا، يا فاني، حين نذهب إلى دار الأوبرا... البـسـيـه مع المشط الذي أريتك... وهذا، يا فـاني، شيء اختارته تانيا خصوصاً لي... إنه يقترب من مقاسك... "

وفـاني جالسـة على المقـعد، كـجلسـتـهـا التي اتّخذتـهـا في اللوحة المُقلّدة لها، يجلس مو إلى جانبيها وموري الصغير، موري العبقري، إلى الجـانب الآخـر. قَـدَمـاها السـمـينتـان قـصـيـرتـان لا تـصـلان إلى الأرض. ولعـينيـهـا وهج برمنغناتي باهت. ثدياها كملفوفتـين حمراوين ناضجتين، تنتـفـضـان عـندمـا تنحني إلى الأمـام. غـيـر أنَّ الـشـيء الـسـيئ فـيـهـا أنَّ نسغها قد جفَّ. تجلسُ كبطارية ميّتة. وجهها لا يُعطي تعبيره الصحيح - فـهـو في حـاجة إلى قليلٍ من الحـيـوية، إلى دفقٍ من النسغ تُعيده إلى مـركزه. ومولدورف يتـقـافز أمـامـهـا كـضفدعٍ سمين يهتز لحمه. وعندما ينزلق يصعبُ عليه بعدها أنْ ينقلبَ ثانيـة على بطنه، فتـلكزه بأصابع قدميها الثخينة. وتنتأ عيناه قليلاً، " ارفسيني أيضـاً يا فاني؛ إنه لذيذ "، وفي هذه المرة ترفسـه رفسـة جيـدة - تـتـرك انبعـاجـاً ظاهراً في بطنه. ويكون وجهه مُلتصقاً بالسجادة، والذوائب في زغب نسيج البطانة تهتز.

وينتفض ويتشقلب، ويقفز من قطعة قطعاً صغيرة من أذنيها، نتفة صغيرة من الشحمة التي لا تتأثَّر. لكنها لا تزال ميتة - إنها بطارية مشحونة بلا نسغ. ويسقط في حجرها ويقبع وهو يرتجف وكأنه يُعاني من ألم الأسنان. هو الآن دافئ تماماً ومستكين. بطنه يلمع مثل جلد حذاء لمّاع. في محجريّ عينيه زوج من أزرار بذلة رائعين. افتحي لي عينيّ يا فاني. أريد أنْ أراكِ بشكل أفضل! "، وتحمله إلى السرير وتقطر له قطرات من الشمع الحار في عينيه. وتضع له حلقات حول سرّته ومقياساً للحرارة في شرجه. وتمدده ويرتجف من جديد. وإذا به فجأة يتضاءلُ، وينكمش حتى يغيب عن الأنظار. وتبحث عنه في كل مكان، في أمعائها، في كل مكان. شيء يُدغدغها - ولا تعرف تماماً أين. السرير مملوء بالضفادع وبأزرار بذلة جميلة. " فاني، أين أنت؟ ". شيءٌ ما يُدغدغها - ولا تعرف تماماً أين، وتقع الأزرار عن السرير. الضفادع تتسلّق الجدران. وتستمر الدغدغة وتستمر. " أخرجي الشمع من عيني يا فاني، أريد أنْ أنظر إليك! "، لكنَّ فاني تضحك، تتلوى من الضحك. في داخلها شيء يُدغدغها ويُدغدغها. سوف تموت من الضحك إذا لم تعرف السبب. " فاني، إنَّ الصندوق مملوء بالأشياء الجميلة. فاني، أتسمعينني؟ ". وفاني تضحك، تضحك كدودة سمينة. وبطنها منتفخة من شدة الضحك. وساقاها تزرقّان. " يا الله، يا موريس، شيء ما يُدغدغني... ولا أستطيع كبح نفسي! "

ها هو يوم الأحد! غادرتُ فيلا بورغيز قُبيل الظهيرة، حالما استعد بوريس لتناول طعام الغذاء. غادرت المكان من قبيل الكياسة، لأنه من المؤلم حقاً أنْ يراني بوريس جالساً في المُحترَف ببطنٍ خاوٍ. لماذا لا يدعوني إلى مشاركته طعام الغداء، لا أعلم. ويقول إنه لا يستطيع أنْ يتحمل نفقتي، لكنَّ هذا ليس عذراً. على أي حال، أنا حسّاس حيال الأمر. فإذا كان يؤلمه أنْ يأكل وحده في حضوري فمن المُحتَمَل أنْ يتألَّم أكثر إذا شاركته في وجبته. ولكن لا يخصّني أنْ أحشر نفسي في شؤونه الخاصة.

وصلتُ إلى منزل كرونستات لأجدهم يأكلون أيضاً: دجاجاً مع الأرز البرّي. تظاهرت بأني تناولتُ الطعام لتوي، ولكن كان في وسعي أنْ أنتزع الدجاجة من يد الطفل. وهذا ليس فقط من قبيل الاحتشام الزائف - إنه نوع من الانحراف على ما أظن. سألوني مرّتين إنْ كنتُ أودُّ أنْ أشاركهم الطعام. كلا، كلا، لن أقبل حتى فنجان من القهوة بعد الوجبة. أنا مُهذَّب، بحق! وعند رحيلي ألقيتُ نظرةً جانبية على العِظام المُلقاة في صحن الطفل - لا يزال عليها بعض اللحم.

*

أجوسُ متجولاً بلا هدف. نهارٌ جميل - حتى الآن. شارع دو بوسي يضجُّ بالحياة، يغصّ بها. الحانات مفتوحة حتى آخرها، والأرصفة مملوءة بالدراجات، وأسواق اللحوم والخضار تضجُّ بحركةٍ دائبة، والأذرع مُحمّلة

بالخضار الملفوفة بأوراق الجرائد. إنه يوم أحد كاثوليكي رائع - خلال الصباح، على الأقلّ.

منتصف الظهيرة وها أنا واقف ببطن خاوٍ عند التقاء كل تلك الأزقة الملتوية التي تتصاعد منها روائح الأطعمة. أمامي فندق لويزيان، وهو نُزُل قديم كئيب كان معروفاً لدى الشبّان الفاسقين من شارع دو بوسي أيام زمان. فنادق وأطعمة، وأنا أتجوَّل كمجذوم وسرطانات تنهش أحشائي. في صباح أيام الأحد تتلبّس حُمّى الشوارع. لا شبيه لهذا في أي مكان آخر، ما عدا ربما في الطَرَف الشرقي، أو حول ساحة تشاثام. شارع ليشوده يموج، والشوارع تلتوي وتدور، وعند كل منعطف خلية نشاط جديدة؛ طوابير من الناس يحملون الخضروات تحت أذرعهم، ينعطفون إلى هنا وهناك بشهيّات واضحة جليّة. لا شيء غير طعام، طعام، طعام. يجعل المرء يُصاب بالهذيان.

أمرُّ بساحة فروستنبورغ. تبدو مختلفة الآن، عند منتصف الظهيرة. حين مررتُ بها في أمسية فائتة كانت مُقفِرة، مُكفهرّة، تسكنها الأشباح. في وسط الساحة أربع شجرات سوداء لم تُزهِر بعد. أشجار فكريّة، تتغذّى من حجارة الرصيف. مثل شِعر ت.س إليوت. يا الله، لو أنَّ ماري لورنسان[١١] تُخرِجُ فتياتها السُحاقيات إلى العراء هنا، إذن لكان أنسب مكان لهنّ لممارسة علاقتهنّ. المكان مُفعم هنا، إذن لكان أنسب مكان لهنّ لممارسة علاقتهنّ. المكان مفعم بالروح السُحاقية tres lesbienne ici. مُجدب، هجين، جاف كقلب بوريس.

---

١١ - ماري لورنسان (١٨٨١ - ١٩٥٦) : رسامة فرنسية . كانت سحاقية وانعكس ذلك بجلاء في شخصيات رسوماتها .

في الحديقة الصغيرة المُلحقة بكنيسة القديسة جيرمين بضعة تماثيل الكرغل منزوعة من أماكنها. وهي وحوش ناتئة إلى الأمام باندفاع مرعب. وعلى المقاعد وحوش أخرى - عجائز، وبلهاء، ومُقعدون، ومصروعون. يغفون بهدوء في انتظار أنْ يقرع جرس العشاء. وفي معرض ذلك الكائن في الطرف الآخر من الشارع رسم أحد البلهاء صورة للكون - *مُسطحاً*. إنه كون خاص برسام مملوء بالبقايا. ففي أسفل الزاوية اليسرى مرساة - وجرس عشاء. مرحباً! مرحباً! مرحباً! أيها الكون!

ولا أزال أجوس. في منتصف الظهيرة. وأحشائي تقرقع. بدأتْ تُمطِر الآن. تنهض نوتردام كجدثٍ من قلب الماء. والكراغل تمدُّ رؤوسها أكثر عبر ابريم الواجهة، مُعلّقة هناك كفكرة ثابتة idée fixe في ذهن ممسوس أحادي. وهناك رجل عجوز بسالفين أصفرين يقترب مني. يحملُ شيئاً تافهاً بيده. يأتي نحوي مرفوع الرأس والمطر يغسل وجهه مُحوّلاً الرمل الذهبي إلى طين. ومحل لبيع الكتب على واجهته بعض رسوم راؤول دوفي[١٢]. دراسة حول *فلسفة* خوان ميرو[١٣]. أقول فلسفة، لا تنسَ!

في الواجهة نفسها: كتاب " رجلٌ مُقطَّع إلى شرائح ". الفصل الأول: الرجل في نظر أسرته. الفصل الثاني: الرجل نفسه في نظر عشيقته. الفصل الثالث: - لا يوجد فصل ثالث. يجب أنْ أعود غداً لأطّلع على الفصل الثالث والرابع. في كل يوم يفتح الرجل الذي يُرتّب المعروضات صفحة جديدة. " رجلٌ مُقطَّع إلى شرائح "... لا يمكنكَ أنْ تتصوّر كم أنا حانق لأني لم أفكّر في عنوان كهذا! أين هو ذاك الذي

---

١٢ - راؤول دوفي (١٨٧٧ - ١٩٥٣) : رسام فرنسي .

١٣ - خوان ميرو (١٨٩٣ - ١٩٨٣) : رسام ونحّات أسباني .

يكتب هكذا " الرجل نفسه في نظر عشيقته "... الرجل نفسه في نظر... نفس...؟ " أين هو ذلك الشاب؟ مَنْ هو؟ أريد أنْ أعانقه. أتمنى من المسيح لو كان لدي عقول تكفي للتفكير في عنوان كهذا - بدلاً من " *الأير المجنون* " والأشياء البلهاء الأخرى التي أُلفّقها. حسن، أير في كل شيء! إنني أهنّئه في كل الأحوال.

أتمنى له التوفيق مع عنوانه الرائع. هاك شريحة أخرى - لكتابك القادم! اتّصل بي يومياً. أنا أقطن في فيلا بورغيز. نحن جميعاً موتى، أو نموت، أو نوشك أنْ نموت. نحتاج إلى عناوين جيدة. نحتاج إلى لحم - إلى شرائح وشرائح من اللحم - شرائح طريّة طيّبة، شرائح لحم البقر، أكباد، أصداف الجبل، بنكرياس العجل. وذات يوم، حين سأقفُ عند تقاطع الشارع الثاني والأربعين مع شارع برودواي، سوف أتذكّر هذا العنوان وسوف أدوّن كل ما يجول في خاطري - كافيار، حبات المطر، شحم محور الدولاب، شعيرية، حشيشة الكبد - شرائح وشرائح منها. ولن أُخبر أحداً لماذا، بعد أنْ دوّنتُ كل شيء، عدتُ إلى المنزل وقطّعتُ الطفل إرباً. ***إنَّ التقطيع إلى شرائح عملٌ لا مُبرّر له بالنسبة إليك يا سيدي العزيز***[١٤].

أما كيف يمكن لرجلٍ أنْ يهيم على وجهه طوال النهار ببطنٍ فارغة، ومع ذلك يحصل لديه انتصاب أحياناً، فهذا أحد الألغاز التي تجد لها بسهولة شديدة تفسيراً لدى " علماء تشريح الروح ". بعد ظهيرة يوم أحد، حين تكون النوافذ مغلقة والبروليتاريا يسكنون الشوارع في نوعٍ

---

١٤ - العبارة الأخيرة وردت بالفرنسية .

من الخَدَر الأبكم، تبقى هناك شوارع معيَّنة تذكِّرُ المرء بلا أقلّ من أير ضخم متقرِّح منطرح بارتياح طولاني كامل. وتلك الشوارع بالذات، كشارع القديس دُني، مثلاً، أو بوفور دو تميل - هي التي تجذب المرء بشكلٍ لا يُقاوَم، كما في أيام زمان، حول ساحة الاتحاد أو المناطق القريبة من الباوري، فيجد نفسه متجهاً إلى المتاحف المُقبضة حين تُعرَض في الواجهات نسخ من الشمع لأعضاء جديدة من الجسم أكلها السفلس وأمراض تناسلية أخرى. وتتنامى المدينة ككائن حي مُصاب بالمرض في كل جزء منه، والشوارع الجميلة ليست أقل إثارة للاشمئزاز إلا قليلاً لأنها تخلَّصَتْ من صديدها.

توقّفتُ بضع دقائق عند السيته بورتييه قرب ساحة كومبا، لأتناول مشروباً وسط قذارة المشهد. هو فناء مستطيل من الأبنية المتداعية هي من الاعتراء بحيث انهارَ بعضها على بعض وشكَّلَتْ نوعاً من العِناق العمودي. الأرض غير مستوية، وحجارة الرصيف اللوحية زلِقة من الطين. هي أشبه بركامٍ من البقايا الإنسانية المُشبعة بالرماد وبالنفاية الجافة. الشمس تسرعُ بالمغيب. والألوان تموت. تتحول بسرعة من اللون القرمزي إلى لون الدم الجاف، من لون عرق اللؤلؤ إلى لون السخام، من تدرّجات اللون الرمادي الميتة إلى لون براز الحمام. وهنا وهناك يقفُ وحشٌ مُنكفئ من النافذة يرفُ عينيه كبوم. ويُسمَعُ زعيقٌ حادٌ من أطفال ذوي وجوه شاحبة وأطراف نحيلة، أولاد أقزام هزيلون مُعلَّمون بالكلاّبات. ومن الجدران ينزُّ عَبَق النتن، عبق حشيّة يُسربلها العفن الفِطري. إنها أوروبا - القرن أوسطية، العجائبية، المهولة: هي سيمفونية من مقام بي-مول. وعبر الشارع مباشرةً تلفظ دار سينما كومبا زبائنها المميزين الخاصين *بالمدينة الكبرى*.

في طريق عودتي أستعيد في ذهني محتويات كتاب كنتُ أقرأه منذ مدة قريبة. " كانت المدينة أشبه بمسلخ، فثمة جثث، شوَّهها الجزّارون وعرّاها النهّاب، تتمدَّد مُكتنزة في الشوارع، وتسلّلت ذئابٌ من الضواحي لتأكلها، وزحفَ الموت الأسود وأوبئةٌ أخرى لتلازمها، وأتت جحافل الإنكليز تتقدَّم، في حين دوَّمَتْ رقصة الموت danse macabre حول القبور في جميع المقابر... " إنها باريسي أيام شارل الأبله[١٥]! كتاب ممتع! منعشٌ وشهي. لا أزالُ مفتوناً به. إني لا أعرف إلا القليل عن سادة عصر النهضة وعوارضه، لكنَّ مدان بيمبرنل، بائعة الخبز الجميلة la belle boulangere، والسيد جيان كرابوت، الحدّاد l'orfevre، لا يزالان يشغلان ما تبقّى لدي من أفكار. ولا أنسى رودان، الذي يمثّل عبقرية اليهودي التائه الشيطانية، الذي مارس أساليبه الشائنة " إلى أنْ جاء يومُ ألهبت فيه سيسيلي الثُمن-زنجية مشاعره وفاقته دهاء. وبينما أجلس في ساحة المعبد، أتأمّل في ما يفعله تجّار الخيول يقودهم جان كابوش، رحتُ أفكّر ملياً وبكآبة في المصير المؤلم لشارل الأبله. كان نصف مجنون يجوس ردهات فندق القديس بولس الذي يملكه، مرتدياً أكثر الأسمال قذارة وقد نهشته القروح والهوام، فإذا رموا له عظمة أخذ يلتهمها، ككلبٍ أجرب. في شارع ليون بحثتُ عن الطاولات الحجرية في معرض الحيوان القديم حيث أطْعَمَ حيواناته المُدللة ذات يوم. كانت تسليته الوحيدة، ذلك الأبله المسكين، إلى جانب ألعاب الورق مع رفيقته " الوضيعة " أوديت دي شانديفر.

---

١٥ - شارل السادس (١٣٦٨ - ١٤٢٢) : الملقَّب بالأبله ، وأيضاً الحبيب . ملك فرنسا أُصيب بالجنون بعد عام ١٣٩٢ . دحره هنري الخامس ملك إنكلترا ، وأُجبِرَ على توقيع معاهدة ترويز التي تقضي بأنْ يكون هنري الخامس خليفته .

بعد ظهر يوم أحد، أشبه بهذا اليوم، قابلتُ جيرمين للمرة الأولى. كنتُ أتسكَّع على طول شارع بومارشيه، غنيّ بمائة فرنك أو نحوها أرسلتها إليّ زوجتي بسرعة مسعورة من أميركا. كان في الجو لمسة من ربيع، ربيع سامّ، مُهلِك كأنه منبعث من منافذ المجاري. كنتُ أتردَّد إلى هذه الناحية ليلة بعد أخرى. تجذبني إليها شوارع جذاميّة معيَّنة لا تظهر روعتها المشؤومة إلا بعد أنْ يرتدّ ضوء النهار مُنسحباً وتبدأ المومسات باتّخاذ مواقعهن. وشارع باستور - فاغنر أتذكره بشكلٍ خاص. وبالتحديد زاوية شارع إميلو التي تختبئ خلف الجادة مثل سحلية ناعسة. هنا، وعند عنق الزجاجة، إنْ صحّ التعبير، كانت تقفُ دائماً مجموعة من النسور تنعب وترفُ أجنحتها القذرة، تمد إليك مخالبها الحادّة وتُقحمكَ داخل الباب. إنهنّ شيطانات مرحات جشعات لا يفسحنَ لك مجالاً لتُزررّ بنطلونك حتى بعد أنْ تنتهي. تقودك إحداهنّ إلى غرفة صغيرة بعيدة عن الشارع، غرفة بلا نوافذ عادةً. وبعد أنْ تجلس على طرف السرير مرفوعة الثوب تُلقي عليك نظرة سريعة متفحّصة، وتُخرِج أيرك نيابة عنك. وبينما أنت تغتسل تنتظر أخرى عند الباب، وهي تقبض على ضحيتها بيدها، تراقبكَ بلا مبالاة وأنت تضع لمساتك الأخيرة على هندامك.

أما جيرمين فمختلفة. لم يكن في مظهرها ما يُنبئ عن سلوكها. ولا شيء يُميّزها عن بقية العاهرات اللواتي كنَّ يجتمعن بعد ظهر ومساء كل يوم في مقهى الفيل. وكما أقول، كان نهاراً ربيعياً والفرنكات التي سعتْ زوجتي جاهدةً لترسلها إليّ ترنّ في جيبي. وقد تملّكني شعور مُسبق فحواه أني لن أصل إلى الباستيل إلا بعد أنْ تجرني إليه إحدى

تلك الصقور. لاحظتها وأنا أتمشّى على طول الجادة وهي تقترب مني بتلك الخطوة الحذرة الغريبة الخاصة بعاهرة، والأرجل المُرهقة والمجوهرات الرخيصة والنظرة الشاحبة المُقتصرة على مثيلاتها، وكل ما يفعله أحمر الشفاه هو أنْ يؤكّد عليها ويُبرزها. ولم يكن صعباً الاتصال بها. جلسنا في مؤخرة محل بيع التبغ يُسمّى الفيل. واتّفقنا بسرعة. وفي غضون بضع دقائق كنا نلج غرفة الفرنكات الخمسة في شارع إميلو، والستائر مُسدلة والأغطية مكشوفة. جيرمين لم تستعجل الأمور. جلست على المرحاض لتنظّف نفسها وتحدثني بصفاء عن هذا الأمر أو ذاك، وأبدتْ إعجابها بالبنطال القصير الذي كنت أرتديه. أنيق جداً tres chic، هكذا قالت. كان أنيقاً ذات مرة، لكنَّ مقعَدَته اهترأتْ. ولحُسن حظي كانت السترة تغطي مؤخرتي. ولما نهضَتْ لتُجفِّف نفسها، وهي ما تزال تُحدثني بصفاء، إذا بها فجأةً ترمي المنشفة وتتقدَّم مني بليونة، وتبدأ تفرك كسّها بحبّ، وتلاطفه برقّة بكلتا يديها، تداعبه، تربت عليه، وتربت عليه. في تلك اللحظة كان هناك شيء خاص في بلاغتها، في طريقتها في إقحام شُجيرة الورد تلك تحت أنفي لا يمكنُ أنْ ينسى. كانت تتكلَّم عنه وكأنه شيء غريب اكتسبَته مقابل ثمن باهظ، كشيء ازدادت قيمته مع مرور الزمن حتى صارتْ الآن تضعه فوق كل اعتبار في العالم. شبَّعته كلماتها بعبير خاص، ولم يعد مجرد عضوها التناسلي الخاص، بل كنز، كنز سحري، مكنون، هِبة من الله - لا أقلّ من ذلك لأنها كانت تتاجرُ به على مرّ الأيام مقابل بضع قطع من الفضة. ثم انطرحت على السرير، متباعدة الساقين حتى آخرهما، وفتحته على شكل كوب بكلتا يديها ولاطفته من جديد، وكانت طوال الوقت تهمهم

بصوتها الأجش المبحوح قائلة: إنه جيد، جميل، كنز، كنز صغير. وقد كان جيداً حقاً، كسّها الصغير ذاك! وفي يوم الأحد المذكور، بأنفاسه السامّة الربيعية التي تفعم الجو، نجحَ كل شيء ثانية. وبعد أنْ غادرنا الفندق نظرتُ إليها من جديد تحت ضوء النهار القاسي، فرأيت بوضوح كم كانت عاهرة - الأسنان الذهبية، وزهرة الجيرانيوم في قبعتها، والساقين المُرهقَتين، الخ الخ. ولم يُسبب لي أي إزعاج كونها سَلَبَتْ مني ثمن وجبة عشاء وسجائر وأجرة التاكسي. بل لقد شجّعتها على ذلك، في الحقيقة. أعجبتني كثيراً إلى درجة أني بعد العشاء عدتُ ثانية إلى الفندق وقذفتُها. هذه المرة " من أجل الحب "، ومن جديد عمل ريعان ذلك الشيء الكبير الكثّ خاصتها وسحره عمله؛ بدأ يكتسب وجوداً مُستقلاً - بالنسبة إليّ أيضاً. كانت هناك جيرمين وكانت هناك شجيرة الورد خاصتها. أحببتهما مُنفصلَين وأحببتهما مُجتمعَين.

وكما أقول، كانت جيرمين مختلفة. وبعد ذلك، حين اكتشفَتْ حقيقة ظروفي راحت تُعاملني بنُبل - أغدقت عليّ الشراب، وأولتني ثِقتها، ورهنَتْ أغراضي، وقدّمتني إلى أصدقائها، وما إلى ذلك. بل لقد اعتذرت لأنها لم تقرضني نقوداً، وتفهّمْتُ موقفها تماماً بعد أنْ أبرزَتْ لي سمكتها الإسقمرية. وليلة بعد ليلة رحتُ أطرقُ جادة بومارشيه متوجّهاً إلى محل بيع التبغ الصغير حيثُ يجتمعن جميعاً وأنتظر قدومها لتهبني بضع دقائق من وقتها الثمين.

حين كتبتُ عن كلود لاحقاً، كنتُ أضعُ في ذهني جيرمين وليس كلود... " لقد ضاجعَتْ كل الرجال والآن تُضاجعكَ. فقط أنتَ، وتمرُّ مراكب، بصواريها وهياكلها، ويتدفّق تيار الحياة اللعين كله من خلالك،

من خلالها، من خلال كل الذين أتوا من قبلك وسيأتون بعدك، والأزهار والعصافير والشمس تنهمر ويخنقك عبيرها، يعدمك ". كان ذلك إكراماً لجيرمين! كلود لم تكن مثلها، مع أني أُعجِبتُ بها كل الإعجاب - بل لقد اعتقدتُ لبعض الوقت أني أحببتها. كلود لها روح وضمير، وتتمتع بكياسة أيضاً، وهذا أمر سيئ - بالنسبة إلى عاهرة. كانت كلود تنطوي دائماً على شعور بالحزن، تتركُ لديكَ انطباعاً، بلا قصد طبعاً، بأنكَ مجرد شخص آخر مُضاف إلى الدفق الذي قضى القَدَر بتدميرها به. أقول **بلا قصد** لأنَّ كلود كانت آخر إنسان في العالم يمكن أنْ يُثير عن وعي صورةٍ كهذه في الذهن. لهذا السبب كانت فائقة الرهافة، شديدة الحساسية. في أعماقها كانت مجرد فتاة فرنسية طيبة من منشأ متواضع وتتحلّى بذكاء متوسط خَدَعَتها الحياة بصورةٍ ما، فيها شيء ليس متيناً بما يكفي ليجعلها تصمد في وجه صدمة تجربة الحياة اليومية. لقد كانت هي المقصودة بتلك الكلمات الرهيبة التي قالها لوي-فيليب، " وذات ليلة ينتهي كل شيء، حين تُطبِق فكوك كثيرة علينا حتى لا تعود لدينا الشجاعة الكافية للصمود، ويتهدَّل لحمنا على أجسادنا، وكأنَّ كلّ الأفواه مَضَغَته ". أما جيرمين، من ناحية أخرى، فكانت عاهرة من المهد، راضية عن دورها، وتستمتع به في الواقع، إلا عندما تؤلمها بطنها أو يهترئ حذاؤها، وأشياء صغيرة تافهة لا أهمية لها، ليس منها ما يؤثر على روحها، أو يُسبب لها العذاب. ***إنه الملل!*** فهو أسوأ ما شَعَرَتْ به. لا شك في أنه مرَّتْ عليها أيام شعرت خلالها بالشبع - كما نقول - ولكن لا أكثر من ذلك! لقد استمتعتْ بعملها في أغلب الأحيان - أو أوهَمَتْ الآخرين بهذا. والأمر يختلف طبعاً حسب

الشخص الذي تذهب - أو ***تأتي***[١٦] معه. أما الشيء الأساسي فهو أنْ يكون رجلاً. رجل! هذا ما تتشوّق إليه. رجل مع شيءٍ بين ساقيه يمكنه أنْ يُدغدغها، يجعلها تتلوّى من النشوة، يجعلها تقبض على عشّها الكثّ بكلتا يديها وتفركه باستمتاعٍ، بتباهٍ، بفخرٍ، ومع حسّ الاتصال، الحياة - كان ذلك هو المكان الوحيد الذي تمارس فيه أي شكلٍ من أشكال الحياة - هناك حيث تتشبّثُ بنفسها بيديها الاثنتين.

كانت جيرمين عاهرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وحتى أعمق أعماق قلبها الطيب، قلبها العاهر، الذي ليس طيباً حقاً بل كسول، لا مبالٍ، قلب مترهِّل يمكنُ أنْ يتأثَّر لحظة، قلب لا علاقة له بأي نقطة داخلية ثابتة، قلب عاهرة، مترهّل يمكنه أن ينفصل لحظة عن مركزه الحقيقي. ومهما كان العالم الذي خلقته لنفسها وضيعاً ومُقيداً فقد أدَّتْ فيه عملها بشكلٍ رائع. وهذا بحد ذاته شيء مُنشِّط. وبعد أن مَتُنَتْ علاقتنا، وحين كانت رفيقاتها يسخرنَ مني قائلات إني أحبُّ جيرمين (وهو وضعٌ غير مفهوم لديهنّ)، كنتُ أقول " طبعاً! طبعاً! أنا أحبها! بل أكثر من ذلك، سأكونُ وفيّاً لها! "، وهذه كذبة طبعاً، لأني لم أفكِّر في عشق جيرمين إلا بقدر ما فكَّرتُ في عشق عنكبوت، وإذا كنتُ وفياً، فوفائي لم يكن لجرمين بل لذلك الشيء الكثّ الذي تحمله بين ساقيها. وكلما نظرْتُ إلى امرأةٍ أخرى أفكّرُ على الفور في جيرمين، بذلك الدغل المُلتهب الذي انطبعَ في ذهني وبدا كأنه ذِكرى لا تُمّحي. كان من دواعي سروري أنْ أجلس على مصطبة محل بيع التبغ لأراقبها وهي تمارس تجارتها بكدٍ واجتهاد، أراقبها وهي تلجأ إلى تعبيرات الوجه نفسها،

---

١٦ - هناك تلاعُب في هذه الكلمة، فهي تعني أيضاً " تقذف " بالمفهوم الجنسي.

إلى الخِدع نفسها التي تمارسها معهم ومعي على قَدَم المساواة. " إنها تؤدي عملها! " - هكذا كنتُ أشعر حيالها، وكنتُ أنظرُ إلى صفقاتها التجارية بعين الاستحسان. وبعد ذلك، حين بدأتْ علاقتي مع كلود، ورأيتها تجلسُ ليلة بعد أخرى في مكانها المعتاد، بردفيها الصغيرين، المستديرين، الريّانين، والمستكينين على المقعد المُترَف، شعرتُ بنوعٍ من الثورة يعصى على الوصف نحوها، بدتْ لي مجرّد عاهرة، لا يحقُ لها أنْ تجلس هكذا وكأنها سيدة محترمة، تنتظر بخوف أنْ يقترب منها أحدهم وأثناء ذلك كله ترشف شراب الشوكولاة الذي أمامها باعتدال. أما جيرمين فكانت تتحرّشُ بالرجال. لم تكن تنتظرك حتى تأتي إليها، بل هي التي تخرج إليك وتتشبّث بكَ. لا زلتُ أذكر الثقوب في جوربها، والحذاء البالي الممزق: أذكر أيضاً أنها كانت تجلس إلى البار وترمي بالشراب إلى جوفها بثقةٍ عمياء شُجاعة، ثم تخرج من جديد. يالتهتّكها! وربما لم يكن من الممتع شمُ أنفاسها الكريهة، تلك الأنفاس المُكوَّنة من القهوة الرديئة والكونياك، والمشهيات، والبرنو، وكل الأشياء التي تزدردها في أوقات الاستراحة، بعضها لتُدفئها وبعضها ليستنهضَ فيها القوة والشجاعة، لكنَّ نارها كانت تخترقها، وتُلهِب ما بين ساقيها حيث ينبغي على النساء أنْ يلتهبنَ، وهناك تركّزَتْ تلك الدارة التي تجعل المرء يشعر بالأرض ثابتة تحت قدميه من جديد. وحين كانت تستلقي هناك متباعدة الساقين وتئنّ، ومع أنها كانت تئن لكل عابر سبيل، إلا أنه كان شيئاً ممتعاً، كان عَرْضاً رائعاً للمشاعر. لم تكن تحدِّقُ إلى السقف بنظرةٍ خاوية أو تعدُّ عثَّ الفراش على ورق الجدران، بل كانت تركّزُ انتباهها على شغلها، تتحدثُ عن الأشياء التي يُحبُ الرجلُ أنْ

يسمعها وهو يمتطي امرأة. في حين أنَّ كلود - في الواقع مع كلود كان هناك دائماً رهافة معيَّنة، حتى بعد أنْ تنزلق معها تحت الملاءات. ورهافتها تُهين. مَنْ يرغبُ في عاهرة **مُرهفة**! كلود تطلب منكَ أيضاً أنْ تُدير وجهك عندما تجلس القرفصاء على المرحاض. كل شيء خطأ معها! فحين يكون الرجل مُتحرّقاً اشتياقاً يريد أنْ يرى ما يجري، يريد أنْ يرى كلّ شيء، وحتى كيف يتبوَّلنَ. ومع أنه جميل جداً أنْ تعرفَ أنَّ للمرأة عقلاً، فالأدبُ literature الصادر عن جثّة عاهرة باردة هو آخر ما يجب أنْ يُقدَّم في السرير. إنَّ فكرة جيرمين هي عين الصواب: كانت جاهلة وشبقة، تضعُ قلبها وروحها في عملها. كانت عاهرة قلباً وقالباً - وتلك كانت فضيلتها!

حلَّ عيد الفصح كأرنبٍ متجمِّد - لكنَّ السرير كان دافئاً تماماً. هذا اليوم أيضاً نهار آخر جميل وعند الفجر يبدو شارع الشانزليزيه كله أشبه بخلوة حريم السلطان مختنقة بالحِسان الحور. الأشجار في كامل ازدهارها واخضرارها شديد النقاء، والغِنى، كأنها لا تزال مُندّاة تتلألأ بالندى. والطريق من الباليه جو لوفر إلى الإتوال أشبه بمقطوعة موسيقية على البيانو. لم أقرَب الآلة الكاتبة منذ خمسة أيام ولا نظرتُ في كتاب، ولا احتفظتُ بفكرةٍ واحدة عدا الذهاب إلى الأميركان إكسبريس. اليوم وصلتُ إلى هناك في التاسعة صباحاً لحظة فتحَ أبوابه، وعدتُ إليه في الواحدة أيضاً. لا أخبار. في الرابعة والنصف انطلقَ من الفندق، وقد قرّرتُ أنْ أقوم بآخر محاولاتي. وحالما أنعطف عند الزاوية اصطدم بوالتر باتش. وبما أنه لم يتعرَّف عليّ، وبما أنه لم يكن لديّ ما أقوله له، لم أحاول استيقافه. بعد ذلك، حين جلستُ في التوليري ومددتُ ساقي تردَّدتْ قامته على ذهني. كان منحني الظهر قليلاً، كثير التأمُّل، وترتسم على وجهه ابتسامة هادئة متحفظة. تساءلتُ وأنا أنظرُ إلى السماء المصقولة بنعومة، المُظللة بألوان باهتة، والتي لا تُجلّلها اليوم سُحُب الأمطار الغزيرة بل تبتسم كقطعة من الصيني العتيق، وأتساءل ما الذي يدور في خَلَد هذا الرجل الذي ترجمَ المجلدات الأربعة السميكة لكتاب " ***تاريخ الفن*** "، وهو يشمل هذا الكون المبارك بعينه الواهنة.

تتصبَّب الأفكار مني كالعرق وأنا أسير على طول الشانزليزيه. كان يجب أنْ أكون ثرياً بما يكفي لأحصل على سكرتيرة أُملي عليها وأنا أتمشّى، لأنَّ أفضل أفكاري تأتيني دائماً وأنا بعيد عن الآلة الكاتبة.

وأتابعُ سيري في الشانزليزيه وأنا أفكّرُ في صحتي المذهلة حقاً. وعندما أقول " صحة " أعني التفاؤل، الصدق. يا لي من متفائل لا يمكن شفاؤه! لا أزالُ أضعُ قَدَماً في القرن التاسع عشر. إنني متخلِّف قليلاً، ككل الأميركيين. كارل يجدُ ذلك التفاؤل مُقزّزاً للنفس. يقول " يكفيني أنْ أتحدَّث عن الوجبة حتى تتورَّد! ". وهذا صحيح. فبمجرَّد التفكير في وجبة - وجبة " أخرى " - يُعيدُ إليّ النشاط. وجبة! يعني حافزاً على الاستمرار - بضع ساعات كاملة من العمل، وربما انتصاب. لا أنكرها هذا. صحتي تامة، جيدة، ومتينة، صحة حيوان. الشيء الوحيد الذي يقفُ حائلاً بيني وبين المستقبل هو وجبة، وجبة " أخرى ".

أما بالنسبة إلى كارل فهو ليس على ما يُرام هذه الأيام. إنه مُضطرب، وأعصابه متوترة. يقول إنه مريض، وأنا أصدِّقه، لكنني لستُ قلقاً عليه.

لا أستطيع أنْ أقلق. في الواقع إنَّ أمره يُضحكني. وهذا يجعله يشعر بالمهانة طبعاً. كل شيء يجرح شعوره - ضِحكي، جوعي، مُثابرتي، لا مبالاتي، ***كل شيء***. يريد أنْ ينسف دماغه يوماً ما لأنه لم يعد يستطيع أنْ يتحمَّل هذه البؤرة القذرة المُسمّاة أوروبا، وفي اليوم التالي يتحدَّث عن الذهاب إلى أريزونا " حيث ينظر الناس إليك إلى عينك مباشرة "

أقول " هيا، افعلْ! افعلْ! افعل شيئاً مهما كان، يا بن الحرام، ولكن لا تحاول أنْ تُغيِّم على بصيرتي أنفاسك الكئيبة! "

لكنه لا يُحرّك ساكناً! ففي أوروبا يتعوَّد المرء على البطالة. تجلس على مؤخرتك وتنتحب طوال النهار. وتفسد، وتتعفَّن.

كارل نفّاج أساساً، أير صغير أرستقراطي يعيشُ في مملكة جنونٍ باكر dementia praecox خاصة به فقط. ويئنّ " كم أكره باريس! وكل هؤلاء الناس البلهاء، الذين يلعبون الورق طوال النهار... أنظرُ إليهم! والكتابة! ما الفائدة من وضع الكلمات مع بعضها؟ أستطيع أنْ أصبح كاتباً دون أنْ أكتب، ألا أستطيع؟ ماذا يُبرهن تأليفي كتاب؟ ماذا نريد من الكتب على أي حال؟ لقد أصبح لدينا الكثير من الكتب... "

يا عيني، لكني مررتُ بهذا كله - قبل سنين عديدة. عشتُ عهد شبابي الكئيب حتى الثمالة. ولم أعد آبه لما خلّفتُ ورائي، ولِما هو آتٍ أمامي. صحتي ممتازة. ممتازة بصورة مُطلَقَة: لا أحزان، لا ندامات، لا ماضٍ، لا مستقبل. يكفيني الحاضر. يوماً بعد يوم. وهذا اليوم! يا لهذا اليوم ما أجمله! . le bel aujourd'hui

لكارل يوم عطلة واحد في الأسبوع، وفي هذا اليوم يكون أشدَّ بؤساً من أي يوم آخر من أيام الأسبوع، إذا استطعت تصوّر الوضع. وعلى الرغم من أنه يعلن احتقاره للطعام، فإنَّ طريقته الوحيدة للاستمتاع في يوم عطلته هي أنْ يطلب مدَّ وليمة عامرة له. ربما يفعل ذلك لصالحي - لا أدري، ولا أسأل. إذا أراد أنْ يُضيف صِفة الشهادة إلى آثامه، فليفعل - لا مانع عندي. مهما يكن، يوم الثلاثاء الماضي، وبعد أنْ بدَّدَ ماله كلّه على الوليمة، قادني إلى مقهى الدوم، وهو آخر مكان في العالم أذهبُ إليه في يوم عطلتي. لكنَّ المرء ليس فقط يتعوَّد على هذا المكان - بل وينطرح فيه أرضاً.

على بار مقهى الدوم يقفُ مارلو، غارقاً في السُكر حتى أذنيه. ومنذ خمسة أيام وهو في حالة مرحٍ صاخب، كما يقول. وهذا يعني سُكرٌ مستمرّ، انتقال من حانة إلى حانة، نهاراً وليلاً دون انقطاع، وأخيراً الانطراح في المستشفى الأميركي، ووجه مارلو الناتئ العِظام الهزيل ما هو إلا جمجمة يخترقها محجران دُفِنَ فيهما زوج من الأسماك الصَدَفيّة الميتة. ظهره مُغطّى بالنشارة – كان قد أغفى قليلاً وهو في المرحاض. إنه يحملُ في جيب معطفه البروفات الطِباعية للنسخة التالية من مجلّته النقدية. يبدو أنه كان في طريقه إلى الطابع ليُعطيه البروفات حين أغواه أحدهم بشرب كأس. وهو يتكلّم عن الأمر وكأنه وقعَ قبل أشهر. ويُخرِجِ البروفات وينشرها على البار فإذا بها مُلطَّخة ببقعِ القهوة والبُصاق الجاف. ويحاولُ أنْ يقرأ قصيدة كتبها باليونانية، لكنَّ البروفات غامضة لا يمكن فكُّ طلاسمها. ثم يُقرّر أنْ يُلقي خطاباً، بالفرنسية، لكنَّ المدير يوقِفه عند حدّه. مارلو مُستاء: طموحه الوحيد هو أنْ يتحدث لفرنسية يمكن " لولد " أنْ يفهمها. أما اللغة الفرنسية القديمة فهو ضليعٌ بها، ومن نِتاج السورياليين قدَّمَ ترجمات ممتازة، أما قولُ شيءٍ بسيط مثل " اغرب عن وجهي، أيها الأير العجوز! " – فيفوق طاقته. لا أحد يفهم لغة مارلو الفرنسية، ولا حتى العاهرات. لهذا يصعبُ فهم لغته الإنكليزية وهو على هذه الحال. ويروح يُثرثر ويبصق كأنه مُصاب بفأفأة مُزمنة... دون أنْ يربط جُمَله رابط. أما الجملة التي يلفظها بطلاقة فهي " ادفعْ أنت! "

حتى لو احترقَ من أسفل قدميه إلى قمة رأسه، تبقى لديه غريزة بقاء رائعة تُنذره بالوقت المناسب للتصرُّف. وإذا خامره أي شك حول مَنْ

سيدفع له ثمن المشروب فسوف يعمل بلا شك على القيام بأكثر التصرّفات براعة. وعادةً يدَّعي العمى. والآن بات كارل يعرف ألاعيبه كلها، وحالما يضغط مارلو على صدغيه ويبدأ بالتمثيل يُكيلُ له كارل رفسةً على قفاه قائلاً " اخرج من هذه الألاعيب، يا غليظ! لن تنطلي عليّ! "

لا أدري إنْ كان يرومُ انتقاماً ذكياً أم لا، لكنَّ مارلو طالما ردَّ له الصاع صاعَين في كل الأحوال. ويروي لنا وهو يميلُ علينا بودّ وبصوتٍ أجشّ خشن جانباً من الثرثرة التي سمعها أثناء ارتحاله من حانةٍ إلى أخرى. وينظر إليه كارل مذهولاً، شاحباً وحتى أسفل خياشيمه. ويُكرر مارلو القصة مع التنويعات. وفي كل مرة يزداد وَهَنُ كارل. وأخيراً ينفجر قائلاً: " لكنَّ هذا مستحيل "، وينعقُ مارلو " كلا، ليس مستحيلاً. ستخسر عملك... ها أنا أقول لك "، وينظر إليّ كارل بيأس، ويهمسُ في أذني " هل يسخر مني، ابن الحرام هذا؟ "، ثم يُردف بصوتٍ عالٍ " ماذا أفعلُ الآن؟ لن أجد عملاً آخر أبداً. لقد استغرقَ مني الحصول على عملي الحالي عاماً كاملاً "

من الواضح أنَّ هذا هو كل ما كان مارلو ينتظر سماعه. وها قد وجد أخيراً مَنْ هو أسوأ منه. وينعق، وجمجمته الناتئة تتوهج بنار باردة، مُكهربة " ستكون أوقات عصيبة! "

لدى مغادرتنا الدوم يُصرِّح لنا مارلو بين الفوّاقات أنَّ عليه أنْ يعود إلى سان فرانسيسكو. ويبدو عليه التأثُّر الحقيقي الآن من عجز كارل. وإذ به فجأةً يتعرَّض لنوبة، نوبة حقيقية هذه المرة، ويكاد يغوص في أحد المجاري. ونجرّه إلى المقهى الصغير الكائن في بولفار إدغار-غينه ونُجلِسه على الكرسي. هذه المرة إصابته حقيقية - صداع عنيف يدفعه

إلى الزعيق والنخر ويتمايل جيئة وذهاباً كوحشٍ أخرس ضُرِبَ بمطرقة مزلجة. ونصبُّ كأسين من الفيرنه-برانكا في حنجرته، ونمدده على المقعد ونغطي عينيه بلفاعة. ويرقد وهو يئنّ. وبعد برهة قصيرة نسمع شخيره.

يقول كارل " وماذا عن عَرضه؟ هل نقبله؟ يقول إنه سيُعطيني ألف فرنك عند عودته. أعلم أنه لن يفعل، ولكن ما رأيك؟ "، وينظر إلى مارلو المتمدد على المقعد، ويرفع اللفاع عن عينيه ثم يُعيده ثانية. وفجأةً تُضيء وجهه ابتسامةٌ عريضة خبيثة. يقول " اسمع يا جو "، وهو يطلب مني أنْ أقترب، " سوف نتولى الأمر، سوف نتولى أمر مجلته القذرة وبعدها ننيكه كما يجب "

" وماذا تعني؟ "

" ولِمَ الحيرة، سوف نتخلّص من جميع المساهمين الآخرين ونملؤها بخرائنا نحن – هذا ما أقصد! "

" نعم، ولكن أي نوعٍ من الخراء؟ "

" أي نوع... لن يتمكّن من عمل أي شيء حياله. سوف ننيكه كما يجب، ونُصدِر عدداً ممتازاً ثم ينتهي أمر المجلة. هل تشترك معي يا جو؟"

نرفع مارلو ليقف على قدميه ونحن نضحك ونقهقه ونسحبه إلى غرفة كارل. وحين نُدير مفتاح النور نجد أنَّ السرير امرأة تنتظر كارل، ويقول كارل " لقد نسيتها ". ونتخلّص من العاهرة ونلقي بمارلو إلى السرير. بعد دقيقة أو نحوها يقرع الباب، إنه فان نوردن. مهتاج جداً. لقد فَقَدَ طقم أسنانه – في البال بيغر، كما يظن. على أي حال، نأوي جميعاً إلى السرير. وتفوح من مارلو نتانة تشبه رائحة السمك المُدخّن.

في الصباح يذهب مارلو وفان نوردن ليبحثا عن طقم أسنانه. ومارلو ينتحب، فهو يعتقد أنَّ الطقم له.

هذا آخر إفطار أتناوله في منزل الكاتب المسرحي. استأجروا لتوّهم بيانو جديداً، من النوع الكبير الحجم. أقابلُ سيلفستر وهو خارج من محل لبيع الأزهار ويحمل نباتاً اصطناعياً بين ذراعيه ويطلب مني أنْ أحمله نيابةً عنه قليلاً ريثما يشتري سيجاراً. لقد حُرِمتُ من وجباتي المجانية التي خطَّطتُ بتأنٍ لأحصل عليها. وتخلّى عني الأزواج أو الزوجات تدريجياً. وبينما أنا أسير والنبات الاصطناعي بين ذراعيَّ أتذكّر تلك الليلة قبل بضعة أشهر عندما خطرَتْ لي الفكرة للمرة الأولى. كنتُ أجلسُ على مقعدٍ قرب الكوبول، أتلمَّسُ خاتم الزواج الذي حاولتُ رهنه لدى *الجرسون* في مقهى الدوم. دفع لي يومها ستة فرنكات وانفجرتُ غاضباً. لكنَّ البطن كانت له اليد الطولى. فمنذ أنْ غادرتْ مونا وأنا أضعُ الخاتم في إصبعي الصغير. كان عزيزاً عليَّ فلم أفكر في بيعه. وكان على شكل براعم لزهور البرتقال من الذهب ذي اللون الأبيض. كان يساوي في أحد الأيام دولاراً ونصف الدولار، وربما أكثر. عشنا بدون خاتم زواج مدة ثلاث سنوات إلى أنْ كان يوم مررتُ بواجهة أحد محلات الصاغة المزدحمة بخواتم الزواج في ميدان لين وأنا في طريقي إلى رصيف الميناء لأقابل مونا. وحين بلغتُ المكان لم تكن مونا قد وصلت، وانتظرت حتى نزل آخر مُسافر إلى المعبر، ولم تظهرْ مونا. وأخيراً طَلَبْتُ الاطلاع على لائحة المسافرين. ولم يكن اسمها مُدْرَجاً بين

الأسماء. وزلَقتُ الخاتم في إصبعي الصغير وبقيَ هناك. وذات يوم تركته في حمّامٍ عام، لكنني استعدته وقد ضاعَ أحد براعمه. مهما يكن، أقول إني كنتُ أجلسُ هناك على المقعد مُطأطئاً رأسي أعبثُ بالخاتم، وإذا بي أشعرُ فجأةً بأحدهم يقبض على كتفي. باختصار، حصلتُ على وجبة طعام إلى جانب بضعة فرنكات. وبعدها تبدّى لي كالومض، أنه لا أحد يرفض تقديم وجبة طعام لإنسان إذا كانت لديه الشجاعة لطلبها. وعلى الأثر توجّهت إلى إحدى المقاهي في الحال وكتبتُ رسالتين، " هل تسمح لي بتناول العشاء معك مرة في الأسبوع؟ أعلِمني بالوقت الذي يناسبك بدقّة ". وفَعَلَتْ فِعلها كما السحر. ولم تقدّم لي مجرد وجبة عادية... بل وليمة. وكنتُ في كل يوم أعود إلى المنزل وأنا سكران. ولم يكن يكفيني ما يقدمه لي أولئك المُحسنون الكرماء كل أسبوع. فلم يكن من شأنهم ما يحدث لي بين مواعيد الوجبات. وبين الحين والآخر كان المُقدّرون لوضعي يُقدّمون السجائر أو قليلاً من مصروف الجيب. وكانوا جميعاً يُبدون ارتياحاً واضحاً حين يُدركون أنهم لن يروا وجهي إلا مرة واحدة في الأسبوع. ويُبدون ارتياحاً أكبر حين أقول - " لم يعُدْ هناك داعٍ لهذا "، ولم يسألوا أبداً لماذا. كانوا يُهنّئونني، وينتهي الأمر. وغالباً ما يكون السبب هو أني أجد مُضيفاً أفضل، وكان في وسعي أنْ أزيح كل مَنْ كان بمثابة ألمٍ في المؤخرة. لكنَّ ذلك لم يكن يخطر لهم على بال. وأخيراً أصبح لدي برنامج دائم، راسخ - جدول ثابت. أعرف أنَّ كرونستات سيُقدّم لي شمبانيا مع فطيرة التفاح البيتيّة، وأنَّ كارل سيدعوني إلى تناول العشاء خارج المنزل، وكان في كل مرة يأخذني إلى مطعمٍ مختلف، ويطلب خموراً نادرة، ثم يعزمني بعد ذلك على المسرح، أو يصحبني إلى

سيرك مدرانو. وكان مُضيفويَ فضوليين أحدهم نحو الآخر. فيسألونني أي الأماكن أُفضِّل، ومَنْ هو أفضل الطباخين، الخ. وأعتقد أني أحببتُ صُحبة كرونستات أكثر من غيرها، ربما لأنه كان في كل مرة يُسجّل كلفة الوجبة على الجدار. وهذا لا يعني أنَّ ضميري يرتاح لمعرفتي ما أدين به له، لأنه لم يكن في نيتي أنْ أسدِّد له ولا خامرني أي وهم في أنْ يُطالبني. كلا، ولكنَّ الأرقام العجيبة كانت تأسر اهتمامي. وكان يحسبها حتى آخر سنتيم. ولو كان عليَّ أنْ أُسدِّد ديوني كلها لتوجَّبَ عليَّ أنْ أصرِف من السو[١٧] الذي أملكه. وكانت زوجته طبّاخة ماهرة ولم تكن تأبه على الإطلاق بالسنتيمات التي يُضيفها كرونستات. كانت تأخذ الحساب مني على شكل نُسخ كربون. هذه حقيقة! فإذا لم أُحضر أي ورق كربون حين أدخل عليها، تكتئب. وكتعويض عن ذلك أضطرُّ إلى اصطحاب الفتاة الصغيرة إلى حدائق اللوكسمبور في اليوم التالي، لألعب معها ساعتين أو ثلاث، وهي مهمة كانت تدفعني إلى الجنون لأنها لم تكن تتكلَّم إلا الهنغارية والفرنسية. لقد كانوا مجموعة غريبة الأطوار، مُضيفويَ أولئك...

*

من شُرفة منزل تانيا أطللتُ على المشهد العام. مولدورف هناك، جالس بجانب معبوده، يُدفئ قدميه على الموقد، وفي عينيه الدامعتين نظرة امتنان هائلة، وتانيا تعزف لحن أداجيو. ولحن الأداجيو يقول بوضوح: لا مزيد من كلمات الحب! وأنا واقف عند النافورة من جديد،

---

١٧ - السوَ والسنتيم : قطعتا نقد صغيرتان جداً في العملة الفرنسية .

أراقب السلاحف تتبوّل حليباً أخضر. سيلفستر عاد لتوّه من برودواي بقلبٍ مفعمٍ بالحب. أمضيتُ الليل مستلقياً على مقعد خارج متنزّه المشاة بينما الكرة الأرضية تترطّبْ ببول السلاحف الدافئ والأحصنة متيبّسة بهياجٍ بريابيّ تقفز كالمجنونة حتى دون أنْ تلمس الأرض. طوال الليل أشمُّ رائحة الليلك في الغرفة الصغيرة المُظلمة حيث كانت ترخي شعرها، الليلك الذي أحضرته لها حين ذهبتُ لمقابلة سيلفستر. قالتْ إنه عاد بقلبٍ مملوءٍ مُترعٍ بالحب، والليلك يُزيّن شعرها، وفمها، ويملأ تحت إبطيها. الغرفة تسبح بالحب وببول السلاحف والليلك الدافئ والأحصنة تتواثب كالمجنونة. في الصباح أسنانٌ وسخة وطفاوة على ألواح زجاج النوافذ، والغرفة المؤدية إلى متنزّه المُشاة موصدة. الناس متوجّهون إلى العمل ومصاريع النوافذ تقرقعُ كالمزودات. في مخزن الكتب المقابل للنافورة قصة بحيرة تشاد ، والسحالي الصامتة، وتدرّجات لون الأصفر الفخم. كل الرسائل التي كتبتها لها، السَكرى منها المكتوبة بريشةٍ كليلة، والمجنونة منها مع قِطعٍ صغيرةٍ من الفحم، قِطعٍ صغيرة من مقعدٍ إلى مقعد، ومفرقعات نارية، ومناديل المائدة، وتوتي فروتي، إنهما يُعيدان قراءتها معاً، وذات يوم سيُبدي استحسانه لي. سيقول، وهو ينفض رماد سيجارته: " أنتَ بحقّ تُحسِنُ الكتابة. دعني أرى، أنت سريالي، ألستَ كذلك؟ "، بصوتٍ هشٍ جاف، وأسنان مملوءة بالقشور، solo تدلُ على solar plexus ، و g تدلُ على gaga.

أنا واقفٌ في الشرفة مع النبات الاصطناعي ولحن الأداجيو ينسابُ هناك في الأسفل. مفاتيح البيانو سوداءُ وبيضاء، ثم سوداء، ثم بيضاء، ثم بيضاء وسوداء. وتريدين أنْ تعرفي إنْ كنتُ أرغبُ في أنْ تعزفي لي

شيئاً. نعم اعزفي شيئاً بإبهاميك الكبيرتين. اعزفي لحن أداجيو ما دام هو اللحن الوحيد الذي تتقنين. اعزفيه، ثم ابتري إبهاميكِ الكبيرين.

يا لذاك الأداجيو! لا أدري لماذا تُصرُّ على أنْ تعزفه طوال الوقت. البيانو العتيق لم يعُد جيداً بما يكفي بالنسبة إليها، كان عليها أنْ تستأجر آخرَ كبيراً - لأداء الأداجيو! حين أرى إبهامَيكِ الكبيرين يضغطان على لوحة المفاتيح وذلك النبات الاصطناعي السخيف المُلقى إلى جانبي أشعرُ مثل ذلك المجنون من الشمال الذي رمى بملابسه بعيداً، وجلسَ بين الأغصان الشتوية عارياً، وأخذ يرمي الجوز إلى البحر ذي أسماك الرنة المتجمّدة. هناك ما يُثير الغضب في تلك الحركة الموسيقية، شيء يتّسم بالكآبة المُخفقة، وكأنها كُتبَتْ باللافا، وكأنها بلون مزيج الرصاص والحليب. ويقول سيلفستر ورأسه مائل إلى أحد جانبيه كأنه دلاّل: " اعزفي اللحن الذي كنتِ تتمرنين عليه اليوم ". جميلٌ أنْ يكون لدى المرء سترة للتدخين، وسيجار جيد وزوجة تتقن العزف على البيانو. كم هو مُريح، كم هو سلِس. فتخرج من فترة الاستراحة لتدخّن سيجاراً وتستنشق هواءً نقياً. نعم، أصابعها لدنة جداً، لدنة بصورة خارقة. وتُحسِن أيضاً التطبيع الباتيكي[١٨]. هل لكِ في تدخين سيجارة بلغارية؟ أقول، يا ذات الصدر الحماميّ، ما هي تلك الحركة الموسيقية التي أُحبها كثيراً؟ إنها حركة اسكيرتزو! ممتاز! اسكيرتزو! الكونت فايمار فون شفيسنا سنتزوغ يتكلّم. عينان هادئتان مكسوّتان بالقشور. بَخِرْ. جوارب مزوّقة. قِطعٌ من الخبز المُحمّص في شوربة الفاصوليا إذا سمحتَ. دائماً

---

١٨ - التطبيع الباتيكي : طريقة اندونيسية في تطبيع الأقمشة أو تلوينها يدوياً بتغطية الأجزاء التي لا يُراد صَبغها بطبقةٍ شمعية .

نتناول شوربة الفاصوليا في أمسيات الجمعة. هل لك في تذوُّق القليل من النبيذ الأحمر؟ النبيذ الأحمر لذيذ مع اللحم، كما تعلم. صوت هشّ وجافّ، هل لكَ في سيجارة؟ نعم، أحبُ عملي لكني لا أُعلِّقُ عليه أدنى أهمية. مسرحيتي القادمة ستتضمَّن مفهوماً عن الكون مُتعدِّد الجوانب. طبولٌ تدور مع أضواء كالسيومية. أونيل[19] مات. أعتقد، يا عزيزتي، أنكِ يجب أنْ ترفعي قدمكِ عن البدّال أكثر. نعم، هذا الجزء جميلٌ جداً... رائع الجمال، ألا تظن؟ نعم. الشخصيات تدور وهي تحمل مكبرات صوت في سراويلها. المكان هو قارة آسيا. لأنَّ الأحوال الجوية أكثر ناقليّة. هل لكَ في تذوُّق القليل من الآنجو؟ لقد ابتعناه خاصّاً بك...

وتستمر هذه الثرثرة طوال فترة تناول الوجبة. وكأنه أخرجَ قضيبه المطهر وراح يتبوَّل علينا. تانيا تتفجَّر حماساً في عزفها. ومنذ أنْ عاد بقلبٍ ملؤه الحب وهذا الحديث الإفرادي مستمرّ. وتحكي لي كيف يتكلّم وهو يخلع ملابسه - حديث كالتبوُّل الثابت المستمر، وكأنَّ مثانته قد ثُقِبَتْ. حين أتخيَّل تانيا وهي تزحف إلى السرير مع تلك المثانة المثقوبة يتملّكني الغضب. أغضب كلما فكَّرتُ في أنَّ ابن الحرام الناحل البائس ذاك الذي يحمل معه مسرحيات برودواي الرخيصة يتبوَّل على المرأة التي أحب. ويهتفُ طالباً نبيذاً أحمر وطبولاً دوّارة وخبزاً مُحمّصاً في شوربة الفاصوليا. يا لصفاقته! أجنُّ كلما فكّرتُ في أنَّ في استطاعته أنْ ينام إلى جانب ذلك الفرن الذي زُكيَتُ له ناره ويكتفي هو بالتبوُّل! يا إلهي، يا رجل، جديرٌ بكَ أنْ تركع على ركبتيك وتشكرني. ألا ترى أنه

١٩ - يوجين أونيل (١٨٨٨ - ١٩٥٣) : كاتب مسرحي أميركي . له " فصل غريب " .

أصبحتْ لديك " امرأة " في بيتك الآن؟ ألا ترى أنها تضطرم بالشوق؟ وأنت تخبرني عن زوائدك الأنفية المخنوقة - " والآن، دعني أخبرك... هناك طريقتان للنظر إلى الأمر... ". أير في طريقتيك للنظر إلى الأمور! أير في كونك المتعدد الجوانب وفي صوتياتك الآسيوي! كفاكَ تمدّني بنبيذك الأحمر والآنجو... مُدنّي بها **هي** ... إنها لي! أما ***أنت*** فاذهب واجلس عند النافورة، ودَعْ لي شم الليلك. نظّفْ عينيك من قشورهما... وخُذْ ذلك الأداجيو اللعين ولُفّه بزوج من السراويل الداخلية! وخُذْ الحركة الأخرى أيضاً... وكل الحركات الصغيرة التي سببتَها بمثانتك الرخوة. ها أنتَ تبتسم لي بكل جرأة، بتعمُّد كامل. ألا ترى أني أُغالي في مدحك؟ وبينما أنا أصغي إلى ثرثرتك وَضَعَتْ يدها عليّ - لكنكَ لم ترَ هذا. تظنْ أني أعاني - وتقول إنَّ هذا هو دوري. حسن، اسألها عن هذا! وستخبرك كيف أعاني. قبل أيام قليلة قالتْ عبر الهاتف: " أنتَ سرطان وهذيان ". وها قد أُصيبتْ بهما معاً، السرطان والهذيان، وقريباً سوف يتوجّب عليك أنْ تلملم قشورك. شرايينها تكاد تنفجر، أؤكد لك، وكلامك كله هباء. ومهما تبوّلتْ فلن تتمكّن من سد ثقوبك. ماذا يقول السيد ورن؟ الكلمات هي الوحدة. تركتُ لكَ كلمتين على مفرش المائدة بالأمس - وقد غطّيتهما بمرفقيك.

لقد ضرب حولها حصاراً وكأنها عَظْمة عفِنة من قديس. ليت لديه الشجاعة ليقول لي " خذها! " فربما وَقَعَتْ مُعجزة. هكذا ببساطة. " خذها! "وأقسمُ بأنَّ كل شيء سيسير سيراً حسناً. ثم إنني قد لا آخذها! تُرى هل خطرَ هذا على باله؟ أو قد آخذها لفترةٍ وجيزةٍ وأعيدها إليه، مُحسنّة. أما ضرب حصار حولها فلن يُجدي نفعاً. لا يمكنكَ أنْ تفرضَ

حِصاراً حول كائن بشري. فهذه الطريقة لم تعُدْ تنفع... إنكَ مسكين، يا ابن الحرام السقيم. تظن أني لا أصلحُ لها، وأني قد أدنّسها، أنتهك قدسيتها. أنت لا تدري كم هي لذيذة المرأة المُدنّسة، وكيف يجعل تغيُّر المني المرأة تزدهر! وتظن أنه يكفي قلب مفعمٌ بالحب، ولعلَّ هذا صحيح، بالنسبة إلى المرأة المناسبة، ولكنْ لم يعد لديك قلب... ما أنتَ غير مثانة كبيرة، فارغة. أنت تسنُّ أسنانكَ وتهذِّب هريرك، تنطرح عند قدميها ككلب الحراسة وتتبوَّل في كل مكان. إنها لا تعتبرك كلب حراسة... إنها ترى فيك شاعراً. وهي تقول إنكَ كنتَ ذات مرة شاعراً. والآن، ماذا تكون؟ تشجَّع يا سيلفستر، تشجَّع! أخرِجْ المايكروفون من سروالك. واخفض قائمتكَ الخلفية وتوقّف عن التبوُّل في كل مكان. أقول تشجَّع، لأنهاَ نبذتكَ لتوّها. وهي ملوّثة، أؤكد لك، ويمكنك أيضاً أنْ تفك الحصار. لا فائدة من سؤالي بأدب إنْ كان مذاق القهوة يُشبه حمض الكربون: فلن تُخيفني. ضعْ سُمّ الفئران في القهوة، وقليلاً من مسحوق الزجاج. اغلِ بعض البول الحار وأضِفْ إليه شيئاً من جوز الطيب...

منذ بضعة أسابيع وأنا أعيش حياة مَشاع. كان عليّ أنْ أشارك الآخرين، ولاسيما بعض الروس المجانين، وهولندي سكّير، وامرأة بلغارية ضخمة اسمها أولغا. من بين الروس أذكُر ولاسيما أوجين وأناطول.

قبل هذا بأيام قليلة كانت أولغا قد خرجتْ من المستشفى حيث أحرقتْ قنواتها وفقدَتْ بعضاً من وزنها الزائد. على أي حال يبدو أنها لم تتألَّم كثيراً. ويكاد وزنها يُعادل وزن قطار ذي سنام. وهي ترشح عَرَقاً وفمها يبخر، ولا تزال تضعُ شعرها الجركسي المستعار الذي يُشبه النجارة. وعلى ذقنها ثؤلولان كبيران تبرز منهما خصلتان صغيرتان من الشَعر، وهي تنمّي شارباً.

بعد خروج أولغا من المستشفى بيوم عادتْ من جديد إلى صناعة الأحذية. في السادسة صباحاً تكون جالسة إلى مقعدها، وتصنع في اليوم الواحد زوجَين من الأحذية. ويشتكي أوجين من أنَّ أولغا عبئاً عليه لكنَّ الحقيقة هي أنَّ أولغا هي التي تُعيلُ أوجين وزوجته من وراء زوجَيّ الأحذية كل يوم. وإذا لم تعمل أولغا فلا طعام. لذا يحاولُ الجميع أنْ يجرّ أولغا إلى السرير في الوقت المناسب، ليزوّدها بوقود يُعينها على الاستمرار، الخ.

كل وجبة تبدأ بالشوربة. وسواء أكانت شوربة البصل، أم شوربة البندورة، أم شوربة الخضار أم غيرها، فمذاقها واحد دائماً. وغالباً يكون مذاقها وكأنما نُقعَتْ فيها خرقة لتجفيف الأطباق - حامضة قليلاً، عفنة، تعلوها طفاوة. أَرى أوجين يُخفيها عن العيون في الخزانة بعد انتهاء الوجبة. وتبقى هناك، لتتعفَّن حتى الوجبة التالية. والزبد أيضاً يُخبّأ في الخزانة، وبعد مرور ثلاثة أيام يُصبحُ مذاقها كمذاق إصبع كبير لقَدَم جثة.

ورائحة الزبد العفن وهو يُقلى مُقزّزة كثيراً للنفس، ولاسيما عندما يتم الطبخ في غرفةٍ لا يوجد فيها أي منفذ للتهوية. وما أنْ أفتحُ الباب حتى أُصابُ بالغثيان. ولكنْ حالما يسمع أوجين أني أتيتُ فإنه عادة يُسرع بفتح النوافذ ويُعيد ملاءة السرير التي علقت كالشبكة لتدرأ نور الشمس إلى مكانها. مسكين أوجين! إنه ينظر حوله في الغرفة إلى قِطع الأثاث القليلة، إلى ملاءات الأسرَّة الوسخة، وحوض الاغتسال ذي الماء القذر الراكد، ويقول " إنني مُستَعبَدْ! " يقولها كل يوم، وليس مرة فقط، بل مرات عديدة. ثم يتناول قيثارته عن الجدار ويبدأ بالغناء.

ولكن لنعُد إلى رائحة الزبد العفن... فهناك مُلحقات جيدة أيضاً.
حين أفكِّر في هذا الزبد العفن أتخيَّلُني واقفاً في فناء صغير، من عالم قديم، يعبق بالروائح. فناء موحِش جداً. ومن خلال الشقوق في مصاريع النوافذ تتلصَّص عليَّ أشكال غريبة... عجائز يضعنَ أوشحة، وأقزام، وقوادون بوجوه جرذان، ويهود حُدُب، وفتيات خليعات midinettes وبلهاء مُلتحون. يترنّحون وهم خارجون إلى الفناء ليجلبوا الماء أو ليشطفوا الدِلاء القذرة. وذات يوم طلبَ مني أوجين أنْ أُفرِغَ الدلو نيابة عنه. فأخذته إلى زاوية الفناء، وكان في الأرض ثقب انتشرتْ حوله أوراق قذرة. البئر الصغيرة كانت لزجة من الغائط، وباللغة الدارجة يُسمّى "خراء". قَلَبتُ الدلو فسمعتُ طرطشةً بلهاء مُقرقرة تبعتها طرطشةٌ أخرى غير متوقّعة. ولمّا عدتُ كانت الشوربة قد مُسِحَتْ. كنتُ طوال الوجبة أفكِّر في فرشاة أسناني - لقد أصبحتْ عتيقة وشُعيراتها تعلق بين أسناني.

كلما جلستُ لتناول الطعام أجلسُ قرب النافذة. إنني أخاف الجلوس في الجانب الآخر من المائدة - فهي شديدة القُرب من السرير والسرير يزحفُ. أرى بقع الدم على الملاءات الباهتة في تلك الجهة، لكني أحاول ألا أنظر، وأمدُّ بصري إلى الفناء حيث يغسلون الدِلاء القذرة.

لا تكتمل الوجبة بدون موسيقا؛ فحالما يوزِّعُ الجبن يقفزُ أوجين ويتناول القيثارة المُعلّقة فوق السرير. دائماً يُغني الأغنية نفسها. يقول إنَّ رصيده الموسيقي يحوي خمس عشرة أو ست عشرة أغنية، لكني لم أسمع أكثر من ثلاث. والأغنية الأثيرة لديه هي " ***قصيدة حب ساخرة*** " وهي مملوءة ***بالهم الغم***.

بعد الظهر نذهب إلى السينما حيث البرودة والظلمة. يجلس أوجين أمام البيانو في خلفية المسرح وأجلس أنا في المقدمة على مقعد. المكان خال، لكنَّ أوجين يغني وكأنَّ أمامه جمهوراً من رؤوس أوروبا المتوّجة. باب الحديقة مفتوح وعبير الأوراق الرطبة ينغمسُ في الغرفة ويمتزجُ المطرُ مع **غم** أوجين **وهمّه**. وعند منتصف الليل وبعد أنْ يُتخَم النظّارة القاعة برائحة العَرَق والأنفاس الكريهة، أعود لأنام على أحد المقاعد. ويُلقي نور مصباح " باب الخروج "، السابح في هالةٍ من دخان السجائر، ضوءاً خافتاً على الزاوية الأدنى من الستارة الحريرية، وكل ليلة أغمض عيني على عين اصطناعية...

أقفُ في الفناء بعينٍ زجاجية، لا أرى غير نصف العالم. الحجارة رطبة ويعلوها الطحلب وفي شقوقه تكمن العلاجيم السود. ويعترض المدخل إلى قبو الخمور بابٌ كبير، الدَرَج لزِج، وملوَّث ببراز الوطاويط. الباب يبرز ويغور، والمفاصل تسقط، ولكن هناك علامة مرسومة عليه، وهي في حالة جيدة، تقول: " تأكَّد من إغلاق الباب ". وما الداعي إلى إغلاق الباب؟ لا أفهم. وأنظرُ إلى العبارة ثانية فإذا بها قد أُزيلتْ، وأجدُ مكانها لوحَ زجاج مُلوَّن. أنزعُ عيني الزجاجية، وأبصقُ عليها وأُنظِّفها بمنديلي. هناك امرأة جالسة على مِنصّة فوق مقعدٍ محفور بإتقان وحيَّةٌ تلتف حول عنقها. الغرفة برمّتها مرصوصة بالكتب وأسماك غريبة الشكل تسبح في أوانٍ زجاجية كُرويّة ملوَّنة، وخرائط وجداول مُعلَّقة على الجدار، خرائط لباريس قبل الطاعون، خرائط للعالم العتيق، لكنوسوس وقرطاجة، لقرطاجة قبل أنْ تتملَّح وبعده. أرى في زاوية الغرفة قوائم

سرير حديدية تتمدَّد عليها جثة، تنهضُ المرأة بانزعاج وتزيح الجثة عن السرير وترميها من النافذة بحركة شاردة. ثم تعود إلى المقعد الضخم المحفور، تتناول سمكةً ذهبية من الإناء وتبتلعها. وتبدأ الغرفة بالدوران ببطء، وتنزلق القارات واحدة إثر أخرى وتغوصُ في البحر، ولا تبقى إلا المرأة، لكنَّ جسمها صار عبارة عن كتلة من الجغرافيا. وأُطلُّ من النافذة وإذا ببرج إيفل يفور بالشمبانيا؛ إنه مبنيّ برمّته من أرقام ومُكفَّن بشريطٍ أسود. البلاليع تمورُ بغضب. لا يوجد إلا أسطح في كل مكان، موزّعة ببراعة هندسية مقيتة.

لقد قُذِفتُ من العالم كخرطوشة. انزاحَ ضبابٌ كثيف، والأرض تلطَّخَتْ بشحمٍ متجمّد. أشعرُ بالمدينة تنبض، كأنها قلب خُلِعَ لتوّه من جسمٍ حيّ. نوافذ فندقي تتقرَّح وثمة نتانة قوية لاذعة كأنها منبعثة من تفاعلات كيميائية. أرى وأنا أنظر إلى نهر السين الحمأة والخراب، مصابيح الشارع تغرق، ورجالاً ونساءً يختنقون حتى الموت، والجسور مُغطّاة بالمنازل، ومسالخ الحب. هناك رجلٌ واقف يستند إلى الجدار ويحملُ أوكورديوناً مربوطاً إلى بطنه، يداه مبتورتان من الرسغين، لكنَّ الأكورديون يتمعَّجُ بين جدعتيه ككيسٍ مملوءٍ بالأفاعي، الكون يتضاءلُ، صار فقط بطولِ مُجمَّعٍ سكني، بلا نجوم، ولا أشجار، ولا أنهر. القاطنون هنا أموات، يصنعون كراسي يجلسُ عليها آخرون في أحلامهم. وفي وسط الشارع دولاب وفي محور الدولاب ثُبِّتتْ مشنقة. الموتى يحاولون بهياج أنْ يرتقوا المشنقة، لكنَّ الدولاب يدور بأقصى سرعة...

أفتقرُ إلى عنصرٍ ما ليوائمني مع نفسي. ومساء أمس اكتشفتُ هذا العنصر: إنه بابيني[٢٠] Papini. لا يهمّني إنْ كان متعصّباً وطنياً، أم دينياً، أم مُتحذلقاً قصير النظر. أمّا كفاشل فهو رائع...

ويا للكتب التي قرأها - وهو في الثامنة عشرة! ليس فقط هومر، ودانتي، وغوته، ليس فقط أرسطو، وأفلاطون، وأبيكتيتوس، ليس فقط رابليه، وثرفانتث، وسويفت، ليس فقط ويتمَنْ وإدغار ألن بو، وبودلير، وفيّون، وكاردوتشي[٢١]، ومانتزوني[٢٢]، ولوب دو فيغا، ليس فقط نيتشه وشوبنهاور، وكانط وهيغل وداروين وسبنسر وهكسلي - ليس فقط هؤلاء، بل كل الشخصيات الصغيرة الكائنة بينهم. هذا في الصفحة ١٨. alors، في الصفحة ٢٣٢ ينهار ويعترف. يعترف قائلاً أنا لا أعرفُ شيئاً؛ أعرفُ العناوين؛ صنَّفتُ المراجع، كتبتُ مقالاتٍ نقدية، أسأتُ وشوَّهت... أستطيع أنْ أستمر في الكلام خمس دقائق أو خمسة أيام، لكنني أستسلمُ بعدها وقد نضب معيني.

ثم يقول ما يلي: "كلهم يريد أنْ يراني. كلهم يصرّون على التحدث معي. الناس يزعجونني ويُزعجون الآخرين باستفساراتهم حول ما أقوم به. كيف حالي؟ هل تحسّنتْ صحتي؟ هل لا أزال أقوم بنزهاتي إلى الريف؟ هل أعمل؟ هل أنهيتُ كتابي؟ هل سأبدأ آخر قريباً؟

---

٢٠ - جيوفاني بابيني (١٨٨١ - ١٩٥٥) : صحافي ، وناقد جَدَلي ، وشاعر وروائي إيطالي . جعلته آراؤه الجدلية من أشد الكُتّاب الطليعيين في الأدب إثارةً للجدل في إيطاليا . بعد الحرب العالمية الثانية فقد أيديولوجيته ووقع في كثيرٍ من الآراء المتناقضة . له كتاب عن حياة المسيح وآخر عن تاريخ الشيطان . له أكثر من ٨٠ كتاباً في الفلسفة والنقد الأدبي والرواية والقصة القصيرة . - المترجم

٢١ - جيوزوه كاردوتشي (١٨٣٥ - ١٩٠٧) : شاعر إيطالي ، حاز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٠٦ .

٢٢ - أليساندرو مانتزوني (١٧٨٥ - ١٨٧٣) : روائي وشاعر رومانسي إيطالي .

هناك قردٌ ألماني هزيل يُريد أن أترجم له أعماله؛ وفتاة روسية ذات نظرات متوحشة تريد أنْ أروي لها قصة حياتي؛ وسيدة أميركية تريد أنْ تعرف " آخر " أخباري؛ وسيد أميركي سيُرسِل لي عربته ليأخذني لتناول العشاء - مع حديثٍ وديّ حميم، كما تعلم؛ وزميل دراسة وصديق قديم، قبل عشر سنوات، يريدُ أنْ أقرأ له ما كتبتُ بالسرعة نفسها التي كتبتها بها؛ ورسّام صديق لي يريدُ أنْ أعمل عنده موديلاً ساعيّاً؛ وصحفي يريدُ عنواني الحالي؛ وأحد المعارف وهو صوفيّ يسألُ عن حالة روحي؛ وآخر، عمليٌ أكثر، يسألُ عن وضعي الاقتصادي. رئيس النادي الذي أنتسبُ إليه يسألُ إنْ كنتُ سأُلقي خِطاباً إكراماً للشباب! وسيدة ذات ميول روحيّة تأملُ في أقوم بزيارتها لتناول الشاي قدر ما أستطيع. تريد رأيي في يسوع المسيح، ورأيي في ذلك الوسيط الجديد؟...

يا إلهي العظيم! إلى ما آليتني؟ أيّ حقٍ لكم عليّ أيها الناس حتى تقلبوا حياتي رأساً على عقب، وتبددوا وقتي، وتسبروا روحي، وتمتصوا أفكاري، وتتخذوا مني رفيقاً، وموضع ثقة، ومكتب استعلامات؟ ماذا تظنونني؟ أمهرّجاً مأجوراً مطلوب مني أنْ أمثّل في صباح كل يوم مهزلةً فكرية تحت أنوفكم البلهاء؟ أم عبداً مُشترى مدفوعاً ثمنه، حتى أزحف على بطني أمامكم أيها المتبطّلون وأضعُ عند أقدامكم كل أعمالي ومعرفتي؟ أم مومساً في ماخور يُنادى عليها لترفع ثوبها أو تخلع قميصها بطلبٍ من أول رجل يرتدي بذلة مُفصّلة يأتي إليها؟

أنا رجلٌ يريدُ أنْ يعيشَ حياةً بطوليّة ويجعل العالم أكثر احتمالاً في نظره. إذا انتابتني نوبة غضب، في لحظةِ ضعفٍ أو راحة أو حاجة -

نوبة غضب مُستمرّة يمكن إخمادها بالكلمات - أو حلم مشبوب مُغلّف ومربوط بالخيال - فتحمّلوني أو لا تتحملوني... ولكن لا تزعجوني.

أنا إنسانٌ حرّ - وفي حاجة إلى حريتي؛ إلى وحدتي؛ إلى التأمل في عاري ويأسي في مُعتزلي، أحتاجُ إلى أشعة الشمس وحِجارة رصف الشوارع بلا رِفاق، بلا حديث، وجهاً لوجه مع نفسي، ليس لي إلا موسيقا قلبي رفيقة. ماذا تريدون مني؟ حين يكون لديّ ما أقول، أقوله كتابةً! وإذا كان لدي ما أهب، أهبه. فضولكم الوقح يُثيرُ غثياني! إطراءاتكم تذلّني! شايكم يُسمّمني! أنا لا أدين بأي شيءٍ لأي إنسان. لستُ مسؤولاً إلا أمام الله وحده - إنْ كان موجوداً! "

يبدو لي أنَّ بابيني يفتقرُ إلى شيءٍ رفيعٍ كالشعرة عندما يتحدث عن حاجته إلى أنْ يكون وحده. ليس من الصعب أنْ تكون وحدك إذا كنتَ فقيراً وفاشلاً، فالفنان دائماً وحيد - إذا كان فناناً حقاً. كلا، إنَّ ما يحتاجه الفنان هو الوحدة lonliness.

أنا أُسمّي نفسي فناناً. فلأكن هكذا. بعد ظهر هذا اليوم آخذ غفوةً تُشيعُ شعوراً مخملياً بين فِقرات عظمي. أنتجتُ أفكاراً تكفيني ثلاثة أيام. إنني طافحٌ بالطاقة ولا أعرفُ ماذا أفعلُ بها. أقرّرُ أنْ أتمشّى. في الطريق أُغيِّرُ رأيي، وأقرر أنْ أذهب إلى السينما. لا أستطيع أنْ أذهب إلى السينما - تنقصني بضعة سوات. فلأتمشّى إذن. أتوقّفُ عند كل دارٍ للسينما وأنظر إلى لوحةِ الإعلانات، ثم إلى قائمة الأسعار. رخيصة حقاً، مرابع الأفيون تلك، ولكن تنقصني بضعة سوات. إذا لم يكن قد فات الأوان قد أعود لأبيع زجاجة فارغة.

لدى وصولي إلى شارع أميلي أكون قد نسيتُ كل شيء عن السينما. شارع أميلي هو أحد الشوارع الأثيرة لديّ. هو أحد الشوارع التي نسيتْ البلدية أنْ ترصِفها لحسن الحظ. طوله لا يتجاوز عرض مُجمّع سكني وضيِّق. وفي ذلك الشارع يقعُ فندق بريتي. وهناك كنيسة صغيرة أيضاً، في شارع أميلي. وكأنها بُنيَتْ خصوصاً لرئيس الجمهورية ولأفراد أسرته المُقرَّبين. أمرٌ جميل أحياناً أنْ يرى المرء كنيسةً صغيرة متواضعة. إنَّ باريس مملوءة بالكاتدرائيات النفّاجة.

جسر ألكسندر الثالث. وهناك ساحة مترامية تلعبُ فيها الرياح قريبة من الجسر. أشجارٌ هزيلة، جرداء، مُثبَّتة داخل أقفاصها بطريقةٍ رياضية، وكآبة العجزة تنبعثُ من قُبّة السماء وتغمر الشوارع المُظلمة المجاورة للساحة. إنها جبَّانة الشِعر. وقد وضعوا الآن حيث أرادوا المحارب العظيم، آخر رجل عظيم في أوروبا. إنه غارقٌ في سُباتٍ عميق داخل سريره الغرانيتي. لا خوفَ عليه من أنْ يتقلَّب داخل جَدَثه؛ فالأبواب مُحكمَة الإغلاق، والغطاء مُثبَّتْ بقوة، فنَمْ يا نابوليون! إنهم ما أرادوا أفكارك، بل فقط جثَّتك!

لا زال النهرُ مُتخبّطاً وموحلاً، معجوناً بالأضواء. لا أدري ما الذي يهيجُ داخلي لمرأى هذا التيار المُظلِم، السريع الحركة، لكنَّ جَذَلاً عظيماً يُحيي روحي، يؤكد رغبتي العميقة في ألا أغادر هذا البلد. أذكُرُ مروري بتلك الطريق ذات صباح قريب متوجهاً إلى الأميركان إكسبريس، وأنا أعرف مُسبقاً أنه لا يوجد بريد في انتظاري، لا شيك، لا برقية، لا شيء، لا شيء. وعلى الجسر دمدمت عربة قادمة من الغاليري لافاييت. كان المطر قد توقَّفَ والشمس تشق طريقها خلال الغيوم الرغوية وتمس

أسطح الدبش البرّاقة بنارها الباردة. أذكر الآن كيف مالَ السائق ليطلّ عبر النهر جهة طريق باسي. كم كانت نظرة صحيّة، بسيطة، مُستحسنة، وكأنه يقول لنفسه: " آه، الربيع آت ". ويعلم الله أنه عندما يحل الربيع بباريس لابد أنْ يشعرَ أبسطُ كائنٍ حيّ أنه يسكنُ الجنة. وليس هذه فقط – بل إنَّ عينيه سرعان ما تتآلفان مع المشهد الذي وقعتا عليه. إنها باريسه هو. لا حاجة للإنسان إلى أنْ يكون ثرياً، ولا حتى مواطناً، ليشعر هكذا حيال باريس. باريس مملوءة بالفقراء – ويبدو لي أنهم من أشدّ أهل الأرض تكبُّراً وفِحشاً. ومع ذلك فهم يمنحون انطباعاً بأنهم يتصرّفون وكأنهم في بيوتهم. وهذه الخاصيّة هي التي تُميِّز الباريسي عن جميع البشر الذين يقطنون المدن الكبرى.

حين أفكِّرُ في نيويورك يجتاحني شعور مختلف تماماً. فنيويورك تجعل حتى الثريّ يشعر بحقارته. نيويورك باردة، برّاقة، خبيثة. الأبنية مُسيطرة، وهناك أنواعٌ من السُعر الذي يُسربل النشاط السائد، وكلما ازداد عنف الخطو، ازداد انسحاق الروح. هياجُ مستمر، لكنه هياج يمكن أنْ يحدث أيضاً داخل أنبوب اختبار. لا أحد يعلم سببه. ولا أحد يوجّه هذه الطاقة. شيءُ مذهل. شاذ. مُحيِّر؛ إلحاحُ ارتكاسيّ reactive هائل، لكنه مُتنافر كل التنافر.

حين أفكّر في المدينة التي وُلِدتُ فيها ونشأتُ، في هذه المانهاتن التي تغنّى بها ويتمَنْ، يلسع أحشائي غيظٌ أبيض وأعمى. نيويورك! السجون البيضاء، الأرصفة الغاصّة بالديدان، وطوابير أمام الأفران، ومرابع تعاطي المخدرات التي تشبه القصور، والعمال الأجانب في كل مكان، والمجذومون، وقُطّاع الطُرُق، وقبل كل شيء " ***الضجر*** "، رتابة

الوجوه، الشوارع، السيقان، المنازل، ناطحات السحاب، الوجبات، المُلصقات الجدارية، الأعمال، الجرائم، علاقات الحب... مدينة كاملة قائمة فوق هوّة من العدم. عبثٌ صِرف. والشارع الثاني والأربعون! قمة العالم، كما يُسمّونه. فأين قعره إذن؟ يمكنكَ أنْ تتابع مسيركَ وأنتَ ممدود اليدين وسوف يضعون جمراً في قبعتك. ويتابعون سيرهم، غنيّهم وفقيرهم، شامخو الرؤوس ويكادون يكسرون أعناقهم وهم يرفعون أنظارهم عالياً إلى سجونهم البيضاء الجميلة. يُتابعون مسيرهم كإوز أعمى والأضواء الكاشفة ترشُّ وجوههم الفارغة برذاذ من النشوة.

قال إمرسُن: " تتألف الحياة مما يفكِّر الإنسان فيه طوال يومه ". إذا كان هذا صحيحاً فحياتي ليست غير أمعاء ضخمة. إنني لا أكتفي بالتفكير في الطعام طوال النهار، بل وأحلم به ليلاً.

لكني لا أطلبُ العودة إلى أميركا، ليركِّب لي سرج مُضاعَف من جديد، لأشغِّل دولاب روتين. كلا، أُفضِّل أنْ أكون رجلاً أوروبياً فقيراً. ويعلمُ الله أني فقيرٌ بما يكفي، يبقى لي أنْ أكونَ رجلاً. في الأسبوع الفائت ظننتُ أنَّ مُعضلة العيش توشكُ أنْ تُحلّ؛ ظننتُ أني في سبيل أنْ أكتفي ذاتياً، فقد تصادفَ أنْ قابلتُ روسياً آخر - يُدعى سيرج. يعيشُ في سوريسن حيث توجد جالية صغيرة من الـ émigrés (المهاجرين) والفنانين المُحبَطين. قبل الثورة كان سيرج كابتن في الحرس الملكي، طوله ستة أقدام وثلاث بوصات وهو يرتدي جوربه، ويجرع الفودكا كسمكة. كان والده أميرالاً أو شيئاً من هذا القبيل، على المدرّعة " بوتمكين ".

قابلتُ سيرج في ظروف خاصة. في ذلك اليوم خرجتُ أبحثُ عن طعام، وعند الظهيرة وجدتني بالقرب من الفولي برجير - أو بالأحرى قرب بابه الخلفي الواقع في الزقاق الضيِّق الصغير الذي ينتهي أحد طَرَفيه ببوابة حديدية. كنتُ أحوم حول مدخل خشبة المسرح، يحدوني أملٌ غامض في الاحتكاك بإحدى الفراشات حين اندفعَتْ شاحنة مكشوفة واحتلَّتْ الرصيف. ولما شاهدني السائق، سيرج، واقفاً ويديّ في جيبي،

طلَبَ مني أنْ أساعده في تفريغ البراميل الحديدية. وعندما علِمَ أني أميركي ومُفلِس كاد يبكي فرحاً. إذ يبدو أنه كان يبحث في طول المكان وعرضه عن مدرِّس للّغة الإنكليزية. وساعدته في دحرجة براميل المبيدات الحشرية إلى الداخل وأنا أملّي نظري بمرأى الفراشات ترفرفُ متنقّلة بين الأروقة. واتّخذَتْ الحادثة بالنسبة إليّ أبعاداً غريبة - المنزل الفارغ، ودُمى النشارة تتقاذف في الأروقة، براميل المبيدات الحشرية، والمدرعة " بوتمكين " - وقبل أي شيء، كياسة سيرج. كان ضخم الجثة ورقيقاً؛ رجلاً بكل بوصة فيه، لكنه يحمل قلب امرأة.

وفي مقهى قريب يُدعى مقهى الفنانين - يعرضُ عليَّ على الفور عملاً، قائلاً إنه سيمدُّ لي حشيّة على أرض الصالون. وبالنسبة إلى الدروس، يقول إنه سيُقدِّم لي وجبة كل يوم، وجبة روسيّة دسمة، أو إذا غابتْ الوجبة لأي سببٍ من الأسباب سيعطيني ستة فرنكات عِوضاً عنها. وبدا العرضُ لي رائعاً - ***رائعاً***. والمشكلة الوحيدة هي كيف سأقطع المسافة بين سوريسن والإكسبريس الأميركي كل يوم؟

ويصرُّ سيرج على أنْ نبدأ فوراً - وينفحني تعرِفة المواصلات لقطع المسافة إلى سوريسن في المساء. وأصلُ قُبيل العشاء، حاملاً حقيبة الظهر لأعطي سيرج الدرس. ويكون هناك بعض الضيوف - يبدو لي أنهم دائماً يتناولون الطعام جماعات، وكلهم يتحدثون دفعة واحدة.

كنا ثمانية أشخاص على المائدة - وثلاثة كلاب. الكلاب تأكل أولاً. تأكل شوفاناً. ومن بعدها نأكل نحن. ونأكل شوفاناً أيضاً - وهو بمثابة مُشهٍّ. ويقول سيرج غامزاً بعينه: " عندنا، هذا لأجل الكلاب،

شوفان الكويكر. وهذا لأجل السيد، مفهوم "[٢٢]. بعد الشوفان يأتي حساء الفِطر والخضار، وبعد ذلك عجّة اللحم المُقدَّد، فالفاكهة، والنبيذ الأحمر، والفودكا، والقهوة، والسجائر. لا بأس بها، الوجبة الروسية تلك. كلّهم يتكلمون وأفواههم مملوءة بالطعام. وبعد الانتهاء من تناول الطعام تتمدَّد زوجة سيرج، وهي عاهرة بليدة أرمنية، على الأريكة وتبدأ بقضم السكاكر. وتمدُّ أصابعها الثخينة لتجوس في الصندوق، وتلوك قطعة صغيرة لترى إنْ كان قد تبقَّى فيها أي عصير، ثم ترميها بعد ذلك على الأرض للكلاب.

تنتهي الوجبة، ويندفعُ الضيوف هاربين، وكأنما من وباءٍ ما. ونُترَكُ، سيرج وأنا، مع الكلاب - وتستغرقُ زوجته في النوم على الأريكة. ويتجوَّل سيرج في المكان بلا مبالاة، وهو ينثر النفاية للكلاب. يقول: "الكلاب تُحبّها كثيراً... هذا جيد للكلاب. الجرو مُصابٌ بالديدان... لا يزال صغيراً جداً "، وينحني ليتفحَّص بعض الديدان البيضاء المُلقاة على السجادة بين مخالب الكلب. ويحاولُ أنْ يشرحَ لي شيئاً حول الديدان بالإنكليزية، لكنَّ المفردات تعوزه. وأخيراً يستشير القاموس في هذا الشأن. يقول: " آه "، وهو يرمقني بجذل، " إنها ***ديدانٌ شريطية***! ". بدا جلياً أنَّ ردّة فعلي لم تنم عن ذكاء حاد. إنَّ سيرج مُحتار. ويخرُّ على رُكبتَيه ليتفحَّصها بإمعان، ويلتقطُ إحداها ويضعها على الطاولة قرب الفاكهة، ويزمجر: " ها هي، ليست كبيرة جداً. الدرس القادم أنتَ تعلّمني عن الديدان، صح؟ أنتَ أستاذٌ شاطر. أنا أتقدَّم معك... "

---

٢٢ - الجملة وردت بالفرنسية .

يكادُ عبق مبيدات الحشرات يخنقني وأنا متمدد على الحشيّة الموجودة في الصالون. عبقٌ حادٌّ لاذع، أشعرُ به يُهاجم مسام جسمي كلها. ويبدأ الطعام يتردَّد على ذاكرتي - شوفان كويكر، الفِطر، اللحم المُقدَّد، التفاح المقلي. أرى الدودة الشريطية الصغيرة ممدودة بالقرب من الفاكهة مع بقية تشكيلة الديدان التي وضعها سيرج على مفرش المائدة ليشرح مصاب الكلب. أرى مُقدّمة مسرح الفولي برجير الخالية وفي كل شق صراصير وقمل وبقّ. أرى أُناساً يهرشون أنفسهم بهياج، يهرشون ويهرشون حتى يسيل الدم منهم. أرى ديدان تزحفُ على المشهد العام كجيش من النمل الأحمر يلتهم كل ما يقعُ عليه البصر. أرى فتيات الجوقة يرمين أدريتهنّ الكهنوتية الشفّافة ويركضنَ مُخترقات سُرادقات الكنيسة عاريات، وأرى المشاهدين في مقدمة المسرح يخلعون ملابسهم أيضاً ويهرش بعضهم بعضاً كالقِردة.

أحاولُ تهدئة نفسي. فأنا، قبل أي شيء، قد وجدتُ منزلاً يؤويني ووجبة طعام تنتظرني كل يوم. وسيرج كريم، ولا شك في ذلك. لكنَّ النوم يُجافيني، وكأني نائم في مشرحة، والحشيّة مُشبعة بسائل عِطري. إنها مشرحة للقمل، والبق، والصراصير، والديدان الشريطية. لا يمكنني أنْ أحتمل ذلك. بل لن أحتمله! فأنا، قبل أي شيء، إنسان، وليس قملة.

في الصباح أنتظرُ سيرج ليُحمِّل الشاحنة، وأطلبُ منه أنْ يقلّني معه إلى باريس. ولا يُطاوعني قلبي على أنْ أخبره أني راحل. وأُخلّفُ ورائي حقيبة الظهر وفيها بعض أشياء من ممتلكاتي. وحين نصل إلى ساحة بيربير أقفزُ خارجاً. ولا يكون هناك سبب معيَّن لترجّلي في ذلك المكان،

وليس لدي أي سبب معيَّن للقيام بأي شيء. ***أنا حر*** - وهذا هو الأساس...

رحتُ أطير متنقّلاً خفيفاً كعصفور من حارة إلى حارة. وكأني تحرَّرتُ من سجن. وأنظر إلى العالم بعينين جديدتين. صار كل شيء يُثير فيَّ اهتماماً عميقاً. حتى الأمور التافهة. في شارع فوبور بواسونيير أقفُ أمام واجهة إحدى مؤسسات التربية البدنية. هناك صور تبيِّن عيّنات من الرجال " قبل التمارين وبعدها ". كلهم ضفادع. بعضهم عرايا، إلا من نظارة أنف ولحية. لا أفهم كيف تُولع تلك المخلوقات بالمتوازيان وأثقال تمرين العضلات. على الضفدع أنْ يكون له بطن صغير جداً، مثل البارون دو شالو. يجب أنْ تكون له لحية ونظارة أنفيّة. وينبغي ألا يُصوَّر عارياً، وأنْ ينتعل حذاءً ذا جلد صقيل لمّاع، وأنْ يكون في جيب صدارة معطف الخيش منديل أبيض يبرز بمقدار ثلاثة أرباع البوصة فوق الشقّ. وإذا أمكن، فليضع شريطاً أحمر في طيّة سترته، من العروة. ويجب أنْ يرتدي بيجاما عندما يأوي إلى السرير.

أمرُّ وأنا أقترب من ساحة كليشي في أول المساء بالعاهرة الصغيرة ذات الجدعة الخشبية التي تقضي وقتها بالوقوف قبالة قصر غومون على مرّ الأيام. لم يكن يبدو أنَّ عمرها يزيد ولا بيوم على الثمانية عشر عاماً. وأعتقد أنَّ لها زبائنها المُعتمَدين. تقفُ هناك بعد منتصف الليل بأسمالها السوداء ثابتة في مكانها. وخلفها يقعُ زقاق صغير يتلظّى كأنه جحيم. أمرُّ بها الآن بقلبٍ يطفرُ فتُذكّرني بصورةٍ ما بإوزة مُقيَّدة إلى عمود، إوزّة بكبدٍ مُضطرب، حتى يتوفّر للعالم لحم كبد سمين pate de foie gras. يبدو غريباً أنْ تصطحب معك هذا الجذع الخشبي إلى السرير.

إنَّ المرء ليتخيَّل كل أنواع الأشياء - كالشظايا، الخ. على أي حال، لكلٍ ذوقه.

وحين أنعطف إلى شارع ده دام، أرتطم بيكوفر، وهو شيطان بائس آخر يعمل في الصحافة، يشتكي من أنه لا يحصل إلا على ثلاث ساعات نوم في الليلة - فعليه أنْ يستيقظ في الثامنة صباحاً ليعمل في مكتب طبيب أسنان. إنه لا يعمل من أجل النقود، كما يشرح لي - بل ليشتري لنفسه طقم أسنان اصطناعية. يقول: " من الصعب قراءة البروفة الطِباعية وأنتَ تكاد تسقط من شدَّة النعاس. تظن زوجتي أني أنال مبلَغاً سخياً لقاء ذلك، وتقول، ماذا سنفعل إذا فقدتَ عملك؟ ". لكنَّ بيكوفر لا يأبه على الإطلاق بالعمل، فهو لا يتيح له حتى أنْ يُنفق بعض النقود. وعليه أنْ يوفّر أعقاب السجائر ويستخدمها كتبغٍ للغليون. ومعطفه مُثبّت بدبابيس. وهو مُصاب بالبخر وتعرُّق اليدين ولا يحصل إلا على ثلاث ساعات نوم كل ليلة. يقول: " هذه ليست معاملة إنسانية، ورئيسي في العمل يستنزف أعصابي إذا أخطأت في فاصلة منقوطة ". ويُضيف متحدثاً عن زوجته، " امرأتي هذه، لا تكنُّ لي أي اعترافٍ بالجميل، أؤكد لك "

وعند افتراقنا أنجح في ابتزاز خمسين فرنكاً منه. وأحاولُ أنْ أعتصر خمسين سنتيماً أخرى، ولكن لا مجال. على أي حال حصلتُ على ما يكفي ثمن قهوة وكرواسان. وكان بالقرب من محطة القديس أليعازر حانة أسعارها منخفضة.

ويشاء الحظ أنْ أعثر في المغسلة على بطاقة لدخول حفلة موسيقية. وأهرعُ مسرعاً كالريشة إلى السال غافو. ويظهر دليل النظارة استياءً

لأنني تغافلتُ عن إعطائه بقشيش. وكلما مرَّ بي ينظرُ إليَّ مُستفهماً وكأنه يأملُ في أنْ أتذكَّر فجأة.

لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أنْ جلستُ بصحبة أناسٍ حَسَني المظهر حتى إنّي أشعرُ بقليلٍ من الخوف. لا أزال أشمُّ رائحة الفورمالدهايد. ربما كان سيرج ينقلُ بضاعةً إلى هنا أيضاً. ولكن لا أحدَ يهرش نفسه، حمداً لله. هناك نفحة عطر خفيفة... خفيفة جداً. حتى قبل أنْ تبدأ الموسيقا تظهر تلك النظرة الضجِرة على وجوه الناس. الكونشرتو هو شكلٌ مهذَّب للتعذيب الإنساني. وحالما يدقُّ المايسترو بعصاه الصغيرة، تسود نوبة تركيز متوترة يتبعها على الفور هبوطٌ عام، وارتياحٌ نباتي هادئ، يُحدِثه رذاذ متواصل غير متقطِّع من الأوركسترا. وينتبه دماغي انتباهاً دقيقاً وكأنَّ في جمجمتي ألفَ مرآة. وتتوتَّر أعصابي وترتجّ! الأنغام ككرياتٍ زجاجية فوق مليون نافورة من الماء. لم أذهب دهري لحضور كونشرتو خاوي المعدة كتلك المرة. لا شيء يفوتني، ولا حتى أقلّ رنّة من دبوس ساقط. وكأني تجرّدتُ من ملابسي وكل سُمٍ من جسمي هو بمثابة نافذة وكل النوافذ مُشرَّعة والنور يغمر حنجرتي. وأشعرُ بالضوء يتغلغلُ تحت تحدُّب روافد أضلعي مُعلّقة فوق محور أجوف يهتز بترددات. ولا أعرفُ كم دامَ ذلك الشعور؛ لقد فقدتُ كلَّ إحساسٍ بالزمان والمكان. وبعد انقضاء ما يُشبه الأبدية تبعَ ذلك فترةٌ من شبه الوعي وازنها هدوء أشبه بوجود بحيرة داخلي، بحيرة من البريق الذي يومضُ بألوانِ قوس قزح، طليّة كحلوى الهلام، وفوق هذه البحيرة تظهر أسراب من الطيور العابرة ذوات الأرجل النحيلة والريش اللماع مُحلّقةً باندفاعٍ لولبيّ عظيم. وتتعالى الأسراب صاعدة الواحدة بعد الأخرى بعيداً عن سطح البحيرة

الرائقة الساكنة، مارة من تحت نواظري، وتضيع في بحر الفضاء الأبيض. وببطء، ببطءٍ شديد، كعجوز تعتمر قبعة بيضاء، راحتْ تدور حولي، تغلقُ النوافذ ببطءٍ وتتراجعُ أعضائي إلى أماكنها. وفجأةً تندلع الأضواء ويتَّضحُ أنَّ الرجلَ ذا الصندوق الأبيض الذي حسبته ضابطاً تركياً هو امرأةٌ تعتمر أصيصاً من الزهور.

ثم سُمِعَ أزيزُ وسُعالُ كلّ مَنْ رغِبَ في السعال من كل قلبه. وحفيف أقدام ومقاعد تُصفَع بعنف وضجيجٌ ثابتٌ يتفتَّت لأناسٍ يتمشّون بلا هدف، لأناسٍ يُرفرفون نشرات البرامج ويتظاهرون بالقراءة ثم يرمون برامجهم ويجرّون أقدامهم من تحت مقاعدهم، ويرحّبون بأوهى حادثة تمنعهم من التساؤل عمّا كانوا يفكّرون فيه لأنهم إذا عرفوا أنهم كانوا يفكّرون بلا شيء فسوف يُصابون بالجنون. وتحت لهيب الأضواء القاسي يتبادلون النظرات ببلاهة وفي تحديقهم توتّرٌ غريب. وفي اللحظة التي يربتُ فيها قائد الأوركسترا ثانية يعودون إلى حالةِ الإغماء التخشّبي – يهرشون أنفسهم بلا وعي أو يتذكّرون فجأةً واجهةَ عرض فيها شال أو قبعة، يتذكّرون كل تفصيلٍ في تلك الواجهة بوضوحٍ مذهل، ويأخذون بالإصغاء بانتباه مُضاعَفْ لأنهم في حالة يقظةٍ تامة، ومهما تكن الموسيقا رائعة فلن يفقدوا وعيهم بواجهة العَرض تلك والشال المُعلَّق فيها، أو القبعة.

وهذا الانتباه يتبدّى جلياً وحتى الأوركسترا تبدو مُكهرَبة في انتباهٍ فوق عادي، والمقطوعة الثانية تشمخُ كالذروة – سريعةً جداً إلى درجةِ أنه حالما تتوقّف فجأةً وتشعشع الأنوار يغوص بعضهم في مقاعدهم كالجزر، فكوكهم تتحرّك بتشنُّج، وإذا فرضنا أنكَ صرخت فجأةً في

آذانهم: براهمز، بيتهوفن، ***مندليف، الهرسَك***، فسوف يُجيبون بلا تفكير قائلين: " ٤ ، ٩٦٧، ٢٨٩ ".

وفي الوقت الذي نصل فيه إلى مقطوعة ديبوسي يكون الجو قد بات مسموماً تماماً. وأجدني أتساءلُ كيفَ يكون شعوري لو كنتُ امرأة أثناء المضاجعة - وفيما إذا كانت المتعة أكبر، الخ. وأحاول أنْ أتخيَّل شيئاً ينفذ في وسط مُلتقى فخذيّ، لكني لا أحصل إلا على إحساسٍ غامضٍ بالألم. أحاولُ التركيز، لكنَّ الموسيقا فائقة المراوغة. ولا أتمكَّن من التفكير إلا في زهرية تدور ببطء والأشكال تتبدَّد في الفضاء. وأخيراً لا يبقى غير ضوء يدور، وأتساءلُ كيف يدور الضوء. الرجل الجالس قربي يغطّ في النوم، يبدو كسمسار بكرشه الضخم وشاربه المُشمَّع، ويعجبني منظره. وأحبُّ فيه ولاسيما ذلك الكرش الضخم وكل ما ساهمَ في تكوينه. ولِمَ لا يستغرق في النوم؟ إذا أراد أنْ يُصغي يمكنه دائماً أنْ يُصغي إلى خشخشة ثمن بطاقة الدخول. وألاحظ أنه كلما زادت أناقة ملبسهم زاد غطيطهم. لديهم ضمير مُرتاح، هؤلاء الأغنياء، ولو أغفى رجل فقير، بضع لحظات فقط، لعذَّبه وخز ضميره، ولتصوَّر أنه ارتكبَ جريمة في حق مؤلِّف الموسيقا.

أثناء المقطوعة الأسبانية سَرَتْ الكهرباء في الدار كلها. وجلسَ كل على طَرَف مقعده - فقد أيقظتهم الطبول. عندما بدأتْ الطبول تقرَع ظننتُ أنها لن توقف أبداً. توقعتُ أنْ أرى الناس يقعون من مقصوراتهم أو يرمون قبعاتهم في الهواء. وشملَ الجو عنصراً بطولياً وكان في استطاعة رافيل[٢٤] أنْ يوصلنا إلى حافة الجنون لو أراد. غير أنَّ هذا ليس

٢٤ - موريس رافيل (١٨٧٥ - ١٩٣٧) : مؤلف موسيقي فرنسي ، من أصل سويسري- باسكي . من مؤلفاته : " ألعاب الماء " و " بوليرو "

من شيَمْ رافيل. وفجأة هدأتْ الموسيقا. وكأنه تذكَرْ، وسط تصرفاته الغريبة، أنه يرتدي بذلة ذات ذيل مُستدقّ، لقد ضبطَ نفسه متلبّساً. وفي رأيي المتواضع أنه خطأ جسيم. فالفن يتحقّق بالذهاب إلى آخر الحد. وحين تبدأ بقرع الطبول عليك أنْ تنهي بتفجير الديناميت، أو الـ T.N.T. ورافيل ضحّى بشيءٍ ما من أجل الشكل، من أجل نوع من الخضار يقدر الناس على هضمه قبل الإيواء إلى السرير.

أفكاري تنتشر. الموسيقا تتسرَّبْ مني بعد أنْ سكتت الطبول، وعاد الناس في كل مكان إلى هدوئهم وانضباطهم. وتحت أضواء باب الخروج وقفَ شبيه لفيرتر يغمره اليأس، مُعتمداً على مِرفقيه وعيناه تومضان. وقرب الباب يقف أسباني يحمل بيده قبعة سومبريرو، وهو يلملم أطراف معطفه الفضفاض، وكأنه يتخذ وِقفة موديل لتمثال " بلزاك " لرودان. من العنق وإلى أعلى يشبه بوفالو بل. في الغرفة المقابلة لي، وفي الصف الأمامي، تجلس امرأة وساقاها ممدودتان، منفرجتان على آخرهما كأنها مُصابة بالكزاز، ورقبتها مرميّة إلى الخلف ومحلولة عن مكانها. وكم يكون رائعاً لو أنَّ المرأة ذات القبعة الحمراء الغافية فوق الحاجز تُصاب بالنزيف! لو لأنها تريق فجأةً مقدار دلو على أصحاب القمصان المُنشّاة أولئك في الأسفل. تصورٌ أولئك التافهين الملاعين العائدين إلى المنزل من حفلة موسيقية وقد تلطّختْ صداراتهم بالدم!

النوم هو طبقة القرار. لم يعُد هناك مَنْ يُنصت. من المستحيل الجمع بين التفكير والإنصات. يستحيل الحلم حتى حين لا تكون الموسيقا نفسها إلا حلماً. امرأة ذات قفاز أبيض تحمل بجعةً في حضنها. الأسطورة هي أنه حين أُخصِبَتْ ليدا ولَدَتْ توأماً. إنَّ كلَّ إنسان يلِدُ شيئاً

ما - كل إنسان ما عدا السُحاقية القابعة في الطابق العلوي، شامخة الرأس، وحلقومها مفتوح على آخره. إنها في كامل انتباهها وتستشعر رذاذاً خفيفاً من الشرر المنبعث من السيمفونية المُشعّة وجوبيتر يخرقُ أذنيها. عبارات صغيرة من كاليفورنيا، حيتانٌ بحرية بزعانف هائلة، زنجبار، ألكازار. حين شعشعَ ألفُ جامع على طول نهر الوادي الكبير. عميقاً داخل جبال الجليد والأيام كلها ليلك. شارع المال فيه عمودا أنشوطات أبيضان. وتماثيل كرغل... والرجل ذو الهراء الجاروفسكي... والأضواء المنبعثة من النهر... والـ...

في أميركا كان لدي عدد من الأصدقاء الهندوس، بعضهم طيب، وبعضهم سيئ، وبعضهم الآخر غير مبال. وقد وضعتني الظروف في موقف جعلتني فيه لحسن الحظ مصدر عون لهم، فكنتُ أوفّر لهم الأعمال وأجد لهم المأوى بل وأطعمهم عند الضرورة. وأعترفُ بأنهم كانوا ممتنّين جداً، إلى درجة أنهم جعلوا حياتي بائسة برعايتهم. اثنان منهم كانا من القديسين، إنْ كنتُ أعرف ما هو القديس، ولاسيما "جوبت" الذي وجدوه ذات يوم منحوراً من الأذن إلى الأذن. فقد وُجِدَ في صباح أحد الأيام في نُزُل في قرية غرينتش ممدداً على السرير عارياً تماماً، ونايه إلى جانبه وحنجرته مقطوعة، كما قلت، من الأذن إلى الأذن. ولم يُعرَف فيما إذا كان قد قُتِلَ أم انتحر. إلا أنَّ هذا ليس أمراً ذا بال...

إنني أستعيد سلسلة الظروف التي قادتني في آخر الأمر إلى منزل نانانتاتي. أستغربُ كيف كنتُ قد نسيتُ كل شيء عن نانانتاتي حتى قبل أيام قلائل وأنا مُستلقٍ في غرفة من فندق وضيع في شارع سل. كنتُ مستلقياً هناك على سرير حديدي أفكِّر في حالة الصفر التي وصَلْتُ إليها، ويا له من صِفر، يا له من عَدَم[٢٥]، وفجأة، بانغو! إذا بكلمة: عَدَم! تقفز إلى ذهني. هكذا كنا نسمّيه في نيويورك: عَدَم. السيد عَدَم.

---

٢٥ – المقصود أنَّ اسم الهندوسي يتطابق مع كلمة Nonentity ومعناها عَدَم .

أنا الآن مستلقٍ على الأرض وسط جناحه البهي الذي كان يتباهى به هو في نيويورك. نانانتاتي يؤدي دور السامريّ الطيب، فقد أعطاني زوجاً من الملاءات التي تُسبب الحكّة، وهما ملاءتا حصان، تلفّعتْ بهما على الأرض المُتربة، وفي كل ساعة من ساعات النهار كانت هناك أعمال صغيرة تتطلّب الإنجاز - هذا إذا تصرّفت بحمق وبقيَتُ في المنزل. في الصباح يوقظني بفظاظة لأحضر له طبق خضروات للغداء مؤلّفاً من: بصل، ثوم، وبقول، الخ. ويُحذِّرني صديقه كيبي من أكل الطعام - قائلاً إنه سيئ. وما الفرق إنْ كان طعاماً سيئاً أو جيداً؟ إنه طعام! وهذا هو المهم. ومن أجل أنْ أحصل على الطعام كنتُ مستعداً وبكل سرور أنْ أكنس السجّادة بمكنسة مكسورة، وأغسل ملابسه، وألملم فُتاته عن الأرض حالما ينتهي من تناول طعامه. وقد أصبحَ منذ وصولي حريصاً على النظافة كل الحرص: صار كل شيء يحتاج إلى تنظيف الآن، الكراسي يجب أنْ توضع في ترتيبٍ معيَّن، المنبّه يجب أنْ يرنّ، المرحاض يجب أنْ يسلك جيداً... إنه هندوسي مجنون إنْ كان حقاً بينهم مجنون! وبخيل كنبات البقول. سأضحك ملء قلبي على هذا حين أتخلّص من براثنه، أما الآن فأنا سجين، رجل لا اعتبار له، نجِس...

إذا لم أعُدْ إليه في المساء وذهبت لأتدثّر بملاءات الخيل يقول لي إبّان وصولي: " أوه، إذن أنتَ لم تُمتْ بعد؟ ظننتُ أنك متّ ". وعلى الرغم من أنه يعرف أني مفلس تماماً يُكرر على مسمعي خَبَراً عن غرفة رخيصة اكتشفها في منطقة مجاورة. وأقول: " ولكني لا أستطيع أنْ أستأجر غرفة بعد، أنتَ تعلم هذا ". فيجيبني بنعومة، وهو يطرف بعينيه كالصينيين: " أوه، نسيتُ أنكَ مفلس. دائماً أنسى، يا أندري... ولكنْ

عندما تصل البرقية... عندما ترسل لك الآنسة مونا النقود، سوف تصحبني لنبحث لك عن غرفة، هه؟ ". وبعد ذلك مباشرةً يلحُّ عليَّ لكي أبقى قدر ما أرغب - " ستة أشهر... سبعة أشهر يا أندري... أنتَ طيب جداً معي هنا "

ونانانتاتي هو أحد الهندوس الذين لم أقدِّم لهم عوناً في أميركا. لقد عرّفني بنفسه باعتباره تاجراً ثرياً تاجر لؤلؤ لديه جناح فارِه في شارع لافاييت في باريس، وفيلا في بومبى وفيلا في دار دارجيلنغ. وأدركتُ منذ النظرة الأولى أنه نصف عاقل، بيد أنَّ أنصاف العقلاء يتّصفون أحياناً بعبقرية تكديس الثروة. ولم أكنْ أعرف أنه يدفع فاتورة الفندق في نيويورك بترك لؤلؤتين كبيرتين في يد صاحب الفندق. ويُضحِكُني الآن أنْ أتذكّر أنَّ ذلك البُطيطة قد تبخترَ في أحد الأيام في بهو ذلك الفندق في نيويورك مع عصاه العاجيّة، وهو يُعطي توجيهاته للخدم في كل مكان، يطلب الإفطار لضيوفه، يطلب من البوّاب أنْ يبتاع له بطاقات المسرح، ويستأجر سيارة أجرة ليوم واحد، الخ، الخ، وكل هذا دون أنْ يكون في جيبه سوٍ واحد. لا يوجد معه إلا خيط مملوء باللآلئ الضخمة مُعلّق من رقبته وهو يُنفقها واحدةٍ بعد أخرى مع مرور الوقت. ويا لطريقته السخيفة في الربت على ظهري وهو يشكرني لطيبتي الجمّة مع الأولاد الهندوس - " كلهم أذكياء، يا أندري... بل فائقو الذكاء! ". ويقول إنَّ الإله الطيب فلان الفلاني سوف يُكافئني على طيبتي. الآن صرتُ أعرف لماذا كان الأولاد يقهقهون عندما أقترح عليهم أنْ يقنعوه بإقراضي خمسة دولارات.

كم تبدو غريبة الطريقة التي يُكافئني بها الإله فلان الفلاني على إحساني. فما أنا غير عبد لهذا البُطيطة السمينة. إنني رهن إشارته طول الوقت. وهو في حاجة إليّ هنا - يقول لي هذا في وجهي. وحين يذهب إلى وعاء التبرّز يصرخ: " أندري، احضر لي إبريقاً من الماء، من فضلك، يجب أنْ أتمسَّح "، فهو يرفض أنْ يستخدم ورق المرحاض. ربما كان لا يجوز طِبقاً لديانته. كلا، إنه يريد إبريقاً من الماء وخِرقة. هذا البُطيطة البدينة " مُرهف ". أحياناً بينما أنا أشرب كوباً من الشاي الشاحب الذي يغمسُ فيه ورق الورد يأتي إليّ ويقفُ بجانبي ويضرط بصوتٍ عالٍ، وفي وجهي مباشرة. ولم يقُلْ مرةً " معذرة! "، فلابد أنَّ هذه الكلمة لا يحتويها قاموسه الغوجاراتي.

يوم وصلتُ إلى شقة نانانتاتي كان يؤدي وضوءه، أو بمعنى آخر، كان يقفُ فوق وعاء قذِر يحاول أنْ يلوي ذراعه المعقوفة وراء رقبته. وبجانب الوعاء كان هناك طاس نحاسي يستخدمه لتغيير الماء. وطلبَ مني أنْ ألزم الصمت أثناء المراسيم. فجلستُ صامت، كما طلب، ورحتُ أراقبه وهو يُرتّل ويُصلّي ويبصق بين آنٍ وآخر في الوعاء القذِر. إذن هذا هو جناحه الذي تحدَّث عنه في نيويورك. شارع لافاييت! لقد بدا لي أنَّ شارعاً هاماً وأنا هناك في نيويورك. كنتُ أظن أنه لا يسكن ذلك الشارع إلا أصحاب الملايين وتُجّار اللآلئ. فشارع لافاييت يبدو رائعاً، حين تكون أنت على الطرف الآخر من المحيط. وهكذا يبدو أيضاً الشارع الخامس، حين تكون أنتَ هنا. لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يتصوّر مراتع النفايات الموجودة في تلك الشوارع المُرفّهة. لا يهمّ، ها أنا هنا أخيراً، أجلسُ في الجناح الفخم في شارع لافاييت. وهذا البُطيطة المجنون بيده المعقوفة

مستمرٌ في طقوس الاغتسال . الكرسي الذي أجلسُ عليه مكسور، وعمود السرير يتداعى، وورق الجدران يكاد ينسلخ ويقع، وتحت السرير حقيبة مفتوحة محشوّة بالملابس القذرة. ومن مجلسي يمكنني أنْ ألقي نظرة إلى أسفل حيث فناء بائس يجلس فيه أرستقراطيو شارع لافاييت يُدخّنون غلايينهم. وأتساءلُ الآن وهو يرتل تسبيحاته لله، عن شكل غرفة البنغالو في دارجيلنغ. إنَّ ترتيله وصلاته لا ينتهيان.

ويشرحُ لي الآن أنه مُلزم بالاغتسال طِبقاً لطريقةٍ مُقرَّرة - يتطلّبها دينه. إلا أنه في أيام الآحاد يأخذ حمّاماً في المغطس الصغير - ويقول إنَّ ذاتي العُظمى سوف تتغاضى عن ذلك. وبعد أنْ يرتدي ملابسه يتوجه إلى دولاب الملابس، ويركعُ أمام تمثال صغير قائم على الرف الثالث، ويُردِّد غمغماته المُبهمة. ويقول لي، إذا صلّيتَ هكذا كل يوم فلن يُصيبكَ مكروه. والإله الطيّب فلان لا ينسى عبده المُطيع. ثم يُريني ذراعه المعقوفة التي أُصيبت في حادثة سيارة في يوم لابد أنه أهملَ فيه أنْ يُكرِّر كامل الغناء والرقص. وتبدو ذراعه كفرجار مكسور، ولم تعد تشبه الذراع في شيء، بل هي أقرب إلى عَظمة برجمة موصولة إلى ساق قائمة. ومنذ أنْ جبَّرَ الذراع أخذ يظهر زوجٌ من الغدد المتورّمة تحت إبطيه - وهما غدّتان سمينتان صغيرتان، تشبهان تماماً خصيتيّ كلب. وبينما هو يتحسَّر على مصابه إذا به يتذكَّر فجأةً أنَّ الطبيب نَصَحَه بمزيدٍ من السمك واللحم، " وما رأيكَ في الأصداف يا أندري - لأجل أخيك الصغير le petit frere؟ وكل ذلك هو فقط من أجل أنْ يترك لديَّ انطباعاً قوياً. فهو لا يقصد أبداً شراء الأصداف واللحم والسمك. على الأقلّ طالما أنا موجود هنا. أما حالياً فنحنُ بصدد تغذية أنفسنا بالعدس

والأرز وبمختلف الأطعمة الجافّة التي خزّنها في العليّة. حتى الزِبد الذي ابتاعه في الأسبوع السابق لا يجوز تبديده أيضاً. وحين يبدأ بتمليح هذا الزبد تصدر عنه رائحة لا تُحتَمَل. في أول عهدي به كنتُ أُسرِعُ بالهرب حالما يبدأ بإذابة الزِبد. ولكن بعدئذٍ صرتُ أتحمَّل حتى النهاية. ولو استطاع أنْ يدفعني إلى تقيّؤ وجبتي لأسعدَه ذلك أيّما سعادة - فعندئذ سوف يتوفّر لديه شيءٌ آخر يُدخّره إلى جانب الخبز اليابس والجبن العفن والكعك الصغير المُزيّتْ الذي يصنعه بنفسه من الحليب الفاسد والزبد الزنخ.

ويبدو أنه خلال السنين الخمس الأخيرة لم يكن قد قام بأي عمل يُذكَر، لم يكسب قرشاً واحداً. وأخفقَتْ أعماله. ويُحدثني عن اللآلئ في المحيط الهندي - اللآلئ الكبيرة الضخمة التي تستطيع أنْ تعيش بثمنها طوال حياتك. ويُضيف أنَّ العربَ يُفسدون العمل. لكنه في تلك الأثناء يُصلّي للإله فلان الفلاني كل يوم، وهذا يساعده على الصمود. إنَّ علاقته بالإله ممتازة، وهو يعرفُ كيف يتملّقه، كيف يبتزّ منه بضع سوّات. إنها علاقة تجارية صِرف. ومقابل الكلام الفارغ الذي يُلقيه أمام الخزانة الصغيرة يحصل كل يوم على مؤونته من البقول والثوم، إلى جانب الخصيتين الضخمتين تحت ذراعه. هو واثق من أنَّ كل شيء سوف ينتهي على خير. وسوف تُباع اللآلئ من جديد ذات يوم، ربما بعد خمس سنين، وربما بعد عشرين سنة - حين يشاء الإله بورماروووم. وعندما ستزدهر الأعمال يا أندري، سوف تحصل على عشرة بالمئة مقابل كتابة الرسائل. ولكن عليك أولاً أنْ تكتب الرسالة لنعرف إنْ كان في وسعنا أنْ نحصل على اعتماد من الهند. وسوف يستغرق وصول الردّ ستة

أشهر، وربما سبعة أشهر... فالزوارق ليس سريعة في الهند ". هذا البُطيطة ليس لديه أي تصورُّ لمفهوم الزمن. وحين أسأله إنْ كان قد نام جيداً يقول: " آه، نعم يا أندري إنني أنام جيداً... أحياناً أنام اثنتين وتسعين ساعة في ثلاثة أيام "

في أوقات الصباح يكون عادة أشد كَسَلاً من أنْ يقوم بأي عمل. وذراعه! يا للذراع البائسة المكسورة التي تشبه العكّاز! أحياناً أتساءلُ حين أراه يلويها حول رقبته إنْ كان سيتمكّن من إعادتها إلى مكانها من جديد. ولولا الكرش الذي يحمله لذكَّرني بأحد أولئك البهلوانات في سيرك مدرانو. لا ينقصه إلا كسر ساقه. وحين يراني أكنسُ السجادة، ويرى مقدار الغبار الذي أُثيره يبدأ يقرقر كقزم " عظيم! عظيم جداً يا أندري. والآن سألتقطُ البقية "، وهذا يعني أنه لا يزال هناك بقايا غبار فاتني إزالتها، وهي طريقته المؤدّبة في التهكُّم.

وفي أوقات بعد الظهر يأتيه دائماً عددٌ من الأصدقاء من سوق اللآلئ، يأتون للقيام بواجب زيارته. كلهم دمثون. ويحتسون الشاي المعطَّر مُحدثين هسيساً وضجيجاً بينما يقفز نانانتاتي صاعداً هابطاً كعفريت العلبة أو يُشير إلى نثرة الغبار على الأرض ويقولُ بصوته الزلِق الناعم – "رجاءً التقطْ هذه النثرة يا أندري ". وحين يصل الضيوف يذهب منزلقاً إلى الدولاب ويُحضِر قطع الخبز الجاف، ويكون قد حمَّصها قبل نحو أسبوع وأصبح مذاقها الآن كمذاق الخشب التالف القوي، ولا يرمي قطعة واحدة منه. فإذا فسدَ الخبز كثيراً يأخذه إلى الطابق السفلي ويُعطيه لحارسة البوابة التي، كما يقول، كانت جمّة اللطف معه. وحسب قوله فإنَّ البوابة تبتهج لفوزها بالخبز العفن – فهي تصنع منه بودنغ الخبز.

وذات يوم أتاني صديقي أناطول ليراني. وابتهجَ نانانتاتي لذلك. وأصرَّ على أنْ يبقى أناطول ليشرب الشاي. وألحَّ عليه ليتذوّق كعكة الدهن الصغير والخبز العفِنْ. ويقول: " يجب أنْ تأتي كل يوم لتعلّمني اللغة الروسية. إنها لغةٌ جميلة... أريد أنْ أتكلمها. كيف تقول تلك الكلمة يا أندري – borsht؟ اكتبها لي، من فضلك يا أندري... ". ويجب أنْ أكتبها له على الآلة الكاتبة، وليس على شيءٍ آخر، حتى يستطيع أنْ يرى براعتي الفنية. فهو الذي اشترى الآلة الكاتبة بعد أنْ تسوَّلَ بذراعه المشوّهة، فالطبيب أشارَ عليه بهذا لأنه رياضة جيدة. إلا أنه سرعان ما سئمَ الآلة الكاتبة – فهي تكتب ***بالإنكليزية***.

وحين علِمَ أنَّ أناطول يُحسِنُ العزفَ على آلة المندولين قال: " عظيم جداً! يجب أنْ تأتي كل يوم لتعلّمني الموسيقا. سوف أشتري مندوليناً حالما تتحسَّن الحال. وهو جيد من أجل ذراعي ". وفي اليوم التالي يقترض جهاز فونوغراف من حارسة البوابة. " من فضلك علّمني الرقص يا أندري، إنّ بطني كبير جداً "، ويا ليته يشتري لي شريحة من لحم البقر حتى أستطيع أنْ أقول له: " هل تتفضَّل وتعضَّها من أجلي يا مستر عَدَم، فأسناني ليست قوية! "

وكما قلتُ آنفاً صار منذ وصولي مولعاً بالنظافة بشكلٍ خارق. ويقول لي: " بالأمس ارتكبتَ ثلاثة أخطاء يا أندري. أولاً، نسيتَ أنْ تغلق باب المرحاض وصار طوال الليل يضرب بوم_بوم، وثانياً، تركتَ نافذة المطبخ مفتوحة وهكذا شرختَ النافذة هذا الصباح، ونسيتَ أنْ تُخرِجِ زجاجة الحليب! أرجوك لا تنسَ أنْ تضع زجاجة الحليب في الخارج قبل أنْ تأوي إلى السرير، وفي الصباح سوف تتفضَّل وتُحضِرِ الخبز "

وكل يوم يُحضر صديقه المُسمّى كيبي ليسأل إنْ كان هناك زوّار قدِموا من الهند. وينتظر حتى يخرج نانانتاتي فيُسرِع مُهرولاً إلى الصوان ويلتهم شرائح الخبز المُخبّأة في برطمان زجاجي. ويُصرّ على أنَّ الطعام رديء، لكنه يدَّخره كجرذ. وكيبي نهّاب؛ نوع من القرّاد البشري، ربط نفسه إلى أفقر مواطنيه. ويرى كيبي أنهم ينحدرون من السلالة المغولية الملكية. وهو على استعداد ليمصّ مؤخرة أي هندوسي مقابل سيجار شيروت من مانيلا وثمن كأس من الشراب. انتبه، أقول إنها مؤخرة هندوسي وليس مؤخرة أحد الإنكليز. ولديه عنوان كل ماخور في باريس ودرجاتها. وهو يحصل على عمولته حتى من حانات العشر فرنكات، ويعرف أقصر السُبُل إلى أي مكان تريد الذهاب إليه، وسوف يسألك أولاً إنْ كنتَ تريد أنْ تستقل سيارة أجرة، فإذا كان الجواب بالنفي يقترح عليك الباص، وإذا كان هذا أيضاً يُكلّفكَ غالياً فالحافلة أو المترو. أو قد يقترح عليك أنْ يوصلك سيراً على الأقدام لتوفير فرنك أو فرنكين، وهو يعرف حقّ المعرفة أنكما لابد ستمرّان على دكان بيع التبغ في الطريق وأنكَ ستتلطَّف وتتكرَّم وتبتاع لي سيجار شيروت صغير.

كيبي رجل مُسلٍ نوعاً ما، لأنه ليس لديه أي طموح مهما كان عدا أنْ يمارس النكاح في كل ليلة. وينفق كل بنس يكسبه، وما أقلّها، في مراتع الرقص. وهو متزوج وله ثمانية أولاد في بومبى، إلا أنَّ ذلك لا يمنعه من عرض الزواج على أي وصيفة femme de chamber وتكون هي من البلاهة والسذاجة بحيث تقبل. ولديه غرفة صغيرة في شارع كوندورسيه يدفع إيجاراً لها ستينَ فرنكاً شهرياً. وقد غطّاها بورق الجدران بنفسه. وهو شديد الزهو بها أيضاً. ويستخدم لقلمه حبراً باللون

البنفسجي لأنه يدوم أكثر. وهو يُلمِّع حذاءه بنفسه، ويكوي ملابسه الداخلية ويقوم بغسلها. وإذا تفضَّلْتَ عليه بسيجار شيروت صغير فسوف يدور بك باريس كلها. وإذا توقفت لتتفرَّج على قميص أو دبوس لربطة العنق تومض عيناه ويقول: " لا تشتريها من هذا المحل، فهم يطلبون غالياً، سأريك محلاً بسعرٍ أرخص ". وقبل أنْ يتوفّر لك الوقت للتفكير في الأمر يطير بكَ ويضعكَ أمام واجهة عرض أخرى توجد فيها ربطات العنق والقمصان وأزرار ربطات العنق نفسها - ولعله المحل الأول نفسه! لكنك لا تدرك الفرق. وحين يسمع كيبي أنكَ تريد أنْ تبتاع شيئاً تنتعش روحه. ويطرح عليك الكثير من الأسئلة ثم يجرّك إلى أماكن عديدة حتى تشعر بالعطش وتطلب منه أنْ تتناولا مشروباً، وعلى الفور تكتشف مذهولاً أنكَ تقف ثانية في محل بيع التبغ - وربما يكون بائع التبغ الأول نفسه! - وكيبي يقول لكَ بذلك الصوت الرفيع والناعم: " هل لكَ أنْ تتفضل وتتكرَّم وتشتري لي شيروتاً صغيراً؟ ". ومهما كان قصدك أنْ تفعل، وإنْ كنتَ فقط تريد أنْ تنعطف عند الزاوية فسوف يوفّر عليك كيبي هذا العناء. سوف يدلّكَ كيبي على أقصر الطُرُق، على أرخص المحلات، على أكبر الوجبات، لأنك مهما فعلت فسوف تمرّ حتماً على بائع التبغ، وسواء أكانت هناك ثورة أم إضراب أم حَجْر صحي فيجب أنْ يكون كيبي في المولان روج أو الأولمبيا أو الآنج روج حيث تضجّ الموسيقا.

قبل أيام أحضرَ لي كتاباً لأقرأه. وكان يحكي عن دعوى قضائية بين رجل دين وناشر صحيفة هندية. فيبدو أنَّ الناشر اتَّهَمَ رجل الدين بأنه يعيش حياةً فاضحة، بل لقد تمادى فاتّهمه بأنه عليل. ويقول كيبي لابد

أنه مُصاب بالجدري الفرنسي الرهيب، لكنَّ نانانتاتي يُخالفه ويقول إنه كان السيلان الياباني. فبالنسبة إلى نانانتاتي على كل شيء أنْ يحتوي قدراً من المبالغة. على أي حال يقول نانانتاتي بمرح: " قُلْ لي من فضلك يا أندري، ماذا يقول هذا الكتاب، أنا لا أستطيع قراءته - فالقراءة تؤذي ذراعي "، ويقول بعدها، على سبيل تشجيعي: " إنه كتاب رائع يتحدَّث عن النكاح يا أندري. أحضره كيبي لأجلك. فهو لا يفكِّر إلا في الفتيات. لقد نكحَ الكثير من الفتيات - مثل كريشنا تماماً. نحن لا نؤمن بذلك يا أندري... "

وبعد قليل يأخذني إلى العليّة المملوءة بعلب التنك وهراء من الهند ملفوفة بالخيش وورق ناري، ويقول لي: " إلى هنا أُحضِر الفتيات ". ثم يُضيف بلهجة كئيبة: " إنني لا أحسِن النكاح يا أندري. لم أعد أخرط الفتيات. إنني أضمّهنّ إليّ وأقول كلمات. الآن لم أعد أرغب إلا في قول الكلام ". ويُصبح من غير الضروري الإصغاء إلى المزيد: أنا أعلم أنه سيحكي لي عن ذراعه. أكاد أراه مستلقياً هناك ومفصله المكسور يتدلّى من طرف السرير. ويُضيف وسط دهشتي قائلاً: " إنني لا أصلح للنكاح ياأندري. لم أكن عمري ناكحاً جيداً. أما أخي، فهو رائع! إنه يمارسه ثلاث مرات في اليوم، كل يوم! وكيبي جيداً أيضاً، مثل كريشنا تماماً "

وصار ذهنه الآن مُثبّتاً على ممارسة النكاح. وفي الغرفة الصغيرة من الطابق السفلي حيث يركع عادة أمام الخزانة المفتوحة يشرح لي حاله حين كان ثرياً مع زوجته وأولاده هنا. كان يأخذ زوجته في أيام العطل إلى "بيت الأمم" ويستأجر غرفة لليلة. وكل غرفة مُجهّزة بطراز مختلف، وأحبَّتْ زوجته المكان. " كان مكاناً رائعاً لممارسة النكاح يا أندري. إنني أعرف الغرف كلها... "

جدران الغرفة الصغيرة التي نجلس فيها مزدحمة بالصور الفوتوغرافية. وهي تمثّل كل فرع من فروع الأسرة. وكأنها مقطع عرضيّ للإمبراطورية الهندية. وأغلب أعضاء هذه الشجرة النسبية يبدون كأوراق ذابلة: النساء واهنات وفي عيونهن نظرة ذهول، نظرة هلع، وللرجال نظرة ذكيّة حادة، كالقِردَة المُثقَّفة. كلهم في الصورة، عددهم تسعون، مع ثيرانهم البيضاء، وأقراص الروث، وسيقانهم الهزيلة، ونظاراتهم العتيقة الطراز، وفي خلفية الصورة، ترى بين الحين والآخر تربة جافة، أو قوصرة منهارة، أو تمثالاً بذراعين معقوفين، أشبه بحشرة بشريّة. وهناك شيء فائق الروعة، شديد التنافر في هذا المعرض حتى أنَّ المرء ليتذكَّر بلا تردُّد مجموعة عظيمة من المعابد التي تنتشر من الهيمالايا وحتى أطراف جزيرة سيلان، وهي خليط عظيم من فن العمارة، ذات جمال مُذهل وفي الوقت نفسه هائلة الحجم ضخمة بشكلٍ قبيح لأنَّ الخصوبة التي تهتاج وتثور في أعداد هائلة من تشعبات التصميم الفني تبدو كأنها استنفدت تربة الهند ذاتها. وحين ينظر المرء إلى الخليّة المائجة من الأشكال التي تعجّ بها واجهات المعابد يرتبك من شِدَّة فعالية هؤلاء الناس السُمر الوسيمين الذين يمزجون فيوضهم الغامضة في عناق جنسي استمرّ ثلاثين قرناً أو أكثر. هؤلاء الرجال والنساء الهشّون بنظراتهم الثاقبة الذين يُحدّقون من أُطر صورهم يبدون أشبه بأشباحٍ هزيلة لتلك الأشكال الرجولية القوية، التي تجسّدت في الحجر والجصّ من أقصى الهند إلى أدناها لكي تبقى أساطير الأجيال البطوليّة التي تتمازج هنا متضافرة أبداً في قلوب قروييهم. ويكفي أنْ أنظر إلى قطعة من هذه الأحلام الحجرية الرحبة، هذه الصروح المتداعية المتكاسلة المُرصّعة بالدُرر،

المتخثّرة بالمني الإنساني، حتى تغمرني القدرة على تجسيد أشدّ تعبيرات شوقهم تملُّصاً.

غريبٌ خليطُ المشاعر الغامض هذا الذي يُباغتني الآن بينما نانانتاتي يهذر حول أخته التي ماتت وهي تلِد. ها هي مرسومة على الجدار، هشّة، مذعورة، ذات الاثنى عشر أو ثلاثة عشر ربيعاً مُتشبّثة بذراع شخص خرِف. حين كانت في العاشرة من عمرها وُهِبَتْ زوجة إلى هذا المخادع العجوز الذي دَفَن لتوّه خمساً من زوجاته. كان لديها سبعة أولاد، لم يعش منهم إلا واحد. لقد بيعَتْ إلى غوريلا عجوز لكي تبقى اللآلئ في حوزة الأسرة. ويُصرِّح نانانتاتي أنها وهي على فراش الموت هَمَسَتْ للطبيب قائلة: " لقد تعبتُ من كل ذاك النكاح... لا أريد أنْ أنكَح بعد الآن يا دكتور ". وبينما هو يسرد عليّ هذه الحكاية كان يهرش رأسه برصانة بذراعه العليلة، ويقول لي: " إنَّ النكاح سيئ يا أندري، لكني سأقول لك كلمة ستجعلك محظوظاً، يجب أنْ تردّدها يومياً، مراراً وتكراراً، يجب أنْ تقولها مليون مرة. إنها أفضل كلمة موجودة ياأندري... ردِّدْها معي الآن... ***أووماهاراموروما*** "

" ***.... أوومارابوو....*** "

" ***..... أووماميووومبا.....*** "

" ***كلا، يا أندري... هكذا....*** "

.... ولكن بسبب الضوء الضابّ، والطبع الرديء، والغلاف الممزَّق، والصفحة المُزعزعة، والأصابع المرتجفة، والبراغيث النطّاطة، وقمل السرير، والطفاوة على لسانه، وقطرة عينه، والبلغم في حنجرته، والشراب في غالونه، والحكّة التي في كفّه، وصوت ريحه، وضيق

تنفّسه، وضبابيّة إجهاده العقلي، والتقلُّص اللا إرادي لضميره، وذروة غضبه، وانفجار تدفُّق شرجه، والنار في حلقه، ودغدغة ذيله، والجرذان في علّيته، والضجيج والغبار في أذنيه، بما أنَّ إحراز أي تقدُّم يستغرق منه شهراً كاملاً، كان مُصمماً على أنْ يحفظ أكثر من كلمة واحدة في الأسبوع.

أعتقد أنه ما كان في وسعي أنْ أتخلَّص من قبضة نانانتاتي لو لم يتدخَّل القدر. ففي إحدى الأمسيات شاء الحظ أنْ يطلب مني كيبي أنْ أرافق أحد زبائنه إلى ماخورٍ مجاور. كان الشاب قد قدِمَ لتوِّه من الهند ولم يكن في مقدوره أنْ يُنفِقَ الكثير من نقوده. كان أحد أتباعِ غاندي، أحد أعضاء المجموعة الصغيرة التي قامت بمسيرتها التاريخية إلى البحر أثناء الشَغَب الحادّ. ويجب أنْ أعترف أنه كان تلميذاً مرِحاً جداً لغاندي، على الرغم من نذر التقشُّف التي التزمَ بها. كان جلياً أنَّ نظره لم يكن قد وقعَ على امرأة منذ زمنٍ طويل. وأقصى ما أمكنني عمله لأجله هو أنْ أوصِله حتى شارِع لافرييـر. كان ككلبٍ يُدلي لسانه. ويا له من شيطان صغير تافه، يُسربله الغرور من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه! كان يتألَّق ببذلة مُخطَّطة وقلنسوته، وعصاه الخيزران، وربطة عنق من نوع ويندسور، وابتاع لنفسه قلمَيّ حبر، وكاميرا كوداك، وبعض الألبسة الداخلية المزوَّقة. والنقود التي كان يصرفها كانت منحة من تجار بومبى الذين أرسلوه إلى إنكلترا لينشر تعاليم غاندي.

وما أنْ وجدَ نفسه داخل مربع الآنسة هاملتن حتى بدأ يفقد رباطة جأشه sang-froid. وحين ألفى نفسه مُحاطاً بسربٍ من النسوة العاريات نظر إليّ بذعر. قلتُ له: " انتقِ واحدة، الاختيار لك ". أخذ يتلعثم إلى

درجة أنه لم يعُد يستطع أنْ ينظر إليهن. وغمغمَ لي وقد احمرَّ بشدّة، "انتقِ لي أنت"، فنظرتُ إليهنّ نظرةً شاملة بهدوء وانتقيتُ فتاةً هيفاء ممتلئة في كامل نشاطها. جلسنا في غرفة الاستقبال وانتظرنا مجيء الشراب. سألتْ المدام لماذا لم أختر واحدة لنفسي. وقال الشاب الهندوسي: " نعم، خذْ أنتَ واحدة أيضاً، لا أريد أنْ أبقى وحدي معها ". وعادتْ الفتيات من جديد واخترتُ واحدة لنفسي، طويلة، نحيلة لها عينان كئيبتان. وتُركنا وحدنا، نحن الأربعة، في غرفة الاستقبال. بعد لحظات اقتربَ مُرافقي الهندوسي مني وهمسَ بشيٍ في أذني. قلتُ: "طبعاً، إذا كانت تعجبك فخذها ". وهكذا، رحتُ أشرحُ للفتاتين بارتباك جمّ يفتقر إلى اللباقة أننا نريد أنْ نباشر. وسرعان ما وجدتُ أننا ارتكبنا زلّة، غير أنَّ صاحبي الشاب كان قد أصبحَ مرحاً يتصرَّف بفسوق ولم يعد أمامنا إلا أنْ نصعد إلى الطابق العلوي بسرعة وننهي الأمر كله.

احتللنا غرفتين يفصلُ بينهما باب. وأعتقدُ أنَّ زميلي كان ينوي أنْ يُعيد الكرّة بعد أنْ يُشبِع جوعه الحادّ القارص. على أي حال، ما أنْ غادرَتْ الفتاتان الغرفة لتهيئة نفسيهما، حتى سمعتُ قرعاً على الباب، وإذ به يسأل " أين المرحاض، أرجوك؟ "، ودون أنْ أنتبه إلى أنَّ الأمرَ خطير استعجلتُه ليعملها في مرحاض السيدات bidet. وعادت الفتاتان والمنشفتان في أيديهما وسمعْتُه يقهقه في الغرفة المجاورة.

وبينما أنا أرتدي سروالي الداخلي إذ بي أسمعُ هَرَجاً في الغرفة الثانية. الفتاة تصيحُ وهي تطرده من الغرفة وتنعته بخنزير حقير قذر. وأفشلُ في تصورُ ما فعل حتى أثار كل تلك الثورة. وأصغي بانتباه وأنا واقفُ أضعُ إحدى قَدَميّ في البنطلون. إنه يحاولُ أنْ يشرح لها بالإنكليزية، وهو يرفعُ صوته شيئاً فشيئاً حتى صارَ زعيقاً.

وأسمعُ باباً يُصفَع وفي اللحظة التالية تندفعُ المدام كالعاصفة إلى غرفتي، وجهها أحمر بلون الشوندر، وذراعاها تومئان بهياج، وتصرخ: "يجب أنْ تخجل من نفسك لأنك أحضرتَ معك رجلاً كهذا إلى بيتي! إنه همجي... خنزير... إنه...! "، وزميلي واقفُ خلفها، عند الباب، وقد علَتْ وجهه نظرةُ منتهى الهزيمة. وأسألُ " ماذا فعلتَ؟ "

وتزعق المدام: " أتقول ماذا فعل؟ سوف أُريكَ... تعالَ معي! "، وتقبض على ذراعي وتجرّني إلى الغرفة المجاورة، وتصرخ " انظرْ! انظرْ!"، وهي تُشير إلى الـ bidet.

ويقول لي الفتى الهندوسي: " هيا بنا نخرج من هنا "

" انتظر لحظة، لا يمكنكَ أنْ تخرج بهذه السهولة "

وتقفُ المدام بالقرب من الـ bidet وهي تدخّنُ وتبصقُ، وإلى جانبها تقفُ الفتاتان أيضاً وهما ممسكتان بالمنشفتين. ووقفنا جميعاً ننظر إلى الـ bidet حيث كانت هناك كتلتان ضخمتان من البراز تعومان فوق الماء. ومالتْ المدام ووضعَت منشفة فوقه. وناحت قائلة " شيء مريع! مريع! لم أرَ في حياتي كلها مثيلاً لهذا! إنه خنزير! خنزير حقير قذر! "

وينظر الفتى الهندوسي إليّ لائماً، ويقول: " كان يجب أنْ تقول لي! لم أكن أعلم أنها لن تغوص. سألتك أين يجب أنْ أذهب وأنتَ أشرتَ إلى هذا "، وكادَ يبكي.

وأخيراً تأخذني المدام جانباً وقد صارت الآن أكثر تعقُّلاً. فقد كان الأمر كله خطأ، على أي حال. ربما يرغب السيدان بالنزول إلى أسفل وطلبَ كأساً أخرى - للفتاتين. لقد كان الأمر صاعقاً بالنسبة إليهما. إنهما غير متعودتين على مثل تلك الأشياء، وليت السيدين يتلطّفان

ويحسبان حساب الوصيفة... إنَّ هذا ليس بالشيء المقبول لوصيفة – هذا الركام البشع. وتهزّ كتفيها وهي تغمز بعينها. حادث مؤسف. لكنه حادث. لو ينتظر السيدان هنا بضع لحظات ستحضر الخادمة الشراب بعد قليل. هل يرغب السيدان ببعض الشمبانيا؟ نعم؟

يقول الفتى الهندوسي بصوتٍ واهن، " أريد أنْ أخرج من هنا ". وتقول المدام " لا تغالي في الابتئاس، لقد انتهى كل شيء. فالأخطاء تحدث أحياناً. في المرة القادمة يجب أنْ تسأل عن مكان المرحاض "، وتتابع حديثها عن المرحاض – يبدو أنه يوجد في كل طابق واحد. وحمّام أيضاً.

وتواصل: " لدي الكثير من الزبائن الإنكليز، إنهم جميعاً مُهذّبون. هل السيد هندوسي؟ الهندوس قوم فاتنون، أذكياء جداً، ووسيمون "

وحين نصل إلى الشارع يكون الشاب الفاتن على وشك أنْ يبكي. لقد ندمَ الآن لأنه اشترى البذلة والعصا وأقلام الحبر. ويبدأ بالتحدُّث عن النُذُر الثمانية التي التزمَ بها، وعن كبح حاسّة التذوُّق، الخ. فأثناء المسيرة إلى داندي كان من المُحرَّم تناول حتى طبق من المثلجات. ويحكي لي عن الدولاب الدائر – وكيف قلّدت المجموعة الصغيرة المُسمّاة ساتيا غراهيست تكريس سيدها. ويتلو عليَّ بفخر كيف مشى إلى جانب السيد وتحدث معه. حتى صرتُ أتخيَّل أني في حضور أحد المريدين الاثني عشر.

خلال الأيام القليلة التي تلت تقابلنا مرات عديدة، فقد كان عليه أنْ ينظّم مقابلات صحفية مع رجال الصحافة ويُلقي المحاضرات أمام الهندوس الموجودين في باريس. ومن المذهل مشاهدة تلك المخلوقات الضعيفة الشخصية تتبادلُ ألقاء الأوامر على بعض، ومن المذهل أيضاً أنْ ترى مبلغ جدّيتها بكل ما يخصّ المسائل العملية، وغيرتها وخِداعها،

ومنافساتها التافهة الدنيئة. وأينما اجتمع عشرة من الهندوس مثَّلوا الهند بشِيَعها وانشقاقاتها، بخصوماتها العنصرية واللغوية، والدينية، والسياسيَة. ويمارسون برهة من الوقت في شخص غاندي معجزة الاتّحاد، ولكن حين يغيبُ يحدثُ تصدُّع، انتكاس داخل ذلك الصراع وعماء هو أبرز ما يُميِّز الشعب الهندي.

وصاحبنا الشاب الهندوسي متفائل طبعاً. وقد ذهب إلى أميركا ولوَّثه فِكرُ الأميركيين الرخيص، لوَّثه حوضُ الاستحماس الكُلِّي الوجود، ومخزن الطُرَف التي تساوي خمسة شلنات وعشرة سنتات، والنشاط الصاخب، والفعالية، والحركة الآليّة، والأجور العالية، والمكتبات المجّانية... الخ، الخ. ومَثَله الأعلى هو أمْركَةُ الهند. وهو ليس مسروراً من هَوَس غاندي الرجعي، ويهتفُ " إلى الأمام "، كأحد أعضاء منظمة الشبيبة المسيحية. وبينما أنا أُصغي إلى حكاياته عن أميركا أدركُ مدى سُخفنا بتوقّعنا من غاندي أنْ يُحقِّق المعجزة التي تغيِّر مجرى القَدَر. ليست إنكلترا هي عدو الهند، بل أميركا. عدو الهند هو روح الزمن، هو اليدُ التي لا يمكنُ كفُّ شرِّها. لن يُفيد شيء في مكافحة ذلك الفيروس الذي يُسمِّم العالم برمَّته. أميركا هي تجسيد للهلاك نفسه، وسوف تجرّ العالم كله إلى لُجّة لا قرار لها.

هو يظنّ أنَّ الأميركيين قوم غاية في السذاجة. ويُخبرني عن الملائكة السُذَّج الذين أعانوه هناك - عن الصاحبَين، والموحدين، والثيوصوفيين[٢٦]، والمفكرين الجُدد، ومجيئيي[٢٧] اليوم السابع... الخ.

---

٢٦ - الثيوصوفية : هي معرفة الله عن طريق " الكشف " الصوفي أو التأمّل الفلسفي أو كليهما .

٢٧ - المجيئية : مذهب يقول إنَّ مجيء المسيح ثانية ونهاية العالم أمسيا قريبَين .

كان يعرفُ إلى أين يوجّه قاربه، هذا الشاب الحاذق، يعرفُ كيف يجعل الدموع تطفر من عينيه في اللحظة المناسبة، وكيف يتولّى أمر مجموعة، ويغوي زوجة الكاهن، وكيف يمارسُ الحب مع الأم والابنة في وقتٍ واحد. تنظر إليه فتظنّه قديساً. وهو قديس فعلاً، بأسلوب حديث، قديس مُتفسِّخ، يتحدَّثُ بنَفَسٍ واحد عن الحب، والأخوّة، ومغاطس الحمّامات، والحِفاظ على الصحة العامة، والفعالية... الخ.

وقد خصَّصَ الليلة الأخيرة من إقامته في باريس لـ "شؤون النكاح". وكان برنامجه ممتلئاً حتى آخره طوال النهار - اجتماعات، برقيات، مقابلات، صور للصحف، لحظات وداع مؤثّرة، نصيحة للمؤمنين، الخ، الخ. وفي وقت الغداء يُقرر أنْ يطرح مشاكله جانباً. ويطلب زجاجة شمبانيا مع الوجبة، ويُفرقعُ إصبعه مُستدعياً " الغرسون " ويكون تصرّفه بشكلٍ عامٍ تصرُّفاً يدلُّ عليه كفلاّح متواضع جِلف. وبما أنه أشبعَ فضوله من كل الأماكن الجيدة يقترحُ عليّ أنْ أُريه شيئاً أكثر بدائيّة. ويودّ أنْ يذهب إلى مكان رخيص جداً، ويطلب حضور فتاتَين أو ثلاث دفعةً واحدة. وأقوده على طول بولفار دو لاشاييل مُحذّراً إياه كي ينتبه إلى محفظته. وفي منطقة أوبرفيير نهبط إلى حانة رخيصة وفي الحال نجدُ بين أيدينا سرباً منهنّ. خلال دقائق كان يُراقصُ غانية عارية، شقراء، ضخمة تعلو التغضنات أسفل خدّيها. وأرى خلفيتها تنعكس مرات عديدة في المرايا المحيطة بالمكان - وأصابعه النحيلة السمراء تتشبَّث بها بإصرار. الطاولة ممتلئة بزجاجات البيرة، والبيانو الميكانيكي يئز ويلهثُ. والفتيات العاطلات جالسات على المقاعد الجلدية بهدوء، يهرشن أنفسهن بسلام، مثل أسرة من القِردة. ويسود نوعُ من جوٍ جحيميّ

مُخفَّف ونغمة عنفٍ مكبوتة، وكأنّ الانفجار المُنتظَر يتطلّب حدوث مجرَّد تفصيلٍ تافه، شيء مِجهريّ لكنه غير مُتعمَّد على الإطلاق، وغير متوقَّع أبداً. في ذلك الجو من شبه الحلم الذي يسمح للمرء بالمشاركة في حَدَثٍ ما والبقاء في الوقت نفسه بعيداً كل البُعد، بدأ التفصيل الدَقيق المفقود يتخثَّر بغموض ولكن بشكلٍ لافت للنظر، ويتّخذ شكلاً عجيباً صافياً، كالصقيع المتشكِّل على زجاج النافذة. وكما الحال مع تلك الأشكال الجليدية الشديدة الغرابة، الحُرّة تماماً والرائعة في تصميمها، والمقيَّدة مع ذلك بأشدّ القوانين صرامة، كذلك بدا هذا الإحساس الذي بدأ يتكوَّن داخلي يُظهِر خضوعه للقوانين المحتومة. كان كياني كله يستجيب لِما تُمليه عليه بيئة لم يختبرها من قبل، وبدا أنَّ ذاتي تتقلّص وتتكثَّف، وتنكص مُبتعدة عن الحدود التافهة الاعتيادية للجسد الذي لا يعرفُ حدّه الخارجي إلا تغيُّرات أطراف الأعصاب.

وكلما زادت صلابة جوهري وثراؤه، زادت رهافة وتطرُّف الحقيقة القريبة الملموسة التي عُصِرَتْ منها. وبالدرجة نفسها التي ازددتُ فيها متانة على متانة تضخُّم المَشهد الممتد أمامي. وهكذا رُسِمَتْ حالة التوتر بدقّة حتى أنَّ دخول ذرة أجنبية واحدة، ولو مجهرية، كان جديراً بتبديد كل شيء. لقد خبرتُ ربما في جزءٍ من اللحظة ذلك النقاء التام الذي، كما يُقال، لا يوهَبُ إلا لعُصابيّ. في تلك اللحظة فقَدتُ وهمَيّ الزمان والمكان كليّاً، وفي الوقت نفسه نشرَ العالمُ صِراعه على طول أوج ليس له محور. في مثل هذا النوع من أبدية الزند الشَعري[٢٨] شَعَرتُ أنَّ كل

---

٢٨ – الزند الشَعري : زندٌ مُعدّ لإطلاق النار (من بندقية) بأقلّ ضغط .

شيء مُبررًّ، مُبرر بشكلٍ مُطلَق، شعرت بالحروب الناشبة داخلي التي خلَّفَتْ هذه الفوضى والدمار، شعرَتْ بالجرائم التي كانت تغلي هنا وسوف تظهر غداً في العناوين الرئيسة الصارخة، شعرت بالبؤس يجرشُ نفسه بالمدقّة والهاون، البؤس الطويل المتبلّد الذي يقطر من المناديل القذرة. وفي هاجرة الزمن لا وجود للظلم: لا يوجد إلا شِعر الحركة الذي يخلق وهم الحقيقة والدراما. ليت في إمكان المرء أنْ يُقابل المُطلَق في أي لحظة، في أي مكان، وجهاً لوجه، بحيث أنَّ ذلك التعاطُف العظيم الذي يُضفي على رجال أمثال غوتاما واليسوع القداسة، يتجمَّد، والأمر الهائل ليس في أنَّ الرجال خلقوا من تل الروث هذا وروداً، بل هو لسببٍ أو لآخر، إرادتهم للورود. إنَّ الإنسان يبحث لسببٍ أو لآخر عن المعجزة، ولكي يُحققها سوف يخوض في بحرٍ من الدماء. سوف يتمرَّغ في الأفكار، ويمسخ نفسه إلى شبح إذا استطاع ولو لمرة واحدة وللحظة واحدة من حياته أنْ يُغمض عينيه دون شناعة الواقع. كل شيء اختير - الخزي، الذلّ، الفقر، الحرب، الجريمة، ***الضجر*** - على أمل أنْ يظهر شيءٌ بين ليلة وضحاها، معجزة تجعل الحياة مُحتملة. وهناك عدّاد يجري طوال الوقت في الداخل ولا يمكن ليدٍ أنْ تصل إليه لتوقفه. وطوال الوقت هناك مَنْ يأكل خبز الحياة يشرب خمرها، وهو كاهن يشبه صرصاراً سميناً قذراً، يختفي عن العيون في القبو وهو يعبّه، بينما هناك في الأعلى وعلى نور مصباح الشارع يلمس خبز قربان كاذب الشِفاه والدم شاحب كالماء. ولا تنبثق من العذاب والبؤس الأبديين أي معجزة، ولا أوهى أثر للارتياح. مجرَّد أفكار، أفكار سقيمة هزيلة يجب أنْ تسمن بمذبحة، أفكار تنبثق كالصفراء، كأحشاء جثة خنزير منتفخة مبقورة.

أقول لنفسي يا لها من معجزة إذا اتّضح للإنسان الذي يشهدها على الدوام أنها ليستْ أكثر من كتلتيّ الغائط الهائلتين اللتين أسقطهما التلميذ المُخلص في الـ bidet. ماذا لو ظهرَ فجأةً بعد أنْ تكون المأدبة قد مُدَّتْ والصنوج قد دوَّتْ، ودون سابق إنذار، فوق الطبق الفضي الكبير حيث يمكنُ حتى للأعمى أنْ يرى أنه لا يوجد أكثر، ولا أقلّ، من كتلتيّ خراء ضخمتين. وأعتقدُ أنَّ هذا سيكون أكثر إعجازاً من كل ما يمكن للإنسان أنْ يصبو إليه. سيكون مُعجزاً لأنَّ أحداً لن يكون قد حلُمَ به. سيكون أكثر إعجازاً حتى من أشدّ الأحلام غرابة لأي إنسان يمكن أنْ يتصورَّ إمكان حدوثه ولا أحد فعلَ ذلك، وربما لن يفعل أحد ذلك مرة أخرى.

وبصورةٍ ما كان لإدراك فقدان كل أمل تأثيرٌ مفيد عليّ. ولطالما تطلّعتُ، طوال أسابيع وشهور وسنين، بل وطوال حياتي والحق يُقال، لحدوث أمرٍ ما، حدثُ جوهري يُغيِّر حياتي كلها، والآن وقد ألهمني يأسي التامّ من كل شيء، صرتُ أشعر فجأةً بالارتياح، أشعرُ وكأنَّ عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهلي. وفي الصباح فسختُ شركتي مع الهندوسي، بعد أنْ أقنعته بمنحي بضعة فرنكات تكفيني أجرة غرفة. وقرَّرتُ وأنا متوجّه إلى مونبرناس أنْ أدعْ نفسي أنجرف مع المدّ، ألاّ أُبدي أدنى مقاومة في وجه القَدَر، بأي شكلٍ تبدَّى لي، ولم يكن أيٌ مما حدث لي حتى ذلك الحين كافياً لتحطيمي، لم يتحطَّم إلا أوهامي. أما أنا فبقيتُ سليماً مُعافى. وكان العالمُ كله مُعافى. غداً قد تندلع ثورة، أو يحلّ وباء، أو يقعُ زلزال، قد لا يبقى غداً مخلوق واحد يمكن الركون إليه طَلَباً للتعاطُف، أو للمساعدة، أو للإخلاص. بدا لي أنَّ الكارثة العُظمى قد تكشَّفَتْ، وأنه لم يعُد في إمكاني أنْ أكون أكثر وحدانيّة مني في تلك

اللحظة. قررتُ ألاّ أتعلّق بأي شيء، ألاّ أتوقّع أي شيء، وأنْ أعيش منذ الآن كحيوان، كبهيمة مفترسة، كقرصان، كنهّاب. وحتى لو أُعلِنَتْ الحرب، وقُدِّرَ لي أنْ أموت، لتناولتُ حربةً وغرزتها، غرزتها كلها حتى مِقبضها. وإذا كان الاغتصاب هو دستور هذا الزمان، فسوف أغتصب، وبكل عنف. وفي هذه اللحظة بالذات، في صباح يومٍ جديد هادئ، أليستْ الأرض مُصابةً بدوارِ الجريمة والألم الممضّ؟ هل تغيَّرَ عنصر واحد من طبيعة الإنسان، فعلياً، جوهرياً، على مدى مسيرة التاريخ المتواصلة؟ كل ما حدث هو أنَّ الإنسان قد خُدِعَ في ما يُسمّيه أفضل جزء من طبيعته. وها هو يجد نفسه من جديد عند آخر حدود روحانيته عارياً كالهمجيين. وعندما سيجد الله، كما فعلَ من قبل، سوف يخرجُ نظيفاً: هيكلاً عظمياً. وعلى الإنسان أنْ يحفر لنفسه ثانيةً جُحراً في الحياة حتى يُربّي لحماً جديداً. وعلى الكلمة أنْ تصبح لحماً، فالروح ظمأى. سوف أنقضُّ وأفترسُ كل كسرة تقع عليها عيناي. فإذا كان العيشُ هو أسمى شيء فسوف أعيش، وإنْ صرتُ من آكلي اللحم البشري. إنني حتى الآن أحاول أنْ أُنقِذ مخبئي الثمين، أحاول الاحتفاظ بقِطع اللحم القليلة التي تسترُ عظامي. لقد سئمتُ هذا، وصلتُ إلى آخر حدود الاحتمال. ظهري مُلتصقٌ بالجدار، ولم يعُدْ في استطاعتي أنْ أتراجع أكثر. أنا ميّتْ في عُرف التاريخ. وإذا كان هناك إمكانية للتجاوز فيجب أنْ أرتدْ مُسرعاً إلى الخلف. لقد وجدتُ الله، لكنه ليس كافياً. إنني ميّتْ روحياً فقط، أما جسدياً فأنا حيّ. وأما أخلاقياً فأنا حُرّ. والعالمُ الذي غادرته هو متحفٌ للحيوانات المُحنَّطة. الصُبحُ ينبلجُ على عالمٍ جديد، عالم همجي تحومُ في أجوائه الأرواح العجفاء ذات أنيابٍ حادّة. إنْ كنتُ ضبعاً فأنا ضبعٌ واهنٌ جائع: وأنا بصددِ تسمين نفسي.

في الواحدة والنصف عرَّجتُ على فان نوردن، حسب اتفاقنا. وقد حذَّرني من أنه إذا لم يُجِبْ فهذا يعني أنه نائم مع إحداهن، ربما مع عاهرته الجيورجية.

على أي حال، كان هناك، مُندسّاً في فراشه بكل ارتياح، ولكن بروحٍ قلقة كالمعتاد. ويستيقظ وهو يلعن نفسه، أو يلعن الوظيفة، أو يلعن الحياة. يستيقظ وهو سئِم كل السأم ومُحبَطْ، متألّم لأنه لم يمُتْ أثناء الليل.

أجلسُ قرب النافذة وأنفحه بما أستطيع من الشجاعة. ويا له من عمل ممل. إنه بحاجة لمَنْ يُلاطفه ليخرج من السرير. في أوقات الصباح – ويعني بأوقات الصباح الفترة الواقعة ما بين الساعة الواحدة والخامسة بعد الظهر – إذن في أوقات الصباح ينغمس في أحلام اليقظة. وغالباً ما يحلم بالماضي، " بعاهراته ". يحاولُ أنْ يتذكَّر كيف كنَّ يشعرن، وما قلن له في لحظات معيَّنة حرِجة، وأين ضاجعهنّ، الخ. وبينما هو مُستلقٍ هكذا، يزمجرُ ويلعن، يتلاعب بأصابعه بتلك الطريقة الغريبة الدالّة على الملل، وكأنه يُريد أنْ يُعطي انطباعاً بأنَّ تقزّزه هو أعظم من أنْ يعبِّر عنه بالكلمات. وعلى قائمة السرير يُعلّق حقيبة نضح[٢٩] يحتفظُ بها لحالات

٢٩ – تُستخدم لتنظيف الأعضاء التناسلية .

الطوارئ - من أجل " العذارى " اللواتي يتعقّبهنّ كأنه من الشرطة السرّية. وحتى بعد أنْ يُضاجع إحدى تلك المخلوقات الأسطورية يظل يُشير إليها على أنها عذراء، ولا يذكُرها مرة باسمها. فهو يقول "عذرائي" تماماً بالنبرة نفسها التي يقول فيها " عاهرتي الجيورجية ". وحين يذهب إلى المرحاض يقول: " إذا اتّصلَتْ عاهرتي الجيورجية قُلْ لها أنْ تنتظر. قُلْ لها إني قُلتُ هذا. واسمعْ، يمكنكَ أنْ تحصل عليها إذا أردت؛ لقد سئمتها "

يُلقي نظرة على أحوال الطقس ويُطلِقُ تنهيداً عميقاً. فإذا كانت السماء ممطِرة يقول: " لعنَ الله هذا الطقس المَنيَك، إنه يُمرِضني ". وإذا كانت الشمس مُشرقة برّاقة، يقول: " لعنَ الله هذه الشمس المنيوكة، إنها تُعميني ". وفجأةً، وبينما هو يحلق ذقنه يتذكّر أنه لا توجد منشفة نظيفة كل يوم ". ومهما كان يفعل وأينما يذهب فالأحوال بالنسبة إليه ليست على ما يرام. فالبلد المنيَكْ، أو العمل المنْيَك، أو حتى العاهرة المنيوكة هي التي تضعه على حافة الجنون.

ويقول وهو يُغرغر حنجرته: " أسناني كلها عفِنة، بسبب ذلك الخبز المنيك الذي يُرسلونه إلينا هنا ". ويفتح فمه حتى آخره ويشدّ شفته السُفلى إلى أسفل، " أترى هذا ؟ بالأمس خلعتُ ستةً من أسناني. وقريباً سوف أُضطرُ إلى تركيب طقم جديد. هذا ما تحصل عليه من كسب عيشك. عندما كنتُ متبطلاً عِربيداً كانت أسناني كلها سليمة، وعيناي متألقتين وصافيتين. انظرْ إليّ الآن! إنها لمعجزة أنْ أتمكّن من اجتذاب عاهرة حتى الآن. يا إلهي، إنّ ما أرغبُ فيه هو أنْ أقع على عاهرة ثرية - كما فعل ذلك الأير الصغير الذكي كارل... هل أراكَ الرسائل التي

تبعثها إليه؟ مَنْ هي، هل تعرف؟ إنه يرفضُ أنْ يُخبرني باسمها، ابن الحرام... يخاف أنْ أخطفها منه "، ويُغرغر حنجرته ثانية ويُلقي نظرة طويلة على التجاويف، ويقول لي بحزن: " أنتَ محظوظ، لديك أصدقاء على الأقلّ. ليس لدي أي صديق، عدا الأير الصغير الذكي الذي يُثير حفيظتي بالحديث عن عاهرته الثرية "

ويقول: " اسمع، هل تصادَفَ أنْ تعرَّفتَ على عاهرة اسمها نورما؟ إنها تتجوَّل طوال النهار حول مقهى الدوم. أعتقد أنها شاذة. أحضرتها إلى هنا البارحة، ودغدغت مؤخرتها. لم تسمح لي بفعل أي شيء. طرحتُها على السرير... بل ونزَعَتْ عنها ملابسها... ولكن بعد ذلك شعرتُ بالغثيان. يا إلهي، لم أعُدْ أطيق تحمُّل الصراع على هذا الشكل بعد الآن. فالأمر لا يستحق. فإما أنْ يفعلن ما تريد أو لا يفعلن. من الهَبَل إضاعة الوقت في مصارعتهن. ففي الوقت الذي تتعارك فيه مع عاهرة حقيرة كهذه يكون هناك عدد غيرها يتحرَّقن شوقاً حتى الموت لتطرحهن، هذه حقيقة. كلهن يأتين إلى هنا للمضاجعة. يعتقدن أنَّ المكان هنا أثيم... ***البلهاوات المسكينات***! بعضهن مُدرّسات من أقصى الغرب، وهن عذراوات فعلاً... صدّقني! ويجلسنَ طوال النهار على المرحاض يُفكّرن بهذا الأمر... ولا داعي لأنْ تقوم بأي مجهود معهن فهنّ مُتحرّقات إلى إتمام كل شيء. قبل أيام أتيتُ بامرأة متزوجة لم تكن قد نُكِحتْ منذ ستة أشهر. أتتصورُ هذا؟ يا إلهي، كانت حامية! ظننتُ أنها ستنزع أيري مني. وراحت تتأوّه طوال الوقت وهي تُهمهم ***ألا تريد؟ ألا تريد؟*** "، وأخذت تكرر هذا، كالمعتوهة. وهل تعرف ماذا أرادتْ هذه العاهرة أنْ تفعل؟ أرادتْ أنْ تقيم عندي هنا. تصورّ! وسألتني إنْ كنتُ

أحبها؟ حتى إنني لم أكن أعرف اسمها. ولا أتعرَّف على أسمائهن أبداً... ولا أريد ذلك. والمتزوجات! يا يسوع! لو رأيتُ كل المومسات المتزوجات اللواتي كنتُ أُحضرهن إلى هنا لطرحتَ كل أوهامك. إنهن أسوأ من العذراوات، المتزوجات. لا يتركنَ لكَ مجالاً لتباشر - بل يُخرجنه منك بأنفسهن. أما الحب فيتحدثن عنه لاحقاً. شيء مُقزز. أؤكد لك أني بدأتُ أكره المومسات "

ويعود إلى النظر من النافذة. المطر يهطل رذاذاً. وهو يهطل على هذا الشكل منذ خمسة أيام. " هل ستذهب اليوم إلى الدوم، يا جو؟ ". وأنا أُطلِقُ عليه اسم جو لأنه أيضاً يُناديني باسم جو. وحين يكون كارل معنا يصبح اسمه أيضاً جو. كلهم يُسمّون جو لأنَّ ذلك أسهل. وهي أيضاً طريقة مُسلّية لتتذكَّر ألاّ تتناول الأمور بكثير من الجدية. على أي حال، جو لا يريد أنْ يذهب إلى الدوم - فهو مَدين هناك بكثير من المال؛ بل يريد أنْ يذهب إلى الكوبول: يريد أنْ يتمشّى قليلاً.

" لكنها تُمطر يا جو "

" أعرف، ولكن إلى الجحيم. يجب أنْ أنفِّذ برنامجي المُقرَّر. يجب أنْ أطرح القذارة من بطني ". حين يقول هذا ينتابني انطباع بأنَّ العالمَ كله مُغلَّف داخل بطنه، وأنه يتعفَّن هناك.

وبينما هو يرتدي ملابسه إذا به يعود من جديد إلى حالة شبه غيبوبة. ويقف في مكانه واضعاً إحدى ذراعيه في كُمّ معطفه وقبعته يحملها على مؤخرته ويبدأ بالحلم بصوتٍ عالٍ - عن الريفيرا، والشمس، وتبديد الحياة بالتكاسُل. يقول: " كل ما أطلبه من الحياة هو حزمة كتب، وحزمة أحلام، وحزمة عاهرات ". وبينما هو يُغمغم بهذا

حالِماً ينظر إليَّ مع ابتسامة غاية في الرقّة والغواية، يقول لي: "أتعجبكَ هذه الابتسامة؟ ". ثم يُتابعُ مُبدياً تقزُّزه، " يا يسوع، ليتني أستطيع أنْ أعثر على عاهرة ثرية لأبتسم لهذا هكذا! ".

ثم يقول بمُزاح مفعم بالقلق، " فقط عاهرة ثرية قادرة على إنقاذي الآن، إنَّ المرء منا بات ملولاً من طول الجري متنقّلاً من عاهرة إلى أخرى. أصبح الأمر يحدثُ آلياً. والمشكلة هي، في الواقع، أني لا أستطيع أنْ أعشق. إنني غارق في ذاتي. وكل ما في الأمر أنَّ النساء يساعدنني فقط على الحلم. وهذه الرذيلة، كمعاقرة الخمر أو تدخين الأفيون. وبات عليَّ أنْ أحصل على واحدة كل يوم، وإذا لم أنجح في ذلك أُصابُ باكتئاب مَرَضيّ. إنني أغالي في التفكير. أحياناً أُذهَلُ من نفسي، وسرعتي في نيل حظوة - وما أقلّ ما يعنيه لي. إنني أقوم به بشكلٍ آليّ. أحياناً وأنا أبعد ما أكون عن التفكير فيهنّ، ألاحظُ فجأةً أنَّ هناك امرأة تنظر إليَّ وثم بانغو! ويبدأ كل شيء من جديد. وقبل أنْ أدرك حقيقة ما أفعل أكون قد أحضرتها إلى غرفتي. حتى أني لا أذكر ما أقوله لهنّ. أجلبهن إلى الغرفة، أداعبُ مؤخراتهن وقبل أنْ أعرف ما يجري يكون كل شيء قد انتهى، كالحلم... أتفهم ما أعني؟ "

وهو لا يحتمل الفرنسيات. لا يطيقهنّ. فإما أنهنَّ يردنَ نقوداً أو يرغبنَ في الزواج. أما في أعماقهنّ فجميعهنّ عاهرات. أنا أُفضِّل العراك مع عذراء. هكذا يقول: " فهنّ يزوّدنكَ بقليلٍ من الوهم. على الأقلّ يُثرنَ شجاراً". والأمر نفسه يتكرَّر حين ننظر عبر المصطبة terrasse، فلا تكاد توجد عاهرة واحدة على مرمى النظر لم ينكحها في وقتٍ من الأوقات. ويُشير إليهنّ واحدة بعد أُخرى وهو يقفُ على نضد البار، ويمرُّ

عليهنّ وكأنه يُشرِّحهنّ، ويصِفُ خِصالهنّ ونقائصهنّ، ويقول " كلّهنّ باردات "، وبعدها يبدأ بتحريك يديه، مُفكّراً في العذراوات الرائعات النضرات اللواتي يتحرّقنَ اشتياقاً.

ووسط أحلام يقظته يكبح نفسه فجأةً، ويُشير، قابضاً على ذراعي بقوة وقد اهتاج، إلى امرأة ضخمة كالحوت تكاد تجلس على أحد المقاعد. ويزمجر " هل هي عاهرتي الدانمركية. أترى هذه المؤخّرة؟ إنها دانمركية بكل معنى الكلمة. آه كم تحب هذه المرأة أنْ تُناك! إنها تتوسّل إليّ كي أفعله معها ,تعال من هنا... والآن انظر إليها، من هذه الناحية. انظر إلى تلك المؤخّرة. أترى؟ هائلة. سأخبركَ بشيء، حين تمتطيني أكاد لا أتمكن من إحاطتها بذراعي. إنها كفيلة بتغطية العالم كله. تجعلني أشعر وكأنني بقّة صغيرة تزحفُ داخلها. لا أدري لماذا وقعتُ صريعها – أعتقدُ أنَّ تلك المؤخرة هي السبب. إنها تشبه شيئاً عظيم التنافُر. ويا للتغضنات التي فيها! لا يمكنكَ أنْ تنسى مؤخرة مثلها، هذه حقيقة... حقيقة صلبة. أما الأخريات، فإما أنهنَّ يسئمنكَ، أو يمنحنكَ برهةَ وهم، أما هذه – بمؤخرة كهذه! – يا لطيف، لا يمكن استبعادها... كأنكَ تأوي إلى السرير وتضع تمثالاً فوقك "

ويبدو أنَّ العاهرة الدنمركية هزّته بعنف. والآن تخلّصَ من كَسَله كله، وجحظت عيناه من رأسه. وطبعاً الشيء بالشيء يُذكَر. يريدُ أنْ يخرج من الفندق المَنيَك لأنَّ الضجيج يزعجه: يريدُ أيضاً أنْ يؤلّف كتاباً عن مونبرناس... أريد أنْ أدوّن قصة حياتي، وأفكاري. أريدُ أنْ أطرح الأقذار من بطني. اسمع، احصلْ على تلك المرأة التي هناك؛ لقد سبقَ أنْ حصلتُ عليها منذ فترة؛ كانت تقطنُ قرب ليزال. عاهرة مُضحكة؛

تستلقي على طرف السرير وترفع ثوبها. هل جرّبتَ هذه الطريقة؟ لا بأس بها. إنها حتى لم تستحثني. بل اكتفتْ بالاستلقاء على ظهرها وهي تعبث بقبعتها وأنا أتقدَّم زاحفاً نحوها. وحين قذفتُ قالتْ بنبرةٍ ملول - " انتهيت؟ " وكأنَّ الأمر سيّان لديها. وطبعاً الأمر سيّان، أعرفُ هذا الشيء اللعين تماماً... ولكن يا للطريقة الباردة التي تتصرَّف بها... تعجبني حقاً... مذهلة، أتعلمْ هذا؟ وحين تذهب لتنظِّف نفسها تبدأ بالغناء. وأثناء خروجها من الفندق تكون لا تزال تغني. حتى أنها لا تقول au revoir ! وترحل وهي تهزّ قبعتها وتهمهمُ كأنها تحدّث نفسها. هذه عاهرة تناسبك! تقضي معها مضاجعة جيدة. أعتقد أني أفضّلها على عذرائي. هناك نكهة فسق في خرط امرأة لا تولي الأمر أي أهمية. إنها تُحمّي دمك... "، وبعدئذٍ، بعد لحظة تأمُّلْ يتابع - " هل تتصوَّر كيف يمكن أنْ يكون حالها لو أنَّ لها أي مشاعر؟ "

ويقول " اسمعْ، أريدكَ أنْ تأتي إلى النادي معي غداً بعد الظهر... سيُقامُ حفلٌ راقص "

" غداً لا أستطيع يا جو. وعدتُ كارل أنْ أساعده في... "

" اسمع، انسَ هذا الأير! أريدكَ أنْ تُقدِّم لي معروفاً. هو ما يلي " - ويبدأ بتحريك يديه من جديد. " لدي عاهرة أحتفظ بها جانباً... وعدَتْ أنْ تقضي معي الليلة. لكنني لم أنسجم معها بعد. في الواقع، تُرافقها أمها... رسّامة خربة، كلما تقابلنا تعضُّ أذني حتى تكاد تخلعها. وأعتقد أنَّ الحقيقة هي أنَّ الأمَ غيور. ولا أعتقد أنها تُمانع إنْ ضاجعتُها أولاً. أنتَ تفهمُ الوضع... على أي حال، لا أعتقد أنكَ ترفض أنْ تأخذ الأم... ليست سيئة كثيراً... ولو أني لم أقابل الابنة أولاً لفكَّرتُ فيها.

الابنة جميلة وصغيرة، ونضرة، أتفهم ما أعني؟ يفوحُ منها عبقُ النظافة... "

" اسمع يا جو، الأفضل أنْ تجد غيري... "

" أوه، لا تفهم الأمر هكذا! أعرفُ كيف تشعر. إنني أطلبُ منكَ معروفاً صغيراً تُقدّمه لي. لا أعرفُ كيف أتخلّص من الدجاجة العجوز. في أول الأمر فكّرتُ في أنْ أسكَرْ ثم أخرقها - ولكن لا أعتقد أنَّ هذا يُعجب الصغرى. إنهنّ عاطفيات أيضاً. لقد جاءتا من مينيسوتا أو ما شابه. على أي حال، تعالَ إليّ غداً وأيقظني، هل تفعل؟ وإلا بقيتُ نائماً. ثم، أريدكَ أنْ تساعدني في إيجاد غرفة. أنت تعلم كم أنا بائس. جِدْ لي غرفة في شارعٍ هادئ، في مكانٍ قريب من هنا. يجب أنْ أبقى في هذا الجوار... لديّ سمعة طيبة هنا. اسمع، عِدني بأنْ تفعل هذا من أجلي، وسوف أدعوك إلى وجبة بين الحين والآخر. تعالَ في كل الأحوال، لأنني أكادُ أجنّ وأنا أتحدث مع تلك العاهرات الغبيات. أريدُ أنْ أتحدث معك عن هيفلوك إليس[٣٠]. يا يسوع، لقد استعرتُ الكتاب منذ ثلاثة أسابيع ولم أنظر فيه حتى الآن. إنَّ المرء يتعفَّن هنا. أتصدِّق أني لم أزُرْ اللوفر حتى الآن - ولا الكوميدي فرانسيز. هل يستحق الأمر الذهاب إلى تلك الأماكن؟ أعتقد أنها تبقى أشياء تسلب عقلك. ماذا تفعل بنفسك طوال النهار؟ ألا تملّ؟ ماذا تفعلْ لتحصل على مُضاجعة؟ اسمع... اقترب! لا تهرب الآن... أنا وحيد. أتعلمْ - إذا استمرَّ الحالُ على هذا النمط عاماً آخر سأجنّ. يجب أنْ أخرج من هذا البلد المنْيَك.

---

٣٠ - هيفلوك إليس (١٨٥٩ - ١٩٣٩) : "كاتب إنكليزي ، وعالِم بعلم النفس . معروف بكتابه "دراسات في علم نفس الجنس (سبعة أجزاء)" .

لاشيء يُلائمني هنا. أعرفُ أنَّ هذا الأمر أضحى قذراً الآن، في أميركا، ولكن سيّان... إنَّ المرء يُصبح شاذاً هنا... كل أولئك الخروات الحقيرين الجالسين على مؤخراتهم طوال النهار يتبجّحون بعملهم ولا أحد منهم يساوي قذارة عفنة. كلهم فاشلون - لهذا يأتون إلى هنا. اسمع يا جو، أما شعرتَ أبداً بالحنين إلى الوطن؟ أنت شاب غريب... يبدو أنَّ المكان يُعجبك. ماذا يُعجبك فيه؟... ليتك تُخبرني. أتمنى من المسيح أنْ يجعلني أكفّ عن التفكير في نفسي. أنا مشوّه من الداخل. كأنَّ هناك عقدة هناك... اسمع، أعلم أني أُسبب لكَ السأم، ولكن يجب أنْ أتحدث مع شخص ما. لا أستطيع أنْ أتحدث مع شُبان الطابق العلوي... أتعرِف ماذا يُشبه أولاد الحرام أولئك... إنهم جميعاً يسلكون دروباً ملتوية. وكارل، الأير الصغير، أناني لعين. أما أنا فذاتي، ولكن لست أنانياً. وهناك فرق. أنا عصابي في اعتقادي. لا أتوقّف عن التفكير في نفسي. هذا لا يعني أني مُترفّع... ببساطة لا أستطيع أنْ أفكّر في شيءٍ آخر، هذا كل ما في الأمر. لو أتمكّن من عشق امرأة فقد يُساعدني ذلك قليلاً. لكنني لا أجدُ امرأةً تُثير اهتمامي. أنا مُشوَّش، ألا توافقني؟ ماذا تنصحني أنْ أفعل؟ ماذا تفعل لو كنتَ مكاني؟ اسمع، لا أريد أنْ أحتجزك أكثر من هذا، ولكن أيقظني غداً - في الواحدة والنصف - هل تفعل؟ وسوف أمنحكَ مبلغاً زائداً إذا لَمعتَ لي حذائي. واسمع، إذا كان لديك قميص إضافي نظيف أحضره لي، هل تفعل؟ اللعنة، إنني أطحن خصيتيّ بهذا العمل، ولا يُتيحُ لي شراء قميص نظيف. لقد حشرونا هنا كعُصبة من الزنوج. آه، حسن، اللعنة! سأذهب لأتمشّى... لأخلّص بطني من الأقذار. لا تنسَ، *غداً*! "

وتستمر مُراسلتنا للعاهرة الثرية أيرين طوال ستة أشهر ستة أشهر أو أكثر. ومنذ وقت قريب وأنا ألحّ على كارل كل يوم ليوصل المسألة إلى ذروتها، لأنه ما دام الأمرُ يتعلّق بأيرين فإنه سيستمر إلى الأبد. وخلال الأيام القليلة الأخيرة تبادلنا كمية هائلة من الرسائل، والأخيرة منها كانت بطول أربعين صفحة، مكتوبة بثلاث لغات. كانت عبارة عن مقتطفات - أطراف من روايات لرابليه وبترونيوس - باختصار، هلكنا. وأخيراً تُقرِّر أيرين أنْ تخرج من قوقعتها. وتصل رسالة تُحدِّد فيها موعداً في فندقها. ويتبوّل كارل في ملابسه. أنَّ تكتب رسالة إلى امرأة لا تعرفها شيء، وأنْ تذهب إليها وتمارس معها الجنس شيء آخر تماماً. وفي آخر لحظة يُقرقرُ في أذني حتى لأكاد أخشى أني يجب أنْ أحلّ محلّه. وحين خرج من التاكسي أمام فندقها أخذ يرتجف حتى إني أخذته لنتمشّى قليلاً. كان قد تناول لتوّه كأسين من البرنو، ولكن يبدو أنه لم يكن لهما أي تأثير عليه. وكان مرأى الفندق وحده كافياً لتحطيمه: وهو أحد تلك الأبنية المُغالية في مظهرها، فيه ردهة هائلة الحجم وفارغة تجلس فيها النساء الإنكليزيات ساعات طوال وعلى وجوههن نظرة خاوية. ولكي أضمن أنه لن يهرب وقفتُ جانباً بينما تكلّم الحمّال عبر الهاتف مُعلناً وصوله. كانت أيرين موجودة، تنتظره. وحين دخل المصعد نظر إليّ نظرة أخيرة بائسة، استغاثة بكماء كالتي يحملها كلب حين تضع الأنشوطة حول رقبته. واجتزت الباب الدوار وأنا أفكّر بفان نوردن...

أعودُ إلى الفندق وأنتظر مكالمة هاتفية. ليس لديه من الوقت غير ساعة وقد وعدني بإبلاغي النتائج قبل عودته إلى العمل. وأنظرُ إلى

مسوّدة الرسالة التي أرسلناها إليه معاً. وأحاول أنْ أتخيَّل الوضع كما هو فعلاً، لكنني أعجز. رسائلها أفضل من رسائلنا بكثير - فهي صادقة، وهذا واضح. والآن يكون كل منهما قد تشبَّثَ بالآخر. وأتساءلُ إنْ كان لا يزال يتبوَّل في ملابسه.

ويرنّ الهاتف. يبدو صوته غريباً، يصرّ صريراً، كأنه خائف ومُتهلل في الوقت نفسه. ويطلب مني أنْ أحل محله في المكتب. " قُلْ لابن الحرام أي عذر! قُلْ له أني أموت...! "

" اسمع يا كارل... ألا تُخبرني...؟ "

" مرحباً! أنتَ هنري ميللر؟ "، وأسمعُ صوت امرأة. إنها أيرين. ترحّبُ بي. ويبدو صوتها جميلاً من خلال الهاتف... جميلاً. وينتابني الرعب لحظة. ولا أدري ماذا أقول لها. أودُّ لو أقول: " اسمعي يا أيرين، اعتقد أنكِ جميلة... أعتقد أنكِ رائعة "؛ أودّ لو أقول لها شيئاً حقيقياً واحداً، مهما بدا سخيفاً، لأنني بعد أنْ سمعتُ صوتها تغيَّرَ كل شيء. ولكن قبل أنْ يُتاح لي أنْ ألملمَ حصافتي أسمعُ صوت كارل على الهاتف ثانية يقول بصوته الغريب الصارّ: " إنها مُعجَبة بكَ يا جو؛ لقد أخبرتُها كل شيء عنك.. "

في المكتب أنقلُ الخبر إلى فان نوردن. وعندما يحين وقت الاستراحة يجرّني جانباً ويبدو مُكتئباً مُنهَكاً.

" إذن فهو يلفظ أنفاسه، ذلك الأير الصغير، أليس كذلك؟ اسمع، ما معنى هذا؟ "

وأُجيب بهدوء " أعتقد أنه ذهب إلى عاهرته الثرية "

" ماذا ؟ أتعني أنه ذهب إليها ؟ "، وبدا أنه خرج عن طوره، "اسمع، قُلْ لي أين تقطن؟ ما اسمها ؟ "، وادّعى الجهل، " اسمع، أنتَ شاب مُحترم. فبحق الجحيم لماذا لا تشركني في هذا اللهو ؟ "

ولكي أُهدِّئه وعدته أخيراً بأنْ أخبره بكل شيء حالما أحصل على التفاصيل من كارل. ولم أكنْ أنا نفسي أحتمل الانتظار حتى أقابل كارل.

ونحو ظهيرة اليوم التالي طرقتُ بابه. كان قد استيقظ لتوّه وهو يضع الصابون على ذقنه. ولم أستطع أنْ أتكهّن بشيء من التعبير المُرتسم على وجهه. ولا أعرف حتى إن كانْ سيُخبرني بالحقيقة. الشمس تتدفّق من خلال النافذة المفتوحة، والعصافير تزقزق، ومع ذلك لا أعرف كيف بدا أنَّ كارل أيضاً لم يتغيَّر، مما حيَّرني أكثر من أي شيء آخر. في هذا الصباح يجب أنْ يكون العالم كله قد تغيَّر إلى الأسوأ أو الأفضل. المهمّ أنْ يتغيَّر، تغيُّراً جذرياً. ومع ذلك فها هو ذا كارل واقف يرغي الصابون على ذقنه دون أنْ يطرأ أي تغيُّر على قَسَمات وجهه.

ويقول لي: " اجلس... اجلس هناك على السرير، وسوف تسمع كل ما تريد... ولكن انتظر أولاً... انتظر قليلاً "، ويُتابع وضع الصابون على ذقنه، ثم يتّخذ موساه. بل إنه أبدى ملاحظةً عن الماء... مرة أخرى ليس حاراً.

" اسمع يا كارل، أشعر كأني مُعلَّق. يمكنك أنْ تعذّبني لاحقاً، إذا أحببت، ولكن قُلْ لي الآن، قُلْ لي شيئاً واحداً... أكان الأمر حسناً أم سيئاً ؟ "

ويستدير عن المرآة والفرشاة في يده ويمنحني ابتسامة غريبة. "انتظر، سأخبرك بكل شيء... "

" هذا يعني أنكَ فشلت "

ويقول وهو يجرّ كلماته جراً، " كلا، لم أفشل، ولم أنجح أيضاً... بالمناسبة، هل دبّرت الأمر في المكتب؟ ماذا قلت لهم؟ "

وأرى أنْ لا فائدة من سحب الكلام منه. عندما سيصبح طيباً ومستعداً سيُخبرني بكل شيء. وليس قبل ذلك. وأستلقي على السرير صامتاً وهادئاً. ويُتابع هو حلاقة ذقنه.

وإذ به فجأةً، ودون سابق إنذار يبدأ بالكلام - أولاً بتشتُّت، ثم بمزيدٍ ومزيد من الوضوح، والتوكيد والتقرير. وهو يُصارعُ ليُخرج الكلام، ولكن يبدو مُصمماً على أنْ يحكي كل شيء. ويتصرّف كأنه يزيح عبئاً عن كاهل ضميره. بل إنه يُذكّرني بالنظرة التي ألقاها عليّ وهو يرتقي المصعد. ويبقى على ذلك الحال فترة، وكأنما ليُلمِّح إلى أنْ كل شيء مُتضمّن في تلك البرهة الأخيرة، وكأنما لو كان يتمتَّع بقدرة تغيير الأشياء، ما كان خطا خارج المصعد قط.

حين استأذن بالدخول كانت ترفل في ثوبها الفضفاض، وكان هناك دلو من الشمبانيا، على طاولة الزينة. كان الظلام يغلب على جو الغرفة، وصوتها يرنّ جميلاً. ويروح يسرد على جميع التفاصيل حول الغرفة، وزجاجة الشمبانيا وكيف فتحها النادل، والضجة التي صدرت عنها، وعن حفيف ثوبها الفضفاض حين اقتربت لترحب به - ويُخبرني بكل شيء عدا ما أريد سماعه.

كانت الساعة تقترب من الثامنة عندما دخل عليها. في الثامنة والنصف صار عصبياً، يفكّرُ في المكتب، ويقول: " حين اتّصلتُ بكِ كانت الساعة تقترب من التاسعة، أليس كذلك؟ "

" نعم، تقريباً "

" في الواقع، كنتُ عصبياً و... "

" أعرفُ هذا، تابع... "

ولا أعرف إنْ كان يجب أنْ أصدِّقه أم لا، ولاسيما بعد تلك الرسائل التي لفّقناها. بل لا أعرف إنْ كنتُ قد سمعته بدقّة، لأنَّ ما يُخبرني به يبدو عجيباً حقاً. ومع ذلك لا يبدو حقيقياً أيضاً، إذا عرفنا أي نوع من الشبّان هو. ثم أتذكّر صوته عبر الهاتف، ذلك المزيج الغريب من الخوف والابتهاج. ولكن لماذا لا يبدو الآن أكثر ابتهاجاً؟ إنه يبتسم طوال الوقت، يبتسم كبقّة نالتْ كفايتها. ويُكرر القول " كانت الساعة التاسعة حين اتّصلتُ بكَ، أليس كذلك؟ ". وأهزُّ رأسي قلِقاً. نعم، كانت الساعة التاسعة. على أي حال، حين نظر ثانية إلى ساعته كانت بلغَتْ العاشرة. في العاشرة كانت مُستلقية على الديوان وهي تحمل طيورها البحرية بين يديها. هكذا وصفَ لي المشهد - قطرة فقطرة. في الحادية عشرة كان كل شيء قد تقرَّر، وسوف يهربان، إلى بورنيو. أير في الزوج! إنها لم تحبه على أي حال. وما كانت لتكتب الرسالة الأولى لو لم يكن الزوج عجوزاً بارداً مجرّداً من العواطف. " ثم تقول لي: ولكن اسمع يا عزيزي، كيف نتأكّد من أنك لن تملّني؟ "

وعند هذا الحد انفجرَ ضاحكاً. يبدو هذا القول منافياً لعقلي، ولا حيلة لي في هذا.

" وماذا قلتَ أنت؟ "

" وماذا تتوقَّع مني أنْ أقول؟ قلت: كيف يمكن لإنسان أن يملَّك؟ "

ثم أخذ يصفُ لي ما حدث بعد ذلك، كيف انحنى وقبل ثدييها، وكيف، بعد أنْ أَغرقها بالقُبَل المحمومة أعادهما إلى الصدارة، أو يعلم الله ما اسمها. وبعدها شرِبَ كأساً coupe أخرى من الشمبانيا.

وقُرابة منتصف الليل يصِل النادل مع البيرة والشطائر شطائر الكافيار. وطوال الوقت، كما يقول، كان يتحرَّق رغبة في التبوُّل. وكان قد حصل لديه انتصاب مرة واحدة، ثم تراخى. وطوال الوقت كانت مثانته على وشك الانفجار، لكنه تصورَّ، وهو الأير الصغير الذكي، أنَّ الوضعَ يستدعي الكياسة.

في الواحدة والنصف تستقلّ عربة خيل وتقودهما خلال غابة البوا. ولم يدر في خَلَده إلا فكرة واحدة - ماذا يفعل ليتبول؟ ويقول لها " أحبكِ... أعبدكِ، سأرحل معك إلى حيث شئت - اسطنبول، سنغافورة، هونولولو. ولكن يجب أنْ أذهب الآن... الوقت يتأخر "

يُخبرني بهذا كله ونحن في غرفته الصغيرة القذرة، التي تتدفق الشمسُ إليها، والعصافير تزقزق كالمجنونة. ولا أعرفُ حتى الآن إنْ كانت جميلة أم لا. هو نفسه لا يعرف، هذا الأبله. يعتقد أنها ليست جميلة. كانت الغرفة مُظلمة ثم هناك تأثير الشمبانيا وتوتُّر كل أعصابه.

" ولكن يجب أنْ تعرف شيئاً عنها - إلا إذا كان كل كلامك كذبة لعينة! "

ويقول: " انتظر لحظة، انتظر... دعني أفكِّر! كلا، لم تكن جميلة. الآن صرت متأكداً. ولها خصلة شعر بيضاء فوق جبينها... أذكرُ ذلك. ولكن هذا ليس سيئاً جداً - الواقع أني كدتُ لا أنساها. كلا، إنَّ ذراعيها - كانتا نحيلتين... نحيلتين وهشّتين ". ويبدأ بالتمشّي جيئة

وذهاباً. وفجأةً يقفُ جامداً، ويهتفُ: " ليتها كانت أصغر بعشر سنين! لو كانت أصغر بعشر سنين لتغاضَتْ عن خصلة الشعر البيضاء... بل وحتى عن ذراعيها النحيلتين. لكنها عجوز. أتعلم، مع عاهرةٍ كهذه لكل سنة حِسابها. في العام القادم لن تكبر سنة واحدة فقط - بل عشر سنين. وبعد سنة أخرى ستكبر عشرين سنة. أما أنا فسوف أبدو أكثر شباباً - على الأقلّ للسنوات الخمس القادمة... "

وأقاطعه: " ولكن كيف انتهى الأمر؟ "

" هذا كل شيء.. ولم ينته الأمر. وقد وَعَدتُ أنْ أراها في يوم الثلاثاء في نحو الساعة الخامسة. الواقع إنه أمر سيئ! كان في وجهها تغضّنات سوف تبدو أوضح في ضوء النهار. أعتقد أنها تريدني أنْ أنكحها في يوم الثلاثاء. إنَّ النكاح النهاري - لا يقوم به المرء مع عاهرة كهذه. ولاسيما في مثل هذا الفندق. إنني أُفضِّلُ أنْ أقوم بها في الليلة التي أكون فيها حراً... وفي ليلة الثلاثاء لستُ حراً. وليس هذا كل شيء. فقد وعدتُها أنْ أبعث إليها رسالة حتى ذلك الحين. فكيف سأكتب رسالة الآن؟ ليس لدي ما أقول... خراء! ليتها كانت أصغر سناً بعشر سنين. هل تظن أنَّ عليَّ أنْ أرحل معها... إلى بورنيو أو حيثما شاءتْ؟ ماذا أفعل بعاهرة ثرية؟ إنني لا أُحسن إطلاق النار. أخافُ البنادق بكل أنواعها. ثم إنها تريدني أنْ أنكحها ليل نهار... لو يكون هناك إلا الصيد والنكاح طوال الوقت... لن أحتمل هذا! "

" قد لا يكون الأمر بالسوء الذي تتوقعه. سوف تبتاع لك ربطات عنق وما شابه... "

" ما رأيك في أنْ تأتي معنا، هه؟ لقد أخبرتها بكل شيء عنك..."

" هل قلت لها أني فقير؟ هل أخبرتُها أني محتاج؟ "

" أخبرتها كل شيء. خراء، كل شيء سيكون على ما يرام، فقط لو أنها كانت أصغر بعشر سنين. قالتْ إنها في نحو الأربعين. وهذا يعني أنها في الخمسين أو الستين. كأنكَ تنكح أمك... لا يمكن... مستحيل "

" ولكن لابد أنَّها كانت تتمتع بقَدْرٍ من الجاذبية... قلت أنك قبَّلتَ ثدييها "

" لقد قبَّلتُ ثدييها - ماذا في هذا؟ ثم أنَّ المكان كان مُظلماً، أؤكّدُ لك "

بينما كان يُزرِّر بنطلونه وقع أحد أزراره. " هل لك أنْ تبحث عنه. هذه البذلة اللعينة تتفكّك. إنني ألبسها منذ سبع سنين... ولم أدفع ثمنها بعد. في أحد الأيام كانت بذلة جيدة، أما الآن فهي تفوح قذارة. وتلك العاهرة سوف تشتري لي أيضاً بذلات. وسوف تكون على ذوقي. ولكن هذا ما لا أرغبُ فيه، أقصد أنْ أجعل امرأة تُنفِق عليَّ. لم أفعل هذا مرة في حياتي. هذهِ فكرتك. أفضل أنْ أعيش وحيداً. خراء! أليست هذه غرفة مريحة؟ ما عيبها؟ أليست أجمل منظراً من غرفتها؟ لا أحب فندقها الفخم. وأنا ضد فنادق كهذه. قلتُ لها هذا. فقالتْ إنه لا يهمها أين تسكن... وإنها سوف تأتي لتعيش معي، إذا أردت. هل تتصورها وهي تنقل صناديقها الكبيرة وعُلَب قبعاتها وكل تلك الحثالات التي تجرّها وراءها؟ عندها أشياء كثيرة - أثواب عديدة وزجاجات وما شابه. ما أشبه غرفتها بمستوصف. إذا جرحَتْ إصبعها قليلاً فالأمر جلل. ثم إنها يجب أنْ تخضع للتدليك وتموج شعرها، ويجب أنْ لا تأكل هذا ولا تأكل ذاك. اسمع يا جو، كان يمكن أنْ تكون مناسبة لو أنها أصغر قليلاً.

يمكن مُسامحة عاهرة صغيرة على أي شيء. وليس مطلوباً أنْ تتمتع بأي قدرٍ من الذكاء. إنهن أفضل بلا ذكاء. أما العاهرة العجوز، وإنْ كانت لامعة الذكاء، وإنْ كانت أجمل امرأة في العالم، فالأمر سيان معها. العاهرة الشابة هي مال موظف. والعاهر العجوز خسارة تامة. إنَّ كل ما يفعلنه لأجلك هو شراء الأغراض. ولكن هذا لا يكسي أذرعهن لحماً ولا يُرطّب مُلتقى أفخاذهن. أيرين لا بأس بها. والحقيقة هي أنها ستعجبك. فمعك يختلف الوضع. لست مضطراً لمضاجعتها، وقد تعجبك. قد لا تحب تلك الأثواب والزجاجات، لكنك ستتحمل. لن تُثير سأمكَ، أنا متأكد. بل هي مسلّية، لكنها ذابلة، ثدياها لا يزالان على ما يُرام – لكن ذراعيها قلت لها إني سأعرفك بها يوماً ما. تحدثت عنك طويلاً... لم أعرف ماذا أقول لها. قد تعجبك، ولاسيما وهي مُرتدية ملابسها. لا أدري... "

" اسمع، أتقول إنها ثرية؟ سوف تُعجبني إذن! لا يهمني كم يكون عمرها، ما دامت ليست شمطاء.. "

" إنها ليست شمطاء! ما هذا الذي تقوله؟ بل أؤكد لك أنها فاتنة الجمال. حديثها ممتع، وشكلها حسن أيضاً... ما عدا ذراعيها... "

" لا بأس، إذا كان الأمر على هذا المنوال، سأنيكها أنا – إذا كنتَ لا ترغب فيها. قُلْ لها هذا. وكُنْ مُهذّباً في قولك. فمع امرأة مثلها يجب أن تُعالج الأمور ببطء. قدِّمني إليها ودعْ الباقي يجري تلقائياً. هيا امطرني بالثناء. تصرَّف وكأنكَ تغير... خراء، ربما نكناها معاً... وبعد ذلك نذهب إلى أماكن كثيرة ونأكل معاً... وسوف نتنزَّه بالسيارة ونصطاد ونرتدي ملابس جميلة. إذا أرادتْ أنْ تذهب إلى بورنيو دعها

تأخذنا معها. أنا أيضاً لا أحسن الرماية، ولكن لا يهمّ. وهي أيضاً لا تأبه لهذا الأمر. إنَّ ما تريده هو أنْ تُنكح، وفقط. أنتَ تتكلّم عن ذراعيها طوال الوقت. فهل يجب أنْ تنظر إليهما طوال الوقت؟ انظر إلى غطاء السرير هذا! أنظر إلى المرآة! أتسمّي هذه حياة؟ هل تريد أنْ تكون مُرهفاً كالحشرة؟ أنت لا تستطيع أنْ تدفع فاتورة الفندق... ولديكَ عملك أيضاً. هذه ليست حياة. لا يهمني إنْ كانت في السبعين - فهي أفضل من هذه الحياة... "

" اسمعْ يا جو، نكْها من أجلي... وبعدها سيكون كل شيء على ما يُرام. بل وقد أنيكها أنا أحياناً.. في ليلة عطلتي. لقد مرَّتْ عليّ أربعة أيام منذ أنْ تغوَّطتُ بشكلٍ جيد. أشعرُ بشيء لزِج يلتصقُ بي، كأنها حبّات عنب... "

" ذلك لأنكَ مُصابٌ بالبواسير، هذا هو السبب "

" وشَعري يتساقطُ أيضاً... ويجب أنْ أزورَ طبيب الأسنان. أشعرُ كأني أتفكّك. أخبرتها كم أنتَ فتى طيب... ستؤدي لي المعروف، هه؟ أنتَ لستَ مفرط الرهافة، هه؟ إذا ذهبنا إلى بورنيو لن أُصاب بالبواسير بعد الآن. بل قد ينشأ عندي شيء آخر... شيء أشدّ سوء... الحمّى ربما... أو الكوليرا. خراء، الأفضل أنْ تموت من مرضٍ جيد كهذا على أنْ تسفح حياتك هدراً على ورق الصحف وتُصاب بحبات العنب في مؤخرتك وتقع الأزرار من فتحة بنطلونك. أود لو أكون ثرياً، حتى ولو لأسبوع واحد فقط، وبعدها فلأذهب إلى المستشفى مُصاباً بمرضٍ رائع، مرضٍ قاتل، وتوضع لي أزهار في الغرفة وممرضات يتراقصن من حولي وتنهمرُ عليَّ البرقيات. حين تكون ثرياً يعتنون بكَ جيداً؛ يغسلونكَ

بحشوة من القطن، ويمشّطون لك شعرك. خراء، أعلم هذا كله. قد أكون محظوظاً ولا أموت أبداً. أو أبقى مُعاقاً طوال حياتي... ربما أصبحُ مشلولاً وأضطر إلى الجلوس على كرسي متحرِّك وسوف أظلُّ موضع عناية على أي حال... وإنْ لم يكن معي ما يكفي من المال. إذا كنتَ عاجزاً - عاجزاً " حقيقياً " - فلن يتركوك تموت جوعاً. وسوف تحصل على سرير نظيف تنام عليه... ويُغيّرون المناشف كل يوم. وبهذه الطريقة لا يأبه أحدُ بكَ، ولاسيما إذا كان لديك عمل. يعتقدون أنَّ على الإنسان أنْ يكون سعيداً إذا كان له عمل ثابت. ماذا تفضّل - أنْ تكون مُعاقاً طوال حياتك، أم أنْ يُسنَد إليك عمل... أو أنْ تتزوج من عاهرة ثرية؟ أرى أنكَ تزوجتها ثم أصبحتَ عاجزاً عن الحصول على انتصاب - وهذا يحدثُ أحياناً - فماذا ستفعل عندئذٍ؟ ستكون تحت رحمتها. ستأكل من يدها كجروٍ صغير. سيعجبكَ هذا، أليس كذلك؟ أم لعلك لا تفكِّر في هذه الأمور؟ أما أنا فأفكِّر في كل شيء. أفكِّرُ في البذلات التي سأنتقيها والأماكن التي أحب أنْ أرتادها، ولكني أفكّرُ أيضاً في الشيء الآخر. وهو الأهمّ. فما نفع ربطات العنق الرائعة والبذلات الجميلة حين تعجز عن الحصول على انتصاب؟ ولم تتمكّن من خيانتها - لأنها ستكون في إثرك دائماً. كلا، أفضّل شيء هو أنْ تتزوج منها وتُصاب بالمرض بعد ذلك مباشرة. على أنْ يكون السفلس. فلتكن الكوليرا مثلاً، أو الحمى الصفراء. فإذا حدثتْ المعجزة وبقيت على قيد الحياة فسوف تقضي البقية الباقية من حياتك مُعاقاً. وبعدها لن تقلق أبداً بشأنْ نكاحها، ولن تقلق أيضاً بشأنْ الإيجار. وقد تبتاع لك كرسياً متحركاً بدواليب مطاطيّة وشيئاً ما كرافعة أو ما يُشبهها. وقد تبقى قادراً على

استخدام يديك - أعني بما يكفي لتكتب. أو قد تحصل على سكرتيرة لهذا الغرض. هذا هو الحل الأمثل للكاتب. ماذا يريدُ المرءُ من ذراعيه وساقيه؟ إنه لا يحتاج إلى ذراعيه وساقيه في الكتابة؛ هو بحاجة إلى الأمان... والهدوء... والحماية. خسارة أنَّ كل أولئك الأبطال الذين يدرجون على كراسيهم المتحركة ليسوا كُتّاباً. لو يتأكّد المرء حين يذهب إلى الحرب أنه لن يفقد قدميه... لقلتُ هيا نُثيرُ حرباً غداً. أيري في الأوسمة كلها - يمكنهم أنْ يحتفظوا بها. كل ما أريده هو كرسي متحرك وثلاث وجبات يومياً. وبعدئذٍ سأنفحهم شيئاً يقرؤونه، أولئك الأيور.

في اليوم التالي عند الواحدة والنصف، اتّصلتُ بفان نوردن. كان يومَ عطلته، أو ربما ليلة عطلته، وقد تركَ كلمة مع كارل يطلب مني فيها أنْ أساعده على الانتقال في ذلك اليوم.

وأجده في حال غير عادية من الغم. لم ينَمْ لحظة واحدة طوال الليل. هكذا يُخبرني. هناك شيء يشغل باله، شيء ينهشه. وسرعان ما أعرف هذا الشيء، وهو ينتظر وصولي بفارغ الصبر ليُفضي إليّ بما لديه.

ويبدأ حديثه عن كارل: " ذلك الشاب، ذلك الشاب فنان. لقد وصفَ كل التفاصيل بدقّة. أخبرني بها بتلك الدقّة التي أعرفُ أنها مجرَّد كذبة لعينة... لكنني لا أستطيع أنْ أطردها من ذهني. وأنت تعرف كيف يعمل ذهني "

ويُقاطع نفسه ليسأل إنْ كان كارل أخبرني بالحكاية كلها. فهو لا يشك على الإطلاق في احتمال أنْ يكون كارل قد أخبرني بشيء ثم أخبره بشيء مُخالف الخ. يبدو أنه يظن أنَّ الحكاية قد لُفِّقَتْ خصوصاً لتعذيبه.

ولا يبدو أنه يأبه كثيراً لعملية التلفيق هذه، ويقول إنَّ ما يأسره هو تلك " التخيلات " التي خلفها عقله. فالتخيلات حقيقية، وإنْ كانت كل الحكاية مختلفة. ثم إنَّ مسألة وجود عاهرة ثرية في الموضوع وأنَّ كارل قام بزيارتها فعلاً حقيقة لا يمكن إنكارها. أما ما حدث فعلاً فأمر ثانوي وأعتبر أنَّ من البديهي أنَّ كارل طردها. أما ما دفعه إلى اليأس فأنْ يكون ما وَصَفَه كارل " ممكناً ".

ويقول: " لا يمكن إلا لامرئٍ مثله أنْ يُخبره أنَّه أدْخَلَه فيها ست أو سبع مرات. أعلمُ أنَّ كل هذا خراء ولا آبه له كثيراً. أما أنْ يقول لي أنها استأجرت عربة وأخذته إلى الغابة وأنهما استخدما معطف الزوج الفرو كملاءة، فهذا كثير. أعتقد أنه أخبرك عن السائق الذي انتظر باحترام... واسمعْ، هل أخبرك كيف بقيَ المحرّك دائراً طوال الوقت؟ يا يسوع، لقد لفَّقَ هذا بروعة. إنَّ مثل هذه التفاصيل لا تصدر إلا عن مثله... يكفي أحد هذه التفاصيل ليجعل أي شيء يبدو حقيقياً من الناحية النفسية... وبعد ذلك لن تتمكن من طرده من ذهنك. ويُخبرني هذا بطريقة هادئة، طبيعية... تُرى، هل فكَّرَ في الأمر مُسبقاً أم أنه قفزَ فجأةً من ذهنه هكذا، عفو الخاطر؟ إنه كذَّاب حقير لا يمكنك أنْ تفلت منه... وكأنه يكتب لكَ رسالة تُشبه لوحات أصص الزهور التي ينفّذها آناء الليل. لا أفهم كيف يتسنّى لامرئ أنْ يكتب رسائل كهذه... لا أفهم العقلية الكامنة خلفه... إنه كالاستمناء... ما رأيك؟ "

ولكن قبل أنْ أتمكّن من المغامرة بالإدلاء برأي أو حتى بالضحك في وجهه، يُتابع فان نوردن حواره الفردي.

" اسمع، أظنه أخبرك بكل شيء... هل أخبرك كيف وقفَ على الشُرفة تحت ضوء القمر وقبلها؟ يبدو هذا مُبتذلاً حين تُكرره، لكنَّ الطريقة التي يصفه بها... أكاد أرى الأير الصغير واقفاً هناك والمرأة بين ذراعيه ثم وهو يكتب رسالة أخرى، هي لوحة أخرى عن الأسقف وكل ذلك الخراء الذي يسرقه من المؤلفين الفرنسيين. ذلك الشاب لا يقول شيئاً واحداً أصيلاً، هذا ما اكتشفته. عليك أنْ تبحث عما يدلّك على كذبه... مثلاً، لمن قرأ مؤخراً... وهذا شيء صعب معرفته لأنه كتوم لعين جداً. اسمع، لو لم أعلم أنكَ ذهبت معه لما صدَّقتُ أنَّ للمرأة وجوداً. لأنَّ مثله يمكن أنْ يكتب رسائل لنفسه. ومع ذلك فهو محظوظ... هزيل جداً، هشّ جداً، ومظهره عاطفي جداً، حتى إنَّ النساء يقعنَ في حبائله بين الحين والآخر... أو قُلْ يتبنّينه... ويرثين لحاله، في اعتقادي. وبعض العاهرات يرغبنَ في الحصول على أُصص زهور... فذلك يجعلهنّ يشعرن بأهميتهن... غير أنَّ هذه المرأة ذكية، كما يقول. ولابد أنكَ تعلم هذا... لقد رأيتُ رسائلها. ماذا تعتقد أنَّ امرأةً مثلها تجد فيه؟ أنا أفهم وَلَعَها بالرسائل... ولكن ماذا تعتقد كان شعورها حين رأته؟

" ولكن اسمع، إنَّ كل هذا يخرج عن الموضوع. ما أحاولُ الوصول إليه هو الطريقة التي يرويه لي. وأنتَ تعلم كيف يُزيّن الأمور... حسن، بعد مشهد الشُرفة - وهو يسرده لي وكأنه يقدّم لي طبقَ مشهيات، كما تعلم - بعد ذلك، كما يقول، دخلَ وبدأ يفكّ أزرار منامتها. لماذا تبتسم؟ أتعتقد أنه كان يخري عليّ في هذا؟

" كلا، كلا، أنتَ تحكيها لي كما أخبرني بها تماماً، تابع... "

" بعد ذلك "، وهنا يجد فان نوردن نفسه مضطراً إلى الابتسام بدوره - " بعد ذلك، وأؤكد لك، يبدأ بشرح كيف جلستْ على الكرسي ورفعَتْ ساقيها... ولم يكن عليها شعرة واحدة... ويجلس هو على الأرض رافعاً إليها ناظريه، ويُخبرها كم هي جميلة... هل أخبرك أنها بدَتْ كلوحة من لوحات ماتيس؟... انتظر لحظة... أريد أنْ أتذكّر بالضبط ما قاله لي. كانت له عبارة صغيرة ذكية عن محظية... ولكن ماذا تعني محظيّة بحق الجحيم؟ قالها لي بالفرنسية، لهذا لا أتذكّر تلك الكلمة المنيوكة... لكنَّ وَقْعَها جميل. يُنتظَر من مثله أنْ يقولها. ولعلّها من ابتكاره... وأحسبها تظّنه شاعراً أو ما شابه. ولكن اسمع، كل هذا ليس مهماً... إني ألتمس له العذر لخياله ذاك. أما ما دفعني إلى الجنون فهو ما حدثَ بعد ذلك. لقد أمضيتُ الليل بطوله أتقلّبُ في فراشي، اعبثُ بالصور التي خلّفها في ذهني. لا أستطيع منها فكاكاً. تبدو لي حقيقية تماماً بحيث لو أنها تتحقَّق لشنقت ابن الحرام. فلا يحقُّ لأي كان أنْ يختلق أشياء كهذه، وإلا كان مريضاً...

" إنَّ ما أحاول أنْ أصِلَ إليه هو اللحظة التي خرَّ فيها، كما يقول، على ركبتيه وإصبعيه النحيلين باعَدَ ما بين شفتيّ كسّها. أتذكّر هذا؟ ويقول إنها كانت تجلس وساقاها متدليان من فوق مسندي الكرسي وإذا به، كما يقول، يهبطُ عليه الإلهام. حدث هذا بعد أنْ انتهى من مضاجعتها مرتين... وبعد أنْ قال ملاحظته الصغيرة عن ماتيس. إذن خرَّ على ركبتيه - **خذي هذه** - وبإصبعيه... وبطرفيهما فقط، انتبه إلى هذا... فتحَ التويجين الصغيرين... **سكويش-سكويش**... هكذا. وصَدَرَ صوتُ لزِجٌ خافت لا يكاد يُسمَع. **سكويش-سكويش**!. يا يسوع، كنتُ

أسمعُ ذلك الصوت طوال الليل ويُخبرني بعدئذٍ - وكأنَّ هذا لم يكفني - كيف دفن رأسه في كسّها. ولمّا فعلَ هذا، وليساعدني المسيح، إذا بها تُطبق ساقيها حول رقبته ***وهنا صَرَعني***! تصورًّ! تصورًّ امرأة راقية، حسّاسة مثلها تُطبق ساقيها حول ***رقبته***! - هناك مسحة سامّة تكتنفُ الأمر. إنه عجيب إلى حد الإقناع. لو أنه اكتفى بإخباري عن الشمبانيا والنزهة في الغابة بل وحتى عن مشهد الشرفة لكنتُ أنكرته. أما هذا فلا يُصدَّق أبداً بحيث بات يبدو أبعد ما يكون عن الكذب. لا أصدِّق أنه قرأ قط عن ذلك في أي مكان، ولا أفهمُ ما الذي أدخلَ تلك الفكرة إلى رأسه إلا إذا كانت تحوي بعض الحقيقة. فمع أيرٍ صغير مثله، كما تعلم، يمكنُ أنْ يحدث أي شيء. كان يمكن ألاّ ينيكها على الإطلاق، ولكن ربما تركته يعبثُ بها... ولا تعرف ماذا يمكنُ لأولائي العاهرات الثريات أنْ يتوقعن منكَ أنْ تفعله... "

وحين ينزع نفسه أخيراً من السرير ويبدأ بالحلاقة يكون وقت الظهيرة قد تقدَّم. وأكون قد نجحتُ في آخر المطاف في توجيه تفكيره إلى أشياء أخرى، إلى الأشياء المؤثّرة في المشاعر في المقام الأول. وتدخل الخادم لترى إنْ كان جاهزاً - فقد كان من المفترض أنْ يُغادر الغرفة مع حلول الظهيرة. وكان بالكاد قد باشرَ بارتداء بنطلونه، ودُهِشتُ قليلاً لأنه لم يعتذر أو يستدر. ولما رأيته واقفاً هكذا يُزرِّرُ بنطلونه بلا اكتراث وهو يُلقي عليها أوامره رحتُ أضحك بصوت مكبوت ويقول لي "لا عليكَ منها "، وهو يُلقي عليها نظرة احتقار، " إنها خنزيرة ضخمة. اقرصها في طيزها إذا أردت، فلن تتفوهّ بكلمة ". ثم يُخاطبها بالإنكليزية قائلاً: " تعالي إلى هنا يا عرصة، ضعي يدكِ على هذا "،

وهنا لا يعود في مقدوري كبح نفسي، وأنفجرُ بالضحك، ضحكاً هستيرياً، وأنتقلُ إلى الخادم نفسها، على الرغم من أنها لم تفهم سببه. وتبدأ الخادم تنزل اللوحات والصور الفوتوغرافية، صوره في مُعظمها، التي تغطّي الجدران. ويقول " أنتِ "، ويومئ بإصبعه، " تعالي إلى هنا! هاكِ شيئاً تتذكرينني به " - وينتزع صورة شخصية عن الجدار - " بعد أنْ أَذهب يمكنك أنْ تمسحي بها طيزك. أترين "، يقول هذا وقد استدار نحوي، " إنها عرصة خرساء. ولم تبدو أكثر ذكاءً لو كرّرته بالفرنسية ". وتقف الخادم في مكانها فاغرة الفم. ومن الواضح أنها مُقتنعة بأنه مجنون ويصيح بها وكأنها ثقيلة السَمَع " هيه! هيه! أنتِ! نعم، أنتِ! هكذا... "، ويأخذ الصورة، صورته الشخصية، ويمسح بها مؤخرته. " Comme ca ! Savvy ? يجب أنْ ترسم لها لوحات ". يقول هذا وهو يمطُّ شفته السُفلى باشمئزاز متناه.

ويرمقها عاجزاً وهي ترمي أغراضه في الحقائب الكبيرة، ويقول "هاك، ضعي هذه الأشياء أيضاً. ويمدُّ لها يده بالفرشاة وحقيبة النضح. ويظل نصف أغراضه مُلقى على الأرض. وتزدحم الحقائب ولا يبقى مكان للرسوم والكتب والزجاجات نصف المملوءة، ويقول: " اجلس قليلاً، لا زال أمامنا الكثير من الوقت، يجب أنْ نتدبَّر أمر هذه الأشياء. لو لم تأتِ لما نجحت في الخروج من هنا. أترى كم أنا عاجز. ذكِّرني كي آخذ المصابيح الكهربائية... إنها لي. وتنكة الزبالة أيضاً. إنهم ينتظرون منك أنْ تعيش كالخنازير، أولاد الحرام ". وتخرج الخادم لتحضر خيط قنّب... " انتظر لترى... سوف تطالبني بثمن الخيط حتى ولو كان ثلاثة سوآت. إنهن لا يخطن لك زراً واحداً في بنطلونك دون أنْ يتقاضين

ثمنه. متسولات قذرات حقيرات! ". ومن رف المدفأة يتناول زجاجة كالفادوس ويومئ إليّ لكي أحمل الأخرى. " لا فائدة من حملها إلى المكان الجديد. دعنا ننهيها الآن. وإياك أنْ نعطيها أي جرعة بنت الحرام تلك. ولن أترك لها ورقة تواليت واحدة. أود أنْ أحطِّم الشقّة الحقيرة قبل أنْ أذهب. اسمع... تبولّ على الأرض إنْ أردت. ليتني أستطيع أنْ أخري في درج زينتها "، ويشعر باشمئزازٍ عارم من نفسه ومن كل شيء آخر حتى إنه لا يعرف ماذا يفعل ليُنفّس عن مشاعره. يمشي إلى السرير والزجاجة في يده ويُزيح الأغطية ويصبّ الكافادوس فوق الفراش. ولا يكفيه ذلك فيأخذ يحفر الفراش بكعب حذائه. ولسوء الحظ لم يكن يوجد في حذائه أي طين. وأخيراً يتناول الملاءة ويُنظّف بها حذاءه. ويُغمغم بنغمة انتقام " هذا سيدفعهنّ إلى عمل شيء ما ". وبعد ذلك، بعد أنْ يتناول جرعة كبيرة شرِهة يرجع رأسه إلى الخلف ويُغرغر حنجرته، وبعد أنْ يُغرغرها كما يجب يبصق كل شيء على المرآة. " خذنَ هذه يا بنات الحرام الرخيصات! امسحنَ هذا بعد ذهابي! "، ويمشي جيئة وذهاباً ويُغمغمُ لنفسه ويرى جوربه الممزق مرمياً على الأرض فيلتقطه ويُقطّعه قطعاً صغيرة. واللوحات أيضاً تُثيرُ حنقه، فيلتقط واحدة وهي صورته الشخصية رسمتها سحاقية من معارفه ويُدخِل فيها قَدَمه. " تلك العرصة! هل تعرف ماذا تجرّأتْ على الطلب مني؟ طَلَبَتْ أنْ أرسِل إليها عاهراتي بعد أنْ أفرَغ منهن. ولم تمنحني مرةً سواً مقابل كتابة رسائلها. ظنّتني مُعجباً بحق بإنجازها، ولم أكنْ لأحصل على هذه الصورة منها لو لم أُرسِلْ لها عاهرة مينسوتا. كانت مجنونة بها... وكانت تتبعنا حيثما ذهبنا ككلب محموم... ولم نعرف كيف نتخلص من تلك العرصة! لقد

نغّصَتْ عليَّ حياتي كلها. وساء حالي إلى درجة أني بتُّ أخشى أنْ أُحضِر أي عاهرة إلى هنا مخافة أنْ تزاحمني عليها. كنتُ أتسلل إلى هنا كلصٍّ! وحالما أدخل أُقفل الباب خلفي... تباً لها ولتلك العاهرة الجيورجية - لقد دفعتاني إلى حافة الجنون. إحداهما دائمة الشبق والأخرى دائمة الجوع. أكره أنْ أنيك امرأة جائعة. وكأنك تُدخِل إليها الطعام ثم تسحبه من جديد... يا يسوع، هذا يُذكّرني بشيء آخر... أين وَضَعَتْ ذلك المرهم الأزرق؟ هذا هو المهمّ. هل سبقَ واستعملت أشياء كهذه؟ إنه أسوأ من تناول جرعات الفم. ولا أدري أيضاً من أين حصلتُ عليها. لقد أحضرت العديد من النسوة إلى هنا خلال الأسبوع المنصرِم أو نحوه، لهذا تراني فقدتُ أثرهنّ. شيء مُضحك حقاً، لأنهنّ جميعاً منعشات الرائحة. لكنكَ تعرف كيف تجري الأمور... "

كانت الخادم قد كوَّمَتْ أغراضه على الرصيف. وبينما " السيد " ينظر حوله بسيماء واثقة. وبعد أنْ وضع كل شيء في سيارة الأجرة لم يبقَ إلا مكان لشخص واحد منا. وحالما انطلقنا أخرج فان نوردن صحيفة وأخذ يحزم طناجره ومقاليه، ففي المكان الجديد يمنع الطبخ منعاً باتاً. ومع وصولنا إلى هدفنا كانت كل أمتعته قد حُلّتْ من حِزمها، ولم يكن الأمر ليصل إلى تلك الدرجة من الارتباك لو لم تخرج السيدة رأسها من الباب حالما غادرنا سيارة الأجرة. وهتفت: " يا إلهي! ما هذا بحق الشيطان؟ ما معناه؟ ". وفان نوردن يفيض بالمودة حتى إنَّ كل ما يتفوَّه به هو "C'est moi ì c'est moi, madame ! "، ويلتفت إليّ ليُتمتم بضراوة: " انظر إلى هذه المُقرقرة! أترى وجهها؟ إنها تنوي أنْ تضع عراقيلها في طريقنا "

يقعُ الفندق في خلفيـة ممر حقيـر ويُشكِّل مُثلثاً هو أقـرب شبـهاً بالإصلاحات الحديثة. غرفة المكتب كبيرة الحجم، مُقبِضة، على الرغم من الانعكاسات المتلألئة المنبعثة من الجدران القرميـدية ,وهناك أقـفاص للعصافير مُعلَّقة في النوافذ وشارات صغيرة مصقولة موزّعة في كل مكان ترجو من الزوار وبلغـة حـازمـة ألا يفـعلوا كـذا وألا ينسـوا ذلك. والمكان نظيف بشكلٍ يكاد يكون مُطلقاً بيـدَ أنه يدلّ على فِـقر مُـدقع، وابتـذال وكآبة. الكراسي المُنجَّدة مضمومة إلى بعضـها بمجموعـة أسلاك، تُذكِّر المرء بشكلٍ بغيض بالكرسي الكهربائي. والغرفـة التي يشغلها تقعُ في الطابق الخامس. وبينما نرتقي السلّم يُخبرني فان نوردن أنَّ موباسان قطن هنا ذات مرة. وينوِّه بوتيرة الصوت ذاتها إلى أنَّ في القاعـة عَبَقاً خـاصاً. وفي الطابق الخـامس توجد نوافـذ مُحطّمة الزجاج، ونقف برهة ننظر إلى النزلاء عبر الردهة. الوقت يقترب من العشاء والناس يُجاهدون ليصلوا إلى غرفهم بتلك السِحَنْ القلقِة، المُحبطة التي يُخلّفهـا السعي لكسب العيش بشرف. أغلب النوافذ مفتوحة على مصاريعها، والغرف الحقيرة تشبه في مظهرها أفواهاً كثيرة تتثاءب. ونزلاء الغرف يتثاءبون أيضاً، أو يهرشون أنفسهم، ويتنقّلون في المكان بتوانٍ ومن الواضح أنه بلا هدف معيَّن، وهناك احتمال آخر معقول في أنهم مجانين.

وحالما ننعطف إلى الرواق متجهين إلى الغرفة رقم ٥٧ يُفتَحُ بابٌ يقعُ أمامنا ليُبرِز وجه عجوز حيزبون بشعرٍ أشعث لها عينا مجذوب. وتباغتنا إلى درجة أننا نقف جامدين في مكاننا. وخلال دقيقة كاملة نظل نحن الثلاثة وقوفاً عاجزين تماماً عن الحركة أو حتى عن الإتيان بأي إيماءة ناتجة عن التفكير. إلى الخلف من العجوز أرى مائدة مطبخ

يستلقي عليها طفل عارٍ تماماً، طفل ضئيل سقيم لا يتعدّى حجمه حجم دجاجة منتوفة الريش. وأخيراً تلتقط العجوز دلواً موحِلاً موجوداً إلى جانبها وتقوم بحركة إلى الأمام. ونفسح لها مجالاً لتمر وبعد أنْ تُغلِق الباب يُطلِق الوليد صرخة ثاقبة. إنها غرفة رقم ٥٦، وبين ٥٦ و ٥٧ يقعُ المرحاض حيث تُفرِغ العجوز أقذارها.

ومنذ أنْ بدأنا ارتقاء الدَرَج لزم فان نوردن الصمت. لكنَّ نظرته بليغة. وحين يُفتَح باب الغرفة ٥٧ تجتاحني وللحظة بارقة شعور بالجنون. فهناك مُقابل المدخل مباشرة مرآة كبيرة جداً مُغطّاة بالشاش الأخضر بمقدار ٤٥ درجة فوق عربة للأطفال مملوءة بالكتب. ولا يفتر ثغر فان نوردن حتى عن ابتسامة، وبدلاً من ذلك يتقدّم بلا مبالاة من عربة الأطفال وينتقي منها كتاباً ويبدأ بتصفّحه، بطريقة رجل يدخل المكتبة العامة ويتوجّه بذهنٍ شارد إلى أقرب منصب للكتاب. وربما ما كان لهذا أنْ يبدو سخيفاً لو لم ألمح في الوقت نفسه زوجاً من القضبان ذات المقابض قائمين عند الزاوية. بدوا في منتهى السكينة والرضا، وكأنهما ناعسان في مكانهما منذ سنين خلتْ، بحيث تراءى لي فجأةً أننا واقفان في هذه الغرفة، بل وفي هذا الموضع بالذات، منذ زمن طويل لا يمكنُ حسابه، وأنها وِقفة اتّخذناها في حلمٍ لم نخرج منه قط، حلمٌ تكفي لتبديده أقلّ إيماءة، مجرد طَرفة عين. والشيء الأكثر غرابة هو الذكرى التي برزت فجأةً لحلم تراءى لي في الليلة الفائتة، حلم رأيت فيه فان نوردن يقفُ في زاوية شبيهة بالتي يشغلها هذان المقبضان الحديديان، إلا أنه بدل المقبضين الحديديين كانت هناك امرأة جاثمة وقد رفعت ساقيها. أراه واقفاً يطلّ على المرأة وفي عينيه تلك النظرة اليقظة المتلهّفة التي

تتبدَّى كلما رغبَ في شيء رغبة شديدة. الشارع الذي يحدث فيه ذلك يكتنفه الضباب - ليس فيه واضحاً إلا الزاوية التي تُشكّلها الجدران، وقامة المرأة المنكمشة. يمكنني مشاهدته متجهاً إليها بتلك الخطوة الحيوانية السريعة التي يتميَّز بها، مُهملاً كل ما يجري حوله، وقد انصبَّ تصميمه على متابعة طريقه. وكأنَّ النظرة التي في عينيه تقول: " يمكنك قتلي لاحقاً، ولكنْ دعني أُدخِله فيها... يجب أنْ أُدخِله! ". وها هو مائل عليها، رأساهما يرتطمان بالجدار، وقد حصل لديه انتصاب عظيم حتى بات وببساطة من المتعذَّر إدخاله فيها. وفجأةً، وبذلك الجو المُقزِّز الذي يعرف كيف يُشيعه معرفة تامة، ينهضُ ويُهندِم ملابسه. ويوشك أنْ يبتعد وإذا به يُلاحظ فجأة أنَّ أيره لا يزال مُلقى على الرصيف. إنه بحجم عصا مكنسة مُقتَلَعَة. فيلتقطه بلا مبالاة ويُدلّيه من تحت إبطه. وبينما هو يبتعد ألاحظُ وجود بُصيلتين ضخمتَين، كبُصيلات زهر التوليب، متدليتين من نهاية عصا المكنسة، ويتناهى إلى سمعي صوته وهو يُتمتم لنفسه: " أصص أزهار... أصص أزهار "

يصلُ النادل لاهثاً مُتعرّقاً. وينظر إليه فان نوردن نظرة عدم فهم. والآن تدخل المدام وتتوجه إلى فان نوردن رأساً، تأخذ الكتاب من يده، وترميه في عربة الأطفال. ودون أنْ تتفوه بحرف، تسوقها إلى الصالة.

يقول فان نوردن " إنها مستشفى مجانين " مُبتسماً بألم. ابتسامة واهنة تعصى على الوصف حتى إنَّ الشعور بالحلم يعود للحظة ويبدو لي أننا واقفان عند نهاية رواقٍ طويل عُلِّقَتْ في نهايته مرآة ذات انعكاس متموِّج. ويترنَّح فان نوردن، يترنَّح متمايلاً على طول ذلك الرواق، وهو يهزّ كَربَه كفانوسٍ قذر، داخلاً خارجاً وكأنما هنا وهناك يُفتَح باب وتمتد يدٌ

لتنتزعه إلى الداخل، أو حافر يرفسه إلى خارجه. وكلما ابتعدَ في تجواله زاد حزنه الكئيب، إنه يتقلّده كالقنديل الذي يحمله راكبو الدراجات بين أسنانهم ليلة يكون الرصيف مُبتلاً زلِقاً. وينتقل خارجاً وداخلاً الغُرَف القذرة، وعندما يجلس يتقوَّض الكرسي من تحته، وعندما يفتح الحقيبة لا يكون فيها إلا فرشاة أسنان. في كل غرفة مرآة يقفُ أمامها بانتباه ويمضغ ثورته، وقد بات فكّاه من طول المضغ والهمهمة والدمدمة والتلعثُم وصبِّ اللعنات محلولين عن مكانيهما ويتدليان حتى يكادان يسقطان، وعندما يمسح على لحيته تسقط قِطعٌ من فكّيه ويشعر باشمئزاز شديد من نفسه حتى إنّه يدوس على فكّيه، يطحنهما نُتفاً صغيرةً بكعبيه الضخمَين.

في تلك الأثناء نُقِلَتْ الأمتعة إلى الداخل. وبدأتْ الأمور تبدو أكثر جنوناً من ذي قبل - ولاسيما حين ثبَّتَ أداة التمرين الرياضي في عمود السرير وباشرَ تمارين الساندو. قال للنادل مُبتسماً: "هذا المكان يُعجبني"، وخلعَ معطفه وبذلته. ويُراقبه " النادل " بحيرة وفي إحدى يديه يحمل حقيبة سفر وفي الأخرى حقيبة نضح. وأقفُ بعيداً في الغرفة المؤدية إلى الداخل حاملاً مرآةً يعلوها ضبابٌ أخضر. وبدا أنَّ ليس لأي غرض فائدة عملية. حتى غرفة التوصيل نفسها تبدو بلا فائدة، وهي أشبه بردهة تؤدي إلى حظيرة ماشية. إنه نوع الإحساس نفسه الذي ينتابني حين أرتاد الكوميدي فرانسيز أو مسرح الباليه رويال، عالم من سقط المتاع، من الأبواب السرية، من الأذرُع والنهود والأرضيات المُشمّعة، من الشمعدانات والرجال المُدرّعين، من تماثيلٍ بلا عيون ورسائل حب مُلقاة في صناديق زجاجية. ثمة حادث يجري، ولكن لا معنى له، كشرب زجاجة كالفادوس لمجرَّد أنه لا مكان لها في حقيبة السفر.

أخبرني وهو يرتقي الدَرَج، كما قلتُ سابقاً، أنَّ موباسان كان يقطن هنا. ويبدو أنَّ أثر المُصادفة قد تركَ لديه انطباعاً واضحاً. وأبدى ميلاً إلى الاعتقاد أنه في تلك الغرفة بالذات أبدعَ موباسان بعضاً من تلك الحكايات الرهيبة التي ترتكز عليها مكانته الرفيعة. ويقول: " أولاد الحرام أولئك يعيشون عيشة الخنازير ". ونجلس حول مائدةٍ على كرسيين مُريحَين عتيقَين شُدّاً بالسيَر والمشابك. وكان السرير إلى جوارنا مباشرة، وهو شديد القُرب منا بحيث يمكننا أنْ نضع أقدامنا عليه، والخزانة في الزاوية وراءنا، وهي بدورها قريبة بما يكفي لتكون في المتناول. وكان فان نوردن قد أراقَ ماءه القذر على الطاولة، وجلسنا هناك وأقدامنا مدفونة في جواربه وقمصانه القذرة ودخّنا بسرور. وتبدو قذارة المكان وكأنها تعمل عمل السحر فيه: إنه سعيد هنا. وحين نهضتُ لأدير مفتاح النور يقترح أنْ نلعب الورق قبل أنْ نخرج لتناول الطعام. وهكذا جلسنا هناك قرب النافذة، والماء القذر مسفوح على الأرض وأداة تمرين الساندو الرياضي مُدلاّة من الثريا، ونلعب بضعة أدوار من لعبة البينوكل بشخصَين. ويضعُ فان نوردن غليونه جانباً ويحشر مقداراً من السعوط تحت شفته السفلى. وبين الحين والآخر يبصق من النافذة، كتلاً من العصير البني اللون تتردَّد أصداء صفعاتها على وجه الرصيف في الأسفل. والآن يبدو راضياً.

ويقول: " في أميركا لا تحلم بالعيش في شقة كهذه. وحتى حين كنتُ متشرداً نمتُ في غرفٍ أفضل منها. أما هنا فيبدو الأمر طبيعياً — إنه كالكُتُب التي تقرأها. إذا ما قُدِّرَ لي وعُدتُ إلى هناك فسوف أحاول أنْ أنسى هذه الحياة، تماماً كما تنسى أنت حلماً مزعجاً. وقد أعود إلى

حياتي القديمة حالما أرحل من هنا... هذا إذا عدت. أحياناً أستلقي على السرير وأحلم بالماضي بصورة شديدة الوضوح حتى إني أضطر إلى هزّ نفسي لأعي أين أنا. ولاسيما حين تكون إلى جواري امرأة، فمع امرأة أغوصُ إلى أبعد من الحلم. وهذا كل ما أريد منهنّ - أن أنسى نفسي. أحياناً أتمادى في الضياع في أحلامي حتى إني أعجز عن تذكُّر اسم العاهرة أو المكان الذي التقطتها فيه. مضحكٌ هذا، هه؟ لذيذ أنْ يكون إلى جوارك جسد دافئ بضّ حين تستيقظ في الصباح. إنه ينفحك شعوراً نقياً. تصبح روحانياً... إلى أنْ يبدأ بصبّ ذلك الخراء عن الحب، الخ. لماذا تتحدث العاهرات كثيراً عن الحب، هل يمكنكَ أنْ تُجيب؟ يبدو أنْ مضاجعة جيدة لا تكفيهن... يردن روحك أحياناً "

كلمة روح هذه التي تقفز باستمرار من نجاوى فان نوردن مع نفسه، كانت تترك لدي أثراً فكاهياً. وكلما سمعتُ كلمة روح تخرج من بين شفتيه تنتابني نوبة ضحك هستيرية، تبدو لي كقطعة نقد زائفة، ولاسيما لأنها غالباً ما كانت ترافق بكتلة من العصير البني اللون يترك خيطاً سائلاً أسفل زاوية فمه. ولما لم أكنْ أتردَّد لحظة في الضحك في وجهه كان يحدث دائماً حين تقفز هذه الكلمة الصغيرة أنْ يصمت فان نوردن فترة كافية من الوقت لأنفجر مُقهقهاً، بعدها، وكأنَّ شيئاً لم يكن، يتابعُ مناجاته، مُكرراً الكلمة مرة أخرى وباستمرار وفي كل مرة بتوكيد مُلاطِف. إنَّ روحه هي التي كانت النساء يحاولنَ امتلاكها - هذا ما وضّحه لي. وشرَحه لي مراراً وتكراراً، لكنه في كل مرة يعود إليه ببداية جديدة كعودةِ مهووس الاضطهاد إلى هاجسه. وفان نوردن مهووس بصورةٍ ما، أناَ مُقتنع بذلك. إنَّ خوفه الوحيد هو أنْ يُترَك وحيداً، وهذا

الخوف من العقم والإلحاح بحيث إنه حتى وهو يمتطي امرأة، وهو مُلتحم بها، لا يقوى على الهرب من السجن الذي بناه لنفسه. ويشرحُ لي قائلاً: " إنني أقومُ بكل المحاولات الممكنة. أحياناً أعدُّ، أو أفكِّرُ في مشكلةٍ فلسفية، ولكن لا فائدة، كأني شخصان، وأحدهما يراقبني طوال الوقت. أكاد أُجنّ من نفسي حتى لأودّ لو أقتلها... هذا، بصورة ما، هو ما أفعله كلما مررتُ برعشة اللذة الجنسية. وخلال لحظة واحدة أشعر وكأني ألغي نفسي. عندئذٍ لا أكون واحداً فقط... بل لا يكون هناك شيء... ولا العاهرة. كأني أتلقّى العشاء الرباني. إنني أعني ما أقول، بشرفي. وبعد ذلك أمرٌ بفترةٍ وجيزة من التوهّج الروحي الصافي... وقد تستمر دون ضابط - من يدري؟ - لولا وجود امرأة إلى جوارك وحقيبة النضح والماء الجاري... وكل تلك التفاصيل الصغيرة التي تجعلك منطوياً يائساً وحيداً بلا أمل. ومن أجل لحظة الحرية هذه تضطر إلى الإصغاء إلى كل ذلك الخراء عن الحب... وأحياناً أفعل. لكنَّ تصرّفي لا يبعدهن عني. فهنَّ في الواقع يحببنَ الضرب. وكلما أهملتهنّ تعلّقنَ بكَ. في النساء سِمة منحرفة... كلّهن مازوشيات في أعماقهن.

وأسأله " ماذا تريد من المرأة؟ "

ويبدأ بتشكيل يديه، وقد تراخت شفتاه. ويبدو عليه الإحباط الكامل. فإذا نجحَ أخيراً في إخراج بضع عبارات متكسّرة وهو يُفأفئ، فبدافعٍ من الإيمان بأنَّ خلف كلماته يكمنُ عبثٌ طاغٍ. ويندفعُ مُفشياً سرَّه بلا وعي: " أريدُ أنْ أستسلم لامرأة، أريدها أنْ تُبعدني عن نفسي. لكنها لكي تفعل ذلك يجب أنْ تكون أفضل مني، أن تتحلّى بعقل، لا أنْ تكون مجرد عاهرة. يجب أنْ تدفعني إلى الإيمان بحاجتي إليها، بأني

لا أستطيع أنْ أعيش بدونها. أعطني عاهرة مثلها، هل تستطيع؟ وإذا فعلتَ فسوف أتنازل لك عن عملي. ولن آبه عندئذٍ بما سيحدث لي: لن أحتاج إلى عملٍ أو إلى أصدقاء أو إلى كتب أو إلى أي شيء. ليتها فقط تستطيع أنْ تدفعني إلى الإيمان بوجود ما هو أهمّ مني على وجه الأرض. يا يسوع، كم أكره نفسي! لكنني أكره أولاءِ العاهرات بنات الحرام أكثر - لأنه ولا واحدة منهن تساوي شيئاً.

ويُتابع: " لأنت تظن أني مُعجَب بنفسي، وهذا يدل على قِلّة ما تعرفه عني. اعَلمْ أني شاب عظيم... وما كنتُ لأعاني هذه المشكلات لو لم تكن مهمة بالنسبة إليّ. ولكن ما ينهشني حتى الهلاك أني لا أستطيع التعبير عن نفسي. يعتقد الناس أني صائد عاهرات، وهذا يدل على مدى بلاهة ذوي الحواجب العالية أولئك الذين يقضون أيامهم جالسين على المصطبة يمضغون تبغهم النفسيّ... لا بأس بعبارة " التبغ النفسي " - هه؟ دوِّنها لأجلي، سوف أستخدمها في عمودي المُخصص في الأسبوع القادم... بالمناسبة، هل سبق وقرأت لشتيكل[٣١] Stekel؟ هل هو جيد؟ إنه لا يبدو إلا أنه أكثر من حقيبة من التاريخ. أتمنى من المسيح أنْ أستجمع ما يكفي من الجرأة لزيارة مُحلّل نفسي... أعني، مُحللاً جيداً. لا أريد أنْ أزور أحد أولئك المشبوهين الوضيعين ذوي اللحى المُدببة ومعاطف الفراك. أمثال صديقك بوريس. كيف تحتمل أمثال أولئك؟ ألا يضجرونك حتى الموت؟ أرى أنكَ تتكلّم مع كل مَنْ

---

٣١ - فلهيلم شتيكل (١٨٦٨ - ١٩٤٠) :عالم نفسي ومُحلِّل نفسي نمساوي . كان تلميذاً لفرويد ، لكنه اختلف معه لاحقاً . لديه كتاب عنوانه " الجنسانية الذاتية " ويتحدث فيه عن الاستمناء والنرجسية . انتحر .

هبَّ ودبّ. ولا تأبه لشيء. ربما كنت على حق. أتمنى لو لم أكنْ انتقائياً إلى هذا الحد. لكنَّ أولئك اليهود الحقيرين القذرين المتسكعين حول الدوم، يا يسوع، إنهم يُشيعون بي القشعريرة، يُشبهون الكتب المدرسية. لو أستطيع أنْ أتحدث معك كل يوم فلربما تمكَّنت من إزاحة الهموم عن صدري. أنت مُستمع جيد. أعلمُ أنكَ لا تأبه لشأني لكنك صبور. وليست لديك نظريات لتستغلها. أظنك ستدوّنها في وقتٍ لاحق في دفتر ملاحظاتك ذلك. اسمع، لا يهمني ما تقوله عني، ولكن لا تعتبرني صائد عاهرات - فهذا بالغ السذاجة. يوماً ما سوف أكتب كتاباً عن نفسي، عن أفكاري. لا أعني أنه سيكون مجرد قطعة من التحليل الاستبطاني... بل أعني سأضع نفسي على طاولة العمليات وسأعرض جميع أحشائي... وكل شيء دون استثناء. هل سبق وقام أحد بهذا؟ - علام تبتسم بحق الجحيم؟ هل يبدو كلامي ساذجاً إلى هذه الدرجة؟ "

وأبتسم لأننا كلما تطرّقنا إلى موضوع هذا الكتاب الذي ينوي أنْ يكتبه يوماً ما تتخذ الأمور وضعاً متناقضاً. يكفي أنْ يقول " كتابي " فإذا بالعالم ينكمش في الحال إلى أبعادٍ تناسبُ مقاييس فان نوردن الخاصة وشركاه. فعلى الكتاب أنْ يكون أصيلاً تماماً في موضوعه، كاملاً كل الكمال. لهذا السبب، ولأسبابٍ أخرى يستحيل عليه البدء به. وحالما يحصل على فكرة يبدأ في استجوابها. ويتذكَّر أنَّ دوستويفسكي استخدامها، أو هامسن، أو شخص آخر. " لا أقول إني أريد أنْ أكون أفضل منهم، ولكن أريد أنْ أكون مختلفاً. هكذا يُفسِّر الأمور، وهكذا، بدل أنْ يُعالج كتابه يقرأ مؤلفاً بعد آخر حتى يتيقن تمام اليقين من أنه يتعدّى على أملاكهم الخاصة. وكلما زادت قراءاته أصبح أكثر امتلاءً

بالازدراء. لا أحد منهم يكفيه، لا أحد منهم يصل إلى تلك الدرجة من الكمال التي فَرَضَها على نفسه. وينسى تماماً أنه لم يكتب حتى فصلاً واحداً يخوله التعالي عليهم. وكأنَّ هناك رفاً مملوءاً بالكُتب التي تحمل اسمه، كتبٌ يعرفها الجميع لذا لا ضرورة لذِكر عناوينها. وعلى الرغم من أنه لم يكتب قط صراحةً بشأن هذه الحقيقة، فمن الواضح أنَّ الناس الذين كان يُمسك بتلابيبهم وينفخ فيهم فلسفته الخاصة، ونقده، وشكواه، سلموا بأنَّ خلاف ملاحظاته المقلقلة يقفُ إنجاز ضخم راسخ. ولاسيما العذارى الصغيرات البلهاوات اللواتي كان يغويهنّ بالدخول إلى غرفته متذرّعاً برغبته في إلقاء قصائده على مسامعهنّ، أو بحجّةٍ أفضل من هذه هي أنْ يطلب نصيحتهن. ودون أي وازع من شعور بالذنب أو بالخجل يناولهن قطعة من الورق القذر خطٌّ عليها بضعة أسطر - هي نواة قصيدة جديدة، كما يصفها - ويطلب منهن وبمُطلق الجدّية أنْ يعبِّرن عن آرائهن بصدق. ولما لم يكن لديهن عادة ما يعلقنَ به، ويُسربلهن الارتباك من تفاهة الأبيات المُطلَقة، يستغل فان نوردن الفرصة ليُقدِّم لهنّ وِجهة نظره عن الفن، ولا داعي للقول أنها وِجهة نظر وليدة اللحظة الحاضرة لتناسب الحدث. لقد صار خبيراً ضليعاً بدوره هذا إلى درجة أنَّ انتقاله من أناشيد Cantos عزرا باوند إلى السرير يحدث ببساطة وتلقائيّة كتغيُّر طبقة الصوت من مقامٍ إلى آخر، والحقيقة هي أنه إذا لم يجرِ هذا الانتقال لوقع تنافر، وهذا يحدث بين آنْ وآخر حين يرتكب خطأ مع أولاءِ الحمقاوات اللواتي يُلقّبنَ بـ " السهلات ". وطبعاً، بما أنه شخصية راسخة، فهو يُشير إلى هذه الأخطاء الفادحة في إطلاق الأحكام بنفور. لكنه حين يُقرّر أنْ يعترف بخطأ من هذا النوع فإنه يُدلي به

بصراحة مُطلقة، والواقع يبدو أنه يستمدّ متعة مُنحرفة من التركيز على قصوره. فمثلاً هناك امرأة واحدة ظلّ يُحاول الحصول عليها منذ عشرة أعوام وحتى الآن - أولاً في أميركا، وأخيراً هنا في باريس. وهي الشخص الوحيد من الجنس الآخر الذي أقامَ معه علاقة وديّة عميقة. لم يكونا فقط يتبادلان الإعجاب، بل وكانا متفاهمَين. في أول الأمر بدا لي أنه لو تمكّنَ حقاً من إصلاح هذه المخلوقة لحُلَّتْ مشكلته. فقد توفّرت جميع عناصر الاتّحاد الناجح - عدا العنصر الأساسي. كانت بيسي صاحبة أسلوب فريد مثله، وكان اهتمامها بشأن وَهبْ نفسها إلى رجل معدوماً كاهتمامها بفاكهة بعد الطعام. وكانت تفرز ما تنتقيه من الأشياء وتبادر إلى التقدُّم بالعرض. ولا يمكن القول أنَّ مظهرها كان سيئاً، أو أنها كانت جميلة. لقد كان لها جسم رائع، وهو الشيء الأهمّ - وكانت راضية بذلك، كما يُقال.

كانا ودودين جداً، هذان الاثنان، إلى درجة أنَّ فان نوردن كان أحياناً، وإرضاءً لفضولها (وأيضاً على أمل يائس في أنْ يُلهبها ببراعته الفائقة) يَعْمَد إلى إخفائها في خزانته أثناء إحدى جلساته. وبعد انتهاء الجلسة تظهر بيسي من مخبئها ويُناقشان القضية عَرَضاً، أو بمعنى آخر لا مبالاة كاملة تقريباً بكل شيء عدا " التقنية ". كانت التقنية هي إحدى أفضل اهتماماتها، على الأقلّ أثناء تلك المناقشات التي كنتُ أمنحُ امتياز الظفر بحضورها. فكان يقول: " ما العيب في تقنيتي؟ ". وتجيب بيسي: " أنتَ تفتقر إلى الكثير من البراعة. وإذا كنتَ تتوقع أنْ تضاجعني فعليك أنْ تكون أكثر مهارة "

كان بينهما تفاهمٌ تام، كما قلت، حتى إني حين عرّجتُ على فان نوردن في الواحدة والنصف وجدتُ بيسي جالسة على السرير، وقد أُزيحتْ عنها الملاءات وفان نوردن يدعوها لتداعب قضيبه... كان يقول " فقط بعض المداعبات الحريرية، لكي أستمد الشجاعة على النهوض "، أو يحثّها على أنْ تنفخ عليه، فإذا لم تنجح هذه الطريقة، فإنه يُمسك به ويهزّه كجرس العشاء، وينفجران معاً في نوبة من الضحك حتى يكادان يموتان. ويقول: " لن أفلح في مضاجعة هذه العاهرة، إنها لا تكنّ لي أي قدر من الاحترام. هذا جزاء إيلائها ثقتي "، ويُضيف بعدها على الفور: "ما رأيك في تلك الشقراء التي أريتكَ إياها بالأمس؟ "، موجّهاً حديثه إلى بيسي طبعاً، وتسخر بيسي منه قائلة إنه يفتقر إلى الذوق، ويقول: " أوه، لا تبدئي معي على هذا الخط "، ثم يُردف عابثاً، وربما للمرة الألف، ولأنَّ الأمر صار بينهما نكتة متواصلة - " اسمعي يا بيسي، ما رأيك في مضاجعة سريعة؟ فقط مضاجعة واحدة سريعة... ما رأيك ". وحين انتهى الأمر بالطريقة المعتادة أضاف، بالوتيرة نفسها: " حسن، ما رأيك فيه هو؟ لماذا لا تضاجعينه هو؟ "

مشكلة بيسي كلها ترتكز على أنها لا تستطيع، أو بالأحرى لا تريد، أنْ تعتبر نفسها وسيلة مضاجعة. وتتحدث عن الشغف وكأنها كلمة جديدة مُبتكرة. وهي شغوف بكل شيء، وإنْ كان شيئاً صغيراً كالمضاجعة. وكان عليها أنْ تضعْ روحها كلها فيها.

ويقول فان نوردن: " وأنا أيضاً أصبح شغوفاً أحياناً "، وتقول بيسي: " أوه أنتَ، أنتَ مجرد ساطير متهرئ، لا تعرف ما الشغف. فحين يحدث لديك انتصاب تظن أنكَ صرتَ شغوفاً "

" حسن قد لا يكون شغفاً... ولكن لا يمكن للمرء أنْ يشغف دون أنْ يحصل لديه انتصاب، وهذا صحيح، ألا تعتقد؟ "

هذا الكلام كله عن بيسي والنساء الأخريات اللواتي استدرجهن إلى بيته يوماً بعد آخر نشَّطَ تفكيري ونحن متوجهون إلى المطعم. لقد تعوَّدتُ تماماً مع نجاواه الذاتية بحيث كنتُ أعطيه التعليق المطلوب آلياً دون أنْ أقطع على نفسي تسلسل تأملاتي، وذلك في اللحظة التي يسكت فيها صوته. وكان ذلك يُشكّلُ حواراً ثنائياً محفوظاً، كأغلب الثنائيات، ولاسيما في ذلك الحوار، فإنَّ أكثر ما يجذب انتباه المرء فيها هو الإشارة التي تعلن ورود صوته هو. وبما أنها ليلة عطلته، وبما أني وعدتُ ألاّ ألازمه، هيّأتُ نفسي لأصرف انتباهي عن تساؤلاته. وأعرف أنه سينالني الإرهاق قبل انتهاء السهرة، فإذا كنتُ محظوظاً، أي إذا نجحتُ في أنْ أسحب منه بضعة فرنكات متعللاً بإحدى الذرائع فسوف أروغُ منه حالما يلجأ إلى المرحاض. إلا أنه يعرف نزوعي إلى الزَوَغان، وبدل أنْ يشعر بالمهانة، يعمل ببساطة على مواجهة تلك الإمكانية بصيانة قروشه. فلو طلبتُ منه نقوداً لأشتري سجائر لأصرَّ على مُرافقتي لشرائها. ويُقرّر ألاّ يُترَكَ وحيداً، ولا للحظة، وحتى عندما ينجح في الحصول على امرأة، حتى عندئذٍ يُصيبه الرعب من أنْ يبقى معها لوحده. ولو استطاعَ لأجلسني معه في الغرفة أثناء قيامه بالمضاجعة. كما لو أنه يطلب مني أنْ أنتظره ريثما ينتهي من حلاقة ذقنه.

في ليلة عطلته ينجحُ فان نوردن تدريجياً في أنْ يحتفظَ في جيبه بما لا يقلّ عن خمسين فرنكاً، وهذا ظَرفٌ لم يمنعه من أنْ يقوم بلمسةٍ فنيّة كلما صادفه احتمالٌ بالنجاح، فيقول: " مرحباً، هات عشرين فرنكاً...

أنا في حاجةٍ إليها ". وله طريقته الخاصة في الظهور، في الوقت نفسه، بمظهرِ المصعوق من الرعب، وحين يُصادف صداً يشعر بالمهانة، " يعني على الأقلّ في إمكانكَ أنْ تدعوني إلى مشروب "، وحين يحصل على المشروب يقول بروحٍ أكثر كياسة، " اسمع، هات خمس فرنكات فقط... هات فرنكين... "، وننتقلُ من حانةٍ إلى أخرى بحثاً عن قليلٍ من الإثارة وطوال الوقت نجمع بضعة فرنكات أخرى.

وفي الكوبول نقابلُ مصادفةً سكّيراً يعملُ في الصحيفة، وهو أحد قاطني الطابق العُلوي. ويُخبرنا بأنه قد وقعَ للتو حادثُ في المكتب؛ فقد سقطَ أحد مُراجعي التجارب الطِباعية في مهوى المصعد، ولا يُتوقَّع أنْ يبقى على قيد الحياة.

للوهلة الأولى يُصعَقُ فان نوردن؛ يُصعَقُ بعمق. ولكن حين يعلم أنه بكوفر، الإنكليزي، يستعيد ارتياحه، ويقول: " الابن الحرام المسكين، إنَّ موته أفضل من بقائه على قيد الحياة. المسكين لم يضع أسنانه الاصطناعية إلا منذ بضعة أيام... "

والتلميح إلى الأسنان الاصطناعية يُحرّك مشاعر ساكن الطابق العِلوي حتى ينخرط باكياً. ويسرد بأسلوب مُتباكٍ حَدَثاً صغيراً له علاقة بالحادثة، وهو يُسبب له القلق، وقلقه على الحَدَث الصغير أكبر من قَلَقه على الكارثة نفسها. فيبدو أنه حين اصطدمَ بكوفر بقاع المهوى، استعاد وعيه قبل أنْ يصِلَ إليه أحد. وعلى الرغم من أنَّ ساقيه قد كُسِرتا وأضلاعه تحطَّمَتْ فقد نجح في النهوض على أطرافه ليتلمَّس فيما حوله بحثاً عن أسنانه الاصطناعية. وفي سيارة الإسعاف كان يصرخ في هياج لفقدانه أسنانه. كانت الحادثة مُبكية مُضحِكة في وقتٍ واحد. ولم يعرف

الشاب القاطن في الطابق العلوي أيضحكُ أم يبكي وهو يحكيها. لقد كانت لحظةً دقيقة لأنكَ لو قمتَ بأي حركة غير صحيحة أمام سكّير كهذا لحطَّمَ زجاجة على رأسك. ولم يكن قط على صِلة ودّية مع بكوفر - بل إنه، والحق يُقال، نادراً ما وطأ مبنى تصحيح التجارب الطِباعيّة: فقد كان بينهما ما يُشبه الجدار الخفيّ كالذي كان بين سكان الطابق العلوي والسفلي. أما الآن، وبعد أنْ شعرَ بلمسةِ الموت، أرادَ أنْ يكشف عن إحساسه بالصداقة. أراد أنْ يبكي لو استطاع، أنْ يُبيِّن أنه إنسان طبيعي. أما جو وأنا، اللذان كنا نعرف بكوفر جيداً ونعرف أيضاً أنه لم يكن يساوي شيئاً، ولا حتى بضع دمعات، فانزعجنا من مبالغة هذا السكّير في إبراز عواطفه، وأردنا أيضاً أنْ نُفصِح عن ذلك الانزعاج، ولكن لا يسعُ المرء أنْ يكون صادقاً، إذ عليك أنْ تشتري إكليلاً من الزهور وأنْ تُرافق الموكب إلى الجنازة وتدّعي أنكَ في حالٍ يُرثى لها من الحزن. ويجب أيضاً أنْ تُهنّئه على النعي الرقيق الذي كتبه. وسوف يظل يحمل معه نعيه الموجز الرقيق أينما ذهب طوال شهور، ممطِراً نفسه بفيضٍ من التقريظ لأنه أحسنَ معالجة الوضع. شعرنا بهذا كله، أنا وجو، دون أنْ نتبادل كلمة واحدة. اكتفينا بالوقوف والإصغاء باحتقار مُهلِك صامت. وحالما أتيحت لنا فرصة الهرب فعلنا، وتركناه حيث هو عند البار ينتحب وحيداً مع كأسٍ من البرنو.

بعد أنْ غبنا عن ناظريه بدأنا ضحكنا الهستيري. يا للأسنان الاصطناعية! وبعد كل الكلام الذي قُلنا عن ذلك الشيطان المسكين، وقد قلنا عنه أشياء طيبة أيضاً، كنا دائماً نعود إلى ذكر الأسنان الاصطناعية. ففي هذا العالم أناسٌ أشكالهم عجيبة حتى إنَّ الموت نفسه

يسخر منهم. وكلما كان موتهم مُريعاً بدوا أشد إثارة للسخرية. ولا فائدة من إحاطة النهاية بشيء من الجلال - فعليك أنْ تكون كذاباً مُنافقاً لتكتشف أي شيء مأساوي في رحيلهم. ولمّا لم نكن مضطرين إلى تلبُّس واجهة زائفة استطعنا أنْ نضحك من الحادثة من أعماق قلوبنا. وأمضينا الليل كله نضحك. وكنا بين الحين والآخر نصبُّ جامَ غضبنا وازدرائنا واحتقارنا على ساكني الطابق العلوي، ذوي الرؤوس المنتفخة، الذين كانوا يحاولون إقناع أنفسهم، ولا شك، بأنَّ بكوفر هو شاب رائع وأنَّ موته كارثة. وتوافدت على رؤوسنا ذكريات مضحكة - عن الفواصل المنقوطة التي كان يتغاضى عنها والتي كانوا يوجهون إليه لأقسى التأنيب بسببها. لقد أفسدوا حياته بفواصلهم المنقوطة المنيوكة، والكسور التي كان دائم ارتكاب الخطأ فيها. وكادوا ذات مرة أنْ يطردوه لأنه جاء ذات يوم إلى العمل وهو سكران. وكانوا يزدرونه لأنه كان يبدو دائم البؤس ولأنه كان مُصاباً بالأكزيما، وقشرة الرأس. لقد كان نكرة ولا أكثر، حسب وجهة نظرهم، غير أنهم، الآن وبعد أنْ مات، يتدافعون بكل حماس ليبتاعوا له أكبر الأكاليل ويكتبوا عليها اسمه بحروف كبيرة على النعي. فعلوا كل ما من شأنه إبرازهم. وكانوا على استعداد لأنْ يظهروه ككتلة ضخمة من الخراء، إذا اقتضى الأمر. بيد أنهم مع بكوفر، ولسوء الحظ، لم يتمكنوا من إبداع الكثير. كان صِفراً، بل إنَّ موته بالذات لم يكن ليُضيف صِفراً إلى اسمه.

يقول جو: " هناك شيء واحد جيد في موته، هو أنَّ في إمكانك أنْ تحصل على عمله. إذا كان لديك أي قدر من الحظ فسوف تقع أنتَ أيضاً من مهوى المصعد وتكسر عنقك. وأعدك أنْ أشتري لكَ إكليلاً جميلاً "

وصوب الفجر نجلس على مصطبة مقهى الدوم، وقد نسينا أمر بكوفر منذ وقت طويل. وحصلنا على شيء من الإثارة في البال نيغر وعاد ذهن جو إلى هاجسه الأبدي: العاهرة. وفي تلك الساعة بالذات، عند انتهاء عطلته الليلية، يتصاعد قلقه إلى مرحلة الحمّى. ويفكر في النسوة اللواتي مرًّ بهنّ في أول المساء، وبالمثابرات اللواتي كان يمكن أنْ يحصل عليهن لو أراد، لو لم يكن قد سئمنَ. ويتذكّر حتماً عاهرته الجيورجية - فقد كانت في المدة الأخيرة تطارده ككلب صيد، وتتوسل إليه كي يستعيدها على الأقل ريثما تجد عملاً، ويقول: " لا بأس في أنْ أطعمها مرةً كل حين لكنني لا أستطيع إيواءها دائماً... وإلا أفسدت علاقتي مع بقية العاهرات ". إنَّ أكثر ما يزعجه بشأنها أنها لا تحمل على جسمها أي مقدار من اللحم، ويقول: " وكأنك تصطحبُ هيكلاً عظمياً معك إلى السرير. وذات أمسية أحضرتها معي - من باب الشفقة - أتدري ماذا فعلت هذه العاهرة المجنونة بنفسها؟ لقد أزالتْ الشَعر عنه حتى صار نظيفاً... لا تجد عليه شعرة واحدة. هل رأيت امرأة تحلق شَعرها؟ شيء مُقرز، ألا توافقني؟ ومضحك أيضاً. كأنه مجنون. ولم يعد يشبه العش في شيء: بل يشبه سمكة صدفية ميتة أو شيئاً من هذا القبيل "، ويصفُ لي، وقد ثار فضوله، كيف خرجَ من السرير وأخذ يبحث عن مصباحه الومضي. " وجعلتها تفتحه ووجّهتُ إليه الضوء. ليتك رأيتني... كان منظراً هزلياً. وانشغلتُ به حتى نسيتُ أمرها. ولم أكن قبل ذلك قد أمعنتُ النظر في كسّ بتلك الجديّة. حتى حسبتني لم أرَ واحداً من قبل. وكلما نظرت إليه مليّاً صار أقلّ إثارة للاهتمام. إذ يتبيَّن لكَ أنَّ لا شيء استثنائي فيه، ولاسيما بعد أنْ يحلق. فالشَعر هو

الذي يُضفي عليه الغموض. ولهذا ترى أنَّ التمثال لا يُثيرك. مرة واحدة فقط رأيت فيها كساً حقيقياً في تمثال - صَنَعَه رودان. يجب أنْ تراه يوماً... كانت المرأة متباعدة الساقين... ولا أظن أنه كان للتمثال رأس. ويمكنك أنْ تقول إنه لا يوجد إلا الكسّ. يا يسوع، بدتْ مُرعبة. والجدير بالذكر - إنهنّ جميعاً يبدين متشابهات. حين ننظر إليهن مرتديات ملابسهنّ تتخيَّل جميع أنواع الأشياء. تخلع عليهن شخصية متميِّزة، لا يتحلّين بها أصلاً، طبعاً. وبين الساقين لا يوجد إلا شقّ وترتفع حرارتك لرؤيته - بل إنك لا تكاد تنظر إليه معظم الوقت. وتعرف أنه موجود هناك وكل ما تفكر به هو أنْ تقحم فيه مِدكَّك، وكأنّ أيرك هو الذي يفكِّر نيابة عنك. هذا وهم! وأنتَ تتحرق إلى لا شيء... إلى شق عليه شَعر، أو بدونه. إنه خالٍ تماماً من أي معنى إلى درجة أنَّ النظر إليه يفتنني. لابد أني بقيتُ أدرسه لعشر دقائق أو أكثر. وحين تنظر إليه بهذه الصورة، باعتباره شيئاً منفصلاً، تخطر في ذهنك خواطر مضحكة. وبعد كل الغموض الذي يكتنف الجنس تكشف أنه لا شيء - مجرد فراغ. أليس مضحكاً لو أنك تجد داخله هارمونيكا... أو روزنامة؟ ولكن لا يوجد شيء... لا شيء بالمرة. إنه مُقزز. كاد يجرفني إلى الجنون... اسمع، أتعلمْ ماذا فعلت بعد ذلك؟ ضاجعتها بسرعة ومن ثم أدرت ظهري. نعم، وتناولتُ كتاباً ورحتُ أقرأ. فمن كتاب يمكنك أنْ تحصل على شيء ذي بال، وإنْ كان سيئاً... أما كس، فمضيعة للوقت... "

وتصادفَ أنه بينما كان يُنهي حديثه إذا بإحدى العاهرات ترنو إليه. وبدون أي فترة انتقال يقول لي مسرعاً: " هل تريد أنْ تطرحها ؟ لن

تُكلّف كثيراً... وستأخذنا معاً ". ودون أنْ ينتظر جوابي يقف مترنحاً ويتوجّه إليها. ويعود بعد بضع دقائق. يقول " تمَّ الأمر. أكمل شرب كأسك. إنها جائعة. لم يعد هناك عمل بعد هذه الساعة... ستأخذنا معاً لقاء خمسة عشر فرنكاً. وسوف تذهب إلى غرفتي... هكذا أرخص "

في الطريق إلى الفندق تُصيب الفتاة رجفة شديدة حتى نضطر إلى التوقُّف لنبتاع لها كأساً من القهوة. إنها مخلوقة رقيقة وليست سيئة المنظر أبداً. واضح أنها تعرف فان نوردن، تعرف أنها يمكن أنْ تتوقع منه أكثر من خمسة عشر فرنكاً. ويقول مُغمغماً بصوت منخفض: " أنتَ لا تحمل أي نقود "، ولما لم أكن أملك سنتيماً واحداً لا أفهم شيئاً مما يقول، إلى أنْ ينفجر قائلاً: " إكراماً للمسيح، تذكَّرَ أننا مُفلسان. لا تكن رقيق القلب حين نصعد إلى فوق. سوف تطلب منكَ أنْ تزيد السعر قليلاً - فأنا أعرف هذه العاهرة! كان يمكنني الحصول عليها مقابل عشرة فرنكات لو أردت. لا داعي لإفسادهنّ... "

وتقول لي، وهي تلملم شتات ملاحظاته بفمها البليد: " هذا الرجل خبيث "

" كلا، إنه ليس خبيثاً، بل لطيفٌ جداً "

هزَّت رأسها وهي تضحك: " إنني أعرفُ جيداً هذا الرجل. ثم طَفَقَتْ تحكي قصة عَثَرات حظها، عن المستشفى والإيجار المتأخّر والطفل الموجود في القرية. لكنها لا تبالغ. فهي تعرف أنَّ آذاننا موقورة، لكنَّ البؤس ساكن داخلها، كالحجر، ولا مكان لأي أفكار أخرى. ولا تحاول أنْ تستدرّ عطفنا - وهي فقط تنقل هذا العبء الثقيل الكامن داخلها من مكان إلى آخر. وأشعر بميلٍ إليها. وأتمنى من المسيح ألاّ تكون مُصابة بمرض...

في الغرفة تقوم باستعداداتها بطريقةٍ آليّة. وتسألنا، وهي تجلس على المرحاض. " ألا أجد عندكما أي كسرة خبز؟"، ويضحك فان نوردن من هذا السؤال ويقول، وهو يدفع إليها بزجاجة، " خذي اشربي ". إنها لا ترغب بشرب أي شيء، فمعدتها خاوية، وتشتكي.

يقول فان نوردن " هذا هو أسلوبها دائماً، لا تتركها تتلاعبُ بعواطفك. على أي حال أتمنى لو تتكلّم عن أي شيء آخر. بحق الجحيم كيف يمكنكَ أنْ تنفعل وأنتَ مع عاهرة تتضوّرُ جوعاً؟ "

بالضبط! ليس لدى أي منا أي شغف. أما هي فيتوقَّع منها أنْ تتقدَّم مدلاّة من الحجارة الكريمة لتكشف عن قبسٍ من ولعها. ولكن هناك خمسة عشر فرنكاً ويجب عمل شيء بشأنها. وكأننا في حالة حرب: فحالما ينفجر الوضع لا يعود أحد يفكّر في غير السلام، في إنهاء الأمر كله. ومع ذلك لا أحد يملك الشجاعة ليُخفض سلاحه ويقول: " لقد مللت... لقد طفح كيلي ". كلا، هناك خمسة عشر فرنكاً في مكان ما، ولم يعُد أحد يأبه بها، ولن ينالها أحد في النهاية على أي حال، لكنَّ الخمسة عشر فرنكاً هي كعلّة الأشياء الأولى وبدل أنْ يُصغي المرء إلى صوته الخاص، بدل أنْ يتخلّى عن العلِة الأولى، يستسلم للأمر الواقع، ويروح يقتل ويذبح وكلما ازداد جبنه تصرّف ببطولة أكبر، إلى أنْ يأتي يومٌ ينهارُ فيه الأساس وإذا بالمدافع تسكت فجأةً ويلتقطُ حاملو المحِفّات الأبطال المشوّهين النازفين والنياشين مُعلّقة على صدورهم. وبعدها يكون لدى المرء البقية الباقية من حياته ليقضيها في التفكير في الخمسة عشر فرنكاً. يكون قد فقد عينيه، أو ذراعيه أو ساقيه، ولكن يبقى له أنْ يُعزّي نفسه بقية حياته بالخمسة عشر فرنكاً التي نسيها الجميع.

الأمر يشبه تماماً حالة حرب - لا أستطيع أنْ أنسى ذلك. أسلوبها في التأثير عليّ، لتُشعلَ لديّ قَبساً من الشغف، يجعلني أفكّر كم كنتُ سأبدو جندياً بائساً لو أني كنت أحمقَ إلى درجة الوقوع في مثل ذلك الفخ وأُجَرُّ إلى الجبهة. لا أستطيعُ أنْ احتملها، وهذا كل ما يسعني قوله. لكنَّ تفكيرها كله كان مُنصباً على الخمسة عشر فرنكاً، وإذا لم أرغب في القتال لأنالها فسوف تدفعني هي إلى ذلك. لكنكَ لا تستطيع أنْ تُدخِلَ الفكرة إلى رأس رجل ليس في نفسه أي قتال. إنَّ بعضنا هو من فرط الجبن بحيث يتعذَّر عليك أنْ تخلق منا أبطالاً، حتى ولو أرعبتنا حتى الموت. ربما لأنَّ معرفتنا أكبر مما ينبغي. إنَّ بعضنا لا يعيش اللحظة، بل يعيش بعدها بقليل أو قبلها بقليل. إنَّ ذهني مشغولٌ طوال الوقت بمعاهدة السلام. ولا أستطيع أنْ أنسى أنَّ الخمسة عشر فرنكاً هي أصل كل ذلك البلاء. خمسة عشر فرنكاً! ماذا تعني لي خمسة عشر فرنكاً، ولاسيما أنها ليست ملكي؟

ويبدو أنَّ فان نوردن يتبنّى موقفاً طبيعياً أكثر من الموضوع فهو حتى الآن لا يأبه أبداً بالخمسة عشر فرنكاً، لكنَّ الوضع بحد ذاته هو الذي يفتنه. كأنه يدعوه لتقديم عرض مفعم بالهمّة والنشاط - ورجولته متورطة في الأمر. لقد ضاعتْ الخمسة عشر فرنك، سواء أنجحنا أم لم ننجح. وهناك شيء آخر أكثر تورّطاً - ربما ليس فقط الرجولة، بل والإرادة. وكأنَّ رجلاً عاد إلى الخنادق ثانية لأنه لم يعُد يفهم الداعي إلى أنْ يستمر في الحياة، وإذا هرب الآن فسوف يُقبَض عليه لاحقاً، لذا يواصل عمله، وعلى الرغم من أنه يحمل روح صرصار ويعترفُ بذلك لنفسه، أعطِهِ مسدساً أو سكيناً أو حتى مجرد أظافره دون غيرها وسوف

يظل يذبح ويقتل، وسوف يفضِّل أنْ يذبح مليوناً من الناس على أنْ يتوقف ليتساءل لماذا.

وبينما أراقبُ فان نوردن وهو يُعالجها ببراعة، يُخيَّلُ إليّ أني أراقبُ آلة انزلقَتْ مُسنناتها. وإذا تركتهما وشأنهما فسوف يُتابعان حركتهما إلى الأبد، يطحنان وينزلقان، دون أنْ يحدث أي شيء، إلى أنْ تمتد يدٌ لتوقفَ المحرك. ومرآهما متشابكين معاً كزوجٍ من المواعز بلا أوهى شرارة من عاطفة، يطحنان ويطحنان لسبب وحيد هو الخمسة عشر فرنكاً، يُزيلُ آخر ذرّة من شعور لدى ذلك اللا إنساني المُسمّى إشباع الفضول. الفتاة مُستلقية على طرف السرير وفان نوردن مائل فوقها كالساطير وقدماه مُثبّتتان بقوة على الأرض. وأنا جالس على كرسي خلفه، أراقبُ حركتهما بتجرُّد علمي بارد، ولا يهمني إنْ استمرَّتْ إلى الأبد. وكأني أراقبُ إحدى تلك الآلات المجنونة التي تلفظ الصحف بالملايين، والبلايين، والتريليايين بعناوينها الرئيسة الخالية من أي معنى. إنَّ مُراقبة الآلة بجنونها تبدو مفهومة أكثر، وفاتنة أكثر من مراقبة المخلوقات البشرية والأحداث التي أنتجتها. إنَّ اهتمامي بفان نوردن والفتاة هو صِفر، ولو كان في إمكاني أنْ أجلس هكذا أُراقبُ كل حركة تُنجَز في تلك اللحظة في جميع أركان العالم لكان اهتمامي حينئذٍ هو أقلّ من صِفر، ولما تمكّنتُ من التفريق بين هذه الظاهرة وتساقط المطر أو تفجُّر بركَان. وما دامت شرارة العاطفة تلك مفقودة فلن يكون هناك أي مغزى إنساني في الأداء، ومن الأفضل مراقبة الآلة. وهذان الاثنان أشبه بآلة انزلقَتْ مُسنناتها، وتحتاج إلى لمسةٍ من يدٍ إنسانية لإصلاحها؛ تحتاجُ إلى ميكانيكي.

أخرُّ على رُكبتيّ خلف فان نوردن لأتفحَّص الآلة بتركيز أشد. الفتاة ترمي برأسها إلى أحد الجانبين وترسل إليّ نظرةً يائسة، وتقول " لا فائدة، مستحيل "، وعلى الأثر يشرع فان نوردن بالعمل بطاقةٍ مُتجدّدة، كتيسٍ عجوز. إنه تيسٌ عنيد جداً بحيث يُفضّلُ أنْ يُحطِّم قرنيه على أنْ يستسلم. والآن يزداد غضبه لأنني أدغدغه من ردفه:

" إكراماً لله يا جو، كفى! ستقتل الفتاة المسكينة "

فينخر قائلاً " دعني وشأني، كدتُ أُدخِله الآن "

وفجأةً تُعيد وِقفته والطريقة المُصممة التي نطقَ بها عبارته إلى ذهني، وللمرة الثانية، ذكرى حلمي. الآن فقط يبدو وكأنَّ عصا المكنسة تلك، التي كان يُدلّيها بلا مبالاة، من تحت إبطه، وهو يمضي في طريقه، قد ضاعت إلى الأبد. وكأنه تتمّة الحلم - إنَّ فان نوردن هو نفسه، لكنه بدون العِلّة الأولى. إنه أشبه ببطلٍ عائدٍ من الحرب، ابن حرام مسكين مُقعَد يعيشُ على واقع أحلامه. أينما يجلس يتقوَّض الكرسي من تحته، وكل بابٍ يلجه يُفضي إلى غرفةٍ خاوية، وكل ما يضع في فمه يترك مذاقاً مُراً. كل شيء هو كما كان من قبل، العناصر الأولى لم تتغيَّر، ولا يختلف الحلم عن الواقع. غير أنه أحياناً يخلد إلى النوم وحين يستيقظ يجد أنَّ جسمه قد سُرِقَ. إنه كآلةٍ ترمي الصحف، ملايين وبلايين منها كل يوم، صفحاتها الأولى زاخرة بأخبارِ الكوارث، وحوادث الشغب، والجرائم، والانفجارات، والتصادمات، لكنه لا يشعر بأي شيء. إذا لم يتبرَّع أحدهم بإيقاف التدفُّق فلن يعرف معنى الموت، ولا يمكنك أنْ تموت إذا سُرِقَ منكَ جسدك الحقيقي. يمكنكَ أنْ تمتطي عاهرة وتعمل فيها كتيس وإلى الأبد، يمكنكَ أنْ تذهب إلى الخنادق لكي تُنسَفَ شذراً، لا

يمكنُ لأي شيء أنْ يقدحَ شرارةَ العاطفة إذا لم تتدخَّل يدٌ إنسانية. على أحدهم أنْ يمدَّ يدَ المساعدة إلى الآلة ويُعشِّق المُسننات من جديد. على أحدهم أنْ يفعل هذا دون انتظار لمكافأة، دون اهتمامٍ بالخمسة عشر فرنكاً؛ شخص بصدرٍ ضعيف بحيث أنَّ الميدالية تحني ظهره. على أحدهم أنْ يُدخِلَ القوت إلى جوف عاهرة تتضوَّر جوعاً دون خوفٍ من أنْ تلفظه من جديد، وإلا فإنَّ هذا المشهد سوف يتكرَّر إلى الأبد، ولا مخرجَ من المعمعة...

بعد التمسُّح بأذيال الرئيس طوال أسبوع كامل - وهذا هو الأسلوب المُتبَّع - نجحتُ في الحصول على وظيفة بكوفر. لقد مات ذلك المسكين فعلاً، بعد أنْ سقطَ في المهوى ببضع ساعات. وكما توقّعتُ، أقاموا له جنازة فخمة، مع قدّاس مهيب وأكاليل كبيرة، وما إلى ذلك. كل شيء مفهوم tout compris. وبعد مراسم الدفن استعادوا إشراقهم، أعني بهم شبّان الطابق العلوي، في المقهى. من المؤسف أنَّ بكوفر لم يكن يستطيع أنْ يتناول معهم وجبة سريعة - لكان رحَّبَ بالجلوس مع شبان الطابق العلوي وسماع اسمه يتردَّد مراراً.

يجب أنْ أقول، منذ البدء، أنه ليس لديَّ ما أشتكي منه. وكأني في مستشفى للمجانين، مسموحٌ لكَ فيها أنْ تستمني طوال ما تبقّى لك من حياة. العالم كله موضوع تحت أنفي والمطلوب مني أنْ أعيِّنَ أوقات الفواجع. ليس هناك شيء لا يضع سكان الطابق العلوي الزلقون أصابعهم فيه؛ لا يمرُّ فرحٌ، ولا يأسٌ مرورَ الكرام. إنهم يعيشون بين حقائق الحياة الصعبة، أو الواقع، كما تُسمّى. إنها الواقع المستنقعي وهم فيه الضفادع التي لا عمل لها غير النقيق. وكلما ازداد نقيقها صارت

الحياة أكثر واقعية. المحامي، والكاهن، والطبيب، ورجال الشرطة، والصحافي - هؤلاء هم المشعوذون الذين يجسّون بأصابعهم نبضَ العالم. هناك جوٌ مستمر من الفاجعة. وهو رائع. وكأنَّ مقياس الحرارة لا يتغيَّر، وكأنَّ الراية لا تزال عند منتصف الساري. بات مفهوماً الآنْ كيف تستحوذ فكرة الجنّة على وعي الناس، وكيف تُحرز تقدُّماً حتى بعد أنْ تتقوَّض كل الدعائم من تحتها. لابد أنَّ هناك عالماً آخر إلى جانب هذا المستنقع فيه كل شيء مُبعثر ومُشتت. من الصعب تصوُّر الجنة المُحتملة التي يحلمُ بها الناس. هي جنة الضفادع، ولا شك، مكوَّنة من الأبخرة العفنة، والنفاية، والماء الراكد. اجلس على حشيّة من الليلك لا يزعجك أحد واقضِ يومك في النقيق. الجنة شيءٌ يشبه هذا، في تصوُّري.

إنَّ لكل من هذه الفواجع التي أُصحِّحُ طباعتها - أثراً علاجياً عليّ. تصوَّر حالة من المناعة التامة، من الوجود الساحر، من الحياة المُطلَقَة الأمان وسط العُصيّات السامّة. لا شيء يؤثر بي، لا الزلازل ولا حركات الشَغَب ولا المصادمات ولا الحروب ولا الثورات. إنني مُلقَّحٌ ضد كل مَرَض، كل فاجعة، كل حسرة وبؤس. إنه أوجُ حياة الثبات والجَلَد. في كوَّتي الصغيرة تكمنُ كل السموم التي ينفثها العالم كل يوم بين يدي. لا تتلوَّث مني قُلامة ظِفر. أنا منيعٌ مناعةً مُطلَقَة. بل إنني أفضل حالاً من مُساعِد في مخبر، إذ ليست هناك روائح كريهة هنا، لا تفوح إلا رائحة رصاص يحترق. يمكن للعالم أنْ ينفجر - ومع ذلك سأبقى هنا لأضعَ فاصلة هنا وأخرى منقوطة هناك. بل قد أتجاوز قليلاً إلى الوقت الإضافي، فمع حَدَثٍ كذاك من المؤكَّد أنْ تكون هناك زيادة أخيرة. وعندما سينفجر العالم ويُرسَل العددُ الأخير إلى المطبعة سوف يجمع

مُصحّحو المطبوعات وبهدوء كل الفواصل، وتلك المنقوطة، والواصلات، وعلامات النجم، والأقواس، والأهلّة، والنقاط وعلامات التعجُّب، الخ، ويضعونها في صندوق صغير فوق كرسي رئيس التحرير، وهكذا ينتظم كل شيء ... Comme ca tout est regle

والفاجعة العظمى بالنسبة إلى مُصحّح المطبوعات هي التهديد بفقدان عمله. وحين نجتمع وقت الاستراحة يكون السؤال الذي يُشيعُ القشعريرة في ظهورنا هو: ماذا ستفعل إذا فقدتَ عملك؟ فبالنسبة إلى رجلٍ يعملُ كنّاساً للروث في إسطبل ترويض الخيول، الرعبُ الأعظم هو وجود عالم بلا خيول. ومن البلاهة بمكان أنْ تقول له إنه من المثير للاشمئزاز أنْ يقضي المرءُ حياته يجرف الروث الساخن. ففي وسع الإنسان أنْ يحب الخراء إذا كان رزقه يعتمد عليه، وسعادته مرهونة به.

هذه الحياة التي، لو كنتُ ما أزال فيها الرجل ذا الأنفة، والشرف والطموح وما إليها، لبدَتْ كأنها أدنى درجات الانحطاط، أرحّب بها الآن، ترحيب المعتلّ بالموت. هذه حقيقة سلبيّة، كالموت تماماً - وهي نوع من الفردوس خالٍ من ألم ورعب الموت. في هذا العالم الجهنمي أهم شيء على الإطلاق هو عِلم الإملاء والترقيم. ومهما تكن طبيعة الفاجعة، فكلمة طقس وحدها تهجًّى بشكلٍ صحيح. كل شيء موجود على مستوى واحد، سواء أكان آخر أزياء السهرة، أم اكتشافاً فلكياً، أم تزاحماً على مصرف لاستيراد الودائع، أم كارثة على سكة الحديد، أم سوق الثيران، أم طلقة المائة إلى واحد، أم إعداماً، أم سرقة، أم اغتيالاً، أم أي شيء آخر. لا شيء يَخفى على عين مُصحّح المطبوعات، ولكن لا شيء يخترق بزّته المُضادة للرصاص. وتكتب مدام شير (الآنسة استيف

سـابقـاً) للهندوسي آغـا مـير تقول إنهـا مـرتـاحة تمام الارتيـاح لعـمله " تزوجت في السـادس من حزيران وأقدِّم إليك شكري. نحن سعيدان وآمل أنْ تدوم هذه السعـادة، بفضل مـقدرتك، إلى الأبـد. لقد أبرقتُ لك نقـوداً على شكل حوالة بريدية بمبلغ... مكافأة لك... "، والـهندوسي آغـا مـير يتنبّأ لك بمستقبلك ويقرأ كل أفكارك بطريقة دقيـقة وغير قابلة للتفسير. وسـوف يمدّك بالنصـيـحـة، ويسـاعـدك على التـخلُّص من كل همـومك ومـشكلاتك من أي نوع كـانت، الخ. ***اتّصلْ أو اكـتبْ إلى ١٠ شـارع ماكماهون، باريس.***

إنه يقـرأ جمـيع أفكارك بطريقة رائعـة! وأعني بذلك أفكاري كلهـا ودون اسـتـثنا ء، من أتفـه الأفـكار إلى أكـثرها خزيـاً. ولابد أنَّ مـتسـعـاً فـسيـحـاً من الوقت يتـوفَّـر لدى هذا الآغـا مـيـر. أم هل يركِّـز فـقط على أفكار الذين يُرسلون إليـه النقـود بحـوالات بريدية؟ وألاحظُ في العـدد نفسـه عنواناً رئيساً يقول إنَّ " الكونَ يتَّسِعُ بسرعـةٍ كبيرة جداً حتى يكاد ينفجر "، وتحـتـه صورة تمثِّلُ صُداعـاً نصفيـاً. ثم كلام حول اللؤلؤ الموقعـة بكلمـة تكلا tecla. وهو يُخبر الجمـيع بلا اسـتـثنا ء أنَّ المصادفـة تعطي كليـهمـا، أي " البريّة " أو اللؤلؤة الشـرقيـة، واللؤلؤة " المتـحضّرة ". وفي اليوم نفسه، في كاتدرائية تريبه، يعرض الألمان معطف المسيح، وهي المرة الأولى التي يُخرَج فيهـا من المحفوظيّة منذ اثنين وأربعين عاماً. لم يذكُر شيـئـاً عن البنطلون والبـذلة. في سالـزبورغ وفي اليـوم نفسـه أيضـاً ولد فـأران في بطن رجل، صـدِّق أو لا تـصـدِّق، وممثلة سـينمـائيـة مـشـهـورة صُـوِّرَتْ وهي تضعُ سـاقـاً على سـاق: إنهـا تـقـضي وقت راحـتـهـا في الهـايدبارك، وتحت الصـورة علّقَ أحد المصوّرين المعـروفين " سـأعـتـرف أنَّ

للسيدة كوليدج من السِحر والشخصية المتميّزة ما كان سيخوّلها لتكون إحدى أشهر ١٢ أميركياً، وإنْ لم يكن زوجها رئيس جمهورية ". ومع حديث صحفي مع السيد همال من فيينا أقتطفُ ما يلي... قال السيد همال: " قبل أنْ أتوقّف أودّ أنْ أقول لا يكفي أنْ تكون القصة وتطابق المقاييس مثالية، فالبرهان على الخياطة الجيدة، يبدو عند اللبس. على البذلة أنْ تكون مُفصّلة على مقاس الجسم، وتبقى طيّتها حين يمشي لابسها أو يجلس ". وكلما حدثَ انفجار في منجم للفحم - منجم بريطاني - فأرجو أنْ تلاحظوا أنَّ الملك والملكة دائماً يُرسلان تعزيهما على جناح السرعة، برقياً . وهما دائماً يُحضّران السباقات الهامة، على الرغم من أنه قبل بضعة أيام، وحسب ما جاء في المخطوطة، هطلَ في مضمار سباق دربي، على ما أعتقد، " مطر غزير، وكم كانت دهشة الملك والملكة عظيمة ". أما الخبر المُفجِع أكثر هو التالي: " ادُّعيَ في إيطاليا أنَّ المضايقات ليست موجّهة ضد الكنيسة، لكنها مع ذلك موجّهة ضد أشد أجزاء الكنيسة رِفعة. وادُّعيَ أنها ليست ضد البابا، لكنها ضد قلب البابا وعينيه "

كان عليَّ أنْ أسافر، ودون مبالغة، إلى جميع أنحاء العالم بحثاً عن محراب مريح تماماً ومُمتع كهذا. يبدو أمراً لا يُصدَّق على الإطلاق. فكيف كان لي أنْ أتنبّأ، وأنا في أميركا، حيث يحشون مؤخرتك بالمفرقعات النارية ليملؤونك بالشجاعة والإقدام، بأنَّ العمل المثالي لإنسان ذي مزاج خاص مثلي هو البحث عن الأخطاء الإملائية؟ هناك لا تفكر إلا في أنْ تصبح رئيساً للولايات المتحدة يوماً ما. ففي داخل كل إنسان مزاج رئاسي. هنا يختلف الأمر. هنا كل إنسان هو في داخله

صِفر. إذا أصبحت ذا شأن أو ذا شخصية بارزة فهذه طفرة، معجزة، ونسبة الفرصة في عدم مغادرة قريتك هي ألف إلى واحد. ونسبة الفرصة في أنْ تنسِف ساقك أو تقلع عينك هي ألف إلى واحد. إلا إذا حدثَتْ المعجزة ووجدتَ نفسك لواءً أو عميداً بحرياً.

بالذات لأنَّ جميع الفُرَص هي ضدك، ولأنه ليس هناك إلا النادر من الأمل فإنَّ الحياة حلوة هنا. الأيام تتعاقب. بلا ماضٍ ولا مستقبل. ومقياس الضغط الجوي لا يتغيَّر، والراية ثابتة عند منتصف السارية. وتضع قطعة قماش من الكريب على ذراعك، وشريطاً صغيراً في عُروة زرك، وإذا كنت محظوظاً مادياً سوف تتمكَّن من شراء زوج من الأعضاء الاصطناعية الخفيفة الوزن لنفسك، ويفضّل أنْ تكون من الألومنيوم. وهذا لن يُعيقك عن الاستمتاع بتناول مشروب فاتح للشهية أو مشاهدة الحيوانات في حديقة الحيوان أو مغازلة الصقور اللواتي يُبحرن في طول الشوارع وعرضها، يترقَّبنَ وصول جيفة جديدة. ويمرُّ الوقت. فإذا كنتَ غريباً وكانت أوراقك نظامية فيمكنك أنْ تعرض نفسك للإصابة بمرضٍ مُعدٍ دون خوف من التلوُّث، ويُفضّل، إذا أمكن، أنْ تحصل على وظيفة مُصحِّح مطبوعات، وهكذا ينتظم كل شيء Comme ca tout s'arrange. وهذا يعني إذا تصادفَ واعترضكَ رجال شرطة المرور، وأنتَ في الطريق إلى المنزل في الثالثة صباحاً، يمكنكَ أنْ تفرقع أصابعك في وجوههم. وفي الصباح عندما تكون السوق في ذروة نشاطها، يمكنكَ أنْ تبتاع بيضاً بلجيكياً، البيضة بخمسين سنتيماً. ومُصحِّح المطبوعات لا يستيقظ عادةً قبل حلول الظهيرة، أو بعدها بقليل. ومن الأفضل أنْ تختار فندقاً قريباً من دارٍ للسينما، حتى إذا غلبك النوم توقظك أجراس

بدء الحفلة الصباحية. وإذا لم تجد فندقاً قريباً من دار للسينما، اخترْ واحداً قريباً من مقبرة، فالنتيجة واحدة. ولكن قبل كل شيء لا تيأس .ill ne faut jamais desesperer

هذا ما أحاولُ أنْ أملأ به رأس كل من كارل وفان نوردن كل ليلة. إنه عالم بلا أمل، لكنه بلا يأس. أبدو وكأني اهتديتُ إلى دينٍ جديد، كأني كنتُ في كل ليلة أُقيمُ تاسوعية سنوية لسيدتنا المُعزّية. لا أتصورّ ماذا كنتُ سأربح لو عُيِّنتُ مُديراً لصحيفة، أو حتى رئيساً للولايات المتحدة. إني أسير في زقاقٍ مسدود، وكل شيء أليف ومُريح. أحملُ بيدي جزءاً من مخطوطة طِباعيّة وأصغي إلى الموسيقا المنسابة من حولي، إلى همهمة ودمدمة الأصوات، وطقطقة آلات المناضد السطرية، وكأنَّ ألفَ سِوارٍ فضيّ يمرُّ من خلال عصّارة، وبين آنٍ وآخر يهرعُ فأرٌ ماراً من أمام أقدامنا أو يصعد صرصارٌ الجدار المقابل لنا، متنقّلاً برشاقة وحَذَرٍ شديد على ساقيه الدقيقتين، وتنزلق أحداثُ النهار من تحت أنفك، بهدوء، بلا تباهٍ، وبين الحين والآخر يتدخّل سطرٌ ثانوي ليدلّ على وجود يدٍ إنسانية، على لمسة غرور. ويمرّ الموكب بجلال، كدخول موكب جنائزي عبر بوابة المقبرة. الورقة الموجودة تحت منضدة التحرير سميكة جداً بحيث تبدو كسجّادة لها زغب ناعم، وهي تحت مقعد فان نوردن مُبقّعة من العُصارة البنّية. وقُرابة الساعة الحادية عشرة يصلُ بائعُ الجوز الأرمني نصف المجنون الذي بدوره قانعٌ بقسمته من الحياة.

بين وقتٍ وآخر تصلني برقية من مونا تقول فيها إنها ستصل على متن المركب التالي، ودائماً تقول: " ستتوالى رسائلي ". والأمور تسير على هذا المنوال منذ تسعة أشهر، لكنني لا أجدُ اسمها على جدول أي

من قوائم أسماء الواصلين على المراكب، ولم يُحضِر النادل لي رسالة على صينية من الفضة. بل لم يعُدْ لديَّ أملٌ في هذا الاتّجاه. فإذا وصلَتْ يمكنها أنْ تفتش عني في الطابق السفلي، خلف المرحاض مباشرة. ولعلها ستقول لي على الفور إنه غير صحّي. إذ يستحيل عليهنَّ تصورُ جنة بلا تمديدات حديثة. وإذا عثرن على بقّة فسوف يُسارعن إلى الكتابة إلى غرفة التجارة. كيف سيتسنّى لي أنْ أشرح لها أني سعيد هنا؟ سوف تقول إني صرتُ منحطّاً. أعرفُ أسلوبها من البداية وحتى النهاية. سوف تُبدي رغبتها في البحث عن مُحتَرَف مع حديقةٍ مُلحَقَة به - ومع حوض استحمام، حتماً. إنها تريد أنْ تكون فقيرة بطريقة رومانطيقية. أعرفها. لكنني مُستعدٌ لها هذه المرّة.

تمرُّ عليَّ أيامٌ تكون فيها الشمسُ ساطعة وأسير بعيداً عن الطريق المطروقة وأنا أفكر فيها بنَهَم. وبين آنٍ وآخر، وعلى الرغم من رضايَ المقيت، يخطرُ لي أنْ أفكر في طريقةٍ جديدة للعيش، أنْ أتساءلُ إنْ كان وقوف مخلوقة شابة قلقة إلى جانبي سوف يحدثُ أي فرق. المشكلة هي أني بالكاد أستطيع أنْ أتذكّر شكلها أو شعوري وأنا أضمّها بين ذراعي. إنَّ كل ما ينتمي إلى الماضي يبدو وكأنه قد غرِقَ في البحر؛ إنَّ لديَّ ذكريات، غير أنَّ الصوَر فَقَدَتْ حيويتها، أضحَتْ ميتة متقطّعة، كموميا ءات أكلَ الزمن عليها وشرِب مغروزة في مستنقع. لو أحاولُ أنْ أستعيدَ ذكرى حياتي في نيويورك فسوف أحصل على بضع مُزَقٍ متناثرة، كابوسيّة ومُغطّاة بالزنجار. وكأنَّ وجودي المُنسَّق قد انتهى في مكانٍ ما، ولا أعرفُ موقع ذلك المكان على وجه الدقّة. ولم أعُدْ أميركياً، ولا نيويوركياً، بل أقلّ من ذلك أوروبي، أو باريسيّ. إنني لا

أكنُّ أي ولاء أو شعور بالمسؤولية، أو أحقاد، أو هموم، أو ضغائن، أو حماس. لستُ مع أو ضد. أنا مُحايد.

حين نتمشّى نحن الثلاثة ليلاً متجهين إلى المنزل، فإنَّ ذلك غالباً ما يحدث بعد تشنجات التقزُّز الأولى التي نمرُّ بها عندما نتحدث عن حال الأمور بتلك الحماسة التي لا يتوصَّل إلى حشدها إلا الذين ليس لهم أي دور حيوي في الحياة. وما يبدو لي غريباً أحياناً، حين أزحف إلى السرير، أنَّ كل تلك الحماسة وُجِدَتْ لمجرَّد قتل الوقت، لمجرَّد إعدام ثلاثة أرباع الساعة التي يستغرقها التمشّي من المكتب إلى مونبرناس. لعلَّ لدينا ألمع الأفكار وأكثرها ملائمة من أجل تحسين هذا الشيء أو ذاك، ولكن لا توجد عربة لنشدَّها إليها. والأكثر غرابة هو أنَّ غياب أدنى علاقة بين الأفكار والحياة لا يُسبب لنا أي ألم أو قلق. أصبحنا مُتكيّفين إلى درجة أنه لو أُمِرَنا غداً بأنْ نسير على أيدينا فسوف نفعل بلا أوهى احتجاج. وطبعاً شريطةَ أنْ تصدر الصحيفة كالمعتاد، وأنْ نحصل على أجرنا بانتظام، وكل ما عدا ذلك لا يهمّ. لا شيء. لقد تكيَّفنا. صرنا حمّالين صينيين، حمّالين بقبعات بيضاء، تُسكِتنا حفنة من الأرز نحصل عليها يومياً. كنتُ أقرأ مؤخراً أنَّ في الجماجم الأميركية ميزة معيَّنة هي وجود العَظمة القمرية أو os incae، في قفا الرأس. ووجود تلك العَظمة، هكذا يُتابعُ العالمُ قائلاً، منوطٌ بمثابرة الدرزة القُذاليّة المُستعرضة، والتي تكون عادةً مُقفَلة في الحياة الجينية. وعلى هذا فهي دلالة على تطورٍ بطيء وسُلالة منحطّة. ويتابع قائلاً: " إنَّ السِعة الوسطيّة للجمجمة الأميركية تتدنَّى عند البيض وترتفعُ عنه عند السود. وبالمقارنة بين الجنسين نجد أنَّ لدى الباريسيين سِعة جمجميَّة تبلغ ١،٤٤٨ سم٣،

والزنوج ١،٣٤٤ سم٣، والهنود الأميركيين ١،٣٧٦ سم٣. " لا أستنتجُ من ذلك كله أي شيء لأنني أميركي ولستُ هندياً. ولكن من الذكاء شرحُ الأمور على هذه الصورة، بواسطة عظمة من نوع os incae، مثلاً. ولا يختلُّ توازن نظريته إذا اعترفنا أنَّ نماذج منفردة من الجماجم الهندية قد وُهِبَتْ سِعة خارقة مقدارها ١،٩٢٠ سم٣، ولا تزيد السعة الجمجمية إلى أكثر من هذا في أي سلالة أخرى. إنَّ ما ألاحظه بارتياح هو أنَّ للباريسيين، من الجنسَين، على ما يبدو سعة جمجمة عادية. فالدرزة القُذاليّة المستعرضة كما يبدو ليست مُثابرة كثيراً لديهم. هم يعرفون كيف يستمتعون " بمُشهٍ "ولا يقلقون إذا لم تُدهَنْ المنازل. ليس في جماجمهم ما هو غير عادي، حسب ما جاء في الفهارس الجمجمية. ولابد أنَّ هناك تفسيراً آخر لفن العيش الذي وصلوا به إلى درجةٍ عالية من الكمال.

في المطعم الصغير القائم على الجانب المقابل للطريق والمُسمّى المسيو بول هناك غرفة خلفية مُخصصة للصحفيين حيث يمكننا تناول الطعام على الحساب. وهي غرفة صغيرة لطيفة مفروشة أرضيتُها بنشارة الخشب، والذباب يعجّ في موسمه وفي غير موسمه. حين أقول إنها مُخصصة للصحفيين لا أعني أنْ أُلّمح إلى أننا نتناول طعامنا في عزلة، بل على العكس، إنه يعني أنَّ لنا امتياز مُزاملة العاهرات والقوادين الذين يُشكّلون العنصرُ الأساسي بين زبائن المسيو بول. وهذا الترتيب يُطابقُ ميل شبان الطابق مع حرف t، لأنهم دائماً في حالة بحث عن فتاة (طرف ثوب)[٣٢] tail، وحتى الذين لديهم فتاة فرنسية دائمة لا ينفرون من القيام بتغيير ما بين الحين والآخر. الشيء الأساسي هو عدم الإصابة

٣٢ – كلمة tail بالإنكليزية تُستخدم عامياً بمعنى امرأة أو فتاة .

بالداء، فأحياناً يبدو وكأنّ وباءً اجتاحَ المكتب، أو ربما يُفسّر الأمر بالقول إنهم جميعاً يُضاجعون امرأة ذاتها. على أي حال، من الممتع ملاحظة مدى بؤسهم عندما يضطرون إلى الجلوس بجوار قوّادٍ يعيشُ، على الرغم من مصاعب مهنته الصغيرة، حياةً تُعتَبَر بالمقارنة مُرفّهة.

يخطر إلى ذهني الآن وبشكلٍ خاص شخصٌ طويل القامة أشقر يُسلّم رسائل هافاس[٣٢] Havas ممتطياً دراجة. وهو دائماً يتأخّر قليلاً عن وجبته، ودائماً يتعرّق بغزارة، ووجهه مُغطّى بالسخام. وله طريقته الرائعة الخرقاء في الدخول، مرحّباً بالجميع بإصبعَين متوجهاً مباشرةً إلى المغسلة القائمة بين المرحاض والمطبخ. وبينما هو يُجفف وجهه يُلقي نظرة مُتفحّصة سريعة على مواد الطعام، فإذا رأى شريحة جميلة من اللحم مُمددة على البلاطة يلتقطها ويشمّها، أو يغمس المغرفة في الوعاء الكبير، ويتذوّق ملء فمه من الحساء. إنه أشبه بكلب بوليسي رائع، بأنفه الموجّه دائماً إلى الأرض طوال الوقت. وبعد انتهاء الإجراءات التمهيدية، وبعد أنْ يتبوّل ويتمخّط بعنف، يمشي بلا اكتراث إلى غانيته ويُقبّلها قُبلةً كبيرة مُفرقعة مع ربتةٍ رقيقةٍ على الردف. لم أرَ تلك الغانية تبدو إلا طاهرة - حتى في الثالثة صباحاً بعد ليلة عمل. تبدو وكأنها خرجت لتوّها من حمّامٍ تركي. من الممتع النظر إلى أولئك الوحوش الصحيحي الأجسام، كل ذلك الاسترخاء، كل ذلك الحب، وتلك الشهية العارمة التي يُبدونها. إنني أتكلّم الآن عن وجبة العشاء، الوجبة الخفيفة التي تتناولها قبل مُباشرة واجباتها. وبعد قليل سوف تضطر إلى

---

٣٢ - هافاس شركة للدعاية والتسويق .

الاستئذان من وحشها الأشقر الضخم الجثة، لتُرفرف إلى مكانٍ ما على الجادة وترتشف شرابها المُهضِّم. وإذا كان العملُ مُضجِراً أو مُرهِقاً أو مُهلِكاً، فمن المؤكَّد أنها لن تظهر ذلك. وحين يصل الشاب الضخم، جائعاً كالذئب، تحيطه بذراعيها وتقبّله بنَهَم - تُقبِّلُ عينيه، وأنفه، وخديه، وشعره، قفا رقبته... وقد تقبل مؤخّرته إذا استطاعتْ ذلك علَناً. إنها ممتنة له، وهذا واضح. هي جارية بلا أجر. وطوال فترة تناول الطعام تضحكُ بتشنُّج. وسوف تعتقد أنَّ الهموم مهما كانت لا تعرفُ إليها سبيلاً. وبين الفينة والفينة، وكتعبيرٍ عن الحب، تُكيلُ له صفعة مُدويّة على وجهه. صفعة جديرة بإطاحة مُصحِّح مطبوعات أرضاً.

لا يبدو أنهما واعيان لأي شيء خِلاف نفسيهما والطعام الذي يلتهمانه بنَهَم. يا لرضاهما التام، وتناغمهما، وتفاهمهما المتبادل، ومراقبتهما تكاد تجرف فان نوردن إلى حافة الجنون، ولاسيما حين تتسلَّل يدها إلى داخل فتحة بنطلون الشاب الضخم وتداعبه، ويستجيب عادةً بأنْ يقبضَ على ثديها ويعصره عابثاً.

عادةً يصلُ زوجٌ آخر في الوقت نفسه ويتصرّفان كأنهما متزوجان. فيتشاجران، ويغسلان ملابسهما الداخلية عَلَناً، وبعد أنْ يُنغِّصَ كل منهما على الآخر حياته وحياة كل مَنْ عداهما، وبعد التهديدات واللعنات والملامات والاتّهامات، يعوّضان عن كل ذلك بالمغازلة والهديل، تماماً كزوجٍ من طيور القمرية. ولوسيين، كما يُناديها، شقراء ضخمة الجثة يكتنفها جو قاسٍ وكئيب. شفتها السُفلى ممتلئة تمضغها بحقدٍ حين تفقد صبرها، وعيناها باردتان مدوَّرتان، لونهما أزرق صيني باهت، يتصبَّبُ عَرَقاً كلما ثبَّتتهما عليه. إلا أنَّ لوسيين فتاة طيبة، على

الرغم من صورتها الجانبية التي تبدو أقرب شَبَهاً بنسر الكوندور حين يبدأ الشجار. وحقيبة يدها دائماً مملوءة بالدراهم، فإذا كانت حريصةً في إنفاقها فذلك فقط لكي لا تشجّع عاداته السيئة. وكانت شخصيةً ضعيفة، إذا أخذنا تأنيبها المطوَّل بعين الجَدّ. وقد يُنفق خمسين فرنكاً حصيلة ليلة وهو ينتظر قدومها، وحين تأتي النادلة لتتلقّى طَلَبه يكون قد فَقَدَ شهيَّته، وتزمجرُ لوسيين " أوه، ها أنتَ غير جائع من جديد! أوووف! أظنكَ كنتَ تنتظرني في الفوبورج مونمارتر. آمل أنْ تكون قد قضيتَ وقتاً ممتعاً هناك بينما أنا أكدحُ من أجلك. ***تكلّم أيها الأبله، أينَ كنت؟*** "

حين تستشيط غضباً هكذا، حين تثور، ينظرُ إليها في خوف ثم، وكأنه قد قرَّر أنَّ السكوتَ هو أفضل حل، يخفضُ رأسه ويروح يعبث بفوطته. لكنَّ تلك الحركة الصغيرة تعرفها حقّ المعرفة وطبعاً تُسرُّ لها سراً لأنها باتت مُقتنعة الآن بأنَّه مذنب، لا تعمل إلا على تفاقُم غضبها وتزعقُ " ***تكلّم، يا أبله!*** "، وبصوتٍ مُتكسِّرٍ وخائف وضعيف يشرح لها أنه بينما هو ينتظرها وصلَ به الجوع إلى منتهاه واضطرَّ إلى التوقُّف لتناول شطيرة وشرب كأسٍ من البيرة. وكان ذلك كافياً لتدمير شهيته - يقول هذا بحزن على الرغم من أنَّ من الواضح أنَّ الطعام صار آخر همومه. ثم يُردِفُ فجأة " ولكن " - مُحاولاً أنْ يكون صوته أكثر إقناعاً - " كنتُ في انتظارك طوال الوقت "

وتزعقُ " كذّاب! كذّاب! آه، لحسن الحظ أني أنا أيضاً كاذبة... كاذبة حاذقة. أنتَ تُضجرني بأكاذيبك الصغيرة الحقيرة. لماذا لا تُخبرني كذبة كبيرة؟ "

ومن جديد يحني رأسه ويروح يُلملمُ بذهنٍ شارد كِسر من الخبز ويضعها في فمه، وعلى الأثر تصفعه على يده، " لا تفعل هذا! أنتَ تضجرني. يا لك من أبله كذّاب! انتظرني قليلاً! لا زال لدي ما أقوله! أنا أيضاً كذّابة، لكني لستُ بلهاء "

لكنهما سرعان ما يجلسان متقاربَين، متشابكي الأيدي، وهي تهمهمُ بنعومة: " آه، يا أرنبي الصغير، صعبٌ عليَّ أنْ أتركك الآن. تعالَ إلى هنا، قبّلني! ماذا لديك هذا المساء؟ قُلْ لي الحقيقة، يا صغيري... آسفة على مزاجي السيئ "، ويُقبّلها بخوف كأرنب بأذنين قرمزيتين، ينقرُ بلطفٍ على شفتيها وكأنه يقضمُ ورقة ملفوف. وفي الوقت نفسه تهبطُ عيناه المستديرتان إلى كيس نقودها لتداعباه وهو مُلقى مفتوحاً بجانبها على المقعد. إنه فقط ينتظر اللحظة المناسبة ليُفلِتَ منها بلباقة، مُتلهّفاً للهرب، ليجلسَ في إحدى المقاهي الهادئة في شارع فوبورج مونمارتر.

أعرفُ هذا الشيطان الصغير البريء، بعينيه الأرنبيتين المستديرتين الخائفتين، وأعرفُ أي شارع شيطاني هو شارع فوبورج مونمارتر بلوحاته النحاسية الصفراء وبضاعته المطّاطية، والأنوار تتلألأ طوال الليل والجنس يجري على طول الشارع كالمجرور. والسير في شارع لافاييت إلى الجادّة هو ضربٌ من التحدّي، فهنَّ يلتصقنَ بكَ كالقشريات البحرية، ينهشنكَ كالنمل، ويُلاطفنَ ويُداهنَّ ويتوسّلنَ ويتضرّعنَ ويُكررن ذلك بالألمانية، والإنكليزية والأسبانية، يُرينك قلوبهن الممزقة وأحذيتهن المشقوقة، وحتى بعد أنْ تتخلّصَ من مِجسّاتهنّ، وبعد أنْ يخفتَ الهسُّ والبسُّ بوقتٍ طويل يبقى عبقُ " الغسول " عالِقاً " بمنخريك - إنه عبير Perfum de danse

المضمون التأثير على مسافة عشرين سنتيمتراً فقط. يمكن للمرء أنْ يتبوّل حياته كلها في ذلك الامتداد ما بين الجادّة وشارع لافاييت. كل حانة تضجُّ بالحياة، تنبض، وأحجار النرد تُلقى، وأُمناء الصناديق يجثمون كصقور فوق مقاعدهم العالية وللنقود التي يتداولونها رائحة نتنة كرائحة البشر. لا يوجد في بنك فرنسا ما يُعادل النقود المُراقة للتداول هنا. النقود التي تنضح بالعرق البشري، تنتشر كحريق في غابة من يدٍ إلى أخرى تاركة وراءها دخاناً ونتانة. إنَّ مَنْ يتمكّن من السير أو تتردّد لعنة على شفتيه، رجلاً كهذا ليس لديه خصيتان، وإذا كان لديه، فيجب أنْ يُخصى.

ماذا لو أنَّ ذلك الأرنب الصغير أنفَقَ خمسينَ فرنكاً حصيلة ليلة واحدة وهو ينتظر لوسيين؟ ماذا لو أنه جاع فعلاً فاشترى شطيرةً وكأساً من البيرة، أو أنه توقّفَ ليتبادل الحديث مع عاهرةِ رجلٍ آخر؟ أتظنَّ أنه يجب أنْ يشعر بالملل من تلك الجولة ليلة بعد أخرى؟ أتعتقد أنها يجب أنْ تُثقل عليه، تغمُّه، تُضجره حتى الموت؟ آمل ألاّ تعتقد أنَّ القوّاد مخلوقٌ غير إنساني فللقَوّاد أَحزانه الخاصة وبؤسه أيضاً، لا تنسَ ذلك. لعله لن يجد ما هو أفضل من الوقوف كل ليلة عند منعطف الشارع مع زوجٍ من الكلاب البيضاء ويُراقبهما وهما يتبوّلان. لعله سيُفضِّل ذلك، إذا ما فتحَ الباب فوجدها هناك تقرأ الباري-سوار، وعيناها مُثقلتان بخَدَر النعاس. لعله ليس شيئاً رائعاً جداً حين يميل على حبيبته لوسيين، أنْ يتذوّق أنفاس رجلٍ آخر. ربما من الأفضل ألاّ يكون معك إلا ثلاثة فرنكات وزوج من الكلاب البيضاء يتبولان على قارعة الطريق على أنْ تتذوّق تلك الشِفاه المرضوضة. أراهنكَ على أنها حين تضمّه بقوة بين

ذراعيها، حين تستجدي منه لُفافة الحب تلك التي لا أحد غيره يعرف كيف يمدّها بها، أراهنك على أنه يُقاتل كألف من الشياطين ليدكّه، ليُزيل كل أثر لذاك الفوج الذي مشى قُدُماً بين ساقيها. ربما عندما يأخذ جسدها ويباشر التدرُّب على نغمٍ جديد فإنه لن يُثير فيه انفعالاً وفضولاً، بل قتالاً بيدٍ واحدة ضد الجيش الذي اقتحم الأبواب. الجيش الذي وطأها وداسها، تركها، مع نَهَمٍ شَرِهٍ لا يكفي لإشباعه ولا حتى رودولف فالانتينو. وحين أصغي إلى الملامات المنهالة على فتاة مثل لوسين، حين أسمعُ أحدهم يُشوّه سمعتها أو يُحقّرها لأنها باردة ومُرتزقة، لأنها آلية جداً، أو لأنها دائماً في عجلة من أمرها، أو لهذا السبب أو ذاك، أقول لنفسي، تمهَّل يا هذا، على رسلك! تذكَّرْ أنكَ تقف في آخر الموكب، تذكَّر أنَّ فيلقاً كاملاً يُحاصرها، وأنها تُرِكَتْ حُطاماً، مسلوبة منهوبة. أقول لنفسي، اسمعْ يا هذا، لا تضنّ بالخمسة عشر فرنكاً التي أعطيتها لعلمك أنْ قوّادها يُبددها في الفوبورج مونمارتر، فالنقود نقودها والقَوّاد قَوّادها. إنها نقود الدم. نقودٌ لن تُسحَب من التداول لأنه لا يوجد في بنك فرنسا ما يُعوّضها.

هكذا أفكِّر في الأمر غالباً وأنا جالس في مِحرابي الصغير أعبث بتقارير " هافاس " أو أفكّ البرقيات القادمة من شيكاغو ولندن ومونتريال. وبين سوقَيّ المطّاط والحرائر وسوق حبوب وينيبنغ ينزّ قليلٌ من ضجيج الفوبورج مونمارتر وطشيشها. وعندما تصبح الأربطة ضعيفة ورخوة، وتتوقف المحاور عن دورانها والمواد المتطايرة تفور، وينساب سوق الحبوب وينزلق، وتخور الثيران، وتكون كل كارثة لعينة، وإعلان تجاري، ونبأ رياضي وخبر جديد، ووصول زورق، ومُحاضرة مُصوّرة،

وثرثرة متلاحقة قد ضُبِطَتْ، وفُحِصَتْ، وروجِعَتْ، وصُنِّفَتْ، ومُرِّرتْ بين الأساور الفضية، حين أسمع الصفحة الأولى تُطرَق وتُضرَبْ وأرى الضفادع تتراقص كمفرقعات سَكرى، أفكِّر في لوسيين وهي تشقّ عباب الشارع مفروشة الجناحين، كنسر كوندور فضي هائل مُعلّق فوق حركة المرور الكسلى، كطائر غريب يطلُّ من ذُرا جبال الأنديز ببطنٍ أبيض كالورد وعورة صغيرة متماسكة. أحياناً أتمشّى إلى المنزل وحدي وأتبعها عبر الشوارع المظلمة، أتبعها خلال قاعة اللوفر، من فوق جسر الفنون من تحت القناطر، عبر التصدعات والشقوق، والنعاس، والبياض المُخدِّر، ومحل اللوكسمبرغ للشواء، والأغصان المتشابكة، والشخير والأنين، والشرائح الخضراء، والنقر على الأوتار والرنين، وأطراف النجوم المُدببة وبريق الترتر، وحواجز الماء، والمظلات المُخططة بخطوط زرقاء وبيضاء التي لمستها بأطراف جناحيها.

في زُرقة الفجر الكهربائي تبدو قشور الجوز شاحبة متغضّنة، وعلى طول الشاطئ من مونبرناس تنحني أزهار ليلك الماء وتنكسر. وحين ينحسر المدّ لا يبقى إلا بضع حوريات مُصابات بالسفلس جانحات على الأقذار، يبدو الدوم كمضمار الرماية الذي ضَرَبَه إعصار. كل شيء يقطرُ ببطء عائداً إلى البالوعة. وتمرّ قُرابة الساعة من السكون الأقرب شَبَهاً بالموت يُزالُ خلالها القيء. وفجأةً إذا بالأشجار تصرخ، ومن أدنى الجادّة إلى أقصاها تتصاعد أغنية معتوهة، أشبه بالإشارة التي تعلن عن إغلاق سوق البورصة، وتجرف كل الآمال. ويحينُ الوقت لإفراغ آخر حقيبة مملوءة بالبول. ويتسلل النهار كمجذوم...

*

أحد الأشياء التي ينبغي أنْ تتفاداها أثناء العمل الليلي هو ألاّ تخرق جدول عملك، فإذا لم تأو إلى السرير قبل أنْ تبدأ العصافير بالصياح فلا فائدة مُطلقاً من الإيواء إلى السرير. وهذا الصباح، وبما أنه لم يكن لدي أي شيء أعمله، قمت بزيارة الـ jardin des plants. هنا ترمقك طيور البطريق الرائعة من تشابولتابك وطواويس بمراوح مُرصّعة بعيون بلهاء. وفجأةً بدأ المطر يهطل.

وفي طريق عودتي بالحافلة إلى مونبرناس لاحظتُ امرأةً فرنسية تجلس قبالتي جلسة منتصبة وكأنها تستعد لتتهندم. كانت تجلس على طرف المقعد وكأنها تخشى أنْ تُفسِد طيّة ثوبها الفخم. فقلتُ في نفسي، رائعٌ لو أنها تهزُّ نفسها فجأةً لينتفض من مؤخرتها بارزاً ذيل هائل مُرصَّع ذو ريش طويل حريري.

في مقهى الجادّة، حيث أتوقّف لأتناول وجبة سريعة، هناك امرأة ذات بطن مُنتفخ تُحاولُ أنْ تُثير اهتمامي بحالتها الجيدة. تودُّ لو نذهب معاً إلى إحدى الغرف لنقضي فيها ساعة أو ساعتين. إنها المرة الأولى التي يُقدَّمُ لي فيها عرضٌ من امرأة حامل: بل أكاد أرغبُ في المحاولة. حالما يولد الطفل ويُسلَّم إلى السلطات سوف تعود إلى مهنتها، كما تقول. إنها تصنعُ القبعات. وحين تلاحظُ أنَّ اهتمامي بها يفتُر تتناولُ يدي وتضعها على بطنها، فأشعرُ بشيءٍ يتحرَّك في الداخل، مما يقضي على شهيتي.

لم أرَ في حياتي مكاناً يُشبه باريس في احتوائه على تشكيلات من القوت الجنسي. فحالما تفقد امرأةٌ أحد أسنانها الأمامية أو عيناً أو ساقاً تحلُّ نفسها من قيود الأخلاق. في أميركا قد تموت جوعاً إذا لم يكن

لديها ما يُزكّيها غير عاهتها. أما هنا فالأمرُ يختلفُ. ففقدان سن أو بترُ أنف أو هبوط فرج، أو أي بليّة من شأنها أنْ تشوهَّ طبيعة بساطة الأنثى، تبدو وكأنها مجرَّد بهارات تُضافُ إلى الطعام؛ عاملٌ مُثيرٌ لشهيّة الذكَر المُنهك القوى.

إنني طبعاً أتكلّم عن ذلك العالم الخاص بالمدن الكبرى؛ عالم من الرجال والنساء عَصَرَتْ الآلة آخر قطرة من عُصارتهم - فهم شهداء التقدُّم الحديث. وهذا الركام من العِظام وأزرار الياقات يصعُبُ على الرسام أنْ يُلبِسها لحماً.

لم أعُدْ ثانية إلى التخوم الصحيحة للعالم الإنساني إلا في وقتٍ متأخّر من بعد الظهر، عندما وجدتني في معرضٍ للفن في شارع سيز، يُحيط بي رجالُ ماتيس ونساؤه. وعلى عتبة تلك القاعة الهائلة التي صارت جدرانها الآن تتلظّى، توقّفتُ لحظة لأبرأ من الصدمة التي يمرُّ بها المرء حين تتبعثرُ قتامة العالم المعتادة شذراً وتنبجسُ بهجة الحياة غناءً وشِعراً. وأجدني في عالمٍ فِطريّ تماماً، وكامل إلى درجة أني أحسُّ بالضياع، أشعرُ كأني مغمورٌ في قلب شبكة الحياة، في مِحرقِ أي مكانٍ أختاره، أو موقعٍ أو موقف أتّخذه. ضائع كما كنتُ قد شعرت عندما غصتُ ذات مرة في قلب أيكة متبرعمة، وجلست في غرفة طعام عالم بعلبك الهائل، ولأول مرة قبضتُ على المعنى الأعمق لتلك الصور الساكنة الداخلية التي يتجلّى حضورها من خلال تعويذة الرؤية واللمس. وقفتُ على عتبة ذلك العالم الذي أبدعه ماتيس لأمرّ من جديد بتجربة قوة ذلك الإلهام الذي أتاح لبروست أنْ يُشوهَّ صورة الحياة تشويهاً بالغاً بحيث إنه لا يقدر على تحويل واقعيّة الحياة السلبية إلى الخطوط

الأساسية وذات المغزى للفن إلا مَنْ هم على قدرٍ عالٍ من الحساسية، مثله، أمام كيمياء الصوت والإحساس. فقط الذين يستطيعون السماح للنور بالنفاذ إلى أحشائهم يمكنهم أنْ يترجموا ما في القلب. والآن أتذكَّر وبحيوية كيف تناثرَ ومض الضوء وشرارته المُرتدتان من الشمعدانات الضخمة وجرت دماً، مرقشة زوائب الأمواج التي تضرب برتابة على الذهب الباهت خارج النوافذ. وعلى الشاطئ تضافرت الصواري والمداخن، وكظلٍ قاتم انزلقت قامة ألبرتين[٢٤] خلال الأمواج، مُلتحمة مع سرعة وتنوُّع عالم البروتوبلازم الطيفي، ضامّةً ظلّها إلى الحلم ونذير الموت. ومع انصرام النهار، يتصاعد الألم كالضباب من الأرض، وينطوي الحزن مُسدلاً الستار على مشهد البحر والسماء اللا متناهي. وتستلقي يدان شمعيّتان بتكاسُلٍ على غطاء السرير وعلى طول الشرايين الشاحبة تُردِّد همهمة متناغمة لصَدَفة أسطورة مولدها.

في كل قصيدة رسمها ماتيس دون تاريخ كل ذرة من اللحم الإنساني الذي رفضَ اكتمال الموت. وانسياب الجسم كله، من الشَعر إلى الظِفر، يحكي معجزة التنفُّس، وكأنَّ العين الداخلية، في ظمأها إلى حقيقةٍ أعظم، حوّلتْ مسام الجسد إلى أفواهٍ جائعة مُبصرة. وكيفما ينظر المرء يمرُّ بتجربة عَبَق وضجيج رحلة بحرية. ويكون من المستحيل أنْ يُحدِّق حتى إلى زاوية من أحلامه دون أنْ يشعر بارتفاع الموج وبرودة رذاذ الماء المتطايرة المنعشة. إنه يقفُ عند دفّة المركب يُحدِّق بعينين زرقاوَين ثابتتين إلى حقيبة الزمن. أي زوايا مائية لم تمتد إليها نظرته الثاقبة

٢٤ - إحدى بطلات رواية " البحث عن الزمن الضائع " لمارسيل بروست .

الطويلة المائلة؟ ويهبط بنظرته أسفل نتوء أنفه الهائل ليرى كل شيء - سلاسل الجبال تهبط غائصة في الباسيسيك، وتاريخ الدياسبورا يكتب على ورق رقّيّ، ومصاريع نوافذ تغرِّد خرير مياه الشاطئ، والبيانو ينحني كالمحارة، وتويجات تنثر تناغمات الضوء، وحرابي[٣٥] تتلوى تحت مكبس الكتب، وسرايات سُلطانية تتلاشى في محيطات من الغبار، وموسيقا تنبعث كالنار من اكتناف الألم الخفي، وبوغ ومرجان متشعّب يُخصبون الأرض، وسُرر تلفظُ نِتاج كربها البرّاق... هو حكيم لامع، عرّاف راقص يزيل، بحركة من الفرشاة، السقالة القبيحة التي أوثقَ إليها الجسد الإنساني بحقائق الحياة التي لا تقبل الجدل. وهو الذي يعرف، إنْ كان هناك مَنْ يتمتع بتلك الموهبة، أين يُلغي الشكل الإنساني، ولديه الشجاعة ليُضحّي ببيتٍ من الشعِر متناغمٍ ليتبع إيقاع وغمغمة الدم، ويأخذ الضوء المنكسر داخله ويدعه يغمر تنوّعات اللون. هو يتقصّى، خلف تفاصيل الحياة، وفوضاها، وسخريتها، النموذج الخفيّ، يُعلن عن اكتشافاته في الخُضاب الميتافيزيقي. لا بحثَ عن مُصطلح، لا صَلب لأفكار ولا قسرَ بدل الخَلق. وحتى بينما العالم يتفتَّت يبقى هناك رجل واحد متمركز في لبّه، يزداد ثباته ورسوخه صلابة، ونبذة قوة كلما أسرعت عملية التحلُّل.

يزداد العالم أكثر فأكثر شَبَهاً بحلم عالم حشرات، فالأرض تخرج عن مدارها، والمحور غير مركزه، ومن الشمال تهبُّ عواصف الثلوج بهبّات عاتية قاطعة كحدّ السكين؛ إنَّ عصراً جليدياً جديداً يحلّ،

---

٣٥ - حرابي : جمع حرباء .

والخيوط المعترضة تتقارب وفي جميع أنحاء النطاق المخروطي يموت العالم الجنيني، متحولاً إلى خشاء mastoid ميّتْ. وتجفّ الدلتات بوصة بعد بوصة وأحواض الأنهار تصبح ملساء كسطح الزجاج. هناك نهار جديد يبزغ، نهار معدني حين ستصلصل الأرض برذاذٍ من فلزّ أصفر برّاق. ومع هبوط مقياس الحرارة، تسربل الغشاوة شكل العالم، ويبقى التنافذ موجوداً، وترى هنا وهناك تمفصلاً، ولكن على السطح الخارجي كل الأوردة متوسعة، على السطح الخارجي تنحني أمواج الضوء والشمس تدمي كمعي مستقيم مُحطَّم.

في محور هذا الدولاب الذي يتفكّك يوجد ماتيس. وسوف يُتابع دورانه إلى أنْ ينحل كل ما يكون الدولاب. لقد تدحرج حتى الآن قاطعاً رقعة كبيرة من الكرة الأرضية، فوق بلاد فارس والهند والصين، وعلقَتْ به ذرات مِجهرية من بلاد الأكراد، وبالوخستان، وتمبكتو، والصومال، وأنغكور، وتيرا دِل فيوغو، وكأنه مغناطيس. والمحظيات اللواتي رصَّعنَ بمعدن الملكيت وحجارة اليشَبْ، أجسادهنّ مستورة بألف عين، عيون مُعطَّرة ومغموسة في مني حيتان البحر. وأينما هبَّ النسيم هناك نهود طريّة كالهلام، وتأتي الحمامات البيضاء لترفرفُ وتحفرُ في أوردة الهيمالايا الزرقاء كالثلج.

ورق الجدران الذي غطّى به رجال العِلم عالمَ الحقيقة يتساقطُ ويتفتَّتُ. والحياة جعلوا منها ماخوراً لا يحتاج إلى أي زخارف، الشيء الوحيد الأساسي هو أنْ تكون المجاري جارية بانتظام. أما الجمال، الجمال الماكر، الذي يقبض علينا من خصينا في أميركا، فقد انتهى أمره. ولكي نسبر أعماق الحقيقة الجديدة يلزم أولاً أنْ نفكّ المجاري، ونفتح الأقنية

المُصابة بالغرغرينا حتى آخرها والتي تُشكّل النظام البولي التناسلي الذي يُغذّي نفايات الفن. النهار يعبق برائحة البرمنغنات والفورماتلدهيد، والمجاري مسدودة بالأجنّة المخنوقة.

عالم ماتيس ما زال جميلاً على طريقة غرفة النوم القديمة. لا يُرى فيه حامل كريات، لا صحناً، لا غلاّيةً، لا مكبساً، لا مفتاح إنكليزياً. إنه العالم القديم نفسه الذي ذهبَ بمرحٍ إلى الغابة في العصور الريفية أيام الخمر والمجون. إنَّ مما يُخفّفُ عني ويُنعشني أنْ أتنقّل بين تلك المخلوقات ذات المسام الحيّة التي تتنفّس، والخلفية الثابتة الصلبة كالضوء ذاته. أشعرُ بهذا بحِدّة حين أتمشّى في شارع المادلين والمومسات تحفُّ أثوابها بالقرب مني، حيث مجرَّد النظر إليهنّ يجعلني أرتعش. ألأنهنَّ أجنبيات أم لأنَّ تغذيتهن جيدة؟ كلا، فمن النادر أنْ تجد امرأة جميلة على طول بولفار المادلين. أما في لوحات ماتيس وباكتشافٍ من ريشته، هناك تألُّق مرتعش لعالمٍ لا يتطلَّبُ إلا وجود أنثى حتى يبلور أشد الإيحاءات تملُّصاً. إنَّ رؤية امرأة تعرض نفسها خارج مبولة حيث أُلصِقَتْ إعلانات ورق لفّ السجائر، وشراب الرَمْ، والألعاب البهلوانية، وسباقات الخيل، حيث تخرِق أوراق الأشجار الكثيفة سُمك الجدران والأسقف، هي تجربة تبدأ حيث ينتهي حدود العالم المعروف. وفي المساء، بينما أطوفُ حول جدران المقبرة، أتعثَّر، بين حين وآخر، بأشباح محظيات ماتيس موثقات إلى الأشجار، عروفهنّ المتشابكة مُشبعة بالنسغ. وعلى مبعدة بضعة أقدام، يتمدَّد الشبح المُحنَّط الملفوف مُنكفئاً لبودلير، أو لعالمٍ كامل لن يتردَّد في جنباته نفسٌ واحدة بعد الآن، وقد فَصَلته دهور لا متناهية من الزمن. وفي زوايا المقهى المُعتِمة يقفُ رجال

ونساء متشابكو الأيدي، وأعضاؤهم التناسلية مُبرقشة بغزارة، وعلى مقربة يقفُ النادل، وجيب مئزره مملوء بالسوآت، ينتظر بصبرٍ حلول الاستراحة لينطرح على زوجته ويدكّها. حتى والعالم ينهار ترتعش باريس ماتيس بارتعاشات جنسية فاتنة لاهثة، الهواء نفسه مُثبَّتٌ بَمنٍ راكد، والأشجار متشابكة كالشَعر. وعلى محوره المتذبذب يتدحرج الدولاب بانتظام إلى أسفل التلّ، وليس فيه مكابح، أو حاملات كريات أو دواليب منطاديّة. الدولاب ينهار، لكنَّ الثورة سليمة مُعافاة...

ذات يوم تصلني رسالة غير متوقَّعة من بوريس الذي لم أكنْ قد رأيته منذ شهور عديدة. إنها وثيقة غريبة ولا أدَّعي فهمي الكامل لها: " إنَّ ما حدث بيننا - بالنسبة إليّ، على الأقلّ - هو أنكَ أثَّرتَ فيَّ، أثَّرتَ في حياتي، أي، عند النقطة التي لا أزال عندها حيّاً: موتي. لقد انتقلت بالدفق الشعوري إلى انغمارٍ آخر. عشتُ ثانية، بتُّ حياً، ليس بالذكريات كالسابق، كما أفعل مع الآخرين، بل بالحياة ".

هكذا بدأتْ. بلا كلمة ترحيب، بلا تاريخ، ولا عنوان؛ كُتبَتْ بخربشة ناعمة فخمة على ورقة مُسطَّرة اقتطعت من دفتر فارغ، " لهذا، سواءٌ أُعجِبتَ بي أم لم تُعجَبْ - أميلُ في قراراتي إلى الاعتقاد أنكَ تكرهني - فأنت شديد القُرب مني. وبواسطتك أعرف كيف مُتُّ: أرى نفسي أموتُ ثانية: وأنا أموتُ فعلاً. وهذا رائع؛ أروع من أنْ أكون ميتاً ببساطة. ربما هذا هو سبب خوفي الشديد من مقابلتك: فلعلَّك خَدَعتني ومُتَّ. فالأحداث تقع بسرعة هذه الأيام "

إنني أُعيدُ قراءتها سطراً سطراً، وأنا واقفٌ بالقُرب من طاولات التنضيد. تبدو لي غريبة الأطوار، بهذا اللغو عن الحياة والموت والأشياء التي تحدث بسرعة. لا شيء يحدث حسب ما أرى عدا الكوارث المعتادة المُدْرَجة على الصفحة الأولى. كان يعيشُ وحده خلال الشهور الستة الماضية، منزوياً في غرفة صغيرة رخيصة - وربما يُقيم اتّصالات تخاطرية

telepathic مع كرونستات. وهو يتحدَّث عن القوات المُتقهقرة، عن إخلاء قِطاع من الجبهة، وهلمَّ جراً، وكأنه يقبعُ داخل خندق ويكتب تقريراً إلى مركز القيادة، ولعله كان يرتدي معطف الفراك عندما جلسَ ليخطَّ تلك الرسالة، وربما عَرَكَ يديه مرات عِدّة كما تعوَّدَ أنْ يفعل حين يُخبره أحد الزبائن عن رغبته في استئجار الشقة. ويبدأ من جديد قائلاً: " السبب في أنني أردتكَ أنْ تنتحر... "، وهنا أنفجرُ بالضحك. كان من عادته أنْ يذرع المكان جيئةً وذهاباً، ويده مدسوسة في طيّة سترته في ڤيلا بورغيز، أو في منزل كرونستات - وحيثما وجدَ فُسحةَ مكان، كما كان الحال دائماً - ويروح يسرد بسرعة كل ذلك الهراء حول الحياة والموت، حتى يشفي غليله. ويجب أنْ أعترفَ بأنني لم أفهم قط أي كلمة مما قال، غير أنه كان عَرْضاً جيداً، وبما أني رجلٌ مهذَّب كان من الطبيعي أنْ أهتمَّ بما يجري داخل معرض الوحوش في قحف دماغه. وأحياناً كان يستلقي على أريكته مُمدَّاً على طوله، مُرهَقاً من فيض الأفكار التي تجتاح رأسه. وتمسُّ قدماه مسّاً رفيقاً حاملَ الكتبِ حيث يحتفظُ بمؤلفات أفلاطون واسبينوزا - إنه لا يفهم لماذا لا أستعين بها. ويجب أنْ أعترف بأنه كان يجعلها تبدو ممتعة، على الرغم من أني لم أكن أعلمُ شيئاً عنها. أحياناً كنتُ ألقي نظرة مُختلسة إلى أحد المجلّدات، لأطّلعَ على تلك الأفكار الوحشية التي عزاها إليهما - بيد أنَّ الصلة كانت واهية، ضعيفة. وحين كنتُ أنفردُ به، أعني بوريس، كان يستخدمُ لغةً خاصةً به، ولكن حين أنصتُّ إلى كرونستات بدا لي أنَّ بوريس انتحلَ أفكاره الرائعة. كانا يقولان شيئاً أشبه بالرياضيات العالية، بدت مجرّدة من أي لحم أو دم؛ كان حديثاً مُجرّداً، عجيباً، مُخيفاً، مفزعاً. وحين كانا يصلان

إلى موضوع الموت يبدو حديثهما أشد تماسكاً: فقبل كل شيء، يجب أنْ يكون للساطور أو للفأس مقبض. لقد استمتعتُ بتلك الجلسات أيّما استمتاع. كانت المرة الأولى في حياتي التي بدا لي فيها الموت فاتناً – كل تلك الميتات المُجرّدة التي تتضمَّن نوعاً من النزع الخالي من الدم. وكانا بين الحين والآخر يُقرّظاني لكوني مملوءاً بالحياة، ولكن بطريقةٍ تُربكني. لقد جعلاني أشعر بأني أعاصرُ القرن التاسع عشر؛ أني نوع من رُفات رجعيّة atavistic remnant، أو مُزقة رومانطقية، أو انتصاب مُفعم بالانفعال عند إنسان جاوا. وبوريس بصورة خاصة كان لا يحصد إلا الخيبة جراء تماسّه معي، أرادني أنْ أكون حيّاً حتى يموت هو من كل قلبه. كنتَ تظن من طريقته في النظر إليّ وملامستي أنَّ كل تلك الملايين من الناس السائرين في الشارع ما هم إلا أبقار ميتة. ولكن الرسالة...إنني أنسى الرسالة...

" إنَّ سبب رغبتي في أنْ تنتحر في تلك الليلة في منزل كرونستات، حين أصبح مولدورف هو الله، يعود إلى أني كنتُ شديدَ القُرب منك حينئذٍ، وربما أشدّ قُرباً مما سأصبحُ عليه ذات يوم. لقد كنتُ خائفاً، بل شديد الخوف، من أنْ يأتي يوم وتتخلّى عني، أنْ تموتَ بسببي. عندئذٍ سأبقى ببساطة وحيداً، منبوذاً، لا أملكُ غير فمرتي عنك، وبلا أي سند. ولن أسامحك على ذلك "

قد تتصوَّره أنت يقول شيئاً كهذا! أما أنا فلا أفهم ماذا كانت فكرته عني أو على الأقلّ، أفهمُ أني كنتُ محض فكرة، فكرة بقيَتْ على قيد الحياة بلا قوت. إنَّ بوريس لم يكن يولي بالغ أهمية لمشكلة القوت. لقد حاول أنْ يُغذيني بالأفكار، فكل شيء كان فكرة. ومع ذلك، حين

كان يُصمِّم على تأجير الشقّة كان ينسى أمر أنْ يضعَ مغسلة جديدة في المرحاض. على أي حال، لم يُرِدني أنْ أموت بسببه. ويكتب قائلاً: "يجب أنْ تكون مصدراً لحياتي حتى النهاية. هذه هي الطريقة الوحيدة لمؤازرة فكرتي عنك. لأنك، كما ترى، مُرتبط بشيء فائق الحيوية بالنسبة إليّ، ولا أعتقد أني سأتخلَّص منك، ولا أرغبُ في ذلك. أريدكَ أنْ تعيش بحيوية أكثر كل يوم، بقدر ما أنا ميّتْ. لذلك فحين أحدِّثُ عنكَ الآخرين أشعرُ بشيءٍ من الخجل. فمن الصعب أنْ يتحدَّثَ المرء عن نفسه بحميميّة شديدة "

لعلك تتصوَّر أنه كان مُشتاقاً إلى رؤيتي، أو يودّ أنْ يعرف ما أفعلْ - ولكن كلا، لا يوجد سطرٌ واحد عن شيء ملموس أو شخصي، اللهم إلا في لغة الحياة والموت تلك، لا شيء غير تلك الرسالة الصغيرة القادمة من الخنادق، ونفخة من الغاز السامّ يُخبر بها كل مَنْ هبَّ ودبّ أنَّ الحربَ لا تزال مُحتدمة. أحياناً أتساءلُ لماذا لا أنجح إلا في اجتذاب ذوي العقول المشروخة، والأعصاب المُرهقة، والعُصابيين، والمُضطربين عقلياً - ولاسيما من اليهود. لابد أنَّ شيئاً في الإنسان المُهذَّب الصحيح يُثير العقل اليهودي، كما يحدث عندما يرى، مثلاً، رغيفاً أسودَ عفِناً. هناك على سبيل المِثال، مولدورف، الذي جعلَ نفسه الله، كما يقول بوريس وكرنستات. وهو يكرهني دون شك، ذلك الثعبان الحقير - ومع ذلك لا يستطيع أنْ يبتعد عني. إنه يُعرِّج بانتظام ليتناول جرعة صغيرة من الإهانات - فهي بمثابة مقوٍ له. صحيح أنني في البدء تساهلتُ معه، فقد كان يدفعُ لي لأصغي إليه. وعلى الرغم من أني لم أُظهِرَ مرةً تعاطُفاً زائداً، إلا أني كنتُ أعرفُ كيف ألزم الصمت؛ فحين يتعلقُ الأمر بوجبة

طعام ومبلغٍ صغير من المال. غير أني، وبعد فترة من الوقت، بعد أنْ عرفتُ مدى مازوشيته، سمحتُ لنفسي بالضحك في وجهه بين حينٍ وآخر، مما كان يعمل عمل السوط عليه، ويجعل الحزنَ والأسى يتفجّران منه بنشاط مُتجدِّد. وكان من الممكن أنْ يجري كل شيء على ما يرام لو لم يشعر أنَّ من واجبه أنْ يحمي تانيا. ولكن كون تانيا يهودية أثارَ لديه مشكلات أخلاقية. وانتظرَ مني أنْ ألازم الآنسة كلود التي أعترفُ بأني ضمرتُ لها حباً حقيقياً، بل إنه كان يدفعُ لي نقوداً أحياناً كي أضاجعها. إلى أنْ أدركَ أني فاسق لا أملَ يُرجى منه.

لقد أتيتُ على ذِكرِ تانيا الآن لأنها عادت من روسيا - قبل بضعة أيام فقط. وتخلّفَ سيلفستر عن الحضور ليتدبَّرَ أمر العثور على عمل. لقد تخلّى عن الأدب نهائياً، وسخَّرَ نفسه للمدينة الفاضلة الجديدة. وتانيا تريدني أنْ أعود معها إلى هناك، وتُفضِّل مدينة كريميا، لنبدأ فيها حياة جديدة. قبل أيام تناولنا مقداراً لا بأس به من المشروب في غرفة كارل ونحن نناقش الإمكانات المتوفرة. أردت أنْ أعرف ما يمكنني القيام به لأكسب عيشي هناك - ليت في إمكاني أنْ أعمل مُصحح مطبوعات مثلاً. قالتْ إنه لا مُبرر لقلقي حول ما علي أنْ أفعله - هم سيجدون لي عملاً طالما أني جادّ مُخلص. حاولت أنْ أبدو جاداً، ولم أنجح إلا في أنْ أبدو حزيناً. هم لا يريدون أنْ يروا وجوهاً حزينة في روسيا، يريدونك أنْ تكون مرحاً، متحمساً، جذلاً، متفائلاً. وبدا لي ذلك أقرب شَبَهاً بالجو العام في أميركا. لم أكن قد ورثتُ هذا النوع من الحماس. وطبعاً لم أبُحْ لها بهذا، لكني كنتُ أصلي بيني وبين نفسي لتتركني وشأني، لأعود إلى مِحرابي الصغير، وأبقى هناك إلى أنْ تندلع الحرب.

كل ذلك الهراء عن روسيا أزعجني قليلاً. أما هي، تانيا، فكانت متحمّسة لهذا الأمر حتى أننا شربنا عدداً من زجاجات الـ vin ordinaire. كان كارل يقفز كالصرصار. وفيه من الصِفات كيهودي ما جعله يفقد عقله عند ذِكر روسيا. لن يحل الأمر إلا تزويجنا -وعلى الفور. ويقول "هيا! ليس لديك ما تفقده! "، ثم يتظاهر بالقيام بمهمةٍ صغيرة حتى يتيح لنا أنْ نقوم بمضاجعة سريعة. ومع أنها كانت راغبة فيها، أعني تانيا، غير أنَّ قضية روسيا بقيَتْ تتجذّر بقوة في دماغها حتى إنها بدَّدتْ فترة الاستراحة وهي تمضغ أذني بها، وجعلني نكداً مضطرباً. على أي حال، كان علينا أنْ نفكّر في الأكل والذهاب إلى المكتب، وهكذا تكوّمنا في تاكسي في شارع إدغار-كينه على مرمى حجر من المقبرة، وانطلقنا. كانت ساعة ممتعة طِفنا خلالها باريس في سيارة مكشوفة، والخمر الدائر في خوابينا جعل النزهة تبدو أكثر إمتاعاً من المعتاد. جلس كارل قِبالتنا على الكرسي المسنود، ووجهه أحمر كالشوندر. كان سعيداً، ابن الحرام المسكين، وهو يُفكّر في الحياة الجديدة الفخمة التي سيعيشها في الجانب الآخر من أوروبا. ولكنه في الوقت نفسه كان يشعر أيضاً بشيء من الحزن - كما لاحظت. ورغبته في مغادرة باريس لم تكن أكبر من رغبتي. ولم تكن باريس مُنصِفة له أو لأي إنسان آخر، ولكن حين تكون قد تألّمت هنا وعانيت الأمرَّين عندئذٍ تسلب باريس لبّك، وتقبض عليك من خصيتيك، إنْ صحّ التعبير، مثل عاهرة أضناها الحب تُفضِّل الموت على أنْ تفلتَ من قبضتها. هكذا بدا الأمر له، في نظري. وننطلق عبر نهر السين وترتسم على وجهه تكشيرة ويتلفَّتْ حوله إلى الأبنية والتماثيل وكأنه يراها في الحلم؟ وكالحلم بدتْ لي أيضاً: يدي تتلمَّس

صدر تانيا وتضغط حلمتيها بكل قِواي وأرى الماء يجري تحت الجسور والمراكب وكنيسة نوتردام في الأسفل، كما تصورّها بطاقات البريد، وأفكّر وأنا ثمِل هكذا يُناك المرء، لكني كنتُ أيضاً ماكراً بهذا الشأنْ وأدرك أني ما كنتُ لأقايض كل هذا الدوار الذي رائع، وبعد قليل ندفع بالطعام إلى بطوننا وبكل ما يسعنا أنْ نطلبه في مناسبة خاصة، مع نبيذ ثقيل جيد كفيل بمسح كل ذلك الحديث عن روسيا. ومع امرأة كتانيا، مملوءة بالحيوية وكل شيء، لا يأبهون لِما قد يحدث لك طالما هناك فكرة تستحوذ على تفكيرهم. اتركهمْ يتمادون معك وسوف ترى كيف يُجرّدونك من ملابسك وأنت قابع في سيارة الأجرة. كانت نزهتنا فخمة، نمخر عباب حركة المرور، وجوهنا مُلطّخة بأحمر الشِفاه والنبيذ يُغرغر داخلنا كما في بالوعة، ولاسيما ونحن نلجُ شارع لافاييت العريض بما يكفي ليُبرز المعبد الموجود في نهاية الشارع وفوقه كنيسة القلب الأقدس، وهي نوع من الهندسة المُختلطَة الغريبة؛ فكرة فرنسية نيِّرة تخترق ثمالتك وتتركك سابحاً عاجزاً في الماضي، في حلم متدفِّق يجعلك يقِظاً تماماً ولكن دون أنْ يوتِّر أعصابك.

مع عودة تانيا إلى مسرح الأحداث، وإيجاد عملٍ ثابت، والحديث المنتشي عن روسيا، والتمشّي باتجاه المنزل، وباريس في قلب الصيف، تبدو الحياة كأنها ترفع رأسها أعلى قليلاً. وربما كان هذا هو السبب في أنَّ رسالة كالتي أرسلها لي بوريس تبدو حولاء تماماً. أقابل تانيا كل يوم تقريباً عند نحو الساعة الخامسة، لأتناول البورتو معها، هكذا تُسمّيه، وأدعها تأخذني إلى أماكن لم أرتدها من قبل، إلى حانات مزدحمة في منطقة الشانزليزيه حيث يبدو صَدحُ موسيقا الجاز مع دندنة أصوات

الأطفال كأنها تُشبِّع خشب الماهوغاني. وحتى حين تذهب إلى المغسلة تلاحقك الأصوات الريّانة اللينة، وتطيرُ إليك عبر المرحاض وخلال المكيّفات وتجعل الحياة كلها صابون وفقاعات متعددة الألوان، وسواء أبسبب غياب سيلفستر وشعورها بأنها حرة، أو مهما كان السبب، تحاولُ تانيا طبعاً أنْ تتصرَّف كملاك، وتقول لي ذات يوم: " لقد عاملتني معاملة سيئة قُبيل رحيلي. لماذا أردت أنْ تفعل ذلك؟ أنا لم أُسبب لك أي أذى، أليس كذلك؟ ". وأصبحَ مزاجنا رومانطيقياً، مع وجود الأنوار الخافتة وتلك الموسيقا الدسمة الماهوغانية التي تنساب في المكان. واقترب وقت التوجه إلى العمل ولم نكن قد تناولنا الطعام بعد. كانت الأرومات مُلقاة أمامنا - ستة فرنكات، أربعة فرنكات وخمسون سنتيماً، سبعة فرنكات، فرنكان وخمسون سنتيماً، كنتُ أعدّها بشكل آلي متسائلاً في الوقت نفسه إنْ كنت أفضِّل أنْ أكون ساقياً في حانة. وفي أحيان كثيرة كتلك، وأثناء تحدّثها معي، وهي تنطلق في الحديث عن روسيا، والمستقبل، والحب وكل ذلك الخراء، أنشغلُ أنا في التفكير في أمورٍ أبعد ما تكون عن ذلك الموضوع، عن أحذية لمّاعة أو عن كوني حارس مراحيض، ولاسيما حسب ما أعتقد لأنَّ الأماكن التي أخذتني إليها كانت أليفة جداً ولم يخطر في بالي قط أني سوف أغدو وقوراً أو ربما عجوزاً محني الظهر... كلا، كنتُ دائماً أتخيَّل أنَّ المستقبل، مهما كان متواضعاً، سيكون شيئاً شبيهاً بتلك الصورة، مع الأنغام نفسها التي تصدح في رأسي والكؤوس التي تُقرَع، ويتبع كل مؤخرة أنيقة ذيلٌ من العطر عَرْضه ياردة كفيلٌ بمحو النتانة عن الحياة كلها، حتى تلك الموجودة في المغاسل.

الغريب في الأمر هو أني لم أفسد بالتردد معها على الحانات الراقية على ذلك الشكل. طبعاً، كان صعباً عليَّ أنْ أتركها. كنتُ أقودها إلى رواق كنيسة كائنة بالقرب من المكتب ونقف هناك في الظلام نتعانق للمرة الأخيرة، وتهمس لي: " يا إلهي، ماذا سأفعل الآن؟ ". أرادت مني أنْ أترك العمل لأمارس الحب معها ليلاً ونهاراً، ولم تعُد تأبه حتى لروسيا، ما دمنا معاً. ولكن حالما غادرتها صفا ذهني. وحين دفعت الباب الهزّاز داخلاً رحبت موسيقا من نوع آخر. ليستْ دندنة رقيقة لكنها جيدة مع ذلك، بأذني. وبدا كأنَّ نوعاً آخر من العِطر، عرضُه ليس فقط باردة، بل هو كُلّي الوجود، وهو مزيج من العَرَق وعَبَق الباتشولي ينبعث من الآلات. ودخلَتْ وأنا ممتلئ بالخمر، كما هي عادتي، وكأني أسقطُ فجأةً إلى علوّ منخفض. وفي العادة أتوجّه من فوري إلى المرحاض - لأجدِّد قِواي. فهناك الجو أشدّ برودة أو ربما خرير الماء الجاري يجعله يبدو بارداً. ولطالما كان المرحاض بمثابة دوش بارد، حقاً. وقبل أنْ أدخل كان يجب أنْ أخترق صفاً من الفرنسيين يخلعون ملابسهم. تفوووه! رائحتهم كريهة، أولئك الملاعين! وكانوا ينالون سعراً عالياً مقابل ذلك أيضاً. ولكن ها هم عُراة، بعضهم بسراويل داخلية طويلة، وللبعض الآخر لحى، وغالبيتهم شاحبو الوجوه، كجرذان سقيمة يجري في عروقها الرصاص. وداخل المرحاض يمكنك أنْ تُجري عملية جرد لأفكارهم البليدة. الجدران مزدحمة برسوم مرتجلة وألقاب، كلها بذيئة بذاءة مضحكة، سهلة الفهم، وبصورة عامة جميلة ومتجانسة. لابد أنَّ بعضها احتاج إلى سلّم لتدوينه في أماكن معيَّنة، لكنني أعتقد أنَّ الأمر كان يستحق العناء حتى لمجرّد الاطّلاع عليه من وِجهة النظر النفسية. أحياناً كنتُ أتساءلُ،

وأنا واقفٌ هنا أتبوَّل، عن الانطباع الذي يمكن أنْ أتركه لدى تلك النسوة الثريات اللائي رأيتهن داخلات وخارجات من المراحيض الجميلة في الشانزليزيه. تساءلتُ إنْ كنَّ سيرفعنَ أذيال أثوابهنّ عالياً جداً تباهياً لو رأينَ ما كُتبَ عن المؤخرة هنا. لاشك في أنَّ كل شيء في عالمهنّ شفّاف مخملي - أَو هكذا يجعلونك تعتقد بالعطور الرائعة التي يفوح عبقها منهن، أثناء مرورهن بك. بل إنَّ بعضهن لم يكن دائماً من السيدات الراقيات، وبعضهن يتمشّين جيئة وذهاباً فقط لعرض بضاعته. وربما حين يختلين بأنفسهنّ، حين يتكلّمن بأصواتٍ عالية في غرف الزينة، تفلتُ من أفواههن بعض الأمور الغريبة أيضاً، لأنَّ في ذلك العالم، كما في أي عالمٍ آخر، القِسم الأكبر مما يحدث هو مجرَّد قذارة وفحش، قذرٌ كأي برميل زبالة؛ كل ما في الأمر أنَّ لديهن من الحظ ما يُتيحُ لهنَّ وضعَ غِطاء على البرميل.

وكما كنتُ أقول، في ظهيرة ذلك اليوم لم يكن للحياة مع تانيا حتى ذلك الحين أي أثر سيئ عليّ. أحياناً كنتُ أُسرِفُ في الشرب فأضعُ إصبعي في حنجرتي لأتقيّأ - لأنَّ من الصعب قراءة بروفة طباعية إذا لم تكن في كامل وعيك. فالتفتيش عن فاصلة ضائعة يحتاجُ من التركيز أكثر مما يتطلّبه تلخيص فلسفة نيتشه. وحين تكون ثملاً يمكنكَ أحياناً أنْ تتفوَّق، ولكنَّ التفوُّق في قِسم تصحيح المطبوعات لا مكان له. التواريخ، الأجزاء الصغيرة، والفواصل المنقوطة، هي الأشياء المهمة. وهي الأشياء التي يصعُبُ جداً تقصّيها حين يكون الذهن متوقّداً. وبين حينٍ وآخر كنتُ أرتكبُ الأخطاء الفاحشة، ولو لم أتعلَّم كيف أتملَّق الرئيس، لطُرِدتُ حتماً. بل لقد استلمتُ رسالة ذات يوم من المغولي

الضخم القاطن في الطابق العُلوي، مع أني لم أقابله قط، وكان قويّ النفوذ، وقد ألمحَ لي بوضوحٍ تام، بين فِقرات تهكّمية حول ذكائي غير العادي، إلى أنه من الأفضل لي أنْ أعرفَ مقامي وألزمه وإلا دفعتُ الثمن. وبصراحة، لقد بثَّ فيَّ هذا الكلام رُعباً شديداً. وبعد ذلك لم أعُدْ أستخدم قط كلمة مؤلّفة من عدّة مقاطع في أي حديث. والواقع، لم أعد أفتح فمي طوال الليل. ومثَّلتُ دورَ الأبله الراقي، وهو ما أرادوه منا. كنتُ أحياناً، وعلى سبيل تملُّق الرئيس، أذهبُ إليه لأسأله بأدب عن معنى هذه الكلمة أو تلك. وكان يُحبُّ ذلك. فصاحبنا كان أشبه بقاموسٍ وقائمة أسماء. ومهما جرَعَ من البيرة خلال الاستراحة - وهو أيضاً يُقرِّر استراحاته الخاصّة حسب تقديره لسرعة سير العمل - لا يمكنك أنْ توقعَه في خطأ تاريخ أو تعريف. لقد وُلِدَ ليقوم بهذا العمل. أسفي الوحيد أني كنتُ أعرفُ أكثر مما ينبغي. وتلك المعرفة كانت تفلت مني أحياناً، على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتّخذتها. وإذا تصادفَ وأتيتُ إلى العمل وأنا أتأبَّطُ كتاباً فإنَّ صاحبنا الرئيس يُلاحظه، فإذا كان كتاباً جيداً أثار ضغينته. غير أني لم أقُم بأي عمل قصد إزعاجه، لقد أحببتُ العمل كثيراً بحيث لا يمكنُ أنْ أضع الأنشوطة حول عنقي. ومع ذلك يصعُب التحدُّث إلى رجلٍ لا تشترك معه في أي شيء، حينئذٍ تخدع نفسك، وإنْ لم تستخدم إلا الكلمات ذوات المقاطع الأحادية. لقد كان يعلم جيداً، أعني الرئيس، أني لا أولي أدنى اهتمام بحكاياته، ومع ذلك، وكيفما فهمت الموضوع، كان يُسعِده أنْ يُقصيني عن أحلامي ويملأني حتى التخمة بالتواريخ والأحداث التاريخية. وأعتقدُ أنَّ تلك كانت طريقته في الأخذ بالثأر.

والنتيجة هي أني طوَّرتُ عصابيّةً. وصار مجرَّد ملامستي للهواء يجعلني متهوراً. ومهما كان موضوع الحديث الدائر في طريق عودتنا إلى مونبرناس في الصباح الباكر، فإني سرعان ما أصبُّ النار عليه، أُخمِده، لكي أعرض للعيان أحلامي المارقة. وأحببتُ أكثر ما أحببت التحدث عن تلك الأشياء التي لا أحد منا يعرف أي شيء عنها. وكنتُ قد نمّيت نوعاً معتدلاً من الجنون، يُسمّى بالمُصاداة[٣٦]. وكل بقايا ليلة من مراجعة المطبوعات كانت ترقص على طرف لساني. ***دالماتيا*** - وكنت قد حصلتُ على نسخة من إعلانٍ عن ذلك المنتجع الجميل النادر. حسن، فلتكن ***دالماتيا***. استقلْ قطاراً ومع حلول الصباح تبدأ مسامك تنضح بالعَرَق وتكاد حبّات العنب تمزِّق قشورها. كان في وسعي أنْ أطوفَ دالماتيا كلها من الشارع الكبير إلى قصر الكاردينال مازاران، بل وإلى أبعد من ذلك لو أردت. إني حتى لا أعرفُ أين تقع على الخريطة، ولا أريد أن أعرف، ولكن عندما تكون الساعة الثالثة فجراً والرصاص يجري في عروقك وملابسك منقوعة بالعَرَق، وعبق باتشولي مع قرقعة الأصفاد المارّة عبر العصّارة والحكايات التي تدور مع كأس البيرة وكنتُ مولعاً بها، لا تعود أشياء صغيرة كالجغرافيا، والبذلة، والخطاب، وفن العمارة، لا تعني أيَّ شيءٍ لعين. إنَّ دالماتيا تنتمي إلى ساعةٍ معيَّنة من الليل بعد أن يخمد القرع العالي. وتبدو قاعة اللوفر مثيرة للسخرية بشكلٍ رائع حتى إنّكَ تشعر برغبة في البكاء بلا أي داعٍ، فقط لأنَّ هناك صمتاً رائع الجمال، وفراغاً، لأنَّ الجو يختلف تمام الاختلاف عمّا يظهر في الصفحة الأولى،

---

٣٦ - المصاداة : الترداد المَرَضي لِما يقوله الآخرون .

وعن الشبّان الذين يُدحلجون النرد في الطابق العلوي. ومع وجود مكان صغير كدالماتيا يجثمُ على أعصابي النابضة كحدّ سكينٍ بارد استطعتُ أنْ اختبر أشد أحاسيس الرحيل روعة. والطريف في الأمر أنني استطعتُ أنْ أجوب أطراف العالم دون أنْ تخطر أميركا على بالي؛ لقد كانت أكثر ضياعاً حتى من قارةٍ مفقودة، لأنني كنتُ أشعر أنه يربطني بالقارات المفقودة رِباطٌ غامض، في حين أني لم أشعر بأي شيء نحو أميركا. صحيح أني كنتُ أحياناً أفكّر في مونا، ولكن ليس كما أفكر في شخصٍ ضمن حالة مُحدَّدة من الزمان والمكان، بل بشكلٍ منفصل، منفرد، وكأنها تفجَّرتْ فصارت كتلةً عظيمة من السحاب طَمَسَتْ الماضي. لم أستطع أنْ أسمح لنفسي في التفكير طويلاً، ولو فعلتُ لقفزتُ من فوق الجسر. شيء غريب. لقد أصبحتُ متوافقاً كثيراً مع تلك الحياة من دونها، ومع ذلك فلو فكَّرتُ فيها ولو لدقيقة لكانت كافية لخرق عِظام رِضاي ولُبّه، ولقذفتني ثانية إلى حمأة الماضي التعيس المؤلمة.

سبع سنين وأنا أتنقَّلُ، ليل نهار، لا أحملُ إلا فكرة واحدة في رأسي - **هي**. ولو كان هناك مسيحي مُخلص لربه كإخلاصي إليها لأصبحَ كلُّ منا الآن يسوع مسيح. فكّرتُ فيها ليل نهار، حتى وأنا أخدعها. والآن أحياناً، في غمرة الأشياء، حين أشعرُ أني متحررٌ حرية تامة من ذلك كله، إذا فجأةً، ربما عند منعطف زاوية، تظهر بغتةً ساحةٌ صغيرةٌ، بضعُ شجيراتٍ ومقعدٌ خشبي، بقعة مهجورة كنا قد وقفنا عندها وحسمنا الأمر بيننا، وأثار كلٌ منا جنونَ الآخر بمشاهد مريرة غيور. هناك دائماً بعض البقع المنبوذة، مثل بلاس دو لسيتراباد، أو تلك الشوارع القذرة المملوءة أسى في الطرف الآخر للجامع، أو المحاذية لقبر شارع دو بريتوي

المفتوح، تغدو عند الساعة العاشرة ليلاً في منتهى السكون، والموت، تدفع المرء إلى التفكير في جرائم القتل أو في الانتحار، أو أي شيء من شأنه أنْ يخلق أثراً من الدراما الإنسانية. وحين أدرك أنها رحلت، وربما إلى الأبد، يفغر فراغ عظيم فاه وأشعر أني أغوص، أغوص، أغوص إلى الخواء الأسود اللا متناهي. وهذا أسوأ من ذرف الدموع، أعمق من الندم أو الألم أو الأسى، هو اللجّ الذي غاص فيها الشيطان. ولا سبيل للتراجع، لا بارقة نور، لا نبرة صوت إنساني أو لمسة يد إنسانيّة.

كم ألف مرة ومرة تساءلت، وأنا أجوس الشوارع ليلاً، إنْ كان سيعود اليوم الذي أجدها فيه إلى جانبي: لقد منحتُ كل تلك النظرات المشتاقة للأبنية والتماثيل، نظرت إليها بنهمٍ عظيم، ويأس، إلى درجة أنَّ أفكاري أضحتْ الآن جزءاً من تلك الأبنية والتماثيل، ولابد أنها تشبَّعَتْ بألمي. ولا يسعني إلا أنْ أتذكَّر أيضاً أننا كنا نسير جنباً إلى جنب في تلك الشوارع الوسخة المُترعة بالغم والتي باتت الآن مُشبعة بأحلامي وحنيني، لم تلاحظ شيئاً، ولم أشعر بشيء، كانت بالنسبة إليها كغيرها من الشوارع، ربما أكثر قذارة بقليل، ولا أكثر. لم تتذكَّر أني عند ركنٍ معيَّن وقفتُ لألتقط دبوس شعرها، أو أني حين انحنيت لأربط حذاءها، تعرَّفتُ على البقعة التي استقرَّتْ قَدَمها عليها وقلتُ إنها ستبقى هناك إلى الأبد، حتى بعد أنْ تُهدَمْ الكاتدرائيات وتفنى الحضارة اللاتينية كلها عن بكرة أبيها وإلى أبد الآبدين.

بينما أنا أشقُّ طريقي في شارع لومون ذات أمسية وسط نوبة من الألم والوحشة غير العاديين، تبدَّتْ لي أشياء معيَّنة بوضوح حادّ. ولا أدري إنْ كان السبب هو أني كثيراً ما مشيت في هذه الشوارع تملأني

المرارة واليأس أو أني تذكّرتُ عبارة ألقتها في إحدى الليالي ونحن واقفان في ساحة لوسيان-هر، حين قالت: " لماذا لا تُريني تلك الباريس التي كتبتَ عنها؟ ". هناك شيء واحد أعرفه، هو أنه عند تذكُّري لهذه الكلمات أدركتُ فجأةً استحالة أنْ أوضِّحَ لها أنَّ باريس التي عرفتُها، باريس ذات الأبعاد اللا متناهية، هي باريس لك توجد إلا كإفرازٍ من وحدتي، وشوقي إليها. وما أضخمها من باريس! ويحتاج اكتشافها إلى حياة بأكملها. هذه الباريس التي لم تُعطِ مفاتيحها لغيري، لا تكاد تمنح نفسها مقابل جولة قصيرة، حتى بوجود أفضل النوايا؛ إنها باريس التي ينبغي معايشتها، معاناتها يومياً بألف شكلٍ مختلف من العذاب، باريس التي تنمو كالسرطان، وتنمو وتنمو حتى تستهلكك وتفنيك.

وأطرقُ شارع موفيتار، حاملاً هذه الذكريات التي تشبُّ في رأسي، وأذكر حادثة أخرى غريبة من الماضي، من ذلك الكتاب المُرشِد الذي طَلَبَتْ مني أنْ أمزِّق أوراقه، بيد أني، وبسبب ثقل غلافه الكبير، لم أتمكّن من فتحه ولا بالقوة. وبدون أدنى سبب - ولأنَّ أفكاري في هذه اللحظة كانت مشغولة بسالافان الذي صرتُ أهيمُ على وجهي في تخومه المقدّسة الآن - أقول وبدون أي سبب، خطرتْ على بالي ذكرى أحد الأيام حين دخلتْ مندفعاً نُزُل أورفيلا، يُلهمني دبوس زينة كنتُ أمرّ به يوماً، وطلبتُ مشاهدة غرفة ستريندبرغ[٢٧] التي كان يشغلها. وحتى ذلك الوقت لم يكن قد وقعَ لي أي حدث مريع، على الرغم من أني قد فقدتُ لتوي جميع ممتلكاتي الدنيوية وعرفتُ معنى التسكُّع في الشوارع على الطوى

٢٧ - يوهان أوغست ستريندبرغ (١٨٤٩ - ١٩١٢) : كاتب مسرحي سويدي. له " مس جوليا " و " الأب ".

والخوف من الشرطة. حتى ذلك الحين لم أكنْ قد عثرتُ على صديق واحد في باريس، وهي حالة لم تكن مُقبِضة بقدر ما هي مُحيِّرة ، لأنني حيثما همتُ على وجهي في هذا العالم كان أسهل شيء بالنسبة إليّ هو اكتشاف صديق. ولكن على أرض الواقع لم يكن قد حدث أمرٌ مريع بعد. يمكن للإنسان أنْ يحيا بلا أصدقاء، مثلما يستطيع أنْ يحيا بلا حب، أو حتى بلا نقود، التي تُعتَبَر شيئاً لا غِنى عنه sine qua non . يمكن للإنسان أنْ يعيش في باريس - هذا ما اكتشفته! - على قوتْ الأسى والألم. فالعلقم - بالنسبة لبعض الناس هو أفضل غذاء. على أي حال، لم أكن قد وصلتُ بعد إلى نهاية أمدي. كنتُ فقط ألهو مع الكارثة. كان لدي من الوقت والعاطفة ما يكفي ويزيد لأتلصَّص على حيوات الآخرين، لأعبث بنتاج الرومانسية الميت الذي، مهما بدا مُرضياً، لأنه حين يُغلَّف بدفَّتي كتاب يبدو نائياً بشكل لذيذ ومجهول الهوية. وبينما أنا أغادرُ المكان وعيتُ وجودَ ابتسامة ساخرة تحومُ لترتسم على شفتي، وكأني أقول لنفسي: " ليس الآن، يا نُزُل أورفيلا "

ومنذ ذلك الحين طبعاً تعلَّمتُ ما يكتشفه كل مجنون في باريس عاجلاً أو آجلاً، أي أنه ليس هناك جهنمات جاهزة للتعذيب.

يبدو لي أني بتُّ الآن أفهم بشكلٍ أفضل قليلاً سبب استمتاعها المُفرِط بقراءة ستريندبرغ. أكادُ أراها وهي ترفع بصرها عن الكتاب بعد قراءة فِقرة لذيذة وتقول لي، ودموع الضحك تطفر من عينيها: " أنتَ مجنون مثله تماماً... ترغبُ في تلقّي العقاب! ". ما أعظمَ متعة المرأة السادية حين تكتشف مازوشيتها الخاصة! حين تعضّ نفسها لتختبر حِدَّة أسنانها. في تلك الأيام، حين تعرَّفتُ إليها للمرة الأولى، كانت مُتخمة

بستريندبرغ. ومهرجان اليرقات الماجن ذاك الذي يقصفُ داخله، تلك المبارزة الأبدية بين الجنسين، والضراوة العنكبوتية التي حبَّبَته إلى البلهاء الخُرق الشماليين، ذلك كله كان سبب تقاربنا. لقد اجتمعنا لنرقص رقصة الموت وسرعان ما ابتلعتني الدوامة بحيث إني حين عدتُ إلى السطح ثانية كانت الموسيقا قد سكتت، وانتهى المهرجان وخرجتُ منه نقيّاً...

بعد مغادرتي لنُزُل أورفيلا بعد ظهيرة ذلك اليوم انطلقتُ إلى المكتبة وهناك، بعد أنْ اغتسلتُ في نهر الغانج، وتفكَّرتُ في رموز دائرة البروج، رحتُ أتأمَّلُ في معنى ذلك الجحيم الذي رسمه ستريندبرغ بلا رحمة. وبينما أنا كذلك، أخذتْ الصورة تتَّضح أمامي، سرّ حجّته، وتحليق الشاعر فوق وجه الأرض، وكأنما كُتِبَ عليه أنْ يُعيد أداء دراما ضائعة، والهبوط البطولي إلى أعماق الأرض، والمقام المُظلِم المخيف في بطن الحوت والصراع الدموي لتحرير نفسه، ليخرج من الماضي نقياً، شمساً ساطعة تُجمِّد الدم في العروق ألقى الله ضياءها على شاطئٍ غريب. لم يعُد سراً بالنسبة إليّ سبب حجّه والآخرين (دانتي، ورابليه، وفان غوخ، الخ الخ) إلى باريس. فهمتُ عندئذ لماذا يمكن للمرء هنا، في محور الدولاب بالذات، أنْ يُعانق أشدّ النظريات روعةً، وأكثرها استحالة، دون أنْ يجد فيها أدنى قدر من الغرابة، هنا يُعيد المرء قراءة كتب فترة الشباب الأول، وتتخذ الألغاز معانٍ جديدة، معنى لكل شعرة بيضاء. ويمشي المرء في الشارع وهو يعلم أنه مجنون، ممسوس، لأنه من الجليّ أنَّ تلك الوجوه الباردة اللا مبالية هي وجوه سجّانيه. هنا تّمحي الحدود كلها ويتضحُ أنَّ العالم ما هو إلا مسلخٌ جنوني، يبقى فيه دولاب التعذيب يشدّ إلى الأبد وتُغلَق المنافذ الصغيرة بإحكام، ويتفشّى المنطق،

ويومض ساطور يقطر دماً. الهواء بارد قارس وراكد، واللغة رؤيوية. لا أثر لشارة مخرج في أي مكان، لا منفذ إلا إلى الموت. زقاق مسدود عند نهايته مشنقة.

خالدة، باريس! أكثر خلوداً من روما، أشدّ روعة من نينوى. هي سُرَّة العالم يزحف المرء عائداً إليها، كمعتوه أعمى يتعثَّر، على يديه وركبتيه، ويطفو كقطعة من الفلين جُرِفَتْ إلى قلب المحيط، هنا وسط خَبَث البحار ومُخلّفاتها، فاتر الهمّة، يائساً، غافلاً حتى عن كولومبوس لو مرَّ بالقرب منه. إنَّ مهود الحضارة ما هي إلا بلاليع فاسدة للعالم، مِقبرةٌ إليها تُعهَدْ الأرحام العفنة بلفائفها اللعينة من اللحم والعظم.

كانت الشوارع ملاجئي. ولا يمكن لإنسان أنْ يفهم فتنة الشوارع إلى أنْ يُضطر إلى اللجوء إليها، أنْ يغدو قشّة تذروها زفرة من الريح هنا وهناك. يسيرُ المرءُ في أحد الشوارع ذات يوم شتائي فيرى كلباً معروضاً للبيع فإذا به يتأثَّر حتى تطفر الدموع من عينيه. في حين يقوم في الطرف الآخر من الشارع، جذِلاً كمقبرة، كوخٌ بائسٌ يُسمّى " فندق ضريح الأرانب" Hotel du tombeau des lapins، يدفعُ المرء إلى الضحك، الضحك حتى الموت. إلى أنْ يُلاحظ أنَّ هناك فنادق في كل مكان للأرانب، والكلاب، والقمل، والأباطرة والوزراء، والمُسترهنين، وتجّار الخيول وما إليهم. وبعد كل فندق هناك آخر يُدعى " فندق المستقبل "، مما يُثير أكثر فأكثر حفيظة المرء. ما أكثر فنادق المستقبل! لا توجد فنادق لاسم المفعول، ولا للصيغ الشرطيّة، ولا لالتهابات الملتحمة. كل شيء وقور، رهيب، مرِح بشكلٍ يوقف شعر الرأس، متورِّم بالمستقبل، كأنه خِراج اللثة. وأترنَّحُ ثملاً من إكزيما المستقبل الفاسقة هذه وأنا في طريقي إلى بلاس فيوليت؛ كلُّ الألوان خبّازي وإردوازي، والأبواب واطئة جداً بحيث

لا يستطيعُ الولوج منها إلا الأقزام والعفاريت؛ ومن فوق قِحف جمجمة زولا الباهت تنفثُ المداخنُ فحماً صِرفاً، و مادونا الشطائر تَصغي بأذنين تُشبهان ورقتيّ ملفوف إلى بقبقة أوعية الغاز، إلى تلك الضفادع المنتفخة الجميلة المُقرفصة على جانبي الطريق.

لماذا أتذكّر فجأةً ممر التير موبيل؟ لأنه في ذلك اليوم كانت هناك امرأة تُخاطبُ جروها بلغة المسلخ الرؤيوية، وكان الجرو الصغير يفهمُ ما تقوله تلك الداية العاهرة المُزيّتة. كم كدّرني ذلك! أكثر حتى من مشهد تلك الكلاب التي تُباع وهي تئنُّ على طريق برانسيون، إذ ليست الكلاب هي التي كانت تملأني بالشفقة، بل الحاجز الحديدي الكبير، والنتوءات المُدبَّبة الصدئة التي بدتْ كأنها تقفُ حائلاً بيني وبين حياتي الملائمة. وفي الزقاق الصغير اللطيف قرب الأباتوار دو فوجيرار (مسلخ لحم الخيول) والذي يُسمّى طريق البيريشو، لاحظتُ وجودَ بقعٍ متناثرة من الدم. وكما كان ستريندبرغ أثناء فترة جنونه قد شاهد بشائر وإشارات المعجزة في ممشى نُزُل أورفيلا نفسه، كذا أنا، بينما كنتُ أتجوّل بلا وِجهة في ذلك الزقاق الموحِل المُلطّخ بالدم، طَفَتْ أمام عينيّ بحركة متكاسلة مُزَقٌ منفصلة من الماضي، تنذرني بأوخم العواقب. تراءى لي من أبعد نقطة في ذاكرتي، بل من بدايتها الأولى، دمي يُراقُ، والطريق الموحِلة تتلطّخ به. إنَّ المرءَ يُقذَفُ به إلى العالم كمومياء قذرة حقيرة؛ الطرقات زلِقة من الدم ولا أحد يعلم لماذا هي كذلك. كلٌ يسيرُ في طريقه وعلى الرَغم من أنَّ الأرضَ تتعفَّن بالطيبات فليس هناك مُتَّسعٌ من الوقت لقطف الثمار؛ ويتدافعُ الموكب بالمناكب نحو إشارةٍ تدلُّ على المخرج، وكم من رعبٍ هائلٍ يعمُّ، وكم من العَرَق ينضحُ جهاداً للهرب، حتى إنَّ الضعفاء واليائسين يُداسون في الوحل ولا مَنْ يسمع صراخهم.

اندثر عالمي الذي يقطنه الآدميون، وبُتُّ وحيداً تماماً في العالم واتّخذتُ من الشوارع أصدقاء، وتحدثتُ الشوارع إليّ بتلك اللغة الحزينة المريرة المؤلّفة من البؤس، والشوق، والندم والفشل، والجهد المهدور الإنساني. وأثناء مروري من تحت الجسر على شارع بروكا، في الليلة التي تلتْ علمي أنَّ مونا مريضة وتقاسي الجوع، تذكّرتُ فجأةً أنها هنا في قذارةِ وكآبة ذلك الشارع الغائر، تشبّثَتْ بي، مرعوبة ربما من هاجس مستقبلي، وتوسلتْ إلي بصوت متهدِّج أنْ أعدها بألاّ أتخلّى عنها، أبداً، ومهما حدث. وبعد ذلك بأيام قليلة وقفتُ على رصيف محطة القديس أليعازر أراقبُ القطار يُقلع، القطار الذي يحملها: كانت تطل من النافذة، تماماً كما أطلّتْ من النافذة حيت تركتُها في نيويورك، وهناك أيضاً كانت الابتسامة الحزينة المُبهَمَة نفسها على وجهها، نظرة اللحظة الأخيرة تلك المقصود بها أنْ تعبِّر عن الكثير، لكنها ليست إلا قناعاً التَوَتْ قَسَماته لترسمَ ابتسامةً فارغة. وقبل ذلك ببضعة أيام فقط كانت قد تشبَّثَتْ بي تشبُّثاً يائساً ثم حدثَ أمر، أمرٌ لم تتَّضِح لي أبعاده حتى الآن، وباختيارها الكامل استقلّتْ القطار وراحت تنظرُ إليَّ ثانية مع تلك الابتسامة الحزينة المُبهَمَة التي تُحيّرني، الظالمة، الشاذة، التي أرتابُ فيها من كل روحي. الآن حان دوري، وأنل لأقفُ في ظل الجسر، لأرحلَ إليها، لأتعلّقَ بها بهيام، ولترتسم الابتسامة الغامضة نفسها على شفتيّ، القناع الذي أحكَمتُ تركيبه فوقَ ألمي. يمكنني أنْ أقفَ هنا وأبتسمَ ابتسامةً فارغة. ومهما بلغَ توهُّج صلواتي، مهما بلغ قنوط اشتياقي، سيبقى يفصلنا مُحيطٌ كاملٌ، ستبقى هي هناك تعاني الجوع، وأبقى أنا هنا أتسكّعُ متنقّلاً من شارعٍ إلى شارع، تلسعُ الدموعُ الحارةُ وجهي.

هذا النوع من القسوة هو الذي يكمنُ في الشوارع، **ذلك** هو الشيء الذي يُحدِّقُ إلينا من الجدران ويُرعبنا حين نستجيب فجأةً إلى خوفٍ لا اسمَ له، حين يغزو أرواحنا فجأةً رعبٌ مُقزِّز للنفس. **ذلك** هو الشيء الذي يُضفي على مصابيح الشارع انحناءاتها الغوليّة، يجعلها تومئ إلينا وتغوينا إلى أنْ نقع في قبضتها الخانقة، **ذلك** هو الشيء الذي يجعل بيوت معيَّنة تبدو كحمأةٍ تُرتكبُ فيها جرائم سرية وتجعل نوافذها المظلمة كمحاجر خاوية لعيون رأتْ أكثر مما ينبغي. مثل ذلك الشيء، المكتوب داخل الأسارير الإنسانية للشوارع، هو الذي يدفعني إلى الهرب حين أرى فجأة فوقي لوحة مكتوب عليها " طريق مسدود. شيطان ". هو الذي يجعلني أرتجف حين أرى على مدخل الجامع مباشرةً عبارة تقول: " أيام الاثنين والخميس سُلْ، والأربعاء والجمعة سفلس ". في كل محطة للمترو توجد جماجم مُكشَّرة تُحييك بعبارة " احذرْ السفلس! Defendez-vous contre la syphilis". وحيث وُجِدَتْ جدران هناك مُلصقات تمثِّل سرطانات قبيحة لامعة تعلن عن وصول مرض السرطان. وأينما تتوجّه، وفي كل ما تلمس، يوجد السرطان السفلس. إنه مكتوب على صفحة السماء، يتلظّى ويرقص، كنذير الشؤم، لقد نَخَرَ عميقاً في أرواحنا ولم نعُدْ نشكِّلُ غير عنصر ميّت كالقمر.

أعـتـقـد أنه كان الرابع من شهـر تموز حين أخـذوا الكرسي من تحـتي ثانيـة. بلا كلمـة تحذير. فـقد قرر أحد القذرين الكبار من الشاطئ الآخر للمحيط أنْ يقتصد، فالاقتطاع من أجور مُصحححي المطبوعات وضاربي الآلة الكاتبة الصغار المساكين سيمكنه من تسديد نفقات رحلاته ذهاباً وإياباً والشُقق الفخمة التي يشغلها في الريتز. وبعد أنْ سدَّدتُ الديون الصغيرة التي ترتَّبَتْ عليّ بين عـمّال المنضدة السطرية ودفعَت عربون المودّة في المقهى الصغير الكائن عبر الشارع، لكي أحافظ على سمعتي، ولم يبقَ معي شيء من أجري الأخير. كان عليَّ أنْ أُبلِّغ صاحب الفندق بأني سأغادره، ولم أعطه سبباً لأنه سيُقلق على المئتيّ فرنك الحقيرة التي أدين بها له.

" ماذا ستفعل إذا فقدتَ عملك؟ ". هذه هي العبارة التي كانت ترنّ في أذني باستمرار. Ca y est maintenant ! Ausgespielt ! لا شيء أفعله غير أنْ أنزل إلى الشارع من جديد، أمشي، أتسكع، أجلس على المقاعد، أقتلُ الوقت. وطبعاً، بات وجهي مألوفاً في مونبرناس، وبقيت فترة أدّعي أني لا أزال أعمل في الصحيفة. وكان ذلك يسهِّل عليّ قليلاً الحصول على وجبة إفطار أو عشاء. كان الوقت صيفاً والسياح يتدفّقون. وكنتُ أُخفي خططاً في كمي لتغريهم. " ماذا ستفعل...؟ " حسن لن أموت جوعاً، هذا كل شيء. ولو أني اكتفيتُ بالتركيز على الطعام

لمنعني هذا من الانهيـار. وتمكّنتُ على مدى أسبـوع أو أسبـوعين من أنْ أتوجّه إلى محل المسيو بول وأتناول وجبة مُشبعة كل مساء، دون أنْ يعلم إنْ كنتُ أعمل أم لا. فالأكل هو أهم شيء. وكل ما عداه اعهدْ به إلى العناية الإلهية!

طبعاً أُصَختُ سمعي إلى كل ما له رنين الدراهم. وكوَّنتُ مجموعة جديدة كاملة من المعارف - كانوا مُضجرين وكنتُ حتى ذلك الحين أبذل كل جهدي لأتجنَّبهم، وسكارى كنتُ أشمئز منهم، وفنانون لا يكادون يملكون أي مال، ورجال نالوا جائزة غوغنهايم، الخ. وليس من الصعب أنْ تعقد صداقات وأنت قابع على مصطبة مدة اثنتي عشرة ساعة كل يوم. هناك ستتعرَّف على كل سكّير في مونبرناس. إنهم يتعلّقون بك كالقمل، وإنْ لم يكن لديك ما تعيرهم غير أذنيك.

والآن بعد أنْ فقدتُ عملي صار لدى كارل وفان نوردن عبارة جديدة يُلقيانها على مسمعي. " وماذا لو وصلتْ زوجتك الآن؟ ". حسن، وماذا في الأمر؟ سأطعم فَمَين بدل فم. سيصبح لدي رفيق في البؤس. وإذا لم تكن قد فَقَدَتْ شكلها الحَسَن، فربما من الأفضل لي وجود زوجة من أنْ أكون وحيداً: إنَّ العالم لا يسمح بوجود امرأة جميلة تعاني الجوع. ولم أتمكَّن من الاعتماد على تانيا في مساعدتي؛ كانت تبعث النقود إلى سيلفستر. وفي أول الأمر اعتقدتُ أنها قد تسمح لي بمشاركتها غرفتها، لكنها كانت تخشى التعرُّض للسمعة السيئة، ثم إنه كان عليها أنْ تعامل رئيسها بلطف.

إنَّ أول الجديرين بالاعتماد عليهم بين الناس حين تكون مُحبَطاً هم اليهود. وكان لدي ثلاثة منهم بين يدي دفعة واحدة. إنهم أرواح

متعاطفة. أحدهم تاجر فرو متقاعد يتوقُ إلى أنْ يرى اسمه مكتوباً في الصحف، اقترحَ عليَّ أنْ أكتبَ سلسلةً من المقالات موقَّعة باسمه في صحيفة يهودية يومية تصدر في نيويورك. وكان عليَّ أنْ أقوم بجولة استكشاف في الدوم والكوبول بحثاً عن يهود مرموقين. وأول مَنْ قابلت كان عالمَ رياضيات شهيراً. لم يكن يُحسِن أي كلمة من اللغة الإنكليزية. وكان عليّ أنْ أتكلّم عن نظرية الصدمة مستعيناً بالرسوم البيانية التي تركها على المنديل الورقي، وأن أصِفَ حركات الأجسام الفضائية وأُفنِّد مفهوم أينشتاين في الوقت نفسه. كل هذا مقابل خمسة وعشرين فرنكاً. وعندما رأيتُ مقالاتي منشورة في الصحيفة لم أتمكّن من قراءتها، لكنها بدتْ مؤثِّرة، والنتيجة واحدة، ولاسيما حين تكون موقَّعة بالاسم الزائف لتاجر فرو.

خلال هذه الفترة حرَّرتُ الكثير من الكتابات بأسماء مُستعارة. وحين افتُتِحَ الماخور الكبير الجديد أبوابه في بولفار إدغار-كينه حصلت على عمولة صغيرة مقابل كتابة كراريس المناسبة. بمعنى، زجاجة شمبانيا ونكاح مجّاني في إحدى الغرف المصرية. وإذا نجحنا في جلب زبون أحصل على العمولة، تماماً كما كان كيبي يحصل عليها سابقاً. وفي إحدى الأمسيات أحضرتُ فان نوردن، وكان سيُتيح لي فرصة ربح مبلغ مقابل توفير المتعة له في الطابق العلوي. زجاجة شمبانيا ونكاح مجاني. ولم ينلني شيء من الصفقة. والحقيقة هي أني اضطررتُ إلى أنْ أكتب القصة نيابة عنه لأنه لم يكن يعرف كيف يبدأ الموضوع دون ذكر نوع المكان الذي حدثت فيه. وتمرّ الأمور على هذه الوتيرة. وكنتُ أنا أُنكَحْ على أعلى مستوى.

أما أسوأ عمل على الإطلاق فكان دراسة تكفّلت بكتابتها لعالم نفسي أصمّ وأبكم. وهي رسالة في موضوع العناية بالأطفال المُعاقين. وامتلأ رأسي بالعاهات والمشابك ومناضد العمل ونظريات الهواء الطلق، واستغرقَ هذا العمل مدة متقطّعة مجموعها ستة أسابيع، ثم، ما زاد الطين بلّة، كان يجب أنْ أراجع ذلك الشيء اللعين. كانت مكتوبة بالفرنسية، بتلك الفرنسية التي لم أرَ أو أسمع مثيلاً لها في حياتي. لكنها ـِ فَّرتْ لي يومياً إفطاراً شهياً، إفطاراً أميركياً، مع عصير برتقال، وطحين الشوفان، والكريما، وقهوة، وأحياناً لحم خنزير وبيض على سبيل التغيير. كانت الفترة الوحيدة من أيامي في باريس التي انغمست أثناءها في تناول إفطار محترم، والفضل للأطفال المُعاقين في روكا واي بيتش، والحي الشرقي وجميع الخلجان الصغيرة والمنافذ البحرية التي تحدّ هذه النقاط المترعة بالألم.

وذات يوم قابلتُ مصوّراً، كان يجمع تشكيلة من الصور من الملاهي القذرة الباريسية لبعض المنحطّين في ميونيخ. أراد أنْ يعرف إنْ كنتُ أرغبُ في أنْ يُصورني بدون سروال داخلي، وبأوضاع أخرى. وفكّرتُ في أولئك الأقزام الصِغار الهزليين الذين يبدون كخدم الفنادق وصبيّة البريد الذي نراهم أحياناً على البطاقات البريدية الإباحيّة التي تُعرَض في واجهات المكتبات الصغيرة، بالأشباح الغامضة التي تسكن شارع دو لا لون وزوايا أخرى من المدينة التي تفوح منها الروائح الكريهة. لم تعجبني كثيراً فكرة عرض تضاريسي الطبيعية برفقة تلك النخبة. ولكن بما أنهم أكّدوا لي أنَّ الصور هي من أجل مجموعة خاصة مُحاطة بسريّة تامة، وبما أنها ستُرسل إلى ميونيخ، وافقت. فحين لا تكون في مسقط رأسك

يمكنكَ أنْ تسمح لنفسك بقليل من الحرية، ولاسيما من أجل دافع وجيه مثل كسب قوت يومك. فأولاً، لم أكنْ مُثيراً للتقزّز كثيراً، حين أفكّر في الأمر، حتى وأنا في نيويورك. لقد مرّتْ عليَّ ليالٍ كنتُ أغرقُ خلالها في اليأس هناك، إلى درجة أني كنتُ أخرج إلى حيّنا نفسه وأستجدي.

لم نكن نذهب إلى أماكن الآثار المعروفة لدى السياح، بل إلى المرابع الصغيرة الحقيرة حيث الجو العام أكثر ملاءمة، إلى حيث يمكننا أنْ نلعب لعبة ورق بعد الظهر قبل التوجّه إلى العمل. كان ذلك المصوِّر رفيقاً جيداً، ويعرف المدينة كلها ولاسيما الأسوار، وكثيراً ما حدّثني عن غوته، وأيام هوهنشتاوفن، وعن مذبحة اليهود أثناء تفشّي الطاعون الأسود. مواضيع ممتعة ودائماً تتعلق بطريقة غامضة بأشياء كان يقوم بها. ولديه أفكار تصلح سيناريوهات أيضاً، أفكار مذهلة، ولكن لا أحد كانت لديه الشجاعة لتنفيذها. كان مشهد حصان مشطور ومفتوح كباب حانة يمكن أنْ يُلهمه بالحديث عن دانتي أو ليوناردو دافنتشي أو رامبرانت، ومن المسلخ في الفيليت قد يقفز إلى سيارة الأجرة ويدفعني إلى متحف التروكاديرو لكي يلفت انتباهي إلى جمجمة أو مومياء كانت قد سحرته. وقمنا بمسح المناطق الإدارية الخامسة والثالثة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين كلها. وكانت أماكن استراحتنا المُفضّلة عبارة عن بقاع صغيرة كئيبة مثل الساحة الوطنية وساحة أشجار الحور، وساحة سور الخندق، وساحة بول فرلين. وأغلب هذه الأماكن كان مألوفاً لدي مُسبقاً، أما الآن فبتُّ أراها جميعاً بشكلٍ مختلف على ضوء النكهة النادرة الحديثة. فإذا تصادفَ ومررتُ في هذه الأيام من شارع قصر النبلاء، مثلاً، وشممتُ عَبَق النتانة القويّ المنبعث من أسرَّة المستشفى التي تكتنف جَنَبات

الدائرة الثالثة عشرة، فسوف تنتفخ بلا شك فتحتا أنفي بهجةً، لأنَّ ذلك سيكون عبير رحلاتنا الخيالية خلال مشرحة أوروبا التي أوجدها الطاعون الأسود، ممزوجاً بعبق البول الجاف والفورمالدهايد.

من خلاله تعرَّفتُ على شخصٍ ذي تفكير روحاني اسمه كروغر، وكان نحّاتاً ورسّاماً. وأولعتُ به لسببٍ ما، فقد استحالَ عليَّ الإفلات منه بعدما اكتشف أني راغبٌ في الاستماع إلى أفكاره " السرّية ". ففي هذا العالم أناسٌ يبدو أنَّ لكلمة " سرّي " فعل دم الآلهة المقدَّس عليهم، ككلمة " راسخ " بالنسبة للهر بيبر كورن في رواية " الجبل المسحور ". كان كروغر أحد أولئك القديسين الذين أصابهم خلل، فهو مازوشي، نموذج شرجي قانونه الشك والاستقامة والضمير الحي، في يوم عطلته يضرب رجلاً ويجعله يبتلع أسنانه دون أنْ يهتز له طرف. كان يعتقد أني من النضج بحيث أستحقُ أنْ أنتقلُ إلى مستوى آخر، " مستوى آخر " كما كان يقول. وكنتُ مستعداً للانتقال إلى أي مستوى يُقرّره، شريطة ألاّ يضطرني إلى الإقلال من الأكل والشرب. وقد هرسَ رأسي بحديثه عن "الروح الخيطيّة" و "الجسد السببي" و"الاستئصال" و"الأوبانيشاد، وبلوتونيوس، وكريشنا مورتي " و " كساء الروح القَدَري " و " الوعي النيرفاني "، وكل ذلك الهراء الذي يهبُّ من الشرق كاجتياح الوباء. أحياناً كان يدخل في غيبوبة ويتكلّم عن تجسّداته السابقة، أو هكذا كان يتخيّلها، على الأقلّ. أو يسرد أحلامه التي، حسب ما رأيتُ، كانت تافهة تماماً ومبتذلة، ولا تكاد تستحق ولا حتى التفافة واحدة من أحد أنصار فرويد، أما هو فرأى أنها تنطوي على عدد كبير من الأعاجيب السرّية في أعماقها، وكان عليَّ أنْ أعينُه على فك ألغازها، وكشف عن دخيلته، كمعطف اهترأ زَغَبه.

وشيئاً فشيئاً كسبتُ ثقته. شققتُ طريقي إلى قلبه. سيطرتُ عليه إلى درجة أنّه بات يركض خلفي، في الشارع، ليسألني إنْ كان يستطيع أنْ يقرضني بضعة فرنكات. أراد أنْ يتّحد معي ليعايش عملية الانتقال إلى المستوى الأعلى. وتصرّفتُ كإجاصة تنضج على الشجرة. وكانت لي نكسات أحياناً فأعترفُ بحاجتي إلى مزيدٍ من القوت الأرضي - إلى زيارة إلى سفينكس أو شارع سان أبولين حيث علِمتُ أنه كان يذهب في لحظات ضعف حين تصبح متطلبات الجسد فائقة الإلحاح.

كرسّامٍ كان لا شيء، وكنحّات كان أقلّ من لا شيء. كان ربّ أسرة ناجحاً، وأنا أشهد بذلك، ورجل اقتصاد حتى أخمصه. لا شيء يُهدَرْ، ولا حتى الورقة التي يلف بها اللحم. في أمسيات أيام الجمعة يفتح باب مرسمه لرفاقه من الفنانين، حيث يدور الكثير من الشراب والشطائر اللذيذة، فإذا حدثَ وتخلّف عنهم أي شيء آتي في اليوم التالي وأُلملمه.

وخلفَ بال بولييه كان هناك مرسم آخر تعوّدتُ على التردُّد عليه - هو مرسم مارك سويفت - وإذا لم نقل أنه عبقري فهذا الأيرلندي الساخر حتماً من غريبي الأطوار. كان يتّخذ من إحدى اليهوديات موديلاً وكان يُعاشرها قبلها بسنين عديدة، أما الآن فقد سئمها وأخذ يبحث عن ذريعة للتخلُّص منها. ولكن بما أنه استولى على المهر الذي جَلَبَته معها، احتارَ كيف يتحرَّر منها دون أنْ يُعطينا تعويضاً. وكان أسهل حل أنْ يُثير عداوتها بحيث تختار الموت جوعاً على أنْ تتحمَّل وحشيته.

كانت مخلوقة رائعة، خليلته تلك، وأسوأ ما كان يمكن لأي مخلوق أنْ يقوله ضدها هو أنها فَقَدَتْ شكلها الحَسَن. ثم إنها لم تعُدْ قادرة على إعالته قط. وهي بدورها رسّامة، وكان يُقال، بين العارفين، إنَّ موهبتها

تفوقُ موهبته بمراحل. وعلى الرغم من كل محاولاته ليُنغّص حياتها كانت عادلة، فلم تسمح لأي كان أنْ يقول إنه ليس رسّاماً عظيماً. وكانت تقول إنَّ عبقريته بالذات هي سبب كونه إنساناً عفِناً. ولا ترى أياً من رسومها مُعلَّقة على الجدران - كلها رسومه هو. رسومها كانت محشورة في المطبخ. وحدثَ مرة في حضورها أنْ ألحّ أحدهم على مشاهدة أعمالها هي. وكانت النتيجة مؤلمة. قال سويفت " أترى هذا الشكل "، مُشيراً إلى إحدى لوحاتها بقدمه الكبيرة، " الرجل الواقف عند مدخل الباب ينوي أنْ يخرج ليتبوَّل. وهو لن يتمكَّن من العودة لأنَّ رأسه موضوع بشكلٍ خطأ... والآن إليك هذه العارية هناك... كانت جيدة تماماً إلى أنْ بدأتُ برسم الكسّ. لا أدري بماذا كانت تفكّر، إلا أنها جَعَلَته كبيراً إلى درجة أنَّ الفرشاة انزلقتْ فيه ولم تستطع أنْ تخرجها بعد ذلك "

ولكي يُرينا كيف يجب أنْ ترسم العارية يسحب لوحة كبيرة كان قد انتهى من رسمها حديثاً: كانت صورتها هي؛ لوحة تمثِّل انتقاماً ألهمه بها إحساس بالذنب. كان عمل رجل مجنون - شرير، حقير، خبيث، خبيث، لامع. وينتابك شعور بأنه تلصَّصَ عليها من ثقب الباب، بأنه فاجأها في لحظة شرود، وهي تعبث بأنفها أو هي تهرش مؤخرتها. كانت تجلس هناك على مقعدها في غرفة تفتقر إلى التهوية، غرفة هائلة الحجم ليس فيها نافذة واحدة، ولعلّها كانت في السابق فَلَقَة أمامية من غدّة صنوبرية. وخلفها امتدَّ دَرَج سلّم متعرِّج يؤدي إلى الشرفة، غطّى بسجادة ذات لون أخضر مصفرّ، لون أخضر لا ينبثق إلا من كونٍ ذوى. أما أبرز ما فيها فردفاها، المنكفئان والمملوءان بالجَرَب، وقد بدتْ كأنها رَفَعَتْ مؤخرتها قليلاً عن الصوفا، كأنما لتضرط بصوتٍ عال. وقد رسمَ

لها وجهها بأسلوبٍ مثالي: بدا حلواً، بريئاً، تقيّاً، كقرص السعال. لكنَّ صدرها كان منتفخاً بغاز المجاري، وكأنها تسبحُ في بحرٍ حيضيّ، كجنينٍ متضخّم يحملُ نظرة ملاك بلهاء، حلوة كالشراب.

مع ذلك لم يكن المرء يملك إلا أنْ يُعجَبْ به. كان شغّيلاً لا يملُّ؛ رجلاً لا يحملُ في رأسه إلا فكرة الرسم. وكان فوق ذلك ماكراً كوَشَق. وهو الذي أدْخَلَ في خَلَدي أنْ أُنمّي صداقتي مع فيلمور، وهو شاب يعمل في السلك الدبلوماسي اهتدى إلى الفريق الصغير المُحيط بكروغر وسويفت. قال: " اطلبْ منه أنْ يمدَّ لكَ يدَ المساعدة؛ إنه لا يعرف ماذا يفعل بماله "

حين يُنفِق المرء ماله على نفسه، حين يقضي وقتاً طيّباً بفضل ماله، يقول الناس: " إنه لا يدري ماذا يفعل بماله ". أما أنا فلا أرى أنها أفضل طريقة لإنفاق المال. ولا يمكن أنْ يُقال عن أناسٍ كهؤلاء أنهم كُرماء أو نتنون. هم يطرحون أموالهم للتداول - هذا هو المبدأ الأساسي. وكان فيلمور يعلم أنَّ أيامه في فرنسا قد أضحتْ معدودة، وصمَّمَ على الاستمتاع بها. ولما كان الإنسان يستمتع دائماً بشكلٍ أفضل بصُحبة صديق فمن الطبيعي أنْ يلتفت إلى صديق مثلي، لديه الكثير من الوقت ليتصرَّف به، ليوفِّر له الصُحبة التي يحتاجها. وقال الناس عنه إنه مُمل.

وأعتقدُ أنَّ هذا صحيح، ولكن عندما تكون بأمسِّ الحاجة إلى الطعام فإنَّ في إمكانك أنْ تتحمَّل أشياء أسوأ من كونك ملولاً. وعلى أي حال، وعلى الرغم من أنه كان لا يكفّ عن الكلام، وغالباً ما كان كلامه يدور حول نفسه أو عن المؤلفين المُعجَب بهم بخضوع - بعصافير أمثال أناطول فرانس وجوزيف كونراد - إلاّ أنه أضفى السرور على أمسياتي بطُرُقٍ أخرى. كان يحب الرقص، والخمر الجيدة والنساء.

وأمكنني أنْ أغفر له إعجابه ببايرون وفيكتور هوغو أيضاً، فلم يكن قد مضى على تخرّجه من الجامعة إلا بضعة أعوام، وكان أمامه الكثير من الوقت ليشفى من مثل تلك الأذواق. أما ما أحببناه فيه فهو حسّ المغامرة.

يمكنني أنْ أقول إنَّ معرفتنا قد تطوَّرَتْ إلى الأفضل، أضحتْ أكثر حميمية، وذلك بعد حادثة وقعَتْ أثناء إقامتي القصيرة مع كروغر. حدثَ ذلك بعد وصول كولينز، وهو بحّار تعرَّفَ عليه فيلمور في طريق قدومه من أميركا. كنا نحن الثلاثة نتقابل بانتظام على مصطبة مقهى الروتوند قبل تناول طعام العشاء. وكان شرابنا الدائم هو البرنو، الذي كان يجعل كولينز في مزاجٍ مرِحٍ، ويشكّلُ قاعدةً لبدء شرب النبيذ والبيرة، و " اللذائذ "، الخ، التي يجب ازدرادها جميعاً بعد ذلك. وطوال فترة مكوث كولينز في باريس عشتُ كدوقٍ، لا آكل إلا لحم الدجاج، ولا أشرب إلا الخمور الجيدة، بالإضافة إلى الفاكهة التي لم أكنْ حتى سمعت بها من قبل. ولو استمرَّ ذلك النظام شهراً آخر لكان لِزاماً عليّ أنْ أذهبَ إلى بادن-بادن أو فيشي أو ايه-ليه بين. في تلك الأثناء كان كروغر يؤويني في مرسمه. وصُرتُ مصدر إزعاجٍ لأني لم أكنْ أظهر قبل الساعة الثالثة صباحاً، وكان من الصعب انتزاعيَ من السرير قبل الظهيرة. ولم تتفوَّه كروغر صراحة بكلمة تأنيب لكنَّ مظهره كان يدل بما يكفي من الوضوح إلى أنْ أتحوَّل إلى متبطِّل مُتطفِّل.

في أحد الأيام وقعَتُ مريضاً. فقد أخذَ النظام الغذائي الغني يتركُ أثره عليّ. لا أدري ماذا ألمَّ بي حتى عجزتُ عن مغادرة الفراش. لقد فقدتُ تماماً قدرتي على الاحتمال ومعها ما كنت أملك من شجاعة،

واضطرَّ كروغر إلى الاعتناء بي، وإعداد الحساء لي، وما إلى ذلك. كانت فترة تجربة بالنسبة إليه، وعلى الأخصّ لأنه كان يوشك أنْ يُقيمَ معرِضاً هاماً في مرسمه، وهو عرضٌ خاصٌ لبعض الخبراء من الأغنياء الذين كان ينتظر منهم بعض المساعدة. كان السرير النقّال الذي أستلقي عليه موجوداً في المرسم، ولا وجود لغرفة أخرى أنتقلُ إليها.

في صباح يوم إقامة المعرِض استيقظَ كروغر وهو حانق جداً. ولو كان في استطاعتي أنْ أقف على قَدَميَّ أعلمُ أنه كان سيضربني ويرميني إلى الخارج. لكنني كنتُ مُسجّى، وضعيفاً كقطة. وحاولَ أنْ يستدرجني لأغادر الفراش، مُبيّتاً أنْ يوصد عليَّ باب المطبخ عند وصول الزوار. وأدركتُ أني أُسبِّبُ له فوضى عظيمة. إذ لا يمكن للناس أنْ يتأملوا اللوحات والمنحوتات بحماس حين يكون هناك رجلٌ يحتضر أمام عيونهم. ولاشك في أنَّ كروغر كان يعتقد وبحقّ أني أوشك أنْ أموت، وكذا أنا. ولذلك، وعلى الرغم من شعوري بالذنب، لم أستطع أنْ أحشد أي قدرٍ من الحماس حين اقترح استدعاء الإسعاف لنقلي إلى المستشفى الأميركي. لكنني رغبتُ في أنْ أموت هناك، بكل ارتياح، وأنا وسط المرسم؛ لم أرغب في أنْ يستحثني على النهوض لكي أذهب وأجد لنفسي مكاناً آخر أموت فيه. لم يكن يهمّني أين أموت، حقاً، ما دمتُ لن أضطر إلى النهوض.

حين سمعَ كروغر كلامي هذا أُصيبَ بالهَلَع؛ فأسوأ من وجود رجل مريض عند وصول الزوار هو وجود رجل ميّتْ. وكان ذلك جديراً بتدمير آماله تدميراً كاملاً، على ضآلتها، وهو طبعاً لم يُصرّح بذلك لكنني لاحظتُ من توتّره أنَّ هذا ما يُقلقه، ودفعني إلى أنْ أقفَ موقف المُعاند، فرفضتُ كل شيء.

أخيراً تصاعد غضبه إلى ذروته، حتى إنه، على الرغم من احتجاجي، بدأ يُلبِسني ملابسي، وكنتُ من شدّة الضعف بحيث لا أبدي أي مقاومة. وأقصى ما استطعتُ أنْ أفعله كان أنْ أُغمغم بوهن: " آه يا ابن الحرام! "، ومع أنَّ الجو السائد في الخارج كان دافئاً إلا أني كنتُ أرتجفُ ككلب. وبعد أنْ وضعَ عليَّ ملابسي، رمى معطفاً على كتفيَّ وانسلَّ خارجاً ليُجري اتّصالاً هاتفياً، ورحتُ أرددُ " لا أريد أنْ أذهب! لا أريدُ أنْ أذهب! "، لكنه وببساطة صفعَ الباب في وجهي. وبعد بضع دقائق، ودون أنْ يُخاطبني بكلمة واحدة، شغلَ نفسه في المرسم باستعدادات الدقيقة الأخيرة. وبعد قليل سمعَ رنين جرس الباب. كان فيلمور. قال إنَّ كولينز ينتظر في الأسفل.

تعاونَ الاثنان، فيلمور وكوغر، على حملي وأوقفاني على قَدَميّ. وجرّاني إلى المصعد، وهدأ غضب كروغر وقال " إنَّ هذا لصالحك. ثم إنَّ وجودك سيضرُّ بي. أنتَ تعلم كم ناضلتُ طوال تلك السنين. يجب أنْ تفكِّر فيَّ أيضاً ". وأوشكتْ الدموع أنْ تطفَر من عينيه.

على الرغم من إحساسي ببؤسي وقلّة حيلتي فإنَّ كلماته كادتْ ترسم الابتسامة على شفتي. كان أكبر سناً مني بكثير، وعلى الرغم من أنه كان رساماً عَفِناً، فناناً عفِناً على طول الخط، فقد كان يستحق فترة استراحة - ولو مرة في حياته.

غمغمتُ: " إنني لا أتحامل عليك وأتفهَّم وضعك "، فأجاب " أنتَ تعلم أني أحببتك دائماً، وحين تتحسَّن حالك يمكنكَ أنْ تعود... ويمكنكَ أنْ تمكث قدر ما تشاء "

" طبعاً أعلمُ هذا... سوف أكفّ عن النقيق ". ونجحتُ في الخروج.

حين رأيتُ كولينز في الأسفل استعدَّتُ شيئاً من معنوياتي. فإذا كان هناك مَنْ يتمتع بحيوية فائقة، والثروة، والمرح، والشهامة، فهو. لقد رفعني بيديه كأني لعبة ووضعني على مقعد السيارة - وبرفق أيضاً، وقد استحسنتُ منه ذلك بعد ما واجهته من أسلوب كروغر الخشن في المعاملة.

حين ذهبنا إلى الفندق - الفندق الذي كان كولينز ينزل فيه - دارت مناقشة قصيرة مع المالك، كنتُ أثناءها مُمدَّداً في الخارج على أريكة في غرفة المكتب. واستطعتُ سماع كولينز وهو يقول للمالك إنَّ مرضَه ليس خطيراً... إنها مجرد وعكة صحية بسيطة... سيكون على ما يرام خلال أيام قليلة. وشاهدته يضعُ ورقة نقدية متغضّنة في يد الرجل ثم استدار بسرعة ورشاقة وعاد إلى حيث كنتُ، وقال: " هيا، انهضْ، لا تجعله يعتقد أنكَ تحتضر "، ثم شدَّني لأقف على قدمي وأحاطني بذراعٍ واحدة، ورافقني إلى المصعد.

لا تجعله يظن أنكَ تحتضر! . كان جلياً أنَّ من قِلّة الذوق أنْ يموت المرء بين أيدي الناس. على المرء أنْ يموت بين أحضان أسرته سراً، إذا صحَّ التعبير. كانت كلماته مُشجّعة. وبدأتُ أرى الأمر على أنه مزحة سمجة. وفي الطابق العلوي، وبعد أنْ أوصدا الباب، نزعا عني ملابسي ودسّاني بين أغطية السرير، وقال لي كولينز: " لا يمكن أنْ تموت الآن، اللعنة! سوف توقعني في ورطة... ثم، ماذا ألمَّ بك بحق الجحيم؟ ألا تحتمل العيشَ الرغيد؟ ارفعْ رأسك عالياً! سوف تعود إلى تناول الشريحة من البيت بعد يوم أو يومين. وتظن أنكَ مريض! يا إلهي، انتظرِ حتى تُصاب بالسفلس! ذاك مرضٌ سيجعلك تقلق حقاً... "، وبدأ يحكي، بطريقةٍ

فكِهة، رحلته إلى النهر الأصفر، وكيف أخذ شعره يسقط وأسنانه تتعفّن وتهترئ، وفي حالة الضعف التي كنتُ أمرُّ بها كان لقصّته التي يُلفّقها تأثير مُهدّئ غير عادي. أبعدتني عن نفسي تماماً. شجاع ذلك الفتى. ربما كان يُضيفُ ويُغالي فيها قليلاً، لأجلي، لكنني لم أكنْ أُنصتُ في تلك الأثناء بحسٍ نقديّ. كنتُ مؤلفاً فقط من آذان وعيون. رأيتُ مصب النهر الأصفر القذر، والأنوار تشمخ فوق هانكو، وبحراً من الوجوه الصفراء، وزوارق السامبان تندفع خلال المضائق والمنحدرات النهرية تلتهبُ بنفث التنين الكبريتي. ويا لها من قصة! الحمّالون البائسون الذين يحتشدون حول القارب كل يوم، ليلتقطوا النفايات المقذوفة إلى اليمّ، وتوم سلاتري ينهض عن فراش الموت ليُلقي نظرة أخيرة على أضواء هانكو، وذاك الأوراسي الجميل الذي يستلقي في غرفة مظلمة وقد ملأ شرايينه بالسُمّ، ورتابة السترات الزرقاء والوجوه الصفراء، وملايين ملايين منهم غائرون من شدّة الجوع، متهرئون من المرض، يقتاتون على الجرذان والكلاب والجذور، يمضغون العشب عن الأرض ويلتهمون أطفالهم. كان من الصعب تصوُّر أنّ جسد ذلك الرجل كان ذات يوم كتلة من القروح، وأنه قد نُبِذَ كمجذوم، كان صوته هادئاً جداً ورقيقاً، وكأنّ روحه قد تطهّرتْ جراء كل الآلام التي تحملها. وبينما هو يمدّ يده ليتناول مشروبه أخذت تعبيرات وجهه ترقّ شيئاً فشيئاً، بل إنّ كلماته بدتْ كأنها تداعبني. وطوال الوقت كانت الصين تُخيِّمُ علينا كالقدر المحتوم نفسه؛ صينٌ تتعفّن وتتهرأ وتتهدّم حتى تصبح تراباً كديناصور هائل، لكنها تحتفظُ حتى النهاية ببريق، بسحر، بغموض، بقسوة أساطيرها الجليلة.

لم أعُدْ أستطيع متابعة قصته، فقد ارتدً عقلي إلى الرابع من تموز حين ابتعتُ أول مجموعة مفرقعات ومعها قطع طويلة من خشب الصوفان السريعة الانكسار، الخشب الذي تنفخ عليه لتحصل على لهب أحمر جيد، الخشب الذي تعلَقْ رائحته بأصابعك أياماً طويلة وتجعلك تحلم بأشياء غريبة. في الرابع من تموز تُشعشع الشوارع بالورق الأحمر اللمّاع المزيَّن بأشكال سوداء وذهبية والمفرقعات الذهبية التي لها أغرب الالتواءات، لفائف ولفائف كثيرة في كل مكان، وكلها مُعلّقة معاً من خيوط أمعائها الرفيعة، المسطّحة الصغيرة، ولها لون العقول الإنسانية. وطوال اليوم تشمُّ رائحة البارود وخشب الصوفان وغبار الذهب تنتقلُ من ورق اللف الأحمر اللماع لتعلق بأصابعك. والصين لا تخطر على ذهن المرء أبداً، لكنها متواجدة دائماً على رؤوس أصابعك وتخرِّش أنفك، وبعد ذلك بوقتٍ طويل، بعد أنْ تنسى رائحة المفرقعات الأصلية، تستيقظ ذات يوم وورقة ذهب تكاد تخنقك وقطعُ صغيرة من خشب الصوفان تُعيد عبقها الحريف ويمنحك ورق اللفّ الأحمر اللامع شعوراً بالحنين إلى أناس وتربة لم تعرفهما دهرك، لكنه موجود في دمك، موجود في دمك بشكلٍ غامض، كالإحساس بالزمان أو بالفراغ، هو قيمة هائلة متواصلة تعود إليها أكثر فأكثر كلما تقدَّمت بك العمر وتحاول أنْ تقبض عليها بعقلك، ولكن دون فائدة، لأنه في كل ما هو صيني هناك حكمة وغموض وتعجز عن الإمساك به بيديك أو بعقلك، بل عليك أنْ تتركه يزول، تدعه يلتصق بأصابعك، تدعه يرشح ببطء إلى شرايينك.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، وإبّان تسلُّمي دعوة مُلحّة من كولينز الذي كان قد عاد إلى الهافر، استقللنا أنا وفيلمور القطار في صباح أحد

الأيام، استعداداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معه. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أخرجَ فيها من باريس منذ وصولي إليها. كنا في مزاجٍ رائع، نحتسي الآنجو طوال الطريق إلى الشاطئ، وكان كولينز قد أعطانا عنوان الحانة التي سنتقابل فيها، وهي مكان يُدعى حانة جيمي، من المفروض أنْ يعرفها كل مَنْ يقطن الهافر.

استقللنا عربة مكشوفة من المحطة، وانطلقنا بخطوة رشيقة لنلحق موعدنا، وكان لا يزال معنا نصف زجاجة من الآنجو لنسفحها في طريقنا. بدا الهافر بهيجاً، مُشمساً، والهواء منعشاً، ممزوجاً بتلك النكهة الملحيّة الحادة القوية التي كادت تجعلني أحنّ في كل مكان، وأطراف من ساحات رحبة، متفرّقة، براّقة، ومقاهٍ عالية الأسقف كتلك التي يراها المرء في الضواحي. وحصلنا في الحال على انطباعٍ رائع، كانت المدينة تستقبلنا بذراعين مفتوحين.

قبل أنْ نصل إلى الحانة شاهدنا كولينز يقترب بخُطى رشيقة قاصداً المحطة، بلا شك ومتأخراً قليلاً كعادته. وسرعان ما اقترح فيلمور شرب البرنو، وتبادلنا جميعاً الربتْ على الأكتاف ونحن نضحك ونبصق، وكنا قد سكرنا أصلاً من أشعة الشمس وهواء البحر المملح. في أول الأمر بدا كولينز مُتردداً بشأنْ البرنو. ثم أخبرنا أنه أُصيبَ إصابةً خفيفة بالسيلان. لا شيء يدعو إلى القلق - هو بتأثير " الإجهاد " في الغالب. وأرانا زجاجة كان يضعها في جيبه - وتُدعى venetienne إنْ لم تخُني ذاكرتي. وهي علاج البحارة ضد السيلان.

توقفنا في أحد المطاعم لتناول وجبة خفيفة قبل أنْ نلجأ إلى حانة جيمي. كانت حانة فسيحة، في سقفها عوارض مائلة وموائد تنوء بما

عليها من طعام. وشربنا بإفراط من الخمور التي أوصى كولينز بطلبها. ثم جلسنا على المصطبة وشربنا القهوة ومشروبات مُعطّرة. كان كولينز يتحدث عن بارون دو شارلو، وهو رجل يعيشُ كما يهوى تماماً، كما قال. ويقطن الهافر منذ ما يُقارب العام ويعيش من النقود التي جمعها أيام التهريب. كانت أذواقه بسيطة، طعام، شراب، نساء، كتب. وحمّام خاص! وهذا ما يصرّ عليه.

حين وصلنا حانة جيمي كنا لا نزال نتحدث عن البارون دو شارلو. كان المساء أخذ يقترب وقد بدأ المكان يمتلئ. كان جيمي موجوداً هناك، بوجهه الأحمر كالشوندر، وإلى جانبه جلستْ زوجته، وهي امرأة فرنسية رائعة وممتلئة لها عينان براقتان. واحتفى الجميع بنا. وُضِعَتْ كؤوس البرنو أمامنا من جديد، وكان الحاكي يزعق، والناس يغمغمون بالإنكليزية والفرنسية والهولندية والنرويجية والأسبانية، وجيمي وزوجته، وقد بدا كلٌ منهما في منتهى الانتعاش والنشاط، يتبادلان الصفعات العابثة والقُبل بودّ ويرفعان الأنخاب ويقرعان الكؤوس - ومع كل ذلك الهرج والمَرَج تنتابكَ رغبة في خلع ملابسك وأداء رقصة الحرب. والنساء يتجمهرن عند البار كحشد من الذباب. وإذا كنا أصدقاء كولينز يلبسون هكذا. ولم أكنْ أحمل سوآً واحداً في جيبي، وهذا لا يهمّ، بالطبع، ما دمت ضيف شرف. ومع ذلك شعرتُ بشيءٍ من الحَرَج بوجود عاهرتين رائعتي الجمال تتعلّقان بذراعي، تنتظران أنْ أطلب لهما شيئاً. وقررتُ أنْ أقبض على الثور من قرنيه. لم يعُد في الإمكان التمييز بين المشارب التي تُقدَّم على حساب المحل وتلك التي عليكَ أنْ تدفع ثمنها. وكان عليَّ أنْ أتصرَّف كرجل محترم، وإنْ لم يكن في جيبي سوٌ واحد.

كانت إيفيت - زوجة جيمي - غايةً في الكرم والمودّة معنا. كانت تعد وليمة صغيرة على شرفنا، وسوف يستغرق تحضيرها بعض الوقت. وعلينا ألاّ نُسرف في الشرب - لقد أرادتنا أنْ نستمتع بتناول الطعام. الحاكي يزأرُ كالوحش ونهضَ فيلمور ليُراقصَ خُلاسية جميلة ترتدي ثوباً مخملياً ضيّقاً يكشف عن مفاتنها كلها. وانزلقَ كولينز وجلسَ إلى جواري، وقال " ستدعوها المدام إلى مائدة العشاء، إنْ كنتَ ترغب في الحصول عليها ". كانت عاهرة سابقة تملك منزلاً جميلاً في ضواحي المدينة، وهي الآن خليلة قبطان بحري، وهو غائب وليس هناك ما يُخشى منه، ثم أضاف " إذا أعجبتها فسوف تدعوك لتبقى معها "

كان ذلك كافياً بالنسبة إليّ. وفي الحال استدرتُ إلى مارسيل وبدأتُ أُمطرها بالمديح. ووقفنا عند زاوية البار، نتظاهر بالرقص، ونحتك معاً بحركة مسعورة. وأرسلَ جيمي لي غمزة حصان كبيرة وهزَّ رأسه مُستحسناً. كانت عاهرة شبقة، تلك المارسيل، ولطيفة في الوقت نفسه. وما لبثتُ أنْ تخلّصَتْ من الفتاة الأخرى، كما لاحظت، وبعدها جلسنا ودار حديث طويل ووديّ قَطَعَه ويا لسوء الحظ إعلان أنَّ العشاء بات جاهزاً.

كنا عشرين شخصاً على المائدة، وجلستُ مع مارسيل على جانب واحد مقابل جيمي وزوجته. وبدأتْ الوليمة بفرقعة فلّين زجاجة الشمبانيا وسرعان ما تبعها إلقاءُ خطابات سكرى، وأثناء ذلك كنتُ ومارسيل نعبثُ معاً من تحت الطاولة، وعندما حان دوري لأقفَ وأُلقي بعض كلمات كان عليَّ أنْ أضع فوطة أمامي. كان موقفاً مؤلماً ومُثيراً في آنٍ واحد. واضطررتُ إلى اختصار خطابي كثيراً لأنَّ مارسيل كانت تُدغدغني طوال الوقت من مُلتقى فخذَيّ.

استمرَّتْ وجبة العشاء حتى قُرابة منتصف الليل، وكنتُ أتوقُ إلى قضاء الليل مع مارسيل في ذلك المنزل الجميل القائم فوق الجرف. لكنَّ الحلمَ لم يتحقَّق، فقد قرَّر كولينز أنْ يُرينا المنطقة ولم أتمكَّن من الرفض هكذا ببساطة. قال لي: " لا تقلق بشأنها، سوف تشبع من مضاجعتها قبل أنْ تغادر المكان. قُلْ لها أنْ تنتظركَ هنا حتى نعود "

أضحتْ مارسيل نكدة بعض الشيء لسماع هذا الكلام، ولكن عندما أبلغناها أنه لا زال أمامنا عدَّة أيام ابتهجت. ولدى خروجنا استوقفنا فيلمور مُمسكاً بنا من ذراعينا بمنتهى الجدّية وقال أنَّ لديه اعترافاً صغيراً يُدلي به إلينا. وبدا شاحباً وقلقاً.

قال كولينز بمرح " حسن، ماذا لديك؟ انطق! ". ولم يتمكّن فيلمور من النطق هكذا دفعة واحدة. فهمْهمَ وتنحنَحَ، وأخيراً اندفعَ قائلاً " في الواقع، حين ذهبتُ قبل قليل إلى المرحاض لاحظتُ شيئاً... "

قال كولينز بلهجة المنتصر " إذن فقد أُصِبتَ به! "، وهو يُلوِّح بزجاجة الـ venetienne ثم أضاف بحقد، " لا تذهب إلى أي طبيب فسوف يمصّون دمك، أولاد الحرام الجشعون، ولا تتوقف عن الشرب أيضاً... فكل هذا هراء. خُذْ من هذا مرتين في اليوم... رُجَّها جيداً قبل الاستعمال، واعلَمْ أنَّ لا شيء أسوأ من القلق، أتفهم؟ هيا بنا الآن، سأعطيك حقنة وبعض البرمنغنات عند عودتنا "

وهكذا انطلقنا تخوض في الليل، متّجهين صوب الشاطئ حيث كانت تنبعث الألحان الموسيقية والصيحات وتجديفات السكارى، ويتحدَّث كولينز طوال الوقت بهدوء عن هذا الشيء وذاك، عن فتى وقعَ في غرامه، وعن الوقت الشيطاني الذي استغرقه ليخرج من الورطة حين

علِمَ أبواه الأمـر. ثم عـادَ ثانيـة إلى الحـديث عن بارون دو شـارلو ومنه انتـقل إلى كـورتز الذي صـعـدَ إلى أعـالي النهـر وضـاع هناك. وهذا موضوعه المُفضَّل. كنتُ أحبُ طريقة كولينز في التحرُّك أمام هذه الخلفيّة الأدبية بشكلٍ مستمر، وكأنه مليونير لا يغادرُ سيارته الرولز رويس مطلقاً. بالنسبة إليه لم يكن هناك وجود لعالم وسيط بين الواقع والفِكر. وحين دخلنا الماخور في الكيه فولتير، وبعد أنْ ارتمى على الديوان ورن الجرس طالباً حضور الفتيات والمشروبات، كان لا يزال يسرد قصته عن النهر وكورتز، ولم تتوقف استطراداته إلا بعد أنْ تقلَّبت الفتيات معه على السرير وحشَتْ فمه بالقُبَلْ. ثم، وكأنه أدرك فجأةً أين هو، التَفَتَ إلى الأم العجوز التي تُدير المنزل وبدأ يُحدّثها بكلامٍ مُنمّق عن صديقيه اللذين جاءا من باريس خصوصاً لزيارة المربع. وكان في الغرفة عدد من الفتيات، جميعهن عاريات ومتعة للنظر، يجب أنْ أعترفَ بذلك. كنَّ يقفزن كالعصافير في حين حاولنا نحن الثلاثة أنْ نُدبِّرَ مضاجعة الجَدَّة. وأخيراً استأذنت هذه الأخيرة وطَلبَتْ منا أنْ نتصرَّف وكأننا في بيوتنا، وكانت قد استحوذتْ على اهتمامي الكامل؛ فقد كانت غاية في الظرف واللطف، والرقة والعطف، وشو أكابر! ولو أنها كانت أصغر سناً بقليل لقدَّمتُ لها عروضي، وطبعاً ما كان ليخطر في بالك أننا كنا في ما يُسمّى " بؤرة رذيلة ".

على أي حال، مكثنا هناك ساعة أو نحوها، ولما كنتُ الوحيد الذي استمتعَ بامتيازات المحل، بقيَ كل من كولينز وفيلمور في الطابق السفلي يُثرثران مع الفتيات. ولدى عودتي رأيتهما متمددان معاً على السرير، والفتيات يُشكّلن نصف دائرة حول السرير وهنَّ يُغنين بأجمل

الأصوات الجماعية الملائكية أغنية " ورود في بيكاردي ". وعندما غادرنا المنزل شعرنا بانقباضٍ عاطفي - ولاسيما فيلمور. وفي الحال قادنا كولينز إلى مربعٍ ضاجٍ مزدحمٍ بالبحارة السكارى الذين يقضون إجازتهم على الشاطئ، وجلسنا هناك بعض الوقت نستمتع بهَرَج الشاذين جنسياً الذي كان في أوجه. وفي طريق العودة اضطررنا إلى المرور من المنطقة الحمراء حيث المزيد من الجدات اللائي يلفعن أعناقهنّ بالشالات وهن جالسات على عتبات الأبواب يلوّحنَ بالمراوح طلباً للبرودة، ويومئن بدماثة للمارة. وكلّهن من الأرواح المُبهِجة للنظر والرقيقة، وكأنهنّ يحرسن داراً للحضانة. وكانت جماعات صغيرة من البحارة تشقُّ طريقها متهادية وتندفعُ مع كثيرٍ من الضجيج لتلجَ المرابع المُبهرجة. الجنسُ في كل مكان: يجتاحُ كلّ شيء، كمدٍّ محاقي[٣٨] يُقوِّضُ الدعامات من تحت المدينة. وتابعنا عَبَثَنا عند حافة حوض السفن حيث يختلطُ كل شيء ويتشابكُ، ويُخيَّلُ إليك أنَّ تلك السفن، ومراكب الصيد، واليخوت والمراكب الشِراعيّة والبوارج قد جُرِفَتْ إلى الشاطئ بفعلِ عاصفةٍ عاتية.

في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة وقعَتْ أمورٌ كثيرة حتى بدا كأننا كنا موجودين في الهافر منذ شهر وأكثر. كنا نُعِدُّ للسفر في صباح يوم الاثنين الباكر، لأنه كان على فيلمور أنْ يلتحقَ بعمله. وأمضينا يوم الأحد في الشرب والصَخَب، رغم أنف السيلان. وبعد ظهيرة ذلك اليوم أسرَّ كولينز إلينا بأنه يُفكِّرُ في العودة إلى مزرعته الكبيرة في أيداهو، فلم يكن قد زار منزله منذ ثماني سنوات، وأرادَ أنْ يُلقي نظرةً على الجبال ثانيةً قبل أنْ يقومَ برحلةٍ أخرى شرقاً.

---

٣٨ - المدّ المحاقيّ : هو مدٌ تام يحدث في الربع الأول والثالث من عمر القمر .

في ذلك الحين كنا جالسين في ماخور، في انتظار مجيء إحدى الفتيات، وكان قد وَعَدَها بأنْ يُهرِّبَ لها بعض الكوكايين. وأخبَرَنا أنه سئِمَ الهافر. فهناك الكثير من الصقور يتعلَّقنَ بعنقه. ثم إنَّ زوجة جيمي عشقته وأخذتْ تنغِّصُ عليه بنوبات غيرتها. وفي كل ليلة تقريباً كان يقع فصلٌ بينهما. وقد التزمَتْ بسلوكها المُهذَّب منذ وصولنا، لكنَّ ذلك لم يدُمْ طويلاً، كما وَعَدَنا. كانت تغارُ ولاسيما من فتاةٍ روسيّة تترددُ على الحانة أحياناً عندما تسكر. وكانت مُثيرةً للمشكلات. وفوق ذلك كله كان واقعاً بصورة يائسة في حب ذلك الفتى الذي حكى لنا عنه في أول يوم. قال "يمكن لفتى أنْ يُحطِّمَ قلبك، يا الله ما أجمله! وما أقساه!". وكان لابد لنا من أنْ نضحك على ذلك. فقد بدا مُنافياً للطبيعة والعقل. لكنَّ كولينز كان جاداً.

عند نحو منتصف ليلة الأحد انسحبتُ مع فيلمور، وكانوا قد خصّصوا لنا غرفةً في الطابق العِلوي من الحانة. كانت شديدة الحرارة والرطوبة كالجحيم، ولا تدخلها نَسمة هواء. وكانت تتناهى إلينا من خلال النوافذ صيحاتهم آتية من الطابق السفلي. وبين قصف الرعود وهبّات الريح المُصاحبة للمطر التي تصفع زجاج النوافذ تناهى إلى آذاننا صوت عاصفة من نوعٍ آخر تحتدم في الأسفل في الحانة.. بدتْ قريبة جداً، ومخيفة، وتنذر بالشر المستطير، وكانت النسوة تزعقُ من أعماقها، وزجاجاتٌ تتهشَّم، وطاولات تُقلَبْ، ثم سُمِعَ ذلك الصوت المألوف المُقزِّز للنفس الذي يصدر عن الجسم الإنساني حين يرتطمُ بالأرض.

عند نحو الساعة السادسة أطلَّ كولينز برأسه من الباب. كان وجهه مُضمَّداً كله وإحدى ذراعيه مُعلّقة بحمّالة وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه.

قال " كما قلتَ تماماً؛ لقد فقدَتْ أعصابها في الليلة الفائتة. أعتقدُ أنكَ سمعتَ الجَلَبَة "

ارتدينا ملابسنا على عجل وهبطنا إلى أسفل لتوديع جيمي. كان المكان مُهشّماً تماماً، لا توجد زجاجة واحدة في مكانها، ولا كرسي غير مكسور. والمرأة وواجهة المعروضات تحطّمتْ شذراً. وكان جيمي يُعدُّ لنفسه شراب البيض.

في طريقنا إلى المحطة رحنا نُجمِّع خيوط القصة معاً. فقد أتت الفتاة الروسية بعد أنْ أوينا إلى أسرّتنا وسرعان ما وجَّهتْ إيفيت إليها إهانة، دون أنْ تنتظر توفُّر مُبرِّرٍ ما. وبدأتْ كل منهما تشدُّ شعر الأخرى، ووسط تلك المعمعة تقدَّمَ سويديٌ ضخم الجثة وصفعَ الفتاة الروسية صفعةً رنانة على فكّها - ليُعيدها إلى صوابها. واشتعلتْ النار. أرادَ كولينز أنْ يفهم بأي حق يتدخَّل هذا السكير الضخم في شجارٍ خاص. وجاءه الجواب على شكل لكمةٍ على فكّه، لكمة جيدة أطاحتْ به إلى الطَرَف الآخر من الحانة. " تستاهل! ". هكذا صرخَتْ إيفيت، وانتهزت الفرصة ورمت بزجاجة إلى رأس الفتاة الروسية. وفي هذه اللحظة تفجَّرتْ الصاعقة. ومرَّتْ فترة من الصخب المنتظم، النسوة مُهسترات ومُشتاقات إلى انتهاز الفرصة لإطلاق العنان لأحقادهن الخاصة. لا شيء يُماثل شجاراً في حانة... ليس أسهل من غرز سكين في ظهر رجل أو ضربه بزجاجة حين يكون مستلقياً تحت طاولة. وألفى السويدي المسكين نفسه في عشٍ للدبابير، كان الجميع يكرهونه، ولاسيما رفاقه من البحّارة. وتمنوا أنْ يروه ميتاً. فأغلقوا الباب، ونحّوا الطاولات جانباً وتركوا مساحةً صغيرة أمام البار بحيث يتمكّن اثنان منهم من إنهاء الأمر، وأنهياه! واضطروا إلى

نقل الشيطان المسكين إلى المستشفى بعد أنْ انتهوا. وكان كولينز محظوظاً - خرج فقط برسغٍ ملويّ وإصبعَين مخلوعَين، وأنفٍ مُدمّى وعينٍ سوداء. إنها مجرد خدوش بسيطة، هكذا وَصَفَها. ولكن لو أنه اشتبكَ مع ذلك السويدي لأجهِز عليه. لكنَّ الأمر لم ينته بعد. كما وَعَدَنا.

ولم تكن تلك نهاية الشجار أيضاً. فبعد ذلك اضطرّتْ إيفيت إلى التوجّه إلى حانة أخرى لتشرب. لقد أُهينت وقررت أنْ تضع حداً لكل شيء. وهكذا استأجرتْ سيارة وأمرتُ السائق أنْ يوصلها إلى حافة الجرف المطلّ على البحر. لقد قرَّرت أنْ تقتل نفسها، هذا ما ستفعله. غير أنها كانت شديدة السُكر بحيث إنها حين انطرحت خارج سيارة الأجرة طَفَقَتْ تبكي وقبل أنْ يتمكّن من تهدئتها أخذتْ تخلع ملابسها. وأعادها السائق إلى المنزل وهي على هذه الحال، نصف عارية، ولما رأى جيمي حالها هذه غضب أشدّ الغضب وتناولَ مِشحذ الموسى وأخذ بضربها به ضرباً مُبرّحاً، وأعجبها ذلك، تلك العاهرة، وتوسلتْ إليه " اضربني أيضاً! "، وركعَتْ على ركبتيها وتشبَّثَتْ بساقيه بكلتا ذراعيها. لكنَّ جيمي كان قد اكتفى، وقال لها " ما أنتِ إلا خنزيرة عجوز قذرة! "، وسدَّدَ بحذائه رفسةً إلى أحشائها أخرجَتْ ريحها - وأصابَ أيضاً عضوها الجنسي التافه أيضاً.

حان وقت الرحيل. بدتْ المدينة مختلفة في ضوء الصباح الباكر. وآخر ما تحدّثنا بشأنه ونحن واقفون ننتظر القطار ليُقلّنا، كان أيداهو. كنا نحن الثلاثة أميركيين، أتينا من مناطق مختلفة، ولكن كان بيننا قاسم مشترك - يمكن القول إننا كنا وحدة واحدة. وصار مزاجنا عاطفياً،

وهذا ما يحدث للأميركيين عند الفِراق. كانت حماقتنا تزداد باطّراد ونحن نتحدث عن الأبقار والأغنام والمساحات الشاسعة المكشوفة حيث الرجالُ رجالٌ وكل ذلك الهراء. ولو أن بدل القطار تهادى إلينا من بعيد قارب لقفزنا فوقه وقُلنا وداعاً لكل شيء. ولكن قُدِّرَ لكولينز ألاّ يرى أميركا أبداً كما عرفتها لاحقاً، وفيلمور... في الواقع لقد قُدِّرَ لفيلمور أنْ ينال عقابه أيضاً، بطريقة لم يتوقّعها أي منا. من الأفضل أنْ تبقى أميركا كما هي، دائماً في الخلفيّة، أشبه بصورة على بطاقة بريدية، تنظر إليها في لحظة ضعف. وهكذا، تتصوّر دائماً أنها تنتظرك، لا تتغيّر، لا تفسُد، مساحة شاسعة وطنيّة مكشوفة فيها أبقار ورجال رقيقو القلوب مستعدون للواط كل ما يقعُ عليه بصرهم؛ رجلاً أو امرأة أو بهيمة. أميركا غير موجودة، إنها اسمٌ تُطلِقه على فكرة مُجرَّدة...

باريس أشبه بعاهرة. من بعيد تبدو لك فاتنة، ولا تُطيقُ صبراً لتضمّكَ بين ذراعيها. وبعد خمس دقائق تشعر بالخواء، بالاشمئزاز من نفسك. تشعر أنكَ مخدوع.

عدتُ إلى باريس وفي جيبي بعض النقود - بضع مئات من الفرنكات - دسّها كولينز في جيبي حالما استقللتُ القطار. وكانت كافية لدفع أجرة غرفة ومصروف طعام مدةً لا تقلّ عن أسبوع. مبلغ يفوق أي مبلغ وَقَعَ في يدي مرة واحدة طوال سنين عديدة. شعرتُ بالابتهاج، وكأنما حياة جديدة تفتح أبوابها أمامي. ورغبتُ أيضاً في أنْ أصونها، فبحثتُ عن فندقٍ رخيصٍ فوق أحد الأفران في شارع شاتو، لا يبعد كثيراً عن شارع فانف، وهو مكان كان أوجين قد دلّني عليه ذات يوم. وعلى مبعدة منه كان الجسر الذي يمتد فوق مونبرناس. وهو حيٌ معروف.

كان في وسعي أنْ أستأجر غرفة مقابل مئة فرنك في الشهر، مع العلِم أنها غرفة لا تتوفّر فيها أي وسيلة من وسائل الراحة - ولا حتى نوافذ - وربما كنتُ أخذتُها، فقط لأضمن مكاناً أهجعُ إليه بعض الوقت، لولا أني لكي أصل إلى غرفتي كنتُ سأضطر إلى المرور أولاً بغرفةِ رجلٍ ضرير. لقد كان لمجرّد فكرة المرور بالقُرب من سريره مساء كل يوم أثرٌ مُقبِضٌ عليّ. لذا قرّرتُ أنْ أبحث في مكان آخر، فانتقلتُ إلى شارع سل الواقع خلف المقبرة مباشرةً، فرأيتُ ما يُشبه مصيدة فئران لها شرفات

تطلُّ على الفناء من الجهات كلها. وقد عُلِّقَتْ أيضاً أقفاصُ عصافير في الشرفة، وعلى طول الطابق السفلي. لعله كان مشهداً ساراً، بيد أنه بالنسبة إلي بدا كجناحٍ عام في مستشفى. حتى المالك لم يكن يبدو أنه يُسيطر على كامل قِواه العقلية. وقررت أنْ أنتظر حتى المساء، لألقي نظرة شاملة إلى الجوار، ثم أختار مسكناً جميلاً صغيراً في جانب هادئ من الشارع.

أنفقتُ خمسة عشر فرنكاً على العشاء، وهو مبلغٌ يزيدُ بنسبة الضِعف على ما كنتُ قرّرت أنْ أنفقه. مما جعلني تعيساً جداً حتى إني حرمت نفسي من البقاء لتناول القهوة، على الرغم من أنها كانت قد بدأتْ تُمطِر. كلا، قرّرتُ أنْ أتمشّى قليلاً ثم آوي بهدوء إلى فراشي، في ساعةٍ معقولة. وسيطرَ عليّ الغم بسبب محاولتي ادّخار مواردي بتلك الطريقة. إنني لم أفعل ذلك مرة في حياتي، فليس ذلك من طبيعتي.

أخيراً أخذتُ تُمطِر بغزارة. وكنتُ سعيداً، لأنَّ ذلك سيمنحني عذراً أحتاجه لأندسّ في مكانٍ ما وأُمدِّد قَدَميّ على طولهما. كان الوقت لا يزال باكراً للإيواء إلى السرير. ورحتُ أحثُّ خطاي، عائداً إلى بولفار راسبيل. وفجأةً إذ بامرأة تتقدّم مني وتستوقفني، تحت وابل المطر. تريد أنْ تعرف كم الساعة. أخبرتها أني لا أحمل ساعة يد وإذ بها تهتفُ فجأةً قائلة: "أوه يا سيدي الطيّب، أتُراك تتكلّم الإنكليزية بالمصادفة؟". فهززتُ رأسي إيجاباً. باتت الآن تُمطر سيولاً. " لعلّك يا سيدي الطيب العزيز، تتلطّف وتصحبني إلى المقهى، فالسماء تمطر وليس معي نقود لأجلس في أي مكان. سوف تعذرني، يا سيدي الطيب، لكنَّ وجهكَ سمح... وعرفتُ على الفور أنكَ إنكليزي ". قالت ذلك وابتسمت لي

ابتسامة غريبة شبه معتوهة، " وربما يمكنك أنْ تعطيني نصيحة صغيرة، يا سيدي العزيز. فأنا وحيدة في هذا العالم... يا إلهي، ما أبشع ألاّ يكون معك نقود... "

أوصلتني هذه الـ " سيدي العزيز " و " سيدي اللطيف " و " سيدي الطيب " الخ، إلى حافة الجنون. وقد شعرتُ بالرثاء لأجلها ومع ذلك كان يجب أنْ أضحك. وضحكت في وجهها. وبعدها ضحكت هي أيضاً، ضحكة عجيبة، عالية النبرة، ونشاز، وكلها معاً قهقهة غير متوقعة. وأمسكتها من ذراعها وهرعنا إلى أقرب مقهى. كانت لا تزال تقهقه حين ولجنا المقهى الصغير. وعادت تقول من جديد " يا سيدي العزيز الطيب، ربما تظن أني لا أقول لك الحقيقة. إنني فتاة طيبة... أنحدرُ من أسرة كريمة... لكنني " - وهنا ابتسمت لي تلك الابتسامة الباهتة المتصدّعة - " لكنني لم أجد مقعداً أجلسُ عليه "، وهنا أخذتُ أضحكُ من جديد. لم أستطع كبح نفسي - العبارات التي تستخدمها، النبرة الغريبة، والقبعة البلهاء التي تعتمرها، وتلك الابتسامة المعتوهة...

قاطعتها " اسمعي، ما هي جنسيتك؟ "

أجابت "أنا إنكليزية، أعني أني وُلِدتُ في بولندا، لكنَّ أبي أيرلندي"

" وهذا يجعلكِ إنكليزية؟ "

قالتْ " نعم "، وبدأتْ تقهقه من جديد، بارتباك، مُدَّعية الخجل.

" أعتقدُ أنكِ تعرفين فندقاً جميلاً صغيراً سوف تصطحبينني إليه؟". لم أقُلْ ذلك لأنه كان في نيتي أنْ أرافقها، بل لمجرَّد أنْ أوفّر عليها التوطئات المعتادة.

قالت، وكأنني ارتكبتُ خطأً جسيماً، " أوه، يا سيدي العزيز، أنا متأكدة من أنكَ لا تقصد ما تقول! لستَ من هذا النوع. كنتَ تمزح، أفهمُ ذلك. أنتَ طيب جداً... ولكَ وجه سَمح. ما كنتُ لأجرؤ على مُخاطبة رجلٍ فرنسي كما فعلتُ معك. إنهم يُهينونكَ على الفور... "

تابعَتْ كلامها بتلك الوتيرة بعض الوقت. وأردتُ أنْ أفلتَ منها، لكنها لم ترغب في أنْ تُترَكَ وحدها. كانت خائفة - فأوراقها غير نظاميّة. فهل أتلطّف أصحبها إلى فندقها؟ وربما يمكنني أنْ " أُقرِضها " خمسة عشر أو عشرينَ فرنكاً، لإسكات صاحب الفندق؟ ورافقتها إلى الفندق الذي قالتْ إنها تنزلُ فيه ووضعتُ في يدها ورقةً من فئة الخمسين فرنكاً. إما أنها كانت في منتهى الذكاء أو في منتهى البراءة - أحياناً يصعُبُ إيجاد الفرق - لكنها على أي حال أرادتني أنْ أنتظر ريثما تُسرِع إلى المقهى الصغير لكي تُعيدَ الباقي إليّ. قلتُ لها ألاّ تزعج نفسها. وهنا أمسكَتْ بيدي باندفاعٍ ورفعَتها إلى شفتيها. وصُعِقتُ؛ شعرتُ برغبةٍ في إعطائها كل ما كنتُ أملك. لقد أثَّرَتْ بي تلك الإيماءة الصغيرة المجنونة، وقلت في نفسي، جميلٌ أنْ تكونَ غنياً ولو لمرة واحدة، لمجرّد أنْ تحصل على إثارةٍ مثل تلك. سيان لديّ، فلم أفقد عقلي. خمسون فرنكاً! يكفي هذا التبذير في ليلةٍ ماطرة. وحين رحتُ أبتعد لوَّحَتْ لي بتلك القلنسوة التي لم تكن تعرف كيف تعتمرها. كنا كأننا صديقَين حميمين. وشعرتُ بأني أبله وبرأسي يدور. " سيدي العزيز اللطيف... يا لسماحة وجهك... أنتَ طيب جداً، الخ... ". شعرتُ أني قدّيس.

حين تشعر أنكَ مُنتفخ من الداخل، ليس من السهل أنْ تلجأ إلى النوم فوراً؛ تشعر وكأنَّ عليكَ أنْ تُكفّر عن نوبات الطِيبة تلك غير

المتوَقَّعَة. ولدى مروري بـ " الغاب " ألقيتُ نظرةً على صالة الرقص، فشاهدتُ نسوةً بظهورٍ عارية وحِبالٍ من اللآلئ تكاد تخنقهنّ - أو هكذا بدا - يهززنَ مؤخراتهن الجميلة في وجهي. وتوجّهتُ رأساً إلى البار وطلبتُ كأساً من الشمبانيا. وعندما سكَتتْ الموسيقا اتَخذت شقراءُ جميلة - بدت نرويجية - مجلِسها إلى جانبي. لم يكن المكان مُزدحماً أو يشيعُ فيه المرح كما بدا من الخارج، لم يكن هناك غير عدد قليل من الراقصين - وبدا أنهم جميعاً كانوا يرقصون في وقتٍ واحد. وطلبتُ كأساً آخر من الشمبانيا حتى لا تخونني شجاعتي.

عندما نهضتُ لأطلبَ من الشقراء مراقصتي لم يكن هناك غيرنا في الحَلَبة. ولو حدثَ ذلك في أي وقت آخر لغَلَبَني الخجل، لكنَّ تأثير الشمبانيا وطريقتها في التشبُّث بي، والأضواء الخافتة، والإحساس المتين بالأمان الذي مَنَحَتني إياه المئات القليلة من الفرنكات. وهكذا... رقصنا معاً ثانية، على سبيل العَرض الخاص. ثم انهمكنا في الحديث. وبدأتْ تبكي - هكذا بدأ الأمر. واعتقدتُ أنها ربما أسرفَتْ في الشرب، فتظاهرتُ بعدم الاهتمام. وأخذتُ أقلّبُ ناظري فيما حولي لأرى إنْ كان هناك أحدُ غيرنا، لكنَّ المكان بات مُقفِراً تماماً.

إنَّ أفضل ما يمكن أنْ تفعله حين تقع في فخ هو أنْ تتنفَّس - وعلى الفور. فإذا لم تفعل، ضِعت. وما استبقاني، ويا للغرابة، كان مخافتي من أنْ أفكِّر في دفع مبلغ آخر مقابل خِدعة. والمرء دائماً يدع نفسه يقعُ في مثل تلك الخِدع لسببٍ تافه.

سرعان ما اكتشفت أنَّ سبب بكائها هو أنها قد دَفَنَتْ وليدها مؤخراً. وهي ليسَتْ نرويجية، بل فرنسية، وهي قابلة حتى أخمص

قدمها. ويجب أنْ أعترف أنها قابلة أنيقة، حتى من الدموع التي جَرَتْ على وجهها. وسألتها إنْ كان كأسٌ صغير يُساعد على مواساتها، وعلى الأثر طَلَبَتْ ويسكي وجرعته دفعة واحدة وفي لمح البصر. واقترحت قائلاً " كأساً آخر؟، فوافقَتْ. إنَّ حالتها سيئة جداً، وهي في منتهى الغم. واعتقدت أنها ترغب في علبة سجائر " كامل " أيضاً، ثم أردفتْ " كلا، انتظر لحظة، أعتقد أني أُفضِّل البول مول "، وقلتُ في نفسي، اطلبي ما شئت ولكن كفاك بكاءً، حباً بالمسيح، لقد انهارت أعصابي. وساعدتها لتقف على قدميها لنرقص رقصة أخرى، وحين وقفتْ على قدميها بدتْ شخصاً آخر. ربما لأنَّ الأسى يجعل الإنسان يبدو أكثر فسقاً، لا أدري. وغمغمت بشيء عن خروجنا، فقالت بلهفة " إلى أين؟ أوه، إلى أي مكان. إلى مكان هادئ حيث يمكننا أنْ نتحدث "

ذهبتُ إلى المرحاض لأعدّ النقود من جديد هناك. خبّأتُ قطعة بمئة فرنك في جيب الساعة وأبقيتُ قطعة بخمسين فرنكاً والقِطع الصغيرة في جيب البنطلون، وعدتُ إلى البار وأنا أنوي أنْ أتحدَّث بصراحة تامة.

سهَّلَتْ عليَّ الأمر لأنها هي التي فَقَدَتْ وليدتها، بل لأنَّ أمها في المنزل مريضة، بل هي في حالة متردّية، ويجب أنْ تدفع للطبيب ويجب أنْ تشتري الدواء، وهكذا دواليك. لم أصدِّق كلمة واحدة مما قالت، طبعاً. ولما كان عليّ أنْ أجد فندقاً لنفسي، اقترحتُ عليها أنْ تأتي معي وتمضي هذه الليلة. وقلتُ في نفسي سأقتصد قليلاً. لكنها رفضَتْ. وأصرَّتْ على أنْ نذهب إلى المنزل، قالتْ إنَّ لديها شقة خاصة بها - ثم إنَّ عليها أنْ تعتني بأمها. وبعد تفكير قررتُ أنه من الأفضل أنْ أبيت عندها، فوافقتُ وذهبنا على الفور. وقبل أنْ ننطلق، قررتُ أنه من

الأفـضل أنْ تعـرف وضـعي، وذلك كي لا يكون هناك أي شكوى في اللحظة الأخيرة. وأعتقد أنه كاد يُغمى عليها حين علمت مقدار ما معي من نقود. قالت " سيـان عندي! "، وبدتْ مـهانة جداً. واعـتـقدتُ أنهـا ستثور... لكنها اتّخذتْ موقفاً صارماً، غير هيّاب، وقلتُ بهدوء " حسن جداً، أنا ذاهب، لعلّي ارتكبتُ خطأً "

أعلَنَتْ قـائلة " نعم ارتكبتَ! "، لكنهـا في الوقـت نفسـه تشبّثت بذراعي Ecoute, cheri ì sois raisonable !: (اسـمع يا عـزيـزي... تعـقّل!) ولما سـمعتُ هذا استعدت ثِقتي بنفسي، وعرفتُ أنَّ المسألة كلها تتعلّق بوعـدها بالمزيد وبعـدئذٍ سـيكون كل شيء على مـا يرام، قلتُ ضـجِـراً "حسن، سأكون لطيفاً معك وسترين"

قالت " إذن كنتَ تكذب عليَّ؟ "

ابتسمتُ " نعم، كنتُ أكذب... "

قـبل أنْ أضعْ قـبعـتي على رأسي كـانت قـد هَتَـفَتْ لسيـارة أجـرة. وسمعتهـا تُعطيه عنوانهـا في بولفار دو كليشي. وقلتُ في نفسي إنَّ هذا يُسـاوي أكـثـر من أجـرة غـرفـة. أوه، حـسن لا يزال هناك مـتـسع من الوقت... سوف نرى. لم أعُدْ أتذكَّر كيف بدأ الأمر، لكنها سـرعـان ما راحت تهذي عن هنري بوردو. وحتى ذلك الحين لم أكنْ قد قابلتُ عـاهرة لا تعرف هنري بوردو. لكنَّ هذه بالذات موهوبة حقاً، وقد أضحَتْ لغتـها الآن جميلة، ورقيقة، وبصيرة، حتى إني أخذتُ أقلّب التفكير في مقدار ما سأعطيهـا. وبدا لي أني سمعتـها تقول – " quand il n'y aura plus de temps " (حين لن يتبقّى مـتّسع من الوقت)، أو شيئـاً من هذا القبيـل، على أي حـال. وفي حالتي تلك كانت عبـارة كهذه تساوي مئة فرنك.

وتساءلتُ إنْ كانت من تأليفها أو أنها سرقتها من هنري بوردو. لا يهمّ. كانت العبارة هي الأمثل لنعبُرَ بها أسفل مونمارتر. وقلت في نفسي "عِمتِ مساءً، أيتها الأم، أنا وابنتُكِ سنعتني بكِ - quand il n'y aura plus de temps" وكانت تنوي أنْ تُريني شهادتها أيضاً، لقد تذكَّرت الآن.

حالما أغلق الباب خلفنا، اهتاجت أعصابها. تبلبلت. أخذت تعصر كفّيها وتتّخذ أوضاعاً على طريقة سارة برنار، وهي شبه عارية، وتتوقف بين الحين والآخر لتحثّني على الإسراع، لخلع ملابسي، لأفعل هذا أو ذاك. وأخيراً، بعدما تعرَّتْ وراحت تتنقَّل في المكان وهي تحملُ قميصها بيدها، وتبحث عن ثوب الكيمونو، احتضنتها وعصرتها بقوة. وعندما حرّرتُها كان على وجهها علائم الكرب. وهتفَتْ " يا إلهي! يا إلهي! يجب أنْ أنزل لألقي نظرة على أمي! يمكنك أنْ تستحم إذا أردت، cheri. هناك! وسأعود بعد دقائق "، وعند الباب عانقتها من جديد. كنتُ بملابسي الداخلية وقد حصل لديّ انتصاب هائل. وبصورة ما زاد ذلك كلّه الحزنَ والإثارةَ، كل ذلك الأسى والحركات المصطنعة من شهيتي. ربما كانت ستنزل إلى أسفل لمجرَّد أنْ تُهدّئ من ثورة " فؤادها ". وتكون لدي إحساس بأنَّ شيئاً غير عادي يجري، أشبه بحدثٍ دراميّ سأقرأ عنه في صحف الصباح. وألقيتُ نظرة سريعة على المكان. هناك غرفتان وحمّام، لا بأس في أثاثهما. تغلبُ عليه الخلاعة. شهادتها مُعلّقة على الجدار - " درجة أولى " ككل الشهادات. وهناك صورة لطفلة، فتاة صغيرة لها خصلات جميلة، موضوعة على طاولة الزينة. فتحتُ الصنبور استعداداً للاستحمام، ثم غيَّرتُ رأيي. إذا حدثَ شيء وأنا جالس في حوض الاستحمام... لم تعجبني الفكرة. ورحتُ أتمشّى جيئة وذهاباً، وازداد قلقي مع مرور الوقت.

حين عادت كانت أشدّ ارتباكاً من ذي قبل. قالت وهي تئن " إنها تحتضر... إنها تحتضر! ". للوهلة الأولى خطرَ لي أنْ أغادر المكان، فكيف يمكن لإنسان أنْ يمتطي امرأة وأمها تلفظُ أنفاسها الأخيرة في الطابق السفلي، وربما تحتك مباشرةً؟ وأحطتُها بذراعيّ، أولاً بدافع الشفقة وثانياً لأنني صمّمتُ على نيل ما جئتُ لأجله. وبينما نحن واقفان هكذا همستْ، وكأنها حزينة فعلاً تعلن عن حاجتها إلى النقود التي وعدتها بها. إنها لـ " ماما ". خراء، لم أكنْ أرغب في المساومة حول الفرنكات في تلك اللحظة. ومشيتُ إلى الكرسي حيث كانت ملابسي وأخذتُ مئة فرنك من جيب الساعة وحرصتُ على أنْ أدير ظهري لها. وزيادة في الحذَر وضعتُ بنطلوني على طرف السرير حيث عرفتُ أني سأضطجع. ولم ترضَ تماماً بالمئة فرنك، لكنني فهمتُ من احتجاجها الواهن أنَّ المبلغَ كافٍ جداً. ثم، وبنشاط منها أدهشني، نَفَضَتْ عنها الكيمونو وقفزتْ إلى السرير. وحالما أحطتُها بذراعيّ وشددتُها إليّ ضغطَتْ على مفتاح النور وغمرَ الظلام المكان. عانقني بشَبَق، وراحت تئن ككل العاهرات الفرنسيات حين يذهبنَ معك إلى السرير. كانت تُهيّجني بصورة مُخيفة بتصرُّفها، فمسألة إطفاء الأنوار كانت جديدة لديّ... وكأنَّ الموقف حقيقي. ومع ذلك ارتبتُ في الأمر، وحالما بدأتُ أعمل بشكل جيد مددتُ يدي خارج السرير لأتحسَّس إنْ كان بنطلوني لا يزال على الكرسي.

أعتقد أننا أمضينا ليلة رائعة. كان السرير مريحاً جداً، أكثر نعومة من أسرّة فندق متوسط المستوى - والملاءات نظيفة، كما لاحظت. ولكن ليتها لم تكن تُكثِر من التلوّي والارتعاش وكأنها لم تُضاجع رجلاً منذ

أشهر. وددتُ لو أُطيل مكوثي، أردتُ أنْ أنال القيمة الكاملة مقابل مئة فرنك. لكنها كانت تغمغم بأشياء كثيرة بتلك اللغة السريرية المجنونة التي تتغلغل في دمك بسرعة أكبر في الظلام. لقد كنت أواجه قتالاً عنيفاً، لكنه كان مستحيلاً وهي تتأوه وتلهث، وتتمتم " أسرِعْ يا حبيبي! أسرِع يا حبيبي! أوه، هذا رائع! أوه، أوه، أسرع، أسرع، أسرع، يا حبيبي! ". حاولتُ أنْ أعدَّ تأوهاتها، لكنها كانت كإنذار الحريق، لا تتوقف. " أسرِعْ يا حبيبي! ". وهذه المرة أصدَرَتْ تأوهاً مُرتعشاً انطلق، بانغو! سمعت النجوم تقرع وها هي المئة فرنك قد ذهبت هباءً والخمسون فرنك التي نسيتْ كل شيء عنها وأضاءت الأنوار من جديد وبالرشاقة التي قفزَتْ بها إلى السرير، قفزَتْ بها منه أيضاً وهي تنخر وتشتكي خنزيرة عجوز. استلقيتُ على ظهري ورحتُ أدخن سيجارة متأملاً ملابسي الداخلية بكآبة، كانت مُجعّدة كثيراً. وفي الحال عادتْ إلى طبيعتها، وهي تلتفع بالكيمونو، وتُخبرني بطريقتها القلقة التي بدأتْ تؤثِّر على أعصابي بأنْ أتصرَّف بحريّة. وقالتْ " سأنزل لأرى أمي، ولكن يمكنك أنْ تتصرَّف وكأنك في بيتك، يا عزيزي. سأعود حالاً "

بعد مضي ربع ساعة بدأتُ أشعر بقلقٍ غامر، ثم ولجتُ إلى الداخل ورحتُ أقرأ رسالة وجدتها على الطاولة. لم تكن على أي جانب من الأهمية - مجردَّ رسالة حب. وفي الحمّام تفحّصتْ جميع الزجاجات الموجودة على الرف، لديها كل ما تتطلبه المرأة لتجعل رائحتها جميلة. كنتُ لا أزال آمل في أنْ تعود لتمنحني ما يُعادلُ خمسين فرنكاً. لكنَّ الوقت مرَّ ولم يظهر لها أثر. وبدأ ينتابني الذعر. فربما كان هناك مَنْ يموت حقاً في الطابق السفلي. وبذهن شارد وبدافعٍ من حب الذات على ما أعتقد، باشرتُ بارتداء ملابسي. وبينما أنا أعقد حزامي تذكَّرتُ

فجأةً كيف حَشَرَتْ المئة فرنك في كيس النقود. فوسط إثارة تلك اللحظة وَضَعَتْ كيس النقود في خزانة الملابس، على الرف العلوي... تذكَّرتُ حركتها - وهي تشرئب على أطراف أصابع قدميها لتَصِلَ إلى الرف. وفي الحال فتحتُ الخزانة وتحسستُ المكان بحثاً عن كيس النقود. كان لا يزال هناك. فتحته على عَجَل ورأيتُ ورقة المئة فرنك لا تزال مُستقرّة في مكانها باستكانة بين تضاعيف الحرير. أعدتُ الكيسَ كما كان وانزلقتُ داخل معطفي وحذائي، وذهبتُ إلى مُنبسَط وأرهفتُ سمعي. لم أسمع شيئاً. المسيح وحده يعلم إلى أين ذهبت. وعدتُ بسرعة البرق إلى الخزانة ورحتُ أجوس داخل كيسها. وضعتُ المئة فرنك في جيبي وجميع القِطع الصغيرة أيضاً. ثم أغلقتُ الباب بهدوء ورائي وهبطتُ الدَرَج بأسرع ما أوتيتُ من قوة في ساقيّ. وتوقفتُ قليلاً في مقهى بودون. كانت العاهرات هناك يستمتعنَ بوقتهن وهن يضربن رجلاً بديناً نام أثناء تناول وجبته. كان غارقاً في النوم، ويشخر، ومع ذلك كان فكّاه لا يزالان يعملان بحركةٍ آليّة. كان المكان غارقاً في الفوضى والضجيج، وهناك مَنْ يصرخ " الجميع إلى متن السفينة! "، وتبعَ ذلك رنين مُختَلَط لسكاكين وأشواك. فتحَ عينيه فجأةً ورفرفهما بغباء، ثم مال رأسه ثانيةً على صدره. وضعتُ ورقة المئة فرنك بحذر في جيب الساعة وعددتُ القطع الصغيرة. كانت الجَلَبة حولي تزداد ووجدتُ صعوبةً في تذكُّر إنْ كنتُ قد شاهدتُ بوضوح عبارة " درجة أولى " على شهادتها أم لا. وأزعجني ذلك. أما أمّها فلا شأنَ لي بها. إنه أطيب من أنْ يُصدق، مع " أسرِع يا حبيبي، أسرِع، أسرِع! "، وتلك الأخرى شبه المعتوهة مع "سيدي الطيب " و " إنَّ لكَ وجهاً سمحاً " التي بتُّ أتساءل إنْ كانت حقاً استأجرتْ غرفةً في ذلك الفندق الذي توقفنا عنده.

قرابة نهاية الصيف دعاني فيلمور لأذهب وأعيش معه. كان يملك شقة صغيرة تطلُّ على ثكنة الفرسان القريبة من بلاس دوبلي. وكانت لقاءاتنا قد تكرَّرت منذ رحلتنا القصيرة تلك إلى الهافر. ولولا فيلمور لا أدري إلامَ كان سيؤول حالي اليوم - ربما إلى الموت، في الغالب.

قال لي: " كان من الممكن أنْ أطلب منكَ الحضور قبل الآن بوقتٍ طويل لولا تلك العاهرة الحقيرة جاكي. لم أدرِ كيف أتخلّص منها "

كان يجب أنْ أبتسم. هكذا الأمر دائماً مع فيلمور؛ كان عبقرياً في اجتذاب العاهرات المُشرّدات. على أي حال لقد رحلَتْ جاكي أخيراً برضاها.

كان فصل الأمطار يقترب، وهو فترة طويلة موحشة من اللزوجة والضباب وسيول الأمطار التي تجعلك رطباً ومكتئباً. باريس! يا لذاك المكان المقيت في الشتاء. مناخها يستهلك روحك، يتركك عارياً كشاطئ لابرادور. ولاحظتُ مع بعض القلق أنَّ الوسيلة الوحيدة لتدفئة المكان هي مدفأة صغيرة موجودة في الشقة الصغيرة. ومع ذلك، ظل البيت مريحاً. والمشهد من النافذة بديعاً.

في صباح كل يوم كان فيلمور يوقظني بهزّة عنيفة ويترك ورقة نقدية بقيمة عشر فرنكات على الوسادة. وحالما يذهب أعود لأغفو غفوة أخيرة. أحياناً كنتُ أبقى في السرير حتى الظهيرة، فلم يكن هناك ما

يستدعي العجلة، عدا إنهاء الكتاب، وهذا ما لم يكن يُقلقني كثيراً لأني كنتُ مقتنعاً سَلَفاً بأنَّ أحداً لن يقبله مني في كل الأحوال. ومع ذلك كان فيلمور هو الأكثر تأثّراً به. وعقب عودته في المساء حاملاً قنينة تحت ذراعه كان أول ما يقوم به هو أنْ يتوجه إلى الطاولة ليرى كم صفحة أنهيت. في أول الأمر استمتعت بهذا المظهر من الحماس ولكن فيما بعد، حين جفَّتْ ينابيعي، صرت كالشيطان المضطرب وأنا أراه يفتش في المكان، بحثاً عن الصفحات التي من المفترض أنْ تقطر مني كالماء من الصنبور. وعندما لا يكون هناك ما أكتبه أشعر تماماً كإحدى العاهرات التي أواها يوماً عنده. كان يتحدث عن جاكي عادة قائلاً، حسب ما أذكُر - " كان يمكن أنْ يغدو كل شيء على ما يرام لو أنها سمحت لي بمضاجعتها أحياناً ". لو كنتُ امرأةً لسمحتُ له بمضاجعتي، إذ إنَّ ذلك أسهل بكثير من تزويده بالصفحات التي يتوقعها.

غير أنه حاول أنْ يوفر لي سُبُل الراحة. فكان هناك دائماً الكثير من الطعام والخمر، وأحياناً كان يصرّ على اصطحابي إلى حفل راقص. وكان ولوعاً بارتياد مُلهى للزنوج في شارع أوديسا حيث يلتقي مع خلاسية كانت تصحبنا أحياناً إلى المنزل. الشيء الوحيد الذي أزعجه هو أنه لم يتمكن من إيجاد فتاة فرنسية ترغب في الشرب. كنَّ جميعاً أكثر اتّزاناً من أنْ يُرضينه - كان يجب أنْ يصحب معه امرأة إلى الشقة لمعاقرة الشراب معه قبيل الانصراف إلى العمل. وكان أيضاً يحب أنْ يُدخِل في خلَدها أنه فنان. ولما كان الرجل الذي استأجر منه المكان رساماً، فلم يكن من الصعب تركُ انطباع قوي لديه، وسرعان ما وزّعت اللوحات التي وجدناها في الخزانة حول المكان ووضعت إحدى اللوحات غير المكتملة

على الحامل. ولسوء الحظ كانت جميعاً من النوع السريالي والانطباع الذي تخلقه ليس مُشجعاً. وفيما يتعلّق بتذوُّق اللوحات الفنية ليس هناك كبير فرق بين عاهرة أو بوابة أو أحد الوزراء. كانت زيارات مارك سويفت المنتظمة لنا بقصد رسم لوحة شخصية لي مصدر ارتياح لفيلمور. وعلى الرغم من أنَّ شيئاً ضارياً كان يُحيط بكل ما يُعالجه، إلا أنه عندما كان يرسم رجلاً أو شيئاً ما كان في الإمكان التعرُّف عليه.

تركتُ لحيتي تسترسل حسب طلب سويفت. قال إنَّ شكل جمجمتي لا يكتمل إلا بلحية. وطلب مني أنْ أجلس بالقرب من النافذة وإلى الخلف مني برج إيفل لأنه أراد أيضاً أنْ يظهر معي برج إيفل. وأراد أيضاً إظهار الآلة الكاتبة. وتعوَّد كروغر على أنْ يصل فجأةً في مثل ذلك الوقت، وكان يؤكد أنَّ سويفت لا يفهم شيئاً في الرسم، ويُغضِبه أنْ يرى الأشياء بدون أبعادها المعتادة، ويؤمن إيماناً مُطلقاً بقوانين الطبيعة. أما سويفت فلم يكن يأبه للطبيعة، وكان يريد أنْ يرسم ما في رأسه. على أي حال، صورتي موجودة على الحامل الآن، وعلى الرغم من أنَّ كل شيء دون أبعاده الطبيعية، فيمكن حتى لأي وزير أنْ يرى أنه رأس مخلوق بشري، لرجل ملتح. وقد بدأتْ البوابة بإظهار اهتمام هائل بالصورة ورأتْ أنَّ التشابه مذهل. وأعجبتها فكرة إظهار برج إيفل في الخلفية.

استمرَّتْ الأمور على ذلك المنوال بسلام قرابة الشهر أو أكثر. أعجبني الحي، ولاسيما أثناء الليل عندما يكشف المكان عن كآبته وقذارته. إنَّ الساحة الصغيرة، التي تبدو غاية في السحر والهدوء عند الفجر، يمكن أن تتخذ أشدّ السمات كآبة وشؤماً عندما يحل الظلام. كان هناك ذلك الجدار الممتد، العالي الذي يُخفي أحد جوانب الثكنة حيث

ترى دائماً عنده عاشقَين يتعانقان خِلسة - وغالباً تحت المطر. إنَّ لِمن المُقبِض للنفس رؤية اثنين من العشّاق مضغوطَين على جدار السجن تحت نور شارعٍ كئيب، وكأنهما قد جُرِفا إلى آخر الحدود. وما كان يجري داخل المكان المغلق لا يقلّ إثارةً للانقباض. وقد تعوّدتُ على أنْ أقف في يومٍ ممطر عند النافذة وأنظر إلى ما يجري في الأسفل، فيبدو تماماً كأنه يجري على سطح كوكب آخر. كان يبدو لي شيئاً عصيّاً على الفهم، كل شيء يتمّ طِبقاً لجدول معيَّن ، ولكن لابد أنه كان جدولاً من تصميم مجنون. ها هم يتخبطون في الوحل، الأبواق تُنفَخ، والأحصنة تُسرَج، وكله يحدث بين أربعة جدران. إنها معركة كاذبة. وعدد كبير من جنود القصدير ليس لديهم أدنى اهتمام بتعلُّم فنون القتل أو بتلميع أحذيتهم أو بتمشيط شعر الجياد. كل شيء سخيف سخافة مُطلقَة، بيد أنه جزء في مُخطط الأشياء. وحين لا يبقى ما يفعلونه يبدون أشد سخفاً: يهرشون أنفسهم، يتجولون في المكان، أيديهم في جيوبهم، يرفعون أبصارهم إلى السماء. وعندما يأتي ملازم يضمّون أكعابهم ويُحيّون. إنه مأوى للمجانين، كما يبدو لي. حتى الجياد تبدو بلهاء. أحياناً يجرّون المدافع إلى الخارج وينطلقون وهم يقعقعون على أرض الشارع في استعراض عسكري ويقفُ الناس فاغري الأفواه إعجاباً بملابسهم الجميلة. كانوا دائماً يبدون كفيلق مُسلَّح يتراجع، يُحيط بهم جو من الرثاثة، والوساخة والاكتئاب، ثيابهم مترهّلة فوق أجسادهم، وكل النشاط، الذي كانوا يملكونه كأفراد إلى درجة رائعة، قد زال عنهم.

لكن عند بزوغ الشمس كان كل شيء يبدو مختلفاً: كان يظهر في عيونهم شعاع من أمل، يمشون بمرونة أكثر، ويبدون القليل من الحماس.

عندئذٍ يطلّ الجانب المُبهِج من الأشياء بصورةٍ فاتنة، ويصدر ذلك الضجيج والقرقعة اللذان يميزان الفرنسيين. وفي المقهى الصغير الكائن عند الزاوية يتحادثون بمرح وهم يشربون الخمر ويبدو الضباط أكثر إنسانية، أكثر فرنسيّة. وحين تبزغ الشمس تبدو أي بقعة من باريس جميلة، ففي كل مقهى صغير به ظِلّة مُسدلة، وبضع طاولات موضوعة على الرصيف ومشروبات ملوّنة في الكؤوس، يبدو الناس أشدّ إنسانية، يكونون حقاً بشراً - أروع أناس في العالم وقت شروق الشمس! متوقدي الذكاء، متكاسلين جداً، سعداء جداً! إنها لجريمة أنْ يُحشَر أولئك الشبان في ثكنة، لإخضاعهم للتدريب، لتصنيفهم إلى جنود ورُقباء وكولونيلات ورُتَبْ أخرى...

وكما أقول، كانت الأمور على أحسن ما يرام، وكان كارل يسعى بين حينٍ وآخر ليوفر لي عملاً، هو كتابة مقالات عن السفر كان يكره أنْ يقوم بها بنفسه. فهم لا يدفعون إلا خمسين فرنكاً على القطعة، لكنها كانت سهلة لأنَّ كل ما كان عليَّ أنْ أفعله هو أنْ أراجع الإصدارات السابقة وأُنقِّح المقالات القديمة. فالناس لا يقرؤون هذه الأشياء إلا وهم جالسون في المرحاض أو يقتلون الوقت في غرفة الانتظار. الشيء الأساسي هو الحِفاظ على الصِفات مصقولة جداً - أما الباقي فمسألة تواريخ وإحصاءات. فإذا كانت المقالة مُهمّة وقَّعَ عليها رئيس القسم بنفسه، وكان شبه معتوه لا يُحسِن التحدّث بأي لغة، لكنه يعرف كيف يكتشف الأخطاء. فإذا وجد أنَّ إحدى الفقرات قد كُتِبَتْ بشكلٍ جيد يقول " هكذا أريدك أنْ تكتب! هذه جميلة. أسمحُ لكَ باستخدامها في كتابك ". وهذه الفِقرة الجميلة نكون أحياناً قد اقتبسناها من الموسوعة أو

من مُرشِد قديم. وكان كارل يستخدم بعضها في كتابه - فقد كانت تتميز بصِبغةٍ سُريالية.

وفي إحدى الأمسيات، إبّان عودتي من نزهتي، فتحت الباب وإذا بامرأة تقفز من غرفة النوم وتهتف على الفور " إذن أنتَ الكاتب! "، وتنظر إلى لحيتي وكأنما لتؤكّد فكرتها عني، " ما أبشعها من لحية! أعتقد أنكم القاطنون هنا كلكم مجانين "، وإذا بفيلمور يتبعها وهو يحمل الملاءة في يده ويقول " إنها أميرة " ويُفرقع بشفتيه وكأنه يتذوق الكافيار للمرة الأولى. كانا يستعدان للخروج، ولم أفهم ماذا كانا يفعلان بملاءات السرير، وتبيَّن لي على الفور أنه لابد أنَّ فيلمور جرّها إلى غرفة النوم ليُريها حقيبة الغسيل القذر. وهو دائماً يفعل هذا بالجديدات، ولاسيما إذا كانت فرنسية. "لا أكياس مخدات، لا قمصان!". هذا ما كان مَخيطاً على حقيبة الغسيل القذر، وكان فيلمور مهووساً بشرح ذلك الشعار لكل أنثى تصل. ولكن هذه السيدة ليست فرنسية - وقد أوضحَ لي هذه النقطة على الفور. هي روسية - وأميرة، لا أقلّ.

كان يتدفّق بالإثارة، كطفلٍ عثر لتوّه على دمية. قال " إنها تتكلّم خمس لغات! "، وكان جلياً أنه شديد الفرح بتلك المأثرة.

وتُصحِّح له على الفور، " كلا، بل أربع! "

" حسن، أربع إذن... لا بأس، إنها ذكية جداً. يجب أنْ تسمعها وهي تتكلّم "

الأميرة عصبيّة - ظلّتْ طوال الوقت تهرش فخذها وتعرك أنفها. وسألتني على الفور " لماذا يريد أنْ يُعِد سريره الآن؟ أيظنُّ أنه سينال مني بهذه الطريقة؟ إنه طفلٌ كبير؛ يتصرَّف بطريقة شائنة. لقد صحبته

إلى مطعم روسي فأخذ يرقص كالزنوج ". وأخذت تهزُّ نصفها السفلي لتصورٍ لي ما فعل. " ثم إنه يتكلّم كثيراً. وبصوت عال. وحديثه تفِه ". بدأتْ تتجول في أرجاء الغرفة، تتفحّص اللوحات والكتب، وهي تشمخ بذقنها طوال الوقت لكنها كانت تهرشُ نفسها بحركة متقطّعة. وبين حينٍ وآخر كانت تمخر طريقها كسفينة حربية تصوِّبُ مدافعها الجانبية. وكان فيلمور يتبعها وهو يحمل زجاجة في يد وكأساً في الأخرى، حتى صاحت: " كُفَّ عن متابعتي! ثم أليس لديك غير هذا تشربه؟ ألا تستطيع أنْ تُحضر زجاجة شمبانيا؟ يجب أنْ أشرب شمبانيا. أعصابي! أعصابي! "

ويُحاولُ فيلمور أنْ يهمسَ ببعض الكلمات في أذني، " ممثلة... نجمة سينمائية... هجرها أحدهم ولا تستطيع أنْ تنسى الأمر... سأُسكِرها... "

" سوف أذهب الآن ". كنتُ أقول هذا حين قاطعتنا بصرخة: " لماذا تتهامسان هكذا؟ "، وهي تضرب قدمها بالأرض، " ألا تعلمان أنَّ هذا قلّة أدب؟ أنت، ظننتُكَ ستأخذني لنسهر؟ يجب أنْ أسكر هذه الليلة، لقد قلتُ لك ذلك الآن "

قال فيلمور " نعم، نعم، سوف نذهب بعد دقيقة، أريد فقط أنْ أشرب كأساً آخر "

زعقَتْ " أنت خنزير! لكنكَ فتى لطيف أيضاً. لكنَّ صوتك عال، وقليل التهذيب ". ثم التفتت نحوي، " هل يمكنني أنْ اعتمدَ عليه في حُسن السلوك؟ يجب أنْ أسكر هذه الليلة ولكن لا أريده أنْ يُخزيني. قد أعود إلى هنا لاحقاً. أودُّ أنْ أتحدث معك. تبدو لي أكثر ذكاءً "

حين قـرّرا الذهاب شدّتْ الأمـيـرة على يدي بمودّة ووعـدتْ بالمجيء على العشاء ذات أمسية – وقالت " حين أكون بكامل وعيي "

قلتُ " عظيم! أحضري معكِ أميرة أخرى – أو كونتيسة على الأقل. إننا نُغيِّر الملاءات كل يوم سبت "

عند قرابة الثالثة صباحاً عاد فيلمور وهو يترنَّح... وحده، مُشرِقاً كمنارة المحيط، وهو يُثير ضجيجاً كأعمى يضربُ عصاه، تاب، تاب، تاب، على أرض الزقاق، ويقول وهو يتجاوزني، " إلى السرير فوراً، سأخبرك كل شيء في الغد "، ويدخل غرفته ويُزيح الأغطية جانباً، وأسمعه يزمجر " يا لها من امرأة! يا لها من امرأة! ".وبعد لحظة يخرجُ ثانية، مُعتمراً قبعته وعصاه في يده، " كنت أعلم أنَّ شيئاً كهذا سيحدث. إنها مجنونة! "

ويدورُ في أنحاء المطبخ باحثاً، ويعود بعد قليل إلى الداخل مع زجاجة من الآنجو. وأضطرُ إلى الجلوس لأشاركه معاقرة الخمر.

حسب ما تسعفني الذاكرة على لملمة أطراف القصة فإنَ كل شيء بدأ في الرون–بوان جو شانزليزيه حيث توقَّفَ لشرب كأس في الطريق إلى المنزل. وكالمعتاد في تلك الساعة كانت المصطبة مُزدحمة بالصقور، وهذه المرأة كانت جالسة في الممشى وقد وضعت أمامها كومة من الصحاف، كانت جالسة وحدها تسكر بهدوء حين تصادفَ أنْ مرَّ فيلمور ووقعَ نظره عليها. وقهقهتْ قائلة "إنني سكرى، ألا تودّ أنْ تجالسني؟".

ثم، وكأنَّ ما تفعله هو أكثر الأمور عادية في العالم بدأتْ تصخب وهي تتحدث عن قصتها مع مُخرجها السينمائي، وكيف أساء معاملتها وكيف رَمَتْ بنفسها في نهر السين وهكذا الخ، الخ. ولم تعد تذكُر على

أي جسر حدثَ هذا، لا تتذكَّر إلا الحشد الذي تجمّعَ بعد أنْ انتشلوها من الماء. ثم، ما أهمية أنْ يعرف الجسر الذي رَمَتْ بنفسها منه - لماذا يسأل مثل هذه الأسئلة؟ كانت تضحك ضحكاً هستيرياً على ما حدث، وفجأة تملّكتها رغبة في الانطلاق - أرادتْ أنْ ترقص. ولما رأتْ تردُّده فتحتْ حقيبتها باندفاع وأخرجت ورقة مالية بمئة فرنك. وفي اللحظة التالية قررتْ أنَّ المئة فرنك لن تكفي. قالت " ألا تحمل أي نقود؟ ". كلا، لا يحمل الكثير منه في جيبه، ولكن لديه دفتر شيكات في المنزل. وهكذا انطلقا طلباً لدفتر الشيكات. وبعد ذلك، طبعاً، تصادفَ أنْ دخلتُ في الوقت الذي كان يشرح لها الـ " لا أكياس مخدات، لا قمصان! "

في طريقهما إلى المنزل توقّفا في محل " السمكة الذهبية " لتناول وجبة سريعة ازدردَتها مع قليلٍ من الفودكا. كانت وسط الجو الذي يُلائمها وكلهم يُقبِّلون يدها ويُغمغمون " أميرتي، أميرتي ". وعلى الرغم من سُكرها تمكّنَتْ من الحِفاظ على وقارها، وبينما هما يرقصان راحت تُكرِّر، " كفاكَ هزاً لمؤخرتكَ هكذا! "

كانت فكرة فيلمور، حين أعادها إلى الشقّة الصغيرة، أنْ يمكثا هناك، ولكنْ لمّا كانت فتاةً ذكية وغريبة الأطوار، قرَّر أنْ يصبر على نزواتها ويؤجّل الحدث الجلل. بل إنه تصورَّ إمكانية إيجاد أميرة أخرى والعودة بهما معاً إلى المنزل حين خرجا لقضاء الأمسية كان مزاجه رائقاً ومستعداً، عند الضرورة، لإنفاق بضع مئات من الفرنكات عليها. فقبل كل شيء، لا يُصادفُ المرء أميرة كل يوم.

هذه المرة جرّته إلى مكان آخر، مكان كانت فيه معروفة أكثر، حيث لم يحدث التباسٌ حول صرف الشيك، كما قالت. الجميع يرتدون ملابس

السهرة وكان هناك الكثير من التفاهات، مثل الانحناءات التي تكسر الظهر، وتقبيل الأيدي بينما النادل يقودهما إلى المائدة.

في منتصف الرقصة إذا بها تندفع فجأةً خارجة من الحلبة والدموع في عينيها، فقال " ماذا حدث؟ ماذا فعلتُ هذه المرة؟ "، وبحركةٍ عفوية وضَعَ يده على عجزِه مَخافةَ أنْ يكون لا يزال يهتز. قالت " لا شيء، أنتَ لم تفعل أيَّ شيء. هيا، أنتَ ولد طيب ". ومع تلك الكلمات سَحَبته ثانيةً إلى الحلبة وانخرطا في الرقص، وغمغمَ " ولكن ما بكَ؟ "، وكررت " لا شيء، شاهدتُ أحدهم، هذا كل شيء ". ثم، وبنوبةِ غضبٍ مفاجئة - " لماذا أسكَرتني؟ ألا تعرف أنَّ هذا يُثيرُ جنوني؟ "

وأردفَتْ " هل معك شيك؟ يجب أنْ نخرج من هنا ". ثم نادتْ على النادل وهمست له بالروسية. وبعد ذهاب النادل، سألته " هل هو شيك مضمون؟ ". وبعد ذلك تابعتْ باندفاع: " انتظرني في الطابق السفلي في غرفته الملابس. يجب أنْ أُجري اتصالاً هاتفياً مع أحدهم ".

بعد أنْ أحضَرَ النادلُ باقي النقود هبط فيلمور الدرَج مُتهادياً إلى غرفة الملابس في الطابق السُفلي لينتظرها. وراح يتمشّى جيئة وذهاباً، مُهمهماً ويُصفِّرُ بصوتٍ خافت، يتلمّظ بشفتيه متوقّعاً مجيء الكافيار. ومرّت خمس دقائق. ثم عشر. ولا يزال يُصفّر بهدوء. ولما مرّتْ عشرون دقيقة ولم تعُد الأميرة بدأتْ ريبته تتعاظم. وقال له خادم غرفة الملابس إنها غادرتْ منذ زمنٍ طويل، فاندفعَ إلى الخارج. كان هناك زنجي في زيّه الرسمي يقفُ هناك وعلى وجهه ابتسامةٌ عريضة. فهل يعرف الزنجي إلى أينَ فرَّتْ؟ ويبتسم الزنجي، ويقول الزنجي " سمعتُ كلمة الكوبول، فقط يا سيدي! "

في الكوبول، في الطابق السفلي، يجدها جالسة أمام كأسٍ من الكوكتيل وعلى وجهها تعبيرٌ حالم أقرب إلى النشوة. وحين تراه تبتسم، فيقول " أمِنَ اللباقة أنْ تهربي هكذا؟ كان من الممكن أنْ تقولي إني لا أعجبك... "

استعرَتْ من الغيظ لهذا الكلام، وتلبَّستها مسحةٌ مسرحية. وبعد الكثير من الصراخ بدأتْ تئن وتُرِيِّل، وقالتْ وهي تنتحب، " أنا مجنونة، وأنت أيضاً مجنون، وتريدني أنْ أضاجعك، وأنا لا أريد ذلك ". ثم باشرت هذيانها عن حبيبها، المخرج السينمائي الذي رأته في حلبة الرقص. هذا هو سبب هروبها. ولهذا هي تتعاطى المخدرات وتسكر في كل ليلة؛ ولهذا رَمَتْ بنفسها في السين. وتابعَتْ ثرثرتها فتحدَّثَتْ عن مدى جنونها، وفجأةً خطرت على بالها فكرة، " فلنذهب إلى محل بريكتوب "، فهناك رجلٌ تعرفه... وَعَدَها ذات مرة بعمل، وهي متأكدة من أنه سيُساعدها.

سألها فيلمور بحذر " وكم سيكلِّف ذلك؟ "

سيكلِّفُ الكثير، أخبرَتْه بهذا دون مواربة. " لكنْ اسمع، إذا أخذتني إلى محل بريكتوب، أعدكَ بالذهاب معك إلى المنزل ". كانت صادقة إلى درجة أنها أضافتْ أَنَّ ذلك سيكلِّفُه خمسمائة أو ستمائة فرنك. " لكنني أستحق هذا المبلغ! أنتَ لا تعلم قيمتي كامرأة؛ لن تجدَ مثيلاً لي في باريس كلها... "

وثارت حميّته الأميركية. " هذا رأيكِ أنت! أما أنا فلا أرى ذلك. أنا لا أرى أنكِ تستحقين أي شيء. ما أنتِ إلا عاهرة حقيرة مجنونة. بصراحة، أفضل أنْ أعطي خمسين فرنكاً لفتاة فرنسية مسكينة، فهن على الأقلّ يُعطينني شيئاً في المقابل "

كادت ترتطم بالسقف عند ذِكر الفرنسيات، " إياك أنْ تأتي على ذِكر أولاءِ النسوة! أنا أكرههن! إنهنّ حمقاوات... ودميمات... إنهن مرتزقات. أقول لكَ كفى! "

خلال دقيقة من الزمن كانت قد خَمَدَتْ من جديد. وبدأتْ نغمة جديدة، فغمغمت " حبيبي، أنتَ لا تعرف كيف أبدو حين أتعرّى. أنا جميلة! "، وحمَلَتْ ثدييها بكلتا يديها.

لكنّ فيلمور ظلّ جامداً وقال ببرودة " ما أنتِ إلا عاهرة! لن أُنفق عليك ولا حتى بضع مئات من الفرنكات، لكنك معتوهة. إنك حتى لم تغسلي وجهك. وأنفاسك كريهة. لا يهمني إنْ كنتِ أميرة أم لا... لا أريد أي شيء من تشكيلتك الروسية ذوات المؤخرات العالية. يجب أنْ تخرجي إلى الشارع وتتحرّشي بالرجال لتحصلي على ما تريدين. لستِ أفضل من فتاة فرنسية مسكينة. ولا تجارينها في الجودة. لن أتبوّل سواً واحداً عليك. يجب أنْ تذهبي إلى أميركا – فهي المكان المناسب لعَلَقَة مصّاصة دماء مثلك... "

لم يبدُ عليها أنها تأثّرتْ بهذا الكلام، بل قالتْ " أعتقد أنكَ تخافني قليلاً "

" أنا أخاف منك؟ أنت؟ "

قالت " ما أنتَ إلا ولَدْ صغير. ولستُ لبقاً. حين ستعرفني بشكل أفضل ستغيّر طريقة حديثك معي... لماذا لا تحاول أنْ تكون رقيقاً؟ إذا لم تكن ترغب في الذهاب معي هذه الليلة، لا بأس سأكون في الرون-بوان غداً بين الساعة الخامسة والحادية عشرة. أنت تعجبني "

" لن أكون في الرون-بوان غداً، ولا في أي أمسية أخرى! لا أريد أنْ أرى وجهك بعد الآن... أبداً. انتهى كل شيء بيننا. سأذهب لأبحث لنفسي عن فتاة فرنسية صغيرة وجميلة. أما أنت فاذهبي إلى الجحيم!"

نظرتُ إليه وابتسمت بضجر. "هذا ما تقوله الآن. لكن مهلاً! مهلاً حتى تضاجعني. أنت لا تعرف بعد أي جسم جميل لدي. أنت تعتقد أنَّ الفرنسيات يعرفن ممارسة الحب... ولكن انتظر! سأجعلك تجنّ بي. أنت تعجبني. كل ما في الأمر أنك غير متحضر. ما أنتَ غير صبي. وثرثار..."

قال فيلمور " أنت مجنونة، لن أقع في حبائلك، ولو كنت آخر امرأة على وجه الأرض. اذهبي إلى بيتك واغسلي وجهك "، وابتعد جون كي يدفع ثمن المشروب.

وفي غضون بضعة أيام نُصِّبَتْ الأميرة. إنها أميرة حقيقية، ونحن متأكدون تماماً من ذلك. لكنها مُصابة بالسيلان. على أي حال، الحياة أبعد ما تكون عن الملل هنا. وأُصِّيبَ فيلمور بالنزلة الشُعبية. وكما قلتُ، أُصيبَت الأميرة بالسيلان، وأُصِبتُ أنا بالبواسير. لم أكن أقوم سوى بتبديل الزجاجات الست الفارغة من عند البقّال الروسي الكائن في الطرف الآخر من الشارع. ولم تنزل منها قطرة واحدة في حنجرتي. لا لحمَ، لا خمر، لا طرائد دسمة، لا نساء. فقط فاكهة وزيت البرافين، وقطرات الأرنيكا ومرهم الأدرنالين، وممنوع الجلوس على مقعد مريح جداً. والآن، وأنا أنظر إلى الأميرة، أنتصبُ في جلستي كأني باشا.

باشا! هذا يُذكّرني باسمها: ماشا. لا يبدو لي اسماً أرستقراطياً. يُذكرني بمسرحية *الجثة الحيّة*[٣٩].

في أول الأمر ظننتُ أنها ستكون شيئاً مُربِكاً، أقصد هذه " العلاقة الثلاثية ". لكنها لم تكن كذلك أبداً. وحين رأيتها تدخل ظننتُ أنه لم يعُد لي شأنٌ في المنزل، وأنَّ عليّ أنْ أجد لي مكاناً آخر. ولكنْ سرعان ما أفهمني فيلمور أنه فقط يُنزلها عنده ريثما تقفُ على قدميها. ولا أعرف ماذا تعني عبارة كهذه مع امرأة مثلها، فحسبما أرى كانت أحوالها رخيّة طوال حياتها. تقول إنَّ الثورة سبَّبَتْ نزوحها عن روسيا، لكني متأكد من أنه لو لم تكن الثورة لكان شيئاً آخر. وهي تتوهّم دائماً أنها ممثلة عظيمة، ولم نحاول أنْ نعارضها في أي شيء تقوله لأنه مضيَعَة للوقت. وفيلمور يجدها مسلّية. حين يتوجه إلى مكتبه صباحاً يترك عشر فرنكات على وسادتها وعشراً على وسادتي، وفي المساء نذهب نحن الثلاثة إلى المطعم الروسي في المنطقة السفلى. الحي مملوء بالروس وقد وجدتْ ماشا لتوّها مكاناً تلجأ إليه عندما تحتاج إلى المال. وطبعاً عشر فرنكات في اليوم لا تساوي أي شيء بالنسبة إلى أميرة، فهي تريد كافياراً بين الحين والآخر مع شمبانيا، وهي بحاجة إلى خزانة ملابس جديدة تماماً لتعود إلى العمل في السينما من جديد. ليس لديها ما تفعله غير قتل الوقت. وهي تزداد بدانة.

---

٣٩ - " الجثة الحيّة " : مسرحية للكاتب الروسي ليو تولستوي (١٩٢٨ - ١٩١٠) ، صدرت بعد وفاته ولاقت نجاحاً واسعاً . قام بإخراجها للمرة الأولى عام ١٩١١ المخرج الروسي العظيم كونستانتين ستانسلافسكي (١٨٦٣ - ١٩٣٨) . بطلتها اسمها ماشا . - المترجم

هذا الصباح أُصبتُ برعب حقيقي. فبعد أنْ غسلتُ وجهي تناولت منشفتها خطأً. ويبدو أننا لا ننجح في تعويدها على تعليق منشفتها على المشجب المُخصَّص لها. وحين وبَّختُها من أجل ذلك، أجابت بنعومة، "يا عزيزي، لو أنَّ هذا يُسبِّب العمى لأحد لأُصِبتُ بالعمى منذ سنين طويلة"

ثم هناك المرحاض، وكلنا نستعمله. حاولتُ أنْ أكلِّمها بطريقةٍ أبويّة عن مقعد المرحاض، فإذا بها تقول: " أوه، اللعنة! إنْ كنتَ خائفاً إلى هذا الحد سألجأ إلى مرحاض المقهى "، فأشرحُ لها أنه لا داعي لذلك. فقط كوني حريصة في استخدامه، فتقول " تت، تت، إذن لن أجلس... سأبقى واقفة "

في وجودها اضطربَتْ الأمور كلها. أولاً أخذَتْ تتحاشانا، لأنها كانت تمرُّ بدورتها الشهرية. استمرَّت ثمانية أيام. وبدأنا نظن أنها تخدعنا. ولكن كلا، لم تكن تخدعنا، ففي أحد الأيام، بينما كنتُ أُرتِّبُ المكان، عثرتُ على بعض القطن محشور تحت السرير ومُلطَّخ بالدم. وكل شيء معها يذهب تحت السرير: قشور البرتقال، حشوة السطم، قِطع الفلّين، زجاجات فارغة، مقصّ، واقيات ذكرية مستعملة، كتب، وسائد... ولا تُعِدّ السرير إلا عندما تريد اللجوء إليه. طوال الوقت تضطجع على السرير. هذا هو حالها تماماً! لا شيء غير الصُحف الروسية. ولا تجد قطعة واحدة من ورق المراحيض حولك - لا تجد غير الصحف الروسية لتمسح بها مؤخرتها.

على أي حال، بمناسبة الحديث عن حساسيتها المُفرِطة فبعد أنْ انتهى حيضها الشهري، وبعد أنْ استراحت كما يجب وكدَّسَت كمية لا بأس بها من الدهن حول بطنها، ظلَّتْ تتحاشانا، مُدَّعيةً أنها لا تميل إلا إلى

النساء، ولكي تقبل رجلاً يجب أنْ تُستشار أولاً كما يجب. وطلَبَتْ منا أنْ نأخذها إلى بيت للدعارة حيث يعرضون فصل الكلب والرجل. أو ليته يكون، كما قالتْ، مشهد ليدا والبجعة: فإنَّ تصفيق الجناحين يُثيرها بقوة.

وذات ليلة، وعلى سبيل اختبارها، صحبناها إلى مكانٍ اقترَحَته بنفسها. ولكن قبل أنْ تُتاح لنا فرصة شرح الموضوع للمدام، انخرط إنكليزيٌ ثمل، كان يجلس على المائدة المجاورة، في الحديث معنا. كان قد صعدَ إلى الطابق العلوي مرتين حتى الآن ولكنه أراد أنْ يُجرِّب مرة أخرى. لم يكن في جيبه غير عشرين فرنك، ولا يعرف أي كلمة فرنسية، فطلب أنْ نساعده في عقد صفقة مع فتاة وضع عينه عليها. وتصادفَ أنْ كانت زنجية، فتاة قوية من المارتينيك، وجميلة جمال فهد. وكان مزاجها رائقاً أيضاً. ولكي يُقنعها بقبول فرنكات الإنكليزي المُتبقّية كان على فيلمور أنْ يعِدها بمرافقتها حالما تنتهي من الإنكليزي. وشاهدتْ الأميرة وسمعتُ كل ما قيل، وأظهرتْ تحفّظها المتعض. لقد أُهينَتْ. قال فيلمور " حسن، لقد أردتُ بعض الإثارة - يمكنك أنء تراقبينني وأنا أمارس الجنس! ". لم ترغب في مشاهدته بل أرادت أنْ تراقب ذكَر البط، فقال " يا إلهي! إنني جيد مثل ذكَر البط في أي يوم تريدين... بل ربما كنتُ أفضل بقليل ". وهكذا كلمة جرَّتْ أخرى، ووجدنا أخيراً أنَّ الطريقة الوحيدة لتهدئتها هي إحضار إحدى الفتيات لتدغدغ إحداهما الأخرى... ولما عاد فيلمور مع الزنجية كانت عيناها تلتهبان. وفهمت من طريقة فيلمور في النظر إليها أنها قامت بأداء فائق للعادة، وبدأتُ أهتاج بدوري، ولابد أنَّ فيلمور أحسَّ بشعوري هذا، وبمدى صعوبة محنة مجرد

الجلوس والنظر، لأنه فجأة تناول من جيبه ورقة بمئة فرنك وقال وهو يضعها بقوة أمامه " انظر هنا، ربما كنتُ بحاجة إلى مضاجعة أكثر من أي إنسان. خذ هذه واختر لنفسك من تشاء "، وقد جعلته هذه اللّفتة مُحبباً لدي أكثر من أي شيء آخر فعله لأجلي، وقد فعلَ الكثير. وقبلت النقود بالروح نفسها التي منحت لي وعلى الفور أشرتُ إلى الزنجية بالاستعداد لمضاجعة أخرى. ويبدو أنَّ هذا أثار سخط الأميرة إلى أقصى مدى. وأرادتْ أنْ تعرف ألا يوجد في المكان أفضل من هذه الزنجية. فأجبتها بفظاظة لا. وبُتَّ الأمر - وكانت الزنجية هي ملكة الحريم. كان يكفي أنْ تنظر إلى وجهها حتى يحصل لديك انتصاب. كانت عيناها تبدوان وكأنهما تسبحان في المني. وكانت ثملة بالطلبات المنهالة عليها. ولم تعُدْ تستطيع أنْ تسير باستقامة - أو على الأقلّ هذا ما خُيّلَ إليّ. كنتُ وأنا أتبعها صاعداً الدَرَج الضيِّق اللولبي لا أقوى على مقاومة إغراء زَلق يدي في فرجها، وتابعنا طريقنا صعوداً ونحن على ذلك المنوال، وهي تنظر إليّ وتبتسم بمرح وتهزّ مؤخرتها قليلاً حين لا تعود تصبر على شِدة الدغدغة.

كانت جلسة ممتعة للجميع. وكلهم سعداء. حتى ماشا بدتْ بمزاجٍ طيب. وفي الليلة التالية، بعد أنْ نالتْ نصيبها من الشمبانيا والكافيار، ذهبَ فيلمور ليعمل فيها، وبدا كأنه قد أوشك على الفوز بجائزته أخيراً، فقد توقّفتْ عن إثارة الشجار، واستلقتْ على ظهرها وباعدتْ ما بين ساقيها وتركته يُحاورها ويُداورها ومن ثم، ما أن بدأ باعتلائها، وكاد يُدخِله فيها إذا بها تُخبره بلا مبالاة أنها مُصابة بالسيلان، فرفسها بعيداً عنه كقطعة من الخشب. وأسمعه يتحسّس في المطبخ بحثاً عن الصابونة

السوداء التي كان يستخدمها في مناسبات خاصة، وبعد قليل وقف بجوار سريري وهو يحملُ منشفة بيديه ويقول " أرأيت؟ بنت الحرام الأميرة مُصابة بالسيلان؟، وبدا عليه الخوف الشامل. وكانت الأميرة في تلك الأثناء تمضغ تفاحة وتتصل هاتفياً لإحضار صُحفها الروسية. فالأمر بالنسبة إليها كان محض فكاهة. وتخاطبنا وهي مستلقية هناك على السرير من خلال الباب المفتوح، " هناك أشياء أسوأ من هذا ". وأخيراً يبدأ فيلمور بدوره بتقبّل الأمر على أنه فكاهة فيفتح قنينة آنجو ويصبّ لنفسه كأساً ويعبّه عبّاً. ولم تكن الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً لذلك جلس ليتحدث معي قليلاً. قال إنه لم يدع أمراً كهذا يخذله. وطبعاً عليه أنْ يأخذ حَذَره... فلا يزال يذكر المرض القديم الذي أُصيبَ به في الهافر. ولم يعد يذكر كيف وقعَ ذلك. أحياناً كان يسكر لكي ينسى أنْ ينظّف نفسه. والأمر ليس مُريعاً جداً، ولكن لا يعلم المرء كيف يمكن أنْ يتطورّ. لم يكن يرغبُ في أنْ يدلّكَ له أحد غدة البروستات. كلا، لم يكن يستسيغ ذلك. وقد أُصيبَ به أول مرة حين كان طالباً في الجامعة. ولا يعرف إنْ كانت الفتاة هي التي نَقَلَتْ المرض له أو هو الذي نَقَلَه إليها، فهناك الكثير من الأمور الغريبة التي تجري حول حَرَم الجامعة حتى إنكَ لا تعرف مَنْ تُصدِّق. وجميع الطالبات كنَّ يحبلنَ في وقتٍ من الأوقات. إنهنَّ جاهلات تماماً... حتى الأساتذة أيضاً كانوا جهلة. وأحدهم أخصى نفسه، كما أُشيع...

على أي حال، في الليلة التالية قرَّر أنْ يُجازف - بغلافٍ واقٍ. لا كبير مُجازفة في ذلك، إلا إذا تمزَّق. لقد اشترى واحدة من مجموعة جلد السمك الطويل - وأكَّدَ لي أنه الأجود. ولكن، حتى هذا لم ينجح. لقد

كانت كتيمةً جداً. قال " يا إلهي! ليس بي ما هو غير سويّ، فكيف تفهم هذا؟ لاشك في أنَّ أحدهم قد دخلَ فيها ونقل المرض إليها. لابد أنه كان قصيراً بصورة شاذة "

وهكذا تتالى الفشل بعد الآخر، وتخلّى عن الأمر كله. وأصبحا الآن يستلقيان هناك كأخٍ وأخته، يحلمان أحلاماً سفاحيّة. وتقول ماشا، بأسلوبها الفلسفي " في روسيا كثيراً ما يحدث أنْ ينامَ رجلٌ مع امرأة دون أنْ يلمسها. ويمكنهما أنْ يستمرا على هذا الشكل مدة أسابيع وأسابيع دون أنْ يفكّرا بالعملية. وفجأةً، ما أنْ يلمسها حتى... بف! بف! وبعد ذلك يستمر البَفْ، بَفْ، بَفْ!

ثم تركّزت الجهود كلها على علاج ماشا. وفكَّرَ فيلمور في أنه إذا شفاها من سيلانها فقد تلين. فكرة غريبة. ومن أجل ذلك ابتاع لها حقيبة دوش، وبعض البرمنغنات، وحقنة دوّارة وأشياء صغيرة أخرى كان أوصاه بها طبيب هنغاري، وهو دجّال اختصاصي في الإجهاض يقطنُ قريباً من البلاس داليغر. ويبدو أنَّ رئيسه كان قد تسبَّبَ في حَبَل فتاة في السادسة عشرة ذات مرة وهي التي عرفته بالهنغاري، ثم أُصيبَ الرئيس بقُرحة تناسلية جميلة واستُدعى الهنغاري مرة أخرى. وهكذا يتعارف الناس في باريس - يُقيمون صداقات بول-تناسلية geneto-urinary. وهكذا، أخذت ماشا تعتني بنفسها تحت إشرافنا الصارم. إلا أننا ذات ليلة وقعنا في مأزق صغير. فقد وَضَعَتْ التحميلة داخلها ولم نعثُر على الخيط المُعلّق بها وصرخت " يا إلهي أين الخيط؟ يا إلهي! إنني لا أرى الخيط! "

فقال لها فيلمور " هل فتشتِ تحت السرير؟ "

وأخيراً هدأتْ. ولكن فقط لبضع دقائق. أما الحَدَث الثاني فكان: "يا إلهي! إنني أنزف من جديد. لقد أنهيتُ دورتي وها أنا أرى اللطخ من جديد. لابد أنه بسبب تلك الشمبانيا الرخيصة التي جلبتها. يا إلهي! أتريدني أنْ أنزف حتى الموت؟ "، وتخرج بثوب الكيمونو وقد حشرَتْ منشفة بين فخذيها، محاولةً كعادتها أنْ تبدو محترمة. وتقول "حياتي كلها على هذا الشكل. إنني منهارة الأعصاب. طوال النهار ألفُّ وأدورُ، وفي الليل أسكر ثانية. حين أتيتُ إلى باريس كنتُ لا أزالُ فتاةً بريئة. لم أقرأ إلا فيّون وبودلير. ولكن لما كنتُ أملك عندئذٍ ٣٠٠٠٠ فرنكاً سويسرياً في المصرف كدتُ أُجن رغبة في الانغماس في المتعة، لأنهم في روسيا كانوا متشدّدين معي. وكنتُ عندئذٍ أكثر جمالاً مما أنا عليه ألآن، كان الرجال يرتمون تحت قدمَيَّ". وهنا رفعَتْ بسرعة ثوبها المتراكم عند الخصر، " يجب ألا تظن أنه كان لي كرش كهذا حين أتيتُ إلى هنا... إنه من السموم التي قُدِّمَتْ إليَّ وشربتُها... تلك المشهيات الرهيبة التي يولع الفرنسيون بشربها... وبعد ذلك قابلتُ المخرج السينمائي وطلبَ مني أنْ أمثِّل له مشهداً تمثيلياً. قال إني أروع مخلوقة في العالم وتوسّلَ إليَّ أنْ أضاجعه كل ليلة. كنتُ عذراء صغيرة بلهاء. وهكذا، سمحتُ له باغتصابي ذات ليلة. لقد أردتُ أنْ أصبحَ ممثلة عظيمة ولم أعرف أنه مملوء بالسُم الزعاف. ونقلَ إليَّ السيلان... والآن أريده أنْ يستعيده ثانية. لقد حاولت الانتحار في نهر السين بسببه... إنَّ صورتي تظهر في جميع الصُحُف. سأريك الصحف الروسية ذات يوم... لقد كتبوا عني كلاماً رائعاً... ولكن، يا عزيزي، أنت تعلم أني أولاً يجب أنْ أحصل على ثوب جديد. لا يمكنني أنْ أغوي هذا الرجل

بهذه الأسمال القذرة التي أرتديها. ثم أني لا أزال أدين للخياط بمبلغ ١٢٠٠٠ فرنك... "

وبدءاً بهذه النقطة فصاعداً تبدأ قصة طويلة عن الميراث الذي تحاولُ تحصيله. لديها محامٍ شاب، فرنسي وهو رعديد، على ما يبدو، ويحاول أنْ يربح قضية استعادة ثروتها. وبين آنْ وآخر يُعطيها مئة فرنك أو نحوها على الحساب. وتقول عنه " إنه شحيح، كجميع الفرنسيين. ثم إني كنتُ جميلة جداً أيضاً، حتى إنه لم يكن يبعد عينيه عني. وظلّ يتوسل إليّ كي أنيكه. ومللتُ الاستماع إليه حتى إني في إحدى الأمسيات قلتُ نعم، فقط لإسكاته، وأيضاً لكي لا أخسر المئة فرنك التي أحصل عليها أحياناً ". وسكتت لحظة لتضحك بعصبيّة. ثم تابعت " يا عزيزي إنَّ ما حدث لي مضحك بحيث يعسر التعبير عنه بالكلمات. فقد اتَّصل بي ذات يوم هاتفياً ليقول لي يجب أنْ أراك الآن... لأمرٍ هام جداً. وحين قابلته عَرَضَ عليّ ورقة من الطبيب - إنه السيلان! يا إلهي، لقد ضحكت في وجهه. كيف كان يمكن أنْ أعرف أني ما زلتُ مُصابة به؟ قلتُ له " أردتَ أنْ تنكني فنكتك "، فسكت. هذه هي الحياة... في أول الأمر لا ينتابك أي ريب في شيء، وفجأةً بف، بف بف! لقد كان مُغفلاً كبيراً حتى يقع في حبائلي مرة ثانية. كل ما طلبه مني كان أنْ أحتشم وألاّ أقضي الليل متجولة في أرجاء مونبرناس أسكر وأنيك. وقال إني أدفعه إلى الجنون. وطلبَ أنْ يتزوجني ثم سمعَ أهله عني وأقنعوه بالذهاب إلى الهند الصينية... "

ومن هذا الموضوع تحوَّلتْ ماشا بهدوء إلى علاقةٍ كانت تُقيمها مع إحدى السحاقيات. " كان أمراً مُضحكاً، يا عزيزي، حين أخذتني معها

ذات ليلة. كنتُ في حانة " الفتيش " وكنتُ ثملة كالمعتاد. وراحت تنقلني من مكانٍ إلى مكان ومارست الحب معي تحت الطاولة طوال الليل حتى هَلَكَتْ. ثم صحبتني إلى شقّتها ومقابل مئتي فرنك تركتُها تمتصني. أرادت أنْ تستبقيني لأعيش معها لكني كرهَتُ أنْ تمتصني في كل ليلة... إنه شيء مُهلك. ثم أؤكد لك أني لم أعُدْ آبه بالسحاقيات كما كنتُ قبلاً. وأفضّل أنْ أضطجع مع رجلٍ على الرغم من أنَّ ذلك يؤذيني. فحين يصل هياجي إلى أقصاه لا أستطيع منعَ نفسي... ثلاث، أربع، خمس مرات... ثم هكذا بف، بف، بف! وأنزف، وهذا غير صحي بالنسبة إليّ لأنَّ عندي استعداداً للإصابة بفقر الدم. لهذا كما ترى يجب أنْ أدع إحدى السُحاقيات تمتصني مرةً كل حين... "

ما أنْ حلَّ فصل البرد حتى اختفتْ الأميرة. وازداد الوضع إزعاجاً مع قِلّة فحم المدفأة في الشقة الصغيرة، وباتت غرفة النوم كعلبة من الجليد، ولم يكن المطبخ أحسن حالاً. كانت هناك فقط مساحة صغيرة حول المدفأة تتمتع بدفء حقيقي. وعثرتْ ماشا على نحّات مَخصي. وأخبرتنا بشأنه قبل ذهابها. وبعد بضعة أيام حاولتْ أنْ تعود إلينا، لكنَّ فيلمور لم يقبلها. اشتكَتْ من أنَّ النحّات حَرَمَها من نوم الليل وهو يُقبّلها. ثم إنه لا يوجد ماء ساخن لتأخذ دوشها. لكنّها أخيراً قرَّرتْ أنها مع ذلك لا تودّ أنْ تعود. " فلا أريد أنْ أجد ذلك الشمعدان بجانبي بعد اليوم، دائماً أجد ذلك الشمعدان... إنه يُثيرُ أعصابي. لو أنكَ كنتَ شاذاً جنسياً لبقيتُ معك... "

وبذهاب ماشا أصبح لأمسيتنا طابع مختلف. كنا كثيراً ما نجلس بالقرب من الموقد نشرب التودي الساخن ونناقش حياتنا حين كنا في الولايات المتحدة. كنا نتحدث عنها وكأننا لا نتوقَّع أنْ نعود إلى هناك أبداً. وكان لدى فيلمور خريطة لمدينة نيويورك، مُعلَّقة على الجدار، وتعوَّدنا على أنْ نقضي أمسيات بكاملها ونحن نقيم مُقارنة بين حسنات كلٍ من باريس ونيويورك النسبيّة. وكان لابد من أنْ يتسلَّل إلى مناقشتنا شخص ويتمن، ذلك العملاق الفريد الذي أنجبته لنا أميركا خلال حياتها القصيرة. في ويتمن يبعث المشهد الأميركي كله حياً،

ماضيها ومستقبلها، ميلادها وموتها. وقد عبَّرَ ويتمن عن كل قيمة موجودة في أميركا، ولم يبقَ شيء ليُقال. والمستقبل هو للآلة، للبشر الآليين. كان ويتمن شاعر الجسد والروح. أول وآخر شاعر. ويكاد اليوم يكون مُغلقاً على الفهم، نُصُباً مُغطى بكلمات هيروغليفية بدائية لا مجال لحلّ طلسمها. بل إنه لمن الغريب تقريباً ذكرُ اسمه هنا، فلا مثيل في اللغات الأوروبية للغة الروح التي خلَّدها. إنَّ أوروبا مُشبعة بالفن، وتربتها مُفعمة بعِظام الموتى، ومتاحفها تضيقُ بكنوز مسلوبة، أما ما تفتقده أوروبا فهو روحٌ حرّة، سليمة الصحة، يمكنكَ أنْ تسمّيها ***إنسان.*** كان غوته أقرب مدخل، لكنَّ غوته كان قميصاً محشواً، بالمقارنة. غوته كان مواطناً مُحترماً، متحذلقاً، ملولاً، روحاً كونيّةً، لكنّه محتوم بالعلامة الألمانية التجارية، بالصقر المزدوج. إنَّ صفاء غوته، وهدوءه، وموقفه الأولمبي، ما هو إلا غيبوبة النوم لإلهٍ برجوازيّ ألماني؛ إنَّ غوته هو نهاية شيء، وويتمن بدايته.

بعد مناقشةٍ من هذا النوع كنتُ أحياناً أرتدي ملابسي وأخرج لأتمشّى، مرتدياً كنزةً سميكة، ومِعطفَ فيلمور الربيعي وفوقه دثار الكتفين. إنَّ البرد الرطب الشنيع لا مجال لمواجهته إلا بروحٍ قوية. يُقال إنَّ أميركا هي بلد الدرجات القصوى؛ وصحيحٌ أنَّ ميزان الحرارة يُسجل درجات من البرودة لا يسمع بها، عملياً، أحدٌ هنا، لكنَّ بردَ شتاءِ باريس هو بردٌ لا تعرفه أميركا؛ إنه نفسيّ، داخليّ بقدر ما هو خارجيّ. فإذا كان البرد لا يصل إلى درجة التجمُّد هنا فإنه لا يزول أيضاً. وكما يحتمي الناسُ ضد غزو عزلتهم بجدرانهم العالية، وأقفالهم ومصاريع نوافذهم، بحُجَّابهم المُزمجرين، البذيئين، ذوي الألفاظ القذرة، كذلك

تعلّموا أنْ يحتموا ضد برودة وحرارة مناخٍ قويّ ومُنشِّط. لقد تحصّنوا: الحماية هي كلمة السر. الحماية والأمان. وذلك كي ويتعفّنوا بارتياح. وفي ليلة شتائية رطبة ليس من الضروري أنْ ننظر إلى الخريطة لنكتشفَ خط عرض باريس. إنها مدينة شمالية، مخفر أمامي أُقيم فوق مستنقع مملوء بالجماجم والعِظام. على طول الشوارع تمتد مُحاكاة كهربائية باردة للحرارة. وعبارة " tout va bien" (كل شيء على ما يُرام) كُتِبَتْ بأشعةٍ فوق بنفسجية تجعل زبائن سلسلة مقاهي دوبون يبدون كجُثثٍ مُصابةٍ بالأكال. " tout va bien" هذا هو الشِعار الذي يقتاتُ عليه المتسولون البائسون الذين يتسكّعون طوال الليل تحت رذاذ الأشعة البنفسجية. وحيثما توجد الأضواء يوجدُ قليلٌ من الدفء. ويتدفّأ المرءُ بالنظر إلى أولاد حرام بدينين مُطمئنين يجرعون مشروباتهم، ويرتشفون أكواب القهوة السوداء المتبخّرة. وحيثما توجد الأضواء يوجد أناسٌ يقفون على الأرصفة، يحكُّ بعضهم بعضاً، يبعثون قليلاً من الحرارة الحيوانية من خلال ملابسهم الداخلية القذرة، وأنفاسهم الكريهة المُجدفة. وقد يبدو على مدى ثمانية أو عشرة من الأبنية مظهر من البهجة، وفجأةً يتراجعُ مسرعاً داخل الليل، ليلٍ موحش، بشع، أسود كشحمٍ متجمّدٍ في وعاء حِساء. كتلٌ وكتلٌ من المباني المُثلّمة، كل نافذة فيها موصدة بإحكام، كل واجهة في محل مُزلجَة ومُقفَلة. أميالٌ وأميال من السجون الحجرية تخلو من أوهى وَهَجٍ من دفء؛ الكلاب والقطط كلها في الداخل مع عصافير الكناري. حتى الصراصير وبقّ الفِراش محجوزة بأمان. tout va bien. إذا لم يكن معك سو واحد فلماذا لا تأخذ صُحُفاً قديمة وتفترش دَرَج الكاتدرائية. الأبواب مُحكَمَة الإغلاق ولا خوف من إزعاج التيارات

الهوائية. وأفضل من هذا أنْ تنام على عتبة أبواب المترو، فهناك ستجد لنفسك رفيقاً. انظر إليهم في ليلة ماطرة، متمدّدين هناك، متيبّسين كالحشيات - رجالاً، نساءً، قملاً، كلهم رابضون معاً تحميهم الصُحُف من البصاق والهوام التي تمشي بلا سيقان. انظر إليهم تحت الجسور أو تحت سقيفات السوق العامة. كم يبدون حقيرين بالمقارنة مع الخضروات النظيفة المُعلّقة والمُرصّعة كالجواهر. حتى الخيول الميتة والأبقار والمواشي المُعلّقة من الخطافات المُشحّمة تبدو أكثر إغراءً. إننا على الأقلّ سنأكل تلك اللحوم غداً وحتى الأمعاء ستكون ذات نفع. أما هؤلاء المُعدَمين، القذرين، المُستلقين تحت المطر، إلامَ يهدفون؟ ماذا يمكن أنْ يُقدّموا لنا؟ إنهم يجعلون قلوبنا تنفطر عليهم مدة خمس دقائق، وهذا كل شيء.

آه، حسن، ما هذه إلاّ أفكار ليلية يفرزها المشي تحت المطر بعد ألفي عام من سواد المسيحية. على الأقلّ الآن أطعمتُ العصافير والقطط والكلاب جيداً. كلما مررتُ تحت نافذة الحاجبة ألمحُ نظرتها الجليدية القاسية تمسّني رغبة مجنونة في خنق عصافير الكون كلها. ففي قرارة كل قلب متجمّد هناك قطرة أو قطرتان من الحب - كافيتان لإطعام العصافير.

ما زلتُ عاجزاً عن نسيان مدى التناقُض القائم بين الفِكر والحياة. إنه تشويش مستمر، على الرغم من أننا نحاولُ أنْ نغطيهما بطبقةٍ لمّاعة. لكنّ ذلك لن يُفيد؛ يجب أنْ تكون الأفكار مقرونة بالعمل، فبدون الجنس، بدون الحيوية، لا عمل. الأفكار لا توجد في فراغ العقل؛ الأفكار مُتّصلة بالعيش: هناك أفكارٌ كبِديّة، أفكارٌ كُلويّة، أفكارٌ معويّة... الخ. لو أنّ الفِكر هو للفِكر نفسه لحطّمَ كوبرنيكوس الوجودَ

ولغرِقَ كولومبوس في بحر ساراغوسا. إنَّ جماليّة الأفكار تُنتِجُ أُصصَ الزهور وأنتَ تضعُ أصصَ الزهور على طرَف النافذة. ولكن إذا لم يكن هناك مطر أو شمس فما نفع وضعُ الأصص خارج النافذة؟

لدى فيلمور الكثير من الأفكار عن الذهب. ويُسمّيها " أساطير" الذهب. أنا أحب الـ " أساطير " وأحبُّ فكرة الذهب، لكنَّ لا اهتمام لديَّ بالموضوع ولا أرى داعياً لصنع أُصص للزهور، حتى لو كانت من ذهب. يقول لي إنَّ الفرنسيين يُخفون ذهبهم داخل حُجيرات مملوءة حتى آخرها بالماء وهي بدورها موجودة عميقاً تحت الأرض، ويقول لي إنَّ قطاراً صغيراً يتحوَّل داخل تلك الأقبية والأروقة التحت أرضيّة. تعجبني الفكرة أيّما إعجاب. صمتٌ عميق، لا يُعكّره شيء، يغفو فيه الذهب بهدوء في درجة حرارة تبلغ ١٧ درجة مئوية وربع الدرجة. وهو يقول إنَّ جيشاً يعملُ ٤٦ يوماً و ٣٧ ساعة لن يكون كافياً لإحصاء كل الذهب المُخبّأ تحت بنك فرنسا، وأنه يوجد مخزون من الأسنان المُستعارة، والأساور وخواتيم الزواج الخ. ويوجد أيضاً طعامٌ يكفي ثمانية أيام وهناك بحيرة فوق كومة الذهب لمقاومة الهزّة الناجمة عن الانفجارات الهائلة. ويقول إنَّ الذهبَ يغدو خفيّاً أكثر فأكثر، أسطورة، ولن تحدث اختلاسات أخرى. رائع! أتساءلُ ماذا سيحدث للعالم حين سنبتعد عن قاعدة الذهب في الأفكار، والملبس، والأخلاق الخ، ***عن قاعدة الذهب في الحب!***

حتى هذا الوقت كانت فكرتي عن تعاوني مع نفسي هي في الابتعاد عن قاعدة الذهب في الأدب. لقد كانت فكرتي باختصار هي أنَّ أحدث نهضة في المشاعر، أنْ أُصوِّر سلوك كائن بشري ضمن جو ستراتفوري من الأفكار، أي، في قبضة الهذيان، أنْ أرسم مخلوقاً ما

قبل-سقراطي، نصفه تيس، ونصفه عملاق. باختصار أنْ أُقيم عالماً على أساس النُصُب المركزي omphalos، وليس على فكرةٍ مُجرَّدة مُسمَّرة على صليب. وقد تصادفَ أنْ كان فيه هنا وهناك تماثيل مُهمَلَة، وواحات لم تطأها قدم، وطواحين هواء عاينها سرفانتس، أنهار تصعد التل، نساء ذوات خمسة أثداء أو ستة مُرتَّبة طولانياً على طول الجذع، (كتبَ ستريندبرغ إلى غوغان، قال: " رأيتُ أشجاراً لم يعرفها عالِمْ نبات، وحيوانات لم تكن لتخطر على بال كوفييه وأناساً لا يستطيع غيرك إبداعهم ").

حين بلغ رامبرانت القيمة الاسمية هبط مع قالب الذهب والطعام والأسرة الخفيفة. الذهب كلمة ليلية تنتمي إلى العقل التحت أرضي: chthonian، تحتوي حلماً وأساطير. إننا نرتدّ إلى علِم الخيمياء، إلى تلك الحِكمة الإسكندرية الزائفة التي أنتجتْ رموزنا الضخمة. لقد خزَّنَ بُخلاء المعرفة الحِكمة الحقيقية في أقبيةٍ تحتيّة، وسيأتي اليوم الذي سيدورون فيه حول أنفسهم في الطبقة الجوية الوسطى مزوّدين بأجهزة ممغنطة، ولكي تعثر على قطعة فلز سيكون عليك عندئذٍ أنْ تصعد في الجو عشرة آلاف قدم مزوّداً بآلتَين - ويُستحسَن أنْ يحدث ذلك في منطقة باردة - وتقيم اتّصالاً تخاطرياً مع أحشاء الأرض وأشباح الموتى. لم تعُد هناك مناجم ذهب، ولا مناجم ثراء. عليك أنْ تتعلّم قليلاً من الغناء والطفَر، أنْ تقرأ الطالع وتدرس أحشاءك. إنَّ كل الذهب المُخبّأ بعيداً في جيوب الأرض يجب أنْ يُعاد استخراجه، يجب إخراج كل هذه المظاهر الرمزية من أحشاء الإنسان. ولكن يجب أولاً أنْ تُحسِّن الأدوات حتى الكمال. من الضروري أولاً أنْ تبتكر طائرات أفضل، أنْ تعرف

"مصدر" التشويش وألاّ تخرج عن وعيك لمجرد أنْ تسمع انفجاراً من تحتك. وثانياً من الضروري أنْ تعتاد على الطبقات الجوية الباردة الستراتفوريّة، أنْ تصبح سمكة فضائية ذات دم بارد. لا توقير. لا شفقة. لا ندامات. لا هذيان. وقبل كل شيء، وكما يقول فيليب داتس **"لا إحباط! "**

هذه أفكار مُشرقة ألهمني إياها خمرُ فيرموث في البلاس دو لاترينيته. إنه بعد ظهر يوم سبت وبين يديّ كتاب " مُخفق ". كل شيء يسبحُ في سائلٍ مُخاطي مقدَّس. الخمر يُخلِّفُ وراءه مذاقاً عُشبياً مُرّاً في فمي، ورواسب حضارتنا الغربية العُظمى تتعفَّن الآن كأظافر أقدام القديسين. النسوة تمرّ - أفواجاً أفواجاً - كلّهن يهززنَ مؤخراتهن أمامي، كأجراس الكنيسة تقرع والباصات ترتقي الأرصفة ويُقبّل بعضها بعضاً. صبيُ المقهى يمسح الطاولة بخُرقة قذرة بينما سيده يُدغدغُ صندوق المُحاسبة بطربٍ شيطاني. وعلى وجهي نظرة بلهاء، سكرى، غامضة بحدّة، تقرص المؤخرات التي تحفّ بي. وفي برج الكنيسة عند الطرَف المقَابل يقرعُ الأحدب الأجراس بمطرقة من ذهب والحمام يزعقُ من الفزَع. أفتحُ الكتاب الذي سمّاه نيتشه " أفضل كتابٍ ألماني موجود ". يقول:

" سيُصبح الرجال أشدَّ حذقاً و ذكاءً، ولكن ليس أفضل، أو أسعد، أو أقوى في الفعل - هذا ما سيحدث، على الأقلّ، في عهودٍ معيَّنة. إنني أستشرفُ وقت لن يُبقي الله فيهم أيَّ بهجة، بل سيُبيد كل شيء ليبدأ خلقاً جديداً. أنا متأكد من أنَّ كل شيء مُقرَّر له أنْ ينتهي هذه النهاية، وأنَّ زمن ذلك وساعته مُحدَّدان في المستقبل البعيد. ولكنْ قبل ذلك سينقضي ردحٌ من الزمان، وقد نبقى آلافاً وآلافاً من السنين نتسلّى على هذه الأرض العتيقة العزيزة ".

ممتاز! على الأقلّ فقبل مئة عام كان هناك رجلٌ لديه رؤى كافية ليُدرك أنَّ العالم قد تورَّم. ***عالمنا الغربي***! - حين أشاهد قامات الرجال والنساء تتحرك بلا مبالاة خلف جدران سجنهم مُطمئنين، منعزلين لبضع ساعات، أرتعدُ من الطاقات الهائلة التي لا تزال كامنة في تلك الأجساد الواهنة. خلف الجدران القاتمة هناك شرارات إنسانية، ومع ذلك فلا حريق. وأتساءل، هل أولئك رجال ونساء، أم هم ظلال، ظلال دُمى، مُعلّقة بخيوط خفيّة؟ ظاهرياً يبدو كأنهم يتحركون بحرّية، ولكن ليست لديهم وِجهة يبغونها. هم أحرار في عالمٍ واحدٍ فقط يتنقّلون فيه على هواهم - لكنهم لم يتعلّموا بعد كيف يُحلّقون. حتى الآن لم توجد بعد أحلام مُحلّقة. لم يولد بعد رجل خفيف بما يكفي، " مرح " بما يكفي، ليقدر على مغادرة الأرض! الصقور التي صفَّقَتْ قليلاً بأجنحتها الجبارة تحطَّمَتْ بقوة على الأرض. أصابتنا بالدوار من تصفيق وخفقان أجنحتها. ابقي على الأرض يا صقور المستقبل! السماوات ريدَتْ وهي خاوية. وما تحت الأرض خواء أيضاً، مملوء فقط بالعِظام والأشباح. ابقي على الأرض واسبحي بضع مئات أخرى من آلاف السنين!

الساعة الآن الثالثة صباحاً ومعناها عاهرتان تقومان بشقلباتها على البلاط. فيلمور يتجوّل وهو عار وفي يده كأس، وبطنه مشدود كالطبل وقاسٍ كالناسور. وكل البرنو والشمبانيا والكونياك والآنجو الذي عبَّه منذ الثالثة من بعد الظهر وحتى الآن، يُغرغرُ في محبسه كالمجرور. وتضعُ الفتاتان أذنيهما على بطنه وكأنه صندوق موسيقا، وتفتحان فمه بالمزررة وتضعان قرصاً معدنياً في الشق. وحين يُغرغر المجرور أسمع الوطاويط تطير خارجة من برج الكنيسة وينزلق الحلم ليغدو خدعة بارعة.

تعرَّتْ الفتاتان وأخذنا نتفحَّص الأرضية لنتأكد من أنهما لن تصابا بأي شظية في مؤخرتيهما. لا زالتا ترتديان حذاءيهما ذا الكعب العالي. ولكن المؤخرة! المؤخرة متهرئة، مكشوطة، ومُسنفرة، ناعمة، صلبة، لامعة ككرة البلياردو أو كجمجمة المجذوم. وعلى الجدار علّقتُ صورة مونا: إنها تواجه ناحية الشمال الشرقي على خط واحد معه كلمة " كراكو " مكتوبة بالحبر الأخضر. وإلى يسارها كلمة " دوردوني " مُحاطة بدائرة بقلم خشب أحمر. وفجأةً أرى شقاً مُعتماً شَعِراً على كُرة بلياردو صقيلة لامعة، وتضمني الساقان كطرفي مقصّ. وألقي نظرة إلى ذلك الجُرح المُعتِم المفتوح، فينفتح في رأسي صدع عميق: وتتدفق منه كل الصور والذكريات التي، بقصدٍ أو من غير قصد، صُنِّفَتْ، وبُوبِّتْ، ودُعِمَتْ بالوثائق، وضُبِّرَتْ، وخُتِمَتْ، ووُضِعَ عليها الطابع، تتدفق عشوائياً كنمل ينهمر من شق على الرصيف، ويكف العالم عن الدوران ويتوقف الزمن، حتى ترابط أحلامي يتفكّك وينحل وتندلق أحشائي باندفاع انفصامي عظيم، إنه تفريغ يتركني وجهاً لوجه مع المُطلَق. أرى من جديد أمهات بيكاسو المتمددات الضخمات، أثدائهن مغطّاة بالعناكب، أسطورتهنّ مُخبّأة عميقاً في المتاهة، ومولي بلوم[٤٠] مُستلقية على حشيّة قذرة إلى الأبد. وعلى باب المرحاض رُسِمَتْ أيور ذكرية بالطباشير والسيدة العذراء تُطلق صرخة متناغمة من هول الكارثة. وأسمع ضحكاً وحشياً هستيرياً، وهناك غرفة مملوءة بالكزاز، والجسم الذي كان أسود صار يتوهّج كالفسفور. ضحك وحشي، وحشي لا يمكن كبحه بحال من الأحوال، وذلك

---

٤٠ – مولي بلوم : إحدى شخصيات رواية " يوليسوس " لجيمس جويس .

الشق يضحك من خلال سبلتَيه الطُحلبيَّتين، ضحكاً يُغضِّنُ سطح كرة البليياردو اللامع الصقيل. عاهرة عظيمة وأمُ الإنسان في عروقها يجري شراب الجِن. يا أم جميع العاهرات، العنكبوت يُدحرجنا إلى قبرك اللوغاريتمي، قبرك النهِمْ، شيطانٌ رجيم يُمزّقني ضحكه! أنظرُ داخل فوهة البركان الغائصة تلك، إلى عالمٍ ضائع لم يخلّف وراءه أي أثر، وأسمعُ أجراساً تقرع، وهناك راهبتان في ساحة ستانيسلاس ورائحة زبد فاسد تنبعث من تحت أثوابهن، وبيان رسمي يطبع لأنها كانت تمطر، وحرب أضرمَتْ تأييداً للجراحة التقويميّة، وأمير ويلز يطير حول العالم ليُزين قبور أبطال مجهولين. وكل وطواط يطيرُ خارجاً من برج الكنيسة هو سبب ضائع، كل صيحة فرح هي أنين منبعث من المذياع من الخنادق الخاصة بالملعونين. من ذلك الجرح المظلِم، غير المُلتئم، من بالوعة الأحقاد تلك، من مهدِ مُدُن غارقة في السواد حيث تُخمَد موسيقا الأفكار في شحمٍ بارد، من مُدُنٍ فاضلة مشنوقة وُلِدَ مهرّج، مخلوقٍ موزَّعٍ بين الجمال والقُبح، بين النور والفوضى، مهرّج حين ينظر إلى أسفل وبشكلٍ منحرف يُصبح الشيطان عينه، وحين ينظر إلى أعلى يرى ملاكاً مدهوناً بالزبد، حلزوناً مُجنحاً.

عندما أنظر داخل ذلك الشق أرى إشارة مساواة، العالم في حالةِ توازن، عالماً مُختصراً إلى الصفر ولا أثر لأي باق. إنه ليس صِفراً كالذي سلّطَ عليه فان نوردن ضوءه الكاشف، ليس الشق الفارغ للإنسان المُحبَط قبل الأوان، بل هو أقرب إلى الصِفر العربي، الإشارة التي تنبثق منها عوالم رياضية لا نهاية لها، نقطة الارتكاز التي توازن النجوم والأحلام الخفيفة والآلات الأخفّ وزناً من الهواء والأعضاء الخفيفة الوزن

والمتفجرات التي تنتجهم جميعاً. أودّ أنْ أنفذ إلى داخل ذلك الشق وأصعد منه إلى العينين، وأجعلهما تهتزان بعنف، تينك العينين، العزيزتين، المجنونتين، اللتين تنتميان إلى عِلم المعادن. عندما ستهتز العينان سأسمع من جديد كلمات دوستويفسكي، أسمعها تتدحرج على صفحة بعد صفحة، بانتباهٍ عظيم الرفاهة، بأشد طُرُق الاستبطان جنوناً، بكل أصوات البؤس الخفيضة التي تارةً تؤثر برقّة وطرافة، وطوراً كنغمة الأرغن حتى يكاد القلب ينفطر ولا يبقى إلا ضوءُ مُبهِرٍ حادّ، مُشِع يحملُ بذور النجوم المُخصبة. إنها قصة الفن الذي تمتد جذوره في المذبحة.

حين أنظر إلى عمق ذلك الكسّ المخروق تماماً لعاهرة أشعر بالعالم كله تحت قدميّ، عالم يتداعى وينهار، عالم مُستَهلَك ومُلمَّع كجمجمة مجذوم. لو أنَّ هناك رجلاً يجرؤ على قول كل ما يدور في خَلَدِه عن هذا العالم لما بقيَ له قَدَم مُربَّع واحد على الأرض ليقفَ عليه. وعندما يظهر للوجود رجل حقّ ينقضُّ عليه العالم كله ويقصِم ظهره. هناك دائماً الكثير من الأعمدة العفنة تظل قائمة، وهناك الكثير من الإنسانية المتقرّحة تنتظر الإنسان ليُزهرها. البناء الفوقي كذبة والأساس خوفٌ هائل مُزلزل. فإذا ظهر بين تضاعيف القرون رجلٌ يحملُ في عينيه نظرة يأسٍ وجوع، رجلٌ قادر على قلب العالم رأساً على عقب لكي يخلق سلالة جديدة، يُحوّل الحب الذي يجلبه إلى العالم إلى نكد، ويُصبح هو بلاء. لو أننا نُصادفُ بين حينٍ وآخر صفحات تتفجَّر، صفحات تجرح وتلفَح، تنتزع الأنين والدموع واللعنات، فاعلَمْ أنها آتية من رجلٍ أقوى من ثِقل العالم الجاثِم الساحق، أقوى من كل مخالِع ودواليب التعذيب التي يخترعها الجبناء لسحق معجزة الذات الشخصية. لو جرؤ أي رجل على ترجمة كل

ما يعتلج في قلبه، أنْ يُخطَّ تجربته الحق، حقيقته الفعلية، فأعتقدُ أنَّ العالمَ سيتفتَّتُ، سيُنسَف إلى ذرات ولن يتمكَّن أي إله، أو حدث جلل، أو إرادة أنْ تُعيد تجميع تلك الذرات، الفُتات، العناصر الخالدة التي بات من المستحيل أنْ تُعيد تكوين العالم.

خلال الأربعمئة عام التي مضت منذ ظهور آخر روح مفترس، أي آخر رجل عرفَ معنى النشوة، حدثَ انحدار مستمر ومضطرد للإنسان في الفن، في الفِكر، وفي الفِعل. لقد تورَّمَ العالم: لم يبقَ أي ضراطٍ جافّ. مَنْ مِمَّن له عين يائسة جائعة يمكنه أنْ يولي أدنى اعتبارٍ لتلك الحكومات، والقوانين، والدساتير، والمبادئ، والمُثُل، والأفكار والرموز المقدسة، والمحظورات المقدَّسة السائدة؟ لو أنَّ أي إنسان عرف مغزى قراءة لغز هذا الشيء المُسمّى هذه الأيام " شُق " أو ثقب "، لو كان لأي امرئٍ أدنى حسٍ بالغموض الذي يُحيطُ بالظاهرة التي توصف بالـ"فاسقة" لصُعِقَ هذا العالم وصار أشلاءً. إنَّ الرعب الفاسق، الجانب الجاف، المنتاك تماماً من الأشياء هو الذي يجعل هذه الحضارة المجنونة تبدو كفوهة بركان. هذه الهوّة العظيمة الفاغرة من العدم هي ما تحمله الأرواح الخلاّقة وأمهات الجنس البشري بين سيقانهم. حين يظهر للوجود روح جائع يائس ويدفع الخنازير الغينية إلى الزعق فذلك لأنه يعرف أين يضعُ سلك الجنس الحيّ، لأنه يعلمُ أنَّ تحت ستار اللا مبالاة القاسي يختفي الجرح البليغ القبيح، الجرح الذي لا يلتئم. ويضعُ السلك الحي بين الساقَين بالضبط، ويضرب تحت الحزام، ويسفع الأحشاء نفسها. لا فائدة من ارتداء قفّاز مطاطي، فكل ما يمكن أنْ يُعمَل برويّة وذكاء يتعلّق بالدرع القاسي، والإنسان المُصمم على الخلق دائماً يغوصُ أعمق، حتى يصل

إلى الجرح المفتوح، إلى الرعب الفاسق العفن. إنه يُحرِّك المُحرك حتى أدقّ أجزائه، ولو لم يبقَ غير جرحٍ مفتوح لكان ذلك شيئاً رائعاً. إذن فالفوهة البركانية الجافة المناكة هي فاسقة. إنَّ الأشدّ فسقاً من أي شيء هو الجمود، والأشدّ كفراً من ألعن تجديف هو الشلل. ولو لم يبقَ غير جرحٍ مفتوح فيجب أن ينبجس وإنْ كان كل ما يخرج منه شراغف ووطاويط وأقزام.

كل شيء محصور داخل لحظة وهي إما مُكتملة وإمّا غير مُكتملة. الأرض ليست نجداً قاحلاً من الصحة والراحة، بل أنثى ضخمة متمددة على طولها، لها جذعٌ مخمليّ ينتفخ ويرتفع كأمواج المُحيط؛ إنها تتلوّى تحت تاجٍ من العرَق والألم، وتتدحرج بين السحب عاريةً مُثيرةً يغمرها ضوء النجوم البنفسجي. كلها، من ثدييها السخيّين إلى فخذَيها المتلألئين، تتّقدُ بحرارةٍ مُلتهبة. تنتقل بين الفصول والسنين بصَخَبٍ مرِحٍ عظيم يلفُّ جذعها بنوبة غضب، ينفضُ خيوط العنكبوت عن السماء، وتستقرُّ على مدارها المحوري بارتعاشاتٍ بركانية. أحياناً تبدو كظبية، ظبية وَقَعَتْ في شَرَك ولَبَثَتْ تنتظرُ بقلبٍ واجف ضجيجَ الصنوج وعواء الكلاب. حبٌ وكراهية، يأس، شفقة، غضب، اشمئزاز - ما أهمية ذلك كله وسط آثام الكواكب؟ ما الحرب، والمرض، والقسوة، والرعب، حين يمنحُ الليلُ نشوةَ شموسٍ ملتهبةٍ لا تُحصى؟ ما هذا التبن الذي نمضغه أثناء نومنا إنْ لم يكن ذكرى نابٍ ملتوٍ وكوكبة من النجوم.

كانت مونا دائماً تقولُ لي، في فورات شعورية، " أنت مخلوقٌ عظيم ". وعلى الرغم من أنها تركتني هنا لأفنى، ووضعتْ تحت قَدَميّ هاوية عظيمة تعوي من العدَم، فإنَّ الكلمات التي تقبعُ في أعماق روحي

تنتفضُ وتُضيء الظلام الكامن أسفلي. أنا إنسان ضاعَ في الحشد، دوَّختني الأضواء التي تمورُ، أنا صِفرٌ رأى كل ما حوله يُمسَخ إلى زيف. مرَّ بي رجالٌ ونساء يشتعلون بالكبريت، وحمّالون بأثوابٍ من كالسيوم يفتحون فوهة الجحيم، وشُهرة تمشي على عكّاز، ضاءلتها ناطحات السحاب، مَضَغَتها الآلات بفمها الشائك حتى الاهتراء. مشيتُ بين الأبنية الشاهقة متوجهاً إلى برودة النهر وشاهدتُ الأضواء تُقذَف عالياً من بين أضلاع الهياكل العظيمة كالصواريخ. لو أني كنتُ مخلوقاً عظيماً حقاً، كما قالت، فما معنى تلك البلاهة المُستعبدة التي كانت تُحيط بي؟ لقد كنتُ رجلاً ذا جسد وروح، ذا قلبٍ لا تحميه قنطرة فولاذية. مررتُ بأوقاتِ نشوة وصدحت بشررٍ مُشتعل. غنّيتُ عن منطقة الاستواء، عن سيقانها ذات الريش الأحمر، وعن الجُزُر وهي تغيب عن الأنظار. ولكن لا أحد سمعني. أطلقتُ عياراتٍ نارية من بندقية عبر الشلالات الباسيفيكية نحو الفضاء لأنَّ الأرض كروية والحمائم تطير وهي مقلوبة. رأيتها تنظر إليّ عبر الطاولة بعينين حزينتين، والأسى يمتد نحو الداخل ويُفلطح أنفه على عمودها الفقري، نقي العِظام المخض ليصير شفقة تحول إلى سائل. كانت خفيفة كجثة طافية في البحر الميت. أصابعها تنزف حُزناً والدم تحوَّلَ إلى لعاب. مع مجيء الصبح الندي ضجَّ قرع النواقيس المتواصل على طول شبكة أعصابي وكانت ألسنتها تطرق على جدار قلبي وترنّ بخبث معدني. والغريب هو أنْ تضجَّ النواقيس هكذا، ولكن الأكثر غرابة هو تفجُّر الجسد، وتحوَّلَ هذه المرأة إلى ليل وكلماتها البرقية تنخر في الحشية. وانتقلت إلى ما تحت خط الاستواء، سمعت الضحك الشنيع للضبع ذي اللثة الخضراء، رأيتُ ابن آوى ذا

الذيل الحريري والحمار والفهد المُنقَّط، كلهم استقروا في جنة عدن. ثم اتَّسعَ حزنها، كاتّساع قوس المدرعة وغمر ثقلُ غرقِها أذني. الطمي اللزج والياقوت الأزرق ينزلق، يتدفّق خلال الخلايا العصبية المرحة، والأطياف تتراكب والشفائر تغوص. سمعتُ عربات المدافع تدور بوقعٍ يُشبه خطوة الأسد المكتومة، رأيتها تتقيّأ وتُريِّل: قبّة السماء تراختْ والنجوم اسودَّتْ؛ ومُحيطٌ أسود ينزفُ والنجوم الحاضنة تلِدُ قطعاً من اللحم الدسم الطري والعصافير في الفضاء انطلقَتْ مسرعة ومن السماء المهلوسة سقطَ الميزان مع هاون ومِدقّته وعينيّ العدالة المعصوبتين. وكل ما أذكره هنا يتحرك بخطوة خيالية على طول الخطوط المتوازية لأجرام سماوية مندثرة، وكل ما رأته المحاجر الخاوية يتفجَّر كعشبٍ مُزهر. من العَدَم تنهض بشارةُ الأبدية، وتتعمَّق ببطء الحفرة الواسعة تحت اللوالب الصاعد أبداً. اليابسة والماء يصلان الأرقام بعضها ببعض، وقصيدة مكتوبة باللحم وهي أقوى من الفولاذ أو الغرانيت. وتدوِّم الأرض في ليلٍ أبديّ متّجهة نحو خلق المجهول...

اليوم استيقظتُ من نومٍ عميق وعلى شفتي سِباب منبعه الفرح، وعلى لساني بربرة مُبهمة، أردد لنفسي شيئاً كالابتهال - " ***افعلْ ما يحلو لك!... افعلْ ما يحلو لك!*** افعل أي شيء، ولكن ليكن ناشراً للفرح. افعلْ أي شيء، ولكن ليكنْ باعثاً للنشوة. عندما أقول هذا لنفسي تموج في رأسي حشود غفيرة: صورة بعضها مرح، بعضها فظيع، بعضها يُثير الجنون، الذئب والعنزة، العنكبوت، السلطعون، سفلس بجناحين منشورين وباب الرحم دائماً مُزلج، دائماً مفتوح، مُهيّأ كالقبر. سبقٌ، جريمةٌ، قداسةٌ: حيوات أحبائي، فشل أحبائي، الكلمات التي

خلّفوها، الكلمات التي لم يُكملوها، الخير الذي جرّوه وراءهم والشر، والحزن، والتنافر، والضغينة، والصراع الذي خلقوه. ولكن قبل ذلك كله، *النشوة*!.

أشياء، أشياء معيَّنة عن أحبائي القُدامى تُثير الدموع في عيني: المقاطعات أثناء الكلام، الفوضى، وقبل كل شيء، الحقد الذي أثاروه. حين أفكّر في تشوّهاتهم، في الأزياء الرهيبة التي كانوا يختارونها، في الادّعاء الفارغ لأعمالهم والضجر الذي أثارته، في كل الفوضى العارمة والبلبلة التي كانوا يتخبّطون فيها، والموانع التي أقاموها حولهم، أشعرُ بفيضٍ من النشوة. كانوا جميعاً يتمرّغون في قذارتهم. وكلهم رجال مُغالون في التدقيق. وصحيح تماماً أني أميل إلى القول: " أرني رجلاً يُغالي في التدقيق أريكَ رجلاً عظيماً ". إنَّ ما يُسمّى بـ " مغالاتهم في التدقيق " هو ما أحتاجُ إليه: إنها دلالة الصراع، هي الصِراع نفسه مع كل الطبائع المتعلّقة به؛ إنها هالة الروح المتناقضة وجوّها الخاص. وحين تُريني رجلاً يُعبِّر عن نفسه بدقّة فلن أقول إنه ليس عظيماً، ولكن سأقول إنه لا يُثير اهتمامي... إنني مُشتاق إلى الخواص المُتخمة. حين أفكّر في كيف أنَّ المهمة التي يتنكّبها الفنان ضمناً هي قلب القيم السائدة، وتنظيم الفوضى التي تعبث حوله، على طريقته، وإثارة الشقاق والهياج وذلك كي يعود الموتى إلى الحياة عن طريق تحرير الشعور، عندئذٍ أهرع بفرح إلى العظماء غير الكاملين، لأنَّ اضطرابهم يُغذّيني، وفأفأتهم في أذني موسيقا عُلويّة. أرى في الصفحات المنتفخة بشكلٍ جميل التي تلي المقاطعات الكلامية آثار محو تعدّيات صغيرة، وآثار الأقدام القذرة، إذا جاز التعبير، للجبناء، والكذّابين، واللصوص، والمُخرّبين، والمفترين. أرى

في العضلات المنفوخة لحناجرهم الصدّاحة الجهد المُذهل الواجب الذي بذلوه لتدوير الدولاب، للإطلاق من جديد من حيث كان التوقُّف. أرى أنَّ وراء المزعجات اليومية والتعدّيات، خلف الخبث الرخيص المتألّق للضعفاء والكسالى يقفُ رمز قوة الحياة المُحبِطة، وإنَّ من المُستطاع أنْ يخلق نظاماً، مَنْ يزرع بذور الشقاق والفوضى، لأنه مُشبع بالإرادة، مثل هذا الرجل يجب أنْ يذهب مراراً وتكراراً إلى الخازوق والمشنقة. أرى أنَّ خلف نبالة إيماءاته يكمنُ شبح سخافة كل شيء - إنه ليس فقط سامياً، بل وتافه.

في وقتٍ من الأوقات اعتقدتُ أنَّ أسمى هدف يمكن لإنسان أنْ يبلغه هو أنْ يكون إنسانياً، أما الآن فأرى أنَّ ذلك الاعتقاد كان جديراً بتدميري. اليوم أنا فخور إذ أقول إني لا ***إنساني*** ؛ إنني لا أنتمي إلى الناس والحكومات، وأنه لا شأن لي بآليّة الإنسانية الصارّة - أنا أنتمي إلى الأرض! أقول هذا وأنا أسند رأسي إلى الوسادة، وأكاد أشعر بقرنين ينبتان من صدغي. أرى حولي جميع أسلافي المعتوهين يرقصون حول السرير، يواسونني، يحثّونني على الاستمرار، يسوطونني بألسنتهم الأفعوانية، يُكشّرون وينظرون إليّ بجماجمهم المتسللة. أنا لا إنساني! أقولها وأنا أرسم ابتسامة عريضة مجنونة، هاذية، وسأظل أقولها على الرغم من أنَّ الدنيا تُمطر تماسيح. خلف كلماتي تكمن تلك الجماجم المتسللة بابتساماتها العريضة ونظراتها الشزراء، بعضها ميّتٌ يرسم تكشيرته العريضة منذ زمن طويل، وأخرى تُكشّر كأنها مُصابة بالكُزاز، وبعضها يُكشّر وكأنه يدّعي التكشير العريض؛ إنه الدلالة السابقة والنتيجة اللاحقة لكل ما يجري دائماً. أما ما أراه أوضح من كل شيء

فجمجمتي المُكسّرة، أرى الهيكل العظمي يرقصُ في وجه الريح، وأفاعي تنبثق من اللسان العفن والصفحات المنتفخة بالنشوة مُلطّخة بالغائط. وأضمُّ قذارتي، وغائطي، وجنوني، ونشوتي إلى الدارة الضخمة التي تجري خلال الأقواس تحت الأرضيّة للّحم. سوف يجري كل ذلك القيء الذي لا يُريده أحد ولا يطلبه، قيءُ السُكر، بلا توقُّف عبر عقول أولئك القادمين ليصُبَّ في الوعاء الذي لا يكلّ ويحتوي تاريخ البشر. وجنباً إلى جنب مع السلالة البشرية تجري سلالة أخرى من المخلوقات، السلالة اللا إنسانية، سلالة الفنانين الذين، بإلحاحٍ من دوافع مجهولة، يأخذون الكتلة الميتة من الإنسانية ويُحوّلون، بالحميّة والهياج نفسيهما اللتين تشرّبوها، هذه العجينة الرطبة إلى خبز، والخبز إلى خمر والخمر إلى أغنية. ومن السماد الميّت والخبث الراكد يستخرجون أغنية تُلوِّث. أرى هذه السلالة الأخرى من أفراد يفتشون الكون بدقّة، يقلبون كل شيء رأساً على عقب، وأقدامهم تغوصُ باطراد في الدم والدموع، وأيديهم دائماً فارغة، ودائماً تتشبَّث تتمسَّك بالغيب، بإلهٍ بعيد المنال، يذبحون كل ما يقعُ تحت أيديهم لتهدئة الوحش الهائل الذي ينهش أعضاءهم الحيوية؛ أرى أنهم حين ينتفون شعورهم وهم يُركّزون بقوة ليفهموا، ليقبضوا على ذلك البعيد المنال أبداً، أرى أنهم عندما يجأرون كوحوشٍ مخبولة ويمزقون ويُخرّبون؛ أنَّ هذا حقّ، أنه لا وجود لدربٍ آخر يُسلَك. إنَّ إنساناً ينتمي إلى هذه السلالة يجب أنْ يقف فوق مكانٍ عالٍ وفي فمه بربرة ويمزّق أحشاءه. وهذا عدل لأنه يجب أنْ يفعل هذا! وكل ما يقلُّ عن مستوى ذلك المشهد المريع، كل ما هو أقلّ بثّاً للقشعريرة، أقلّ رُعباً، أقلّ جنوناً، أقلّ ثمالة، أقلّ تلويثاً، ليس فنّاً. وكل ما عداه زيف. كل ما عداه إنسانيّ. كل ما عداه ينتمي إلى الحياة واللا حياة.

حين أفكّر مثلاً في ستافروجين[٤١]، أفكّر في وحشٍ قُدسي يقفُ فوق مكانٍ عالٍ يقذفُ إلينا أحشاءه الممزقة. في رواية " الممسوسون " تهتز الأرض: ليس كارثة ما يحلّ بالفرد الواسع الخيال، بل زلزال دُفِنَ فيه قسم هائل من الإنسانية وزال إلى الأبد. ستافروجين كان دوستويفسكي ودوستويفسكي كان مجموع كل تلك التناقضات التي إما تشلُّ الإنسان أو تقوده إلى الأعالي. لم يكن هناك عالم أصغر من أنْ يلِجَه، ولا مكان من العلوّ بحيث يخشى أنْ يرتقيه. لقد مرَّ على السلسلة كلها من اللُّجْ إلى النجوم. ومن المؤسف أنه لن تتاح لنا فرصة أخرى لرؤية إنسان جالس في قلب الغموض يُضيء لنا بوميضه المُبهِر أعماق الظلام وحِلكته.

اليوم أنا أعي نَسَبي ولا حاجة بي إلى استشارة طالعي أو شجرة الأسرة. إنَّ ما هو مكتوب في النجوم، أو في دمي لا أعرفُ عنه أي شيء. أعرفُ أني انحدرتُ من مؤسسي السلالة البشرية الأسطورية. إنني الرجل الذي يرفعُ الزجاجة المقدّسة إلى شفتيه، والمجرم الذي يجثو وسط السوق، والبريء الذي يكتشف أنَّ " كل " الجثث تفوح نتانة، والمجنون الذي يرقصُ والبرق بين يديه، والراهب الذي يرفعُ أطراف ثوبه ليتبوَّل على العالم، والمتعصِّب الذي ينبشُ المكتبات لكي يجد " الكلمة " - كل هؤلاء معاً هم أنا، كل هؤلاء يُشكّلون فوضاي، نشوتي. فإذا كنتُ لا إنسانياً فذلك لأنَّ عالمي تخطّى حدوده الإنسانية، لأنه أنْ تكونَ إنسانياً يبدو وضعاً مسكيناً، مؤسفاً، بائساً، محدوداً بالأحاسيس، مُحَاصراً بالأخلاقيات والدساتير، ومعرَّفاً من خلال التفاهات والمذاهب السائدة.

٤١ - ستافروجين : بطل رواية " الممسوسون " لدوستويفسكي .

أصبُّ عصير العنب في جوفي وأجد فيه الحِكمة، لكنَّ حِكمتي تنشأ من العنب، وثمالتي لا تدين بشيء للخمر...

أريدُ أنْ أصنع نقطة تحوُّل من تلك السلالة الجبلية القاحلة السامقة حيث يموت الإنسان من العطش والبرد، من ذلك التاريخ " اللا زمني "، ذلك المطلق من الزمان والفراغ حيث لا وجود لإنسان، أو حيوان، أو نبات، حيث يجنّ المرء من وطأة الوحدة مع لغةٍ هي مجرّد مجموعة كلمات، حيث كل شيء محلول، مُعطَّل، مفصول عن الأزمنة. أريدُ عالماً من رجال ونساء، من أشجارٍ لا تتكلّم (لأنَّ في العالم كما هو ما يكفي من الكلام!) عن أنهر تحملكَ إلى أماكن شتى، ليس عن أنهار أساطير، بل أنهر تجعلك على اتّصال مع رجال ونساء آخرين، مع أنماط العمارة، والدين والنبات، والحيوانات، أنهر تُبحِر فيها زوارق وفيها يغرق رجال ليس في الخرافة، والأسطورة والكتب والغبار والماضي، بل في الزمان والفراغ والتاريخ. أريد أنهراً تصنعُ محيطات أمثال شكسبير ودانتي، أنهراً لا تجفُّ في هوّة الماضي؛ محيطات، نعم، دعونا نحصل على مزيدٍ من المحيطات، محيطات جديدة تمحو الماضي، محيطات تخلقُ تشكيلات جيولوجية جديدة، يمكننا أنْ نُبحِرَ فيها، أنْ ننطلق منها إلى مكتشفات جديدة، آفاقٍ جديدة. فلنحصل على مزيدٍ من المحيطات، مزيدٍ من النهضات، مزيد من الحروب، مزيد من المحرقات. فليكن لدينا عالم من رجال ونساء بين سيقانهم مولِّدات فعّالة، عالم يتَّسِمُ بعنفوانٍ فطري، بحماس، بقُدرةٍ على الفعل، بالإثارة، بالأحلام، بالجنون، عالم يولِّدُ نشوةً وليس ضراطاً جافّاً. إنني أؤمنُ بأنَّ اليوم، وأكثر من أي وقتٍ مضى، يجب أنْ نبحثَ عن كتابٍ وإنْ لم يكن يحتوي على فلِزْ، عن أيِّ شيء قادرٍ على إنعاش الجسد والروح.

لعلَّ الهلاك هو قَدَرنا، وليس لدينا، ***لدى أيٍ منّا***، أيُ أمل، ولكن إذا كان الأمرُ كذلك دعونا نُطلقُ صرخةً أخيرةً مُعذِّبة؛ عواءً مُريعاً، صرخةَ تحدٍّ، صيحةَ حربٍ. كفانا عويلاً! كفانا مراثيَ وترانيمَ جنائزية! كفانا سِيَراً ذاتية وتواريخ، ومكتبات ومتاحف! دعوا الموتى يأكلون الموتى. دعونا نحن معشر الأحياء نرقص حول حافة فوهة البركان، رقصة الرمق الأخير. ولكن ليكن رقصاً!

" إنني أحبُّ كل ما يتدفَّق "، هذا ما قاله الأعمى العظيم ملتون زماننا. فكَّرتُ فيه هذا الصباح لدى استيقاظي وأنا أصرخُ صرخةً عظيمة لعينة من الفرح: فكَّرتُ في أنهره وأشجاره وفي كل ذلك العالم الليلي الذي يكتشفه. نعم، قلتُ في نفسي، أنا أيضاً أحبُ كل ما يتدفَّق: الأنهر، المجاري، حِمم البراكين، المني، الدم، الصفراء، الكلمات، الجُمل. أحبُّ الدفق النخطي amniotic floid حين يُقذَف من الكيس. أحبُّ الكِلية بحُصياتها المؤلمة، وأحجارها وكل شيء، أحب البول الذي يتدفَّق باندفاع والسيلان الذي لا يتوقف، أحب كلمات المُهسترين والجمل التي تنهمر كالزحار وتعكس جميع التصوّرات المريضة للروح، أحبَ الأنهر العظيمة كالأمازون وأورونيكو، حيثُ يُبحِر رجال مجانين أمثال مورافاجين في الحلم والأسطورة على متن زورق مفتوح لغرقوا في المصبّات الخفيّة للنهر. إنني أحبُّ كل ما يتدفق، سواء أكان بلغة كهنوتيّة hieratic، أم خفيّة، أم منحرفة، أم متعددة الأشكال، أم مكتوباً على جانب واحد. أحبُّ كل ما يتدفّق، وكل ما يحتوي على زمنٍ وصيرورة، كل ما يُعيدنا إلى البداية حيث لا نهاية: عنف الأنبياء، والفسق الذي هو نشوة، وحِكمة التعصُّب، والكاهن مع ابتهالاته المطاطية، وكلمات العاهرة البلهاء، والبصاق العائم

مع تيار المجرور، وحليب الثدي والعسل المُرّ الذي يتدفّق من الفَرج، وكل ما يتدفّق، ويذوب، ما هو فاسق ومُذيب، وكل القيح والقذارة التي تتطهَّر مع تدفّقها، وكل ما يفقد الحس بالأصل، وما يقوم بالدورة العظمى باتّجاه الموت والفناء. إنَّ الرغبة السفاحية العظمى هي في التدفق المستمر، بإيقاع واحد مع الزمن، في دمج الصورة العظمى للغيب من هنا والآن. هي رغبة حمقاء انتحارية مُصابة بإمساك الكلمات ومشلولة بالفِكر.

كان الوقت يقترب من فجر يوم عيد الميلاد حين عدنا إلى المنزل من شارع أوديسا مع زنجيتين من شركة الهاتف. كانت النار قد خمدتْ ونحن متعبون حتى إننا لجأنا إلى السرير ولا نزال بملابسنا وغرِقت فتاتي، وكانت طوال الأمسية كفهدٍ مُقيَّد، في نومٍ عميق أو مُختنق. ثم تخلّيتُ بدوري عن الأمر ورحتُ في نومٍ عميق.

كنا أثناء العُطل نشرب الشمبانيا صباحاً وظهراً ومساءً - من أرخص الأنواع وأفضلها. ومع اقتراب نهاية العام كان عليّ أنْ أسافر إلى ديجون حيث عُرِضَتْ عليّ وظيفة تافهة كأستاذ إنكليزي بديل، وهي أحد عقود الصداقة الفرانكو-أميركية التي كان من المفترض أنْ تزيد التفاهم والنيّة الطيبة بين الأخوة الجمهوريات. وكان فيلمور أكثر ابتهاجاً مني بالعَرض - وكان لديه سبب معقول لذلك. كان الأمر بالنسبة إليّ مجرد انتقال من مَطْهَر purgatory إلى آخر. لم يكن أمامي مستقبل، ولم يكن هناك حتى راتب مع الوظيفة. فقد كان على المرء منا أنْ يعتبر نفسه محظوظاً لأنه يحظى بامتياز نشر الصداقة الفرانكو-أميركية. لقد كانت وظيفة خليقة بابن رجل ثري.

في الليلة التي سبقَتْ مغادرتي قضينا وقتاً ممتعاً. وعند الفجر بدأ الثلج يتساقط، ورحنا ننتقل من حيّ إلى آخر نُلقي نظرة أخيرة على باريس. وأثناء مرورنا في شارع سان دومنيك عثرنا فجأة على ساحة

صغيرة حيث كنيسة كلوتيد. كان الناس ذاهبين لحضور القداس، فأبدى فيلمور بدوره، وكان لا يزال مُشوَّش الذهن قليلاً، رغبةً في المشاركة في القدّاس " لمجرَّد المتعة! "، كما قال. وشعرت بنوعٍ من عدم الارتياح. فأولاً أنا لم أحضر أي قدّاس في حياتي، وثانياً كان مظهري يبدو رثاً وكنتُ أشعر بتوعُّك. وفيلمور أيضاً بدا زرياً، بل وأكثر رثاثة مني، وكانت قبعته الكبيرة المترهّلة كأنها تعرّضت للجلوس عليها مراراً ومعطفه كان لا يزال مملوءاً بالنشارة من آخر حانة كنا فيها. وعلى كل حال، دخلنا. وأسوأ ما كان يمكن أنْ يفعلوه هو أنْ يرموا بنا إلى الخارج.

ذُهِلتُ للمشهد الذي استقبلَ عيني حتى إني تخلّصتْ من اضطرابي. واستغرق تعوُّدي على الضوء الخافت بعض الوقت. وتعثَّرتُ في خطاي خلف فيلمور، وأنا أتمسّك بكُمّه. وأغار على أذني ضجيج سحري علِوي، نوع من الأزيز الأجوف انبعثَ من الممشى اللوحي البارد. كان المكان أشبه بضريح موحش والنائحون يندفعون دخولاً إليه وخروجاً منه، حجرة مؤدية إلى العالم السفلي. كانت الحرارة تبلغ نحو ٥٥ أو ٦٠ فهرنهايت. لا موسيقا غير هذه الترنيمة الجنائزية المُبهمة المُصنَّعة في القبو السفلي - كمليون رأس من القرنبيط ينتحبون في الظلام. وأناس ملفّعون بأكفانهم يواصلون المضغ وعلى وجوههم نظرة المستعطين اليائسة المُكتئبة الذين يمدّون أيديهم في غشية ويتمتمون باستجداء غير مفهوم.

كنتُ أعرفُ أنَّ شيئاً كهذا موجود، لكنَّ المرء يعرفُ أيضاً أنَّ هناك مسالخ ومشارح وغُرف تشريح. والإنسان يتجنَّب غريزياً مثل تلك الأماكن. إنني كثيراً ما مررتُ في الشارع بكاهنٍ وبين يديه كتاب صغير للصلوات وهو يستظهر بجدّية أمثولته. فأقول لنفسي، " أبله! "، وأوقِفُ

الأمر عند هذا الحد. إنَّ المرء ليُقابل في الشارع جميع أشكال الخبل والكاهن ليس أكثرها إثارة للدهشة. إنَّ ألفين من الأعوام خدَّرتنا حتى البلاهة. ولكن حين تُنقَلْ إلى عالمه، حين ترى العالم الصغير الذي يعمل فيه الكاهن كالساعة المُنبّهة، فلاشك في أنكّ تحصل على أحاسيس مختلفة تماماً.

وفي الحال بدأ كل ذلك اللعاب السائل والتواء الشفتين يكتسبان معنى، هناك شيء يحدث، نوع من المشهد الصامت الذي، لا أقول أذهلني تماماً، بل سحرني. وفي جميع أنحاء العالم، وحيثما وجدتُ الأضرحة ذات الأنوار الخافتة، ترى مثل هذا المشهد الذي يكادُ لا يُصدَّق – ترى درجة الحرارة المعتدلة نفسها، الوهج الغسَقي نفسه، الطنين والأزيز نفسيهما في جميع أنحاء العالم المسيحي، وفي ساعات مشروطة، ينبطح أناسٌ يتلفّعون بأردية سوداء أمام المذبح، حيث يقفُ الكاهن حاملاً في إحدى يديه كتاباً صغيراً وجرس الإعلان عن وجبة العشاء أو مِرذاذاً في الأخرى، ويغمغمُ إليهم بلغةٍ، وإنْ كانت مفهومة، لم تعُد تحتوي مُزقةً من معنى، هو يُباركهم في الغالب، يبارك البلد، يبارك الحاكم، يبارك الأسلحة الصغيرة والسفن الحربية والذخيرة والقنابل اليدوية. ويُحيط به على المذبح صِبية صِغار يلبسون أردية كملائكةِ الرب الذين يُغنّون بطبقَتيّ الصوت القرار والجواب. حِملان بريئة. كلهم يرتدون التنانير، لا جنس لهم، كالكاهن الذي هو نفسه أمسح القدم وقصير النظر حتى أخمص قدَميه. خُنثى رائعة تموء. جنسٌ في حمّالة الأعضاء التناسلية، على مقام جي–مول.

كنتُ أشملُ المشهد قدر ما أتاح لي الضوء الخافت. شيء فاتن ومذهل في وقتٍ واحد. قلتُ لنفسي، الحال هو نفسه في جميع أرجاء العالم المتحضّر. في جميع أركان العالم. رائع. أكان مطراً أم صحواً، برداً أم مطراً نصفَ متجمّد، ثلجاً، رعداً، برقاً، حرباً، مجاعةً، وباءً - فإنه لا يشكّلُ أدنى فرق. دائماً درجة الحرارة المعتدلة نفسها، اللغو الفارغ نفسه، الحذاء ذو الرقبة العالية نفسه، وملائكة الرب الصِغار بطبقتي الصوت القرار والجواب. وبالقُرب من باب الخروج صندوقٌ ذو شِق - مهمّته متابعة العمل الربّاني، عسى ولعلّ بركة الرب تنهمر مِدراراً على الملك والبلاد والقوات المُسلّحة والمتفجرات العالية الانفجار والدبابات والطائرات، وعسى ولعلّ تزداد قوة ساعدي العامل، قوة لذبح الخيول والأبقار والأغنام، قوة في المثاقِب الحديدية لحفر الثقوب، قوة لتثبيت الأزرار في سراويل الآخرين الداخلية، قوة لبيع الجَزَر وآلات الخياطة والسيارات، قوة لإبادة الحشرات وتنظيف الإسطبلات وإفراغ براميل القمامة، وحكّ المغاسل والمراحيض، قوة لكتابة العناوين الرئيسة وشقّ البطاقات في أنفاق القطارات. قوة... قوة. كل مضغ الشِفاه ذاك والنفخ في البوق هو من أجل استمداد قليل من القوة!

كنا ننتقلُ من بقعةٍ إلى أخرى، نستعرضُ المشهد بذلك الصفاء الذهني الذي يأتي بعد جلسةٍ استغرقَتْ الليل كله. ولابد أننا لم نرسم مرة إشارة الصليب، ولم نحرّك شفاهنا إلا لنهمس بملاحظة فظّة. وربما كان كل شيء قد مرَّ بسلام دون أنْ يُلاحظنا أحد لو لم يصرّ فيلمور على أنْ نسير أمام المذبح في وسط سير الموكب. كان يفتش عن المخرج، وأعتقد أنه أثناء ذلك فكَّرَ في أنْ يلقي نظرة على قُدس الأقداس، وأنْ

يقترب منه كثيراً. وكدنا نمرّ بسلام ونحن نتجه صوب شرخٍ من ضوءٍ بدا أنه المخرج حين برزَ لنا من الظلام فجأةً كاهنٌ وسدَّ علينا السبيل. أراد أنْ يعرف إلى أين نحن ذاهبان وماذا سنفعل. أخبرناه بأدبٍ أننا نفتش عن مخرج. قلنا " مخرج " لأننا في تلك اللحظة كنا من شدة الذهول بحيث لم نتمكّن من التفكير في المُرادف لكلمة " مخرج " بالفرنسية. وبدون أنْ يُجيب بكلمة واحدة أمسكَنا عُنوةً من أيدينا، ثم فتحَ باباً جانبياً ودفعنا إلى الخارج، فتدحرجنا إلى نور النهار المُبهِر. حدثَ ذلك بغتةً وبشكلٍ غير متوقَّع، حتى إننا حين اصطدمنا بالرصيف كنا منبهرين. ومشينا خطوات عِدّة، نطرفُ بعيوننا، ثم وبحركةٍ غريزية استدرنا، فإذا بالكاهن لا يزال واقفاً على الدَرَج، شاحباً كشبح، عبوساً كالشيطان نفسه. لابد من أنه كان يغلي كالجحيم. وحين أستعيدُ التفكير في الحادثة، لا ألومه. ولكن في تلك اللحظة، وأنا أراه بردائه الطويل وقلنسوته الضيّقة الجاثمة على جمجمته، بدا لي مُثيراً للسخرية، حتى إني انفجرتُ في نوبةٍ من الضحك. ونظرتُ إلى فيلمور فأخذ يضحكُ بدوره. وطوال دقيقة كاملة وقفنا نضحك في وجه ذلك اللوطي المسكين. فارتبكَ، على ما أعتقد، أيَّما ارتباك، حتى إنه بقيَ على مدى دقيقة لا يعرفُ ماذا يفعل. وفجأةً بدأ يهبط الدَرَج إلى الطريق وهو يهزُّ قبضته في وجهينا، وكأنه جادٌّ فيما ينوي. وحالما أصبحَ خارجَ الأسوار انطلقَ يركض. عندئذٍ وبتحذيرٍ من غريزة حب البقاء تحركتُ. قبضتُ على فيلمور من كُمّه وبدأنا نركض. وكان يقول كالأبله " كلا، كلا، لا أريدُ أنْ أركض! " - فصرختُ: " هيا! يجب أنْ نبتعد من هنا. لقد جُنَّ الرجل تماماً ". وانطلقنا نطرق الطريق بأسرع ما أسعفتنا به سيقاننا.

في الطريق إلى ديجون، وكنا لا نزال نضحك على ما جرى، اتَّجَهَتْ أفكاري إلى واقعةٍ مُضحكةٍ، مُشابهةٍ لتلك تقريباً، وَقَعَتْ أثناء فترة إقامتي القصيرة في فلوريدا. كانَ ذلكَ خلال فترة الازدهار الشهيرة حين وجدتُ نفسي، مع آلافٍ غيري، في وضعٍ لا أُحسَدُ عليه. وقد قُبِضَ عليَّ في آخر لحظة أثناء محاولتي الهرَبْ مع أحد أصدقائي. وكانت مدينة جاكسونفل، حيث تُركنا ونحن في حالة مُزرية فترة ستة أسابيع، في حالةِ حِصارٍ فعليّ. وبدا أَنَّ جميع مُشرَّدي الأرض وحتى الكثير من الشبّان الذين لم يتسكَّعوا مرة في حياتهم، قد حُشِروا في مدينة جاكسونفل. كانت الأماكن كلها ممتلئة حتى آخرها: جمعية الشبان المسيحية، وجيش الخلاص، والمطافئ، ومراكز الشرطة، والفنادق، والشُقق المُؤجَّرة. كانت " مملوءة " تماماً. واللافتات التي تُشيرُ إلى ذلك في كل مكان. وأصبحَ المُقيمون في مدينة جاكسونفل محشورين إلى درجةٍ بدوا كأنهم يتجولون بمعاطف مُدرَّعة. وكالمعتاد كانت هناك مشكلة الطعام؛ طعام ومكان للنوم. كان الطعام يأتي من الأسفل في قِطار مُحمَّل - برتقال وعنب وجميع أنواع المأكولات اللذيذة. كنا نمرُّ على السقيفات المُحمّلة نفتشُ عن فاكهة عفنة ولكن حتى هذه كانت عزيزة.

ذات ليلة، وبدافعٍ من اليأس، جررتُ صديقي جو إلى أحد المعابد اليهودية، أثناء أداء القدّاس. كانت أبرشيّة مُصلِحة، وقد تركَ الحاخام لديّ أثراً مَرَضياً. والموسيقا أيضاً جَذَبَتْ انتباهي - ذلك النواح الثاقب الصادر عن المُصلّين اليهود. وحالما انتهى القدّاس توجّهتُ إلى مكتب الحاخام وطلبتُ التحدُّث معه. استقبلني بقدرٍ كافٍ من الكياسة - إلى أنْ أوضحتُ له طبيعة مهمتي. فإذا به يُصبح مُخيفاً حقاً. كل ما طلبته منه

هو تقديم يد العون لي ولصديقي جو. ولو رأيتَ كيفَ نظر إليّ لاعتقدتَ أني طلبتُ منه استئجار الكنيس لاستخدامه كملعب للبولينغ.

وفوق ذلك كله إذا به يسألني فجأةً ودون مواربة إنْ كنتُ يهودياً أم لا. وحين أجبتُ بلا، بدا أنَّ غضبه قد بلغَ أقصاه. ولكن، بحقّ الله، لماذا أتيتُ إلى كاهنٍ يهوديّ طالباً العون. فقلتُ له بسذاجة إني كنتُ دائماً أشدَّ ولاءً لليهود مني للمسيحيين. قلتُ ذلك بتواضعٍ وكأنه أحد أبرز عيوبي. وهذه هي الحقيقة فعلاً. ولكي يتخلَّصَ مني حرَّرَ ملاحظةً لجماعة جيش الخلاص. قال " عليك أنْ تتوجه بطلبكَ إلى هذا المكان "، قال هذا ثم استدار بفظاظة ليرعى شؤون رعيته.

طبعاً لم يكن لدى جيش الخلاص ما يُسعفنا به. ولو كان مع كلٍ منا ربع دولار لاستأجرنا حشيّة ونمنا على الأرض. ولم يكن معنا نكلة واحدة. فتوجّهنا إلى الحديقة العامة وتمدَّدنا على أحد المقاعد. وكانت تُمطِرُ فتدثَّرنا بأوراق الصُحُف. وأعتقدُ أننا لم نكن قد أمضينا أكثر من نصف ساعة حين جاء شرطيٌ، ودون أنْ يتفوّه بكلمة تحذيرٍ واحدة، ضربنا ضربة قوية جعلتنا نقفز على أقدامنا للتو، بل ورقصنا أيضاً بقليلٍ من الألم، على الرغم من أننا لم تكن نرغبُ في الرقص. وشعرتُ أني في أقصى حالات الغضب واليأس، والاكتئاب، والقذارة، بعد أنْ ضَرَبَنا ابن الحرام على مؤخرتينا، حتى إنه كان في وسعي أنْ أنسِفَ المبنى الحكومي.

في صباح اليوم التالي، وعلى سبيل التعادُل مع أولاد الحرام المضيافين أولئك، تقدَّمنا مُشرقَين ومُبكرَين من باب الكاهن الكاثوليكي. في هذه المرة تركتُ الكلامَ لجو. كان أيرلندياً ولهجته مميَّزة

قليلاً، وله أيضاً عينان زرقاوان ناعستان وكان في استطاعته أنْ يجعلهما تدمعان قليلاً كلما أراد ذلك. فتحَتْ الباب راهبة بلباس[أسود، ولم تطلب منا الدخول. كان علينا أنْ ننتظر في الردهة ريثما تنادي على الأب الطيّب. وجاء الأب الطيب بعد بضع دقائق ينفث كقطار. وماذا نطلب حتى نزعج أمثاله في تلك الساعة من الصباح؟ أريد شيئاً نأكله ومكاناً ننام فيه، هكذا أجبنا ببراءة. ومن أين أتينا، أراد الأب الطيب أنْ يعرف بلا تلكؤ. من نيويورك. من نيويورك، هه؟ إذن فمن الأفضل لكما أنْ تعودا من حيث أتيتما بأسرع ما يمكنكما، ياولدي، ودون أنْ يُضيف كلمة أخرى صفعَ ابن الحرام الضخم، ذا الوجه الذي يُشبه اللفت المنفوخ، الباب في وجهينا.

بعد ذلك بساعة وبينما نحن نسير هكذا على غير هدى لا حيلة لنا، كاثنين من السكارى، تصادف أنْ مررنا ببيت القسيس من جديد. ويشهد الله على أني رأيتُ رأس اللفت الداعر الضخم يتسلّل من الشارع الخلفي في سيارته الليموزين! ولدى مروره بنا نَفَخَ سحابةً من الدخان في عيوننا، وكأنه يقول - " هذا لأجلكما! ". سيارة ليموزين جميلة، لها إطاران إضافيان خلفها، والأب الطيب جالس وراء المقود وفي فمه سيجار ضخم. إنه حتماً من نوع كورونا-كورونا، الضخم والذكيّ الرائحة. لقد كان وضعه المادي حسناً جداً، ولاشك في ذلك. لم أتمكّن من ملاحظة إنْ كان لا يزال يرتدي رداءه الكهنوتي أم لا. لم أرَ إلا اللعاب يسيل من شفتيه - والسيجار الضخم ذا النكهة بخمسين سنتاً.

طوال الطريق إلى ديجون كنتُ أتذكّر الماضي. فكّرتُ في كل الأشياء التي قد أكون قلتها وفعلتُها، وتلك التي لم أقُلها أو أفعلها،

في اللحظات المريرة المُذلّة حين كان مجرد استجداء كسرة خبز يجعلك تشعر أنكَ أحقر من دودة. ولما كنتُ مفرط الرزانة، ظللت أشعر بوخز تلك الإهانات والإساءات اللاذعة القديمة. بل لا أزال أشعر بتلك الرفسة على مؤخرتي التي كالها لي الشرطي في الحديقة العامة - على الرغم من أنه كان أمراً تافهاً، أو درساً صغيراً في الرقص، إنْ صحَّ التعبير. لقد جبتُ الولايات جميعها، ووصلتُ كندا ومكسيكو، والقصة هي دائماً نفسها في كل مكان، إذا أردتُ خبزاً فيجب أنْ تُسرَج، أنْ تُستبعَد. إنَّ سطح الأرض كله مُغطى بصحراء غبراء، ببساطٍ من الفولاذ والاسمنت. إنه الإنتاج! مزيداً من بسكويت الكلاب، مزيداً من العزقات والأقفال، مزيداً من الأسلاك الشائكة، مزيداً من قصاصات العشب، مزيداً من حاملات الكريات، مزيداً من المتفجرات عالية الانفجار، مزيداً من الدبابات، مزيداً من الغازات السامة، مزيداً من الصابون، مزيداً من معجون الأسنان، مزيداً من الصُحُف، مزيداً من الثقافة، مزيداً من الكنائس، مزيداً من المكتبات العامة، مزيداً من المتاحف. ***إلى الأمام***! فالوقت ضيّق. الجنين يشق طريقه عبر عنق الرحم، ولا يوجَد حتى مقدار بصقة لتسهِّلْ مروره. إنها ولادة شاقة تقطع الأنفاس. لا نواح، لا سقسقة، salut au monde ! (تحية إلى العالم!) تحية بإحدى وعشرين طلقة تُطلَق من المعي المستقيم. قال والت " أعتمرُ قبعتي كما أريد في المنزل أو خارجه". قالها حين كان لا يزال في المستطاع أنْ تحصل على قبعة تناسب رأسك. لكنَّ الزمن يتغيَّر. والآن لكي تحصل على قبعة تناسب رأسك عليك أولاً أنْ تتوجّه إلى الكرسي الكهربائي. فهناك يعطونك قبعة تناسب جمجمتك كلها. تجدها مُحكَمة جداً، ماذا؟ لا يهم! إنها مضبوطة.

يجب أنْ تكون في بلدٍ غريب كفرنسا، تسير على الخط الفاصل بين نصفيّ كرة الحياة والموت، لتعرف أي آفاق مستقبلية لا تُحصى مفتوحة أمامك. ***الشبكة الكهربائية! الروح الديمقراطية! طغيان الفيضان!*** يا أمّ الرب المقدسة، ماذا يعني هذا الهراء؟ الأرضُ مُحمَّصة ومُشقَّقة. يحتشد الرجال والنساء معاً كأفراخ الصقور على جثةٍ عفنة، ليتزاوجوا ثم يتفرّقون من جديد. صقورٌ تسقطُ من السحاب كحجارةٍ ثقيلة. مخالب ومنقار، هذا نحن! جهاز معوي هائل لا نشتهي إلا اللحم الميت. ***إلى الأمام!*** إلى الأمام بلا رحمة، بلا شفقة، بلا حب، بلا مغفرة. لا تطلب ربع دولار، ولا تُعطِ شيئاً! مزيداً من السفن الحربية، مزيداً من الغازات السامة، مزيداً من المتفجّرات العالية الانفجار! مزيداً من جراثيم داء السيلان! مزيداً من المكوّرات العقدية! مزيداً من قاذفات القنابل! مزيداً ومزيداً منها – وإلى أنْ تنفجر جميع المعامل اللعينة إلى ذرات صغيرة، ومعها الأرض.

حالما ترجّلتُ من القطار عرفت على الفور أني ارتكبت خطأً مميتاً. كانت المدرسة قريبة من المحطة، فمشيتُ في الشارع الرئيسي في غروب يومٍ شتائي، ألتمسُ الطريق إلى وِجهتي. كان الندف الخفيف يهطل، والأشجار تلمع من الصقيع. مررتُ باثنين من المقاهي الخاوية الهائلة الحجم التي بدتْ أشبه بغُرَف الانتظار الموحشة، وحشة صامتة، خاوية – هذا هو الإحساس الذي تركَتْه في نفسي. بلدة بائسة، نائية. ينتجُ فيها الخردل بكمياتٍ كبيرة، بأوعية ضخمة وبراميل وقدور، وبرطمانات صغيرة جذابة المظهر.

أول نظرة إلى المدرسة أشاعت القشعريرة بي. وشعرتُ بتردُّد شديد حتى إني توقفت عند المدخل أتساءل أأدخل أم لا. ولكن لما لم يكن معي

ثمن تذكرة عودة فلم يكن من المفيد التفكير في المسألة. وخطر لي للحظة أنْ أُرسِل برقية إلى فيلمور، لكنني لم أكن أعرف بماذا أتعلل. وكان الشيء الوحيد الباقي هو أنْ أدخل وأنا مغمض العينين.

تصادفَ أنْ كان السيد المدير غائباً - إنها عطلته، هكذا قالوا. وتقدَّمَ مني أحدب وعَرَضَ عليّ أنْ يقودني إلى مكتب السيد المراقب، المسؤول الثاني. تخلَّفتُ عنه قليلاً، مفتوناً بطريقته في العَرَج. كان مِسخاً صغيراً، كالذي كان يمكن مشاهدته فوق أي كاتدرائية نصف بلهاء في أوروبا.

كان مكتب السيد المراقب فسيحاً وخالياً من الأثاث. جلست على كرسي قاسٍ أنتظر بينما انطلقَ الأحدب ليبحث عنه. وشعرت بألفة في المكان. ذكَّرني الجو العام كثيراً بمكتب للإحسان في الولايات المتحدة حيث تعوَّدتُ على أنْ اجلس ساعات طويلة منتظراً أحد أولاد الحرام ذوي الأفواه الطحينية ليستجوبني.

فجأةً فُتِحَ الباب وبخطوة مُتبخترة وثبَ السيد المراقب داخلاً وجاهدتُ كي أكبتَ ضحكي. كان يرتدي رداءً يشبه تماماً معطفاً كان بوريس يرتديه، وقد أسدلَ فوق جبينه خِصلة شعر، عقصة مُلصَقة جديرة بسميردياكوف[٤٢]. كان وقوراً وهشّاً، له عين كعين الوَشَق لم يهدر كلماته في الترحيب بي. وفي الحال أحضرَ أوراقاً كتبَ عليها أسماء الطلاب، والساعات، والصفوف الخ، وكل ذلك بخط يدوي مشوَّش. وأخبرني عن كمية الفحم والخشب المُخصَّصة لي وبعد ذلك أسرعَ بإخباري بأني حرّ

٤٢ - سميردياكوف : شخصية في رواية " الأخوة كارامازوف " لدوستويفسكي .

التصرُّف في وقت فراغي. وكان ذلك الخبر الأخير هو أفضل ما سمعت منه. وبدا الأمر مُطمئناً حتى إني أسرعت بالصلاة لأجل فرنسا - لأجل الجيش والبحرية، والجهاز الثقافي، ***والمقاهي الصغير***، ولكل ***الأعمال اللعينة!***

بعد إتمام هذه الأمور التافهة، قَرَعَ جرساً صغيراً، وعلى الأثر ظهرَ الأحدب ليقودني إلى مكتب السيد اقتصاد M. l'Econome. هنا اختل الجو قليلاً. كان أقرب شَبَهاً بمحطة شحن، بوجود فواتير الشحن والأختام المطاطية في كل مكان، والموظفين ذوي الوجوه الفطيرية الشاحبة الذين يُخربشون بأقلام مكسورة في دفاتر حسابات هائلة الحجم ثقيلة. وأفرزت صَدَقَتي من الفحم والخشب، وانطلقنا، أنا والأحدب، مع عربة يد، إلى غرفة المنامة. وخُصِّصَتْ لي غرفة في الطابق العلوي، تقع في جناح واحد مع الحُجّاب. وصار الوضع يأخذ طابعاً فكِهاً ولم أعرف ماذا أتوقَّع بعدئذٍ. ربما مِبصقة. كان كل شيء بطريقة تشبه كثيراً الاستعداد لقيام بحملة، لم يكن ينقصني غير حقيبة ظهر وبندقية - ورصاصة نحاسيّة.

كانت الغرفة المُخصَّصة لي كبيرة نوعاً ما، فيها مدفأة وصِلَتْ بها ماسورة معقوفة مع كوع فوق السرير الحديدي الصغير. وهناك صندوق كبير لحفظ الفحم والخشب موجود بالقرب من الباب. وكانت النوافذ تطلُّ على صفّ من المنازل البائسة كلها من الحجر ويقطنها البقّال والخبّاز، والحذاء واللحام الخ - وكل الريفيين بمظهرهم الأبله. وألقيتُ نظرةً عبر الأسطح نحو التلال الجرداء حيث كان قِطار يُدمدمُ. وزعقَ صفير القطار حزيناً هستيرياً.

بعد أنْ أضرمَ الأحدبُ النار لأجلي سألتُهُ عن الطعام، ولم يكن وقت العشاء قد حان. تمدَّدتُ على السرير، ولا أزال أرتدي معطفي، ورددتُ

اللحاف فوقي. إلى جانبي كانت الطاولة الليلية المُزعزعة الأبدية التي أخْفيَ فيها وعاء البول. أوقفتُ المُنبّه على الطاولة وراقبتُ الدقائق وهي تتكُّ منصرمة. وفي عمق الغرفة نبضَ ضوء خافت يميل إلى الزُرقة آتياً من الشارع. أصغيتُ إلى قرقعة الشاحنات تمرُّ وأنا أحدِّق بنظرة خاوية إلى ماسورة المدفأة وإلى الكوع الذي ثُبِّتَ بقِطع من الأسلاك وأسَرَ الصندوق انتباهي. لم يكن قد حدث قط من قبل أنْ شَغَلتُ غرفةً فيها صندوق للفحم، ولم أضرم مرة في حياتي ناراً أو أُعلِّم أطفالاً. ولم يحدث قط أنْ عملتُ دون أجر. وشعرتُ أني حرّ ومُقيَّد في الوقت نفسه - كما يشعر المرء عادة قُبيل الانتخاب، حين يكون جميع المحتالين قد رشّحوا وتوسّلوا إليك أنْ تصوِّت للرجل المناسب. شعرتُ كأني أجير، كأني رجل الصنائع السبع، أو صيّاد، أو قرصان، أو عبدٌ مُجدِّف، أو مُعلِّم، أو دودة أو قطّة. كنتُ حراً، لكنَّ أطرافي مُقيَّدة، روحاً ديمقراطية مع بطاقة توفِّرُ وجبة مجّانيّة، ولكن بلا قُدرة على التنقُّل، بلا صوت. شعرتُ كأني قنديل بحر مُسمَّر إلى لوح خشبي. وفوق ذلك كله، شعرت بالجوع. كانت يداي تتحركان بتثاقُل. بقيتْ لديّ عشر دقائق أقتلها قبل أنْ ينطلق إنذار الحريق. والظلال في الغرفة ازدادت قتامة. وثَقُلَ الصمت بشكلٍ مخيف، وتكثَّفَ السكون حتى توتَّرتْ أعصابي. وعَلَقَ ندف الثلج بزجاج النافذة. ومن بعيد أطلقَ قطارٌ زعيقاً ثاقباً، ثم ساد صمتٌ تام من جديد. وبدأتْ المدفأة تتأجَّج، ولكن لم تنبعث منها حرارة. وبدأتُ أخشى أنْ أغفو ويفوتني العشاء. وكان ذلك يعني أنْ أبقى يقِظاً ببطنٍ خاوٍ طول الليل. وانتابني الرعب.

قُبيل انطلاق رنين الجرس بلحظة قفزتُ من السرير، وبعد أنْ أغلقتُ الباب ورائي، اندفعتُ أهبط الدَرَج إلى الفناء. وهناك ضِعتُ. مصطبة بعد أخرى، ودَرَجاً بعد آخر. وتجوّلتُ داخل المبنى، وخارجه أبحث بهياج عن غرفة الطعام. ومررتُ بصفٍ طويلٍ من الأولاد الصِغار يمشون في طابور إلى حيث لا يعلم إلا الله، كانوا يتقدّمون كعُصبةٍ مُكبَّلة، وعلى رأسهم قائد العبيد، وأخيراً رأيتُ شخصاً يبدو نشطاً، بقبعة سوداء مستديرة يتجه صوبي. أوقفته لأسأله عن الطريق إلى قاعة الطعام. وكأني أوقفتُ الرجل المناسب. فقد كان هو السيد المُراقِب، وبدا مُبتهجاً لأنه تعثَّرَ بي. وطلبَ أنْ يعرف بلا مقدّمات إنْ كنتُ مرتاحاً، وإنْ كان هناك أي شيء آخر في وسعه أنْ يقوم به لأجلي. فأخبرته أنَّ كل شيء على ما يرام، وغامرتُ فأضفت قائلاً إنَّ الغرفة باردة قليلاً. فأكَّد لي أنَّ هذا الطقس غير عادي. أحياناً يحلّ بعض الضباب ويهطل قليل من الثلج، وعندئذٍ يصبح الطقس مزعجاً لبعض الوقت، وهلم جرا. كان طوال الوقت يمسك بي من ذراعي، ويقودني إلى غرفة الطعام. بدا لي رجلاً دمثاً كيّساً. وقلت في نفسي، شاب مثالي. بل لقد بالغتُ فتصوَّرتُ أني قد أُقيم معه صداقة حميمة لاحقاً، وأنه قد يدعوني إلى غرفته في ليلةٍ قارسة البرد ويقدِّمَ لي شراباً حاراً. وتخيَّلتُ شتى أنواع الأشياء الودّية في اللحظات القليلة التي يستغرقها الوصول إلى قاعة الطعام. وهنا، وبينما عقلي يجري بسرعة ميل في الدقيقة، إذا به فجأةً يُصافحني، ويلمس طرفَ قبعته، ثم يتمنى لي ليلة سعيد. ووقعتُ في ارتباكٍ شديد بحيث إني أنا أيضاً بدوري لمستُ طرف قبعتي - فقد كان ذلك هو السلوك المتعارَف عليه، كما اكتشفتُ سريعاً. فكلما مررتَ بأستاذ، أو

حتى بالسيد " اقتصاد "، فيحب أنْ تلمس قبعتك. وربما تمرّ بالشخص نفسه مراراً في اليوم الواحد، يجب أنْ تؤدي التحية، وإنْ كانت قبعتك متهرئة؛ فهو السلوك المُهذّب.

على أي حال، عثرتُ على قاعة الطعام. كانت أشبه بمستوصَف في الإيست سايد، بجدرانٍ مكسوّة بالآجُر، وإضاءتها باهتة، وطاولاتها ذات أسطح مكسوة بالرخام. وطبعاً مدفأة كبيرة بمواسير معقوفة. لم تكن وجبة العشاء قد وُزِّعَتْ بعد. وكان هناك شخص أعرج يدخل ويخرج بالصحاف والسكاكين والشوك وزجاجات الخمر. وفي إحدى الزوايا جلسَ بضعة شبّان يتحادثون بودّ. توجّهتُ إليهم وقدّمتُ نفسي فاستقبلوني استقبالاً حاراً، ومُبالغاً في حرارته، في الحقيقة. ولم أفهم السبب. وسرعان ما بدأتْ الغرفة تمتلئ، ورحتُ أتعرّفُ عليهم بسرعةٍ واحداً بعد آخر. ثم شكّلوا دائرةً حولي، وبعد أنْ ملؤوا الكؤوس راحوا يغنون...

ذات ليلة راودتني فكرة
أنْ أهتف باسم زيوس وهو ينكح مشنوقاً
وتهبّ الريح على المشنقة
وها هو مشنوقي يترنّح
لدي ناكح يقذف
اهتف باسم زيوس، لا أحد يرضى أبداً.

قبِّل مجرماً صغيراً جداً
اهتف باسم زيوس، لامس الحياة؛
قبِّل مجرماً كبيراً جداً

لا أحد يعلم متى سيقذف؛
إنَّ هزّه ليس ممتعاً
اهتف باسم زيوس، لا أحد يرضى أبداً.

وهنا دخل كوازيمودو[٤٢] داعياً لتناول طعام العشاء.

كانت مجموعة مرحة، أولئك les surveillants (المراقبون). كان هناك كروا الذي يتجشّأ كالخنزير ودائماً يُطلقُ ضراطاً عالياً أثناء جلوسه على المائدة. كان في إمكانه أنْ يضرط ثلاثين مرة متتالية، هكذا أخبروني. وقد حافظ على الرقم القياسي. ثم المسيو لو برانس، رياضي مُغرم بارتداء ملابس السهرة في المساء عندما يذهب إلى المدينة، بشرته جميلة، كفتاة، ولا يقرب الخمر ولا يقرب أي شيء من شأنه أنْ يُذهِبَ بوعيه. وإلى جانبه جلس بول الصغير، من الميدي، وهو لا يفكِّر إلا في العاهرات طوال الوقت، ويُكرر القول كل يوم - " اعتباراً من يوم الخميس لن أعود إلى الحديث عن النساء ". وكان هو والمسيو لو برانس كُلاً لا يتجزّأ. ثم هناك باسيلو، وهو وغد حقيقي شاب يدرس الطب ويستدين من كل من هبَّ ودب، ويتحدَّث بلا توقف عن رونسار، وفيّون، ورابليه. وقبالتي جلس موليس، وهو مُحرِّض ومُنظِّم المُشرفين، ويصرّ على وزن اللحم ليرى إنْ لم يكن ناقصاً بضعة غرامات. يشغل غرفة صغيرة في المستشفى. والسيد " اقتصاد " هو عدوّه الأمثل، ولم يكن

٤٢ - كوازيمودو هو أحدب كاتدرائية نوتردام في رواية فيكتور هوغو الشهيرة "أحدب نوتردام" ، وهو شخص قميء ، أحدب ومشوّه الخلقة ، ولذلك أصبح اسمه هو رديف لكل شخص يتّصف بصفاته ، كما هو الحال هنا .

ذلك ليؤثّر بشكلٍ خاص على سمعته الحسنة ما دام أنهم كلهم يكرهون هذا الشخص. صديق موليس الوحيد هو لوبينيبل، وهو شاب قاسي الملامح وصورته الجانبية تشبه وجه الصقر، يمارس أشدّ أشكال الاقتصاد صرامةً ويتعاطى المُراباة. ويشبه حفراً من أعمال البريشت دورر[٤٤] - أي مُركّب من جميع الشياطين الأوغاد الفاسدين، النكدين، اللدودين، المنحوسين، المشؤومين، والاستبطانيين، الذين يؤلفون مدفن العظماء من فرسان ألمانيا القرون الوسطى. كان يهودياً، دون شك. على أي حال، لقد قتل في حادث سيارة بعد وصولي بفترة القصيرة، وهو ظرف جلب لي ثلاثة وعشرين فرنكاً حلالاً. وباستثناء رينو الذي جلس إلى جواري، امّحتْ ذكرى جميع الباقين من رأسي، فهم ينتمون إلى تلك الفئة من الناس الذين لا لون لهم، ويشكّلون عالم المهندسين المعماريين وأطباء الأسنان، والصيادلة والمعلمين الخ. لم يكن هناك ما يُميّزهم من البلهاء الذين سيمسحون فيما بعد أحذيتهم. كانوا أصفاراً بكل ما في الكلمة من معنى، نَكِرات يمثلون نوى جماعة المواطنين المُحترمين الذين يبعثون على الأسى. يأكلون ورؤوسهم مُنكّسة، وهم دائماً الأوائل في طلب المزيد. ينامون نوماً عميقاً ولا يتذمّرون، وهم ليسوا مرحين ولا بائسين، إنهم اللا مبالون الذين أودعهم دانتي ردهة الجحيم، إنهم القشور السطحية.

جرتْ العادة بعد العشاء أنْ يذهبوا من فورهم إلى المدينة، إلا إذا كان واحدهم يؤدي خدمته في المنامات. وفي مركز المدينة تقع المقاهي - وهي عبارة عن قاعات رحبة وكئيبة يجتمعُ فيها تجّار ديجون الناعسون

٤٤ - البريشت دورر (١٤٧١ - ١٥٢٨) : رسام ألماني .

ليلعبوا الورق وليستمعوا إلى الموسيقا. والمقاهي دافئة، وهذا أفضل ما في وسعي أنْ أقوله عنها. وأيضاً مقاعدها مريحة، وهناك دائماً حِفنة من العاهرات يتجولّن في المكان مستعدات، مقابل كأس من البيرة أو فنجان من القهوة، أنْ يجلسنَ ويُثرثرن معك. من جهة أخرى، كانت الموسيقا شنيعة. ويا لها من موسيقا! ففي الليلة الشتائية، في بؤرة قذرة كديجون لاشيء أكثر إرهاقاً، وإثارة للأعصاب، من صوت أوركسترا فرنسية. ولاسيما إذا كانت إحدى تلك الفرق النسائية الموسيقية الموحِشة التي كان يصدر عنها صرير وضراط، مع إيقاع جاف، جَبري algebraic، وبقِوام معجون أسنان صحي. إنها أزيز وصريف يؤدّى مقابل الكثير جداً من الفرنكات في الساعة - فليأخذ الشيطان هذه الأخيرة! ما أشدّ كآبتها! وكأنما إقليدس العجوز وقف على قَدَميه الخلفيتين وابتلع حامض البروسيك. لقد استغلّ العقل فكرة الموسيقا برمّتها أيّما استغلال حتى لم يبقَ منها شيء لخلق الموسيقا، اللهم ما عدا ضربات الأكورديون الفارغة، الذي تُصفِّر الريح من خلاله وتُمزِّق الأثير شذراً. على أي حال، إنَّ الكلام عن الموسيقا في مثل ذلك المكان كأنك تحلم بالشمبانيا وأنتَ حبيس زنزانة الموت. كانت الموسيقا هي آخر اهتماماتي. إني حتى لم أفكِّر في عاهرة: لقد كان كل شيء كئيباً جداً، بارداً جداً، عقيماً جداً، وموحشاً جداً. وفي طريق عودتي إلى المنزل في الليلة الأولى لاحظتُ على باب إحدى المقاهي عبارة مأخوذة من كتاب "غارغانتوا "[٤٥] وكان داخلها أشبه بمشرحة. ولكن لا يهمّ، إلى الأمام!

٤٥ - غارغانتوا : شخصية في رواية ساخرة تحمل اسم بطلها ، للكاتب الفرنسي فرانسوا رابليه (١٤٩٣ -١٥٥٣)

كان يتوفَّر لدي الكثير من الوقت ولكن من دون أي سوّ لأنفقه. في اليوم الواحد هناك ساعتان أو ثلاث من دروس المحادثة، وهذا كل شيء. وما فائدة تعليم أولاد الحرام الفقراء اللغة الإنكليزية؟ كنت أشعرُ بأسف جحيمي لأجلهم. فطوال فترة الصباح يغوصون في قراءة قصيدة " رحلة جون غيلبن "[٤٦] وبعد الظهر يأتون ليتعلَّموا لغة ميّتة. ورحتُ أفكّر في الوقت الثمين الذي بدَّدته في قراءة فرجيل أو في الخوض في هراءٍ غير مفهوم مثل " هيرمن ودوروثه "[٤٧]. يا لجنون هذا! إنَّ التعلُّم ما هو إلا سلّة خبز فارغة! وتذكَّرت كارل الذي كان يُتقن تلاوة " فاوست " بالمقلوب، ولم يؤلِّف كتاباً دون أنْ يقرِّظ خراء معبوده الخالد، الذي لا يفنى، غوثه. ومع ذلك فلم يكن لديه ما يكفي من الحس ليستقبل عاهرة ثرية ويشتري لنفسه ملابسي داخلية جديدة. وهناك في عشق الأيام الماضية هذا شيء ما فاسق ينتهي بطوابير توزيع الخبز والمخابئ. وهناك نوع من الفسق في ذلك الصَخَب الروحاني الذي يسمح للأبله أنْ يرش ماءً مُقدَّساً على مدافع بيغ بيرثا والمُدرّعات والمتفجرات عالية الانفجار. إنَّ كل رجل مُتخم بالكلاسيكيات هو عدو للجنس البشري.

ها أنا ذا، المُنتَظَر مني أنْ أنشر مزمور المحبّة الفرانكو-أميركية - مبعوث جثة، بعد أنْ انتهيتُ من كل حدبٍ وصوب، وسبَّبتُ ما لا يحصى من الألم والبؤس، حلمتُ بإقامة سلامٍ عالمي. هراء! عمَّ يتوقعون مني أنْ أتحدَّث، أريد أنْ أعرف؟ عن " أوراق العشب "، عن التعريفات

---

٤٦ - " رحلة جون غيلبن " : قصيدة للشاعر الإنكليزي وليم كوبر (١٧٣١ - ١٨٠٠) وهي قصيدة مُملّة .

٤٧ - " هيرمن ودوروثه " : رواية للشاعر الألماني فولفغانغ غوثه .

الجمركية، عن إعلان الاستقلال أم عن آخر أخبار العصابات؟ عمَّ؟ فقط عمَّ، أودُ أنْ أعرف، حسن، سأقولُ لك - لم أذكُر هذه الأمور من قبل. بدأتْ فوراً بدرسٍ عن علِم اجتماع الحب. كيف تمارس الفيلة الحب - هذا هو! وأشاعَ الموضوع ما يُشبه النار في الهشيم. بعد اليوم الأول لم يبقَ أي مقعد خال، وبعد ذلك الدرس الأول في اللغة الإنكليزية أصبحوا يقفون عند الباب ينتظرونني وسارت الأمور على أحسن ما يُرام. وطرحوا جميع أنواع الأسئلة، وكأنهم لم يتعلّموا أي شيء. تركتهم يُطلقون نيرانهم كلها؛ علّمتهم أنْ يطرحوا مزيداً من الأسئلة الدقيقة. ***اسألوا عن أي شيء***! هذا كان شعاري. أنا هنا مبعوثٌ مُطلَق الصلاحية قادمٌ من عالمِ الأرواح الحرّة. أنا هنا لكي أُثير حمّى وهياجاً. يقول أحد علماء الفلك البارزين: " إنَّ الكونَ المادي يبدو، بصورةٍ ما، وكأنه يمرّ كحكاية تُحكى، تنحلّ في العَدَم كرؤيا ". ويبدو أنَّ هذا هو الشعور العام الكامن تحت سلّة العلِم الفارغة. أما أنا، فلا أُصدِّق هذا. لا أصدِّق أي شيء مَنْيَك مما يحاول أولئك أولاد الحرام أنْ يقحموه في حناجرنا.

بين الجلسات إذا لم يكن معي كتاب أقرأه، أصعد إلى الطابع العلوي إلى المنامة وأُثرثر مع المُشرفين. كانوا جاهلين بشكلٍ مُبهِج بكل ما يجري - ولاسيما في عالم الفن. وربما كانوا متعادلين مع الطلاب في مقدار الجهل. وكأني دخلتُ داراً خاصةً صغيرة للمجانين لا توجد فيها إشارة تدل إلى مخرج. أحياناً كنتُ أستطلع بفضول تحت القناطر، أراقب الأولاد أثناء مرورهم وهم يحملون قطعاً هائلة من الخبز محشوّةً في أفواههم القذرة. وكنتُ أنا دائم الجوع، بما أنه كان من المستحيل عليّ أنْ أُدرك وجبة الإفطار التي تُقدَّم في ساعةٍ لعينةٍ من الصباح، حين يكون

السرير بالكاد بدأ يدفأ. وهي مؤلّفة من أوعية ضخمة من القهوة ذات اللون الأزرق وشرائح الخبز الأبيض بدون زبد. أما الغداء ففاصولياء، أو عدس بلا ذوق في الطبخ. وكان المسيو " اقتصاد " هو المسؤول عن كل هذا. هكذا قالوا. لا أصدِّق هذا الكلام أيضاً. لقد كان يقبض نقوداً ليبقي رؤوسنا بالكاد فوق سطح الماء. لم يكن يسأل إنْ كنا نعاني من البواسير أو من الدمامل، لم يكن يستعلم إنْ كانت لدينا حواس مرهفة أو أمعاء الذئاب ,ولِمَ يفعل؟ إنه مستأجَر ليضع العديد من الغرامات في كل صحن لينتج الكثير من الكيلوات من الطاقة. كل شيء كان يُقاس بقوة الحصان، كل شيء كان محسوباً بعناية في الدفاتر الضخمة التي يُخربش عليها الموظفون ذوو الوجوه العجينية صباحاً، وظهراً، ومساء. مَدينٌ ودائن مع خطٍ أحمر مرسوم على طول منتصف الصفحة.

أطوف في أنحاء المَربّع ببطنٍ خاوٍ معظم الوقت حتى أشعر أني مجنون قليلاً. كأني تشارلز الأحمق، المسكين - ولكن بدون أوديت شانديفر لألعب معها لعبة الإصبع النتن. أقضي نصف الوقت أنبشُ السجائر من الطلاب، وأحياناً أثناء الدروس أشاركهم في قرقشة الخبز اليابس. ولما كانت النار دائماً تخمد نكاية بي فسرعان ما نفدت حصتي من الخشب. ويا لها من تجربة مريرة مررتُ بها وأنا أتملّق ماسكي الدفاتر لأحصل على بعض الخشب. وأخيراً استشاطَ غيظي وصرتُ أخرج إلى الشارع وأفتشُ عن الخشب، كالعرب الرُحّل، ويا للغرابة ما أقلّ ما يمكنك أنْ تحصل عليه من الخشب في شوارع ديجون. على أي حال، جرَّتني حملات الإغارة تلك إلى ضواحٍ غريبة. وتعرَّفتُ على الشارع الصغير المُسمَّى باسم السيد فيليبير بابيون - وهو موسيقي متوفى، على

ما أعتقد - حيث توجد شبكة من بيوت الدعارة. وكانت المناطق المجاورة دائماً أكثر إشاعة للمرح: حيث رائحة الطبخ، والغسيل المُعلّق ليجفّ. وأحياناً كنتُ ألمحُ أحد المساكين أنصاف المجانين الجالسين بتكاسُل في الداخل. لقد كانوا أفضلَ حالاً من الشياطين المساكين في وسط المدينة الذين كنتُ أرتطمُ بهم كلما دخلتُ أحد المتاجر التنويعية. كنتُ أترددّ إلى هناك غالباً طلباً للدفء. وأعتقد أنهم كانوا يفعلون ذلك للسبب نفسه، بحثاً عمَّنْ يدعونهم إلى فنجان من القهوة. كان يبدو عليهم شيء من الجنون، بسبب البرد والوحشة. وكان يُخيِّم على المدينة كلها قليل من الجنون حين تهبط عليها زُرقة المساء. كان في إمكانك أنْ تتمشى على طول الشارع الرئيسي في أحد أيام الخميس وحتى يوم القيامة دون أنْ تقابل مخلوقاً واحداً ذا نزعة خيرية. ستون أو سبعون ألفاً من البشر - وربما أكثر - مُتدثّرون بملابس داخلية صوفية ولا وِجهةَ لهم ولا شيء لديهم يفعلونه. ينتجون الخردل بكميات هائلة. وفِرقٌ موسيقية نسائية تطحن لحن " الأرملة الطروب ". الخدمة ممتازة في الفنادق الكبرى. قصر الدوقيّة يتعفَّن، حجراً بعد حجر، طَرَفاً بعد طرف. الأشجار تصرخ من الصقيع. قرقعة مستمرة من أحذية خشبية. الجامعة تحتفل بذكرى وفاة غوثه، أو لعلّه ميلاده، لم أعد أذكُر. (عادةً تكون مناسبات الوفاة هي التي يُحتَفَل بها) ، قضيةٌ بلهاء. على أي حال، كلهم فيها يتثاءبون ويتمطّون.

كنتُ كلما وصلتُ إلى أعلى الشارع حيث ساحة مربّعة يغمرني دائماً إحساسٌ بالعبث المُطبِق. الخارج كالحٌ وخاوٍ، وداخلي كالح وخاو. وتخيِّم على المدينة طَفَاوة من الجدب، ضبابة من عِلم الكتب. خبثُ الماضي ورماده. وحول القاعات الداخلية اصطفَّتْ قاعات الدرس، وهي

أكواخ صغيرة كالتي سيكون على مواطني الجمهورية القادمين أنْ يقضوا حياتهم في نسيانها. وكان يتمُ أحياناً استقبال آباء الأولاد في غرفة الاستقبال الكبرى القريبة جداً من الشارع، حيث توجد التماثيل النصفيّة للأبطال القُدامى، أمثال موليير، وراسين ، وفولتير، الخ، أي جميع الفزّاعات التي يذكرها مجلس الوزراء بتلذُّذ كلما أُضيفَ أحدُ الخالدين إلى التماثيل الشمعية (ولا وجود لتمثال فيّون، لا تمثال لرابليه، لا تمثال لرامبو). على أي حال، هنا كانوا يعقدون اجتماعاً سرّياً مهيباً، الآباء والقمصان المحشوَّة الذين تستأجرهم الدولة لتطويع النشء. وكنتَ دائماً تجد عملية التطويع تلك، ذلك التهذيب للمشهد العام، من أجل جعل العقل أكثر جاذبية. وكان الصِغار أيضاً يجلبون، أحياناً - أزهار دوّار الشمس تلك التي ستنتزع من غرفة الحضانة لكي تزيّن أراضي البلدية المعشوشبة. بعضهم كان مجرَّد نباتات مطاطية يمكن تنظيفها بسهولة بخرقة من قميص. وكلهم يهتزون طرباً بالحياة العزيزة في المنامات حالما يحلّ الليل. المنامات! حيث تتألق الأضواء الحمراء، ويقرع الجرس كإنذارِ الحريق، ويضجُّ وطءُ الأقدام أثناء التزاحُم للوصول إلى زنزانات الثقافة.

ثم كان هناك الأساتذة! خلال الأيام القليلة الأولى توصّلتْ إلى مصافحة بعضهم، وطبعاً كانت هناك التحيّة بالقبعة أثناء المرور من تحت القناطر. أما حديث القلب للقلب، أما التمشية إلى المنعطف والمشاركة في شرب كأس فلا سبيل إليها. لقد كان ذلك ببساطة أمراً لا يمكن تصورُّ حدوثه، أغلبهم كان يبدو وكأنَّ الرعبَ قد أمسك بتلابيبه. على أي حال، كنتُ أنتمي إلى طبقةٍ مختلفة. لم يكونوا يشتركون حتى القمل مع أمثالي. لقد كان مجرد النظر إليهم يُثيرُ سخطي، حتى إني كنتُ أصبُّ

لعناتي عليهم في سرّي حالما ألمحهم من بعيد. كنتُ ألزم مكاني، مُستنداً إلى عمود، وفي زاوية فمي سيجارة، وقبعتي مرخيّة فوق عينيّ، وحين يُصبحون على مسافةٍ توجبُ إلقاء التحيّة أبخُّ بصقةً كبيرة وأرفعُ قبعتي. لم أكنْ أُزعج نفسي حتى بفتح بوزي وإخبارهم عن الوقت. ومن تحت أسناني أقول ببساطة: " أيري فيك، جاك! "، وأتركُ الأمر عند هذا الحدّ.

بعد أسبوع بدا لي أني أمضيتُ هناك حياتي بأكملها. كان الوضعُ أشبه بكابوس لعينٍ منيَكْ لا يمكنك أنْ تتخلَّصَ منه. وكنتُ دائماً أقعُ في سُبات التفكير فيه. ولم أكن قد وصلتُ إلا منذ أيامٍ قلائل. ويهبطُ الظلام، ويهرع الناسُ إلى بيوتهم كالفئران تحت الأنوار التي يُغلّفها الضباب. الأشجار تتلألأ بخَبَثٍ معيَّنِ الشكل. فكَّرتُ في الأمر وقلّبتُ التفكير فيه ألف مرة ومرة. المسافة من المحطة إلى المدرسة كانت كالتنزهُّ داخل نفق دانتزيغ، كل شيء حادّ الحواف، متصدِّعٌ، يُحطِّمُ الأعصاب. زقاقٌ من عِظام الموتى، وأشباحٌ منحنية، منكمشة رعباً ومُلفّعة بالأكفان. أعمدتهم الفقرية من عِظام السمك. المدرسة نفسها بدتْ كأنها تنهضُ من وسط بحيرةٍ من الندف الهشّ؛ جبلٌ مقلوبةٌ قمّته إلى أسفل باتجاه مركز الأرض حيثُ يعملُ الله أو الشيطان دائماً وهو يرتدي سترة المجانين ويطحنُ حنطةً لتلك الجنّة التي هي دائماً حلم رطب. لم أعد أذكُر إنْ كانت الشمس قد أشرقت مرة. لا أذكرُ إلا الضباب اللزج والبارد الذي كان يهبُّ من جهة المستنقعات المتجمّدة البعيدة حيثُ حَفَرَتْ سكة الحديد طريقها داخل الهضاب الرهيبة. وكان بالقرب من المحطة قناة، أو لعلّه نهر، مُستتر عن العيون تحت سماءٍ صفراء وأكواخٍ صغيرة أُلصِقَتْ بضربةٍ قوية على ضفّتيّ النهر المرتفعتين. وكانت هناك أيضاً ثكنات عسكرية،

ودُهشت، فقد كنتُ أقابل بين حينٍ وآخر رجالاً صِغاراً صُفراً من أقزام دجاج الصين المرتبك ذوي وجوه أفيونيّة يتلصّصون من داخل بذلاتهم النظامية الفضفاضة كهياكل عظمية مصبوغة مُعبّأة داخل النشارة. كان الطابع القرن أوسطي اللعين بمجمله متقلقلاً ومتململاً بشكلٍ جهنمي، يهتز إلى الأمام وإلى الخلف، ويصدر أنيناً خافتاً، ويقفز باتجاهك من الإفريز، يتدلّى كرِقاب المجرمين المكسورة من رؤوس تماثيل الغرغويل. ظللتُ أنظر خلفي طوال الوقت، وأمشي كالسرطان المغروز بشوكة طعام قذرة. كان أولئك المسوخ القزمة البدينة، وتلك الصور المُلصَقَة كالدَبَق على واجهة كنيسة السان ميشيل، كانوا يتبعونني في الأزقة الملتوية وحول المنعطفات. وبدتْ واجهة السان ميشيل مفتوحة كألبوم صور في الليل، تتركك وجهاً لوجه مع رعب الصفحة المطبوعة. وحين أُطفِئت الأنوار، وبهتت الشخصيات وتسطّحت، أضحتْ ميتة كالكلمات، إذا بالواجهة تغدو رائعة، وتنبعث من كل شقّ من الواجهة العتيقة المملوءة بالعُقَد ترنيمة الريح الليلية الجوفاء وفوق الدبش المُخرَّم لأردية الكهنوت المتيبّسة الباردة جرى سائلٌ لعابيّ قاتم من الضباب والصقيع يشبه شراب الأفسنتين.

هنا، حيث قامت الكنيسة، بدا أنَّ كل شيء تحوّلَ إلى واجهةٍ خلفية. ولابد أنَّ الكنيسة نفسها قد خَلَعَتْ عن قاعدتها على مدى قرون من التقدُّم في المطر والثلج. كانت تقعُ في ساحة إدغار-كينه، جاثمة في وجه الريح، كبغلٍ ميّت. وكانت الريح تتدفق خلال شارع دو لامونيه كشَعرٍ أبيض ينسدل وحشياً؛ تدوِّمُ حول الأعمدة البيضاء المهتزة التي تُعيق المرور الحرّ للحافلات ولفريقٍ من عشرين بغلاً. وبينما أتمايلُ عابراً هذا

المخرج في الساعات الأولى من الصباح قد أتعثَّر أحياناً بالمسيو رينو المتلفِّع بقلنسوته كراهب شرهِ، ويبدأ بإلقاء افتتاحيته على مسمعي بلغة القرن السادس عشر. وحين ألتقي بالمسيو رينو، والقمر يندفع بقوة عبر السماء اللزجة كبالون مثقوب، أقعُ على الفور في عالم من الإبهام. فلدى المسيو رينو كلام مُحدد، جاف كالمشمش، وثقيل كقاعدة براندنبرغر. كان يشن عليّ هجوماً سريعاً بدءاً من غوثه أو فيخته، بصوت عميق يتلاطم هادراً بين زوايا الساحة المترامية كقصف رعود العالم الفائت. يا رجال يوكاتان، يا رجال زنجبار، يا رجال تييرا دل فيوغو، خلّصوني من هذا اللحاء الزغبي الأخضر الشاحب! بلاد الشمال تتكوَّم حولي، بالأزقة البحرية الجليدية، والأشواك ذات النتوءات المُزرقَّة، والأضواء المجنونة، والترتيل المسيحي الفاسق الذي ينتشر كجلمود هابط من جبل إتنا إلى بحر إيجه. كل شيء متجمّد، صلب كالنفاية، العقل موصد ومُحاط بإطار من الصقيع، ومن خلال الرزم الحزينة من الثرثرة الذكية تسمع الغرغرة المختنقة لقديسين نهشهم القمل. أبيضُ أنا حتى النخاع، ولكن مع أساسٍ قُلويّ بارد، وبأصابع أطرافها من الزعفران. أبيض، نعم ة، لكني لستُ راهباً مُثقّفاً، لستُ مؤمناً كاثوليكياً. أبيض، ومتحجِّر القلب، كالرجال الذين سبقوني وأبحروا منطلقين من جبال الألب. أنظرُ إلى البحر، إلى السماء، إلى المُبهم والقريب البعيد.

الثلج تحت القَدَم يعدو مُسرعاً أمام الريح، يعصف، يخزُ، يقرصُ، يتناثر، يُدوِّم عالياً، يُمطرُ، يتفتَّتُ، ويهطلُ رذاذاً. لا شمس، لا هدير أمواج، لا تكسُّر أمواج. الرياح الشمالية الباردة مُسلَّحة بأشواك مُدبَّبة حادة، مُثلِجة، حاقدة، جشعة، مُفسِدة، شالّة. الشوارع تشيحُ بوجوهها

عند منعطفاتها المعقوفة؛ إنها تبتعد عن المشهد المُسرع، عن النظرة المتجهمة. تهرعُ متعثِّرة من خلال الشَبَكيّة المنجرفة، تُديرُ الجانب الخلفي للكنيسة فتجعله واجهة، تجزُّ التماثيل، تسطِّح النُصُب التذكارية، تقتلع الأشجار من جذورها، تُيبِّس العشب، تمتصّ الشذا من الأرض. وأوراق أشجار جامدة كالإسمنت، أوراق يعجز الندى عن إعادة البريق إليها. لا قمر سيُضيء وَضْعها الفاتر. الفصول وصلَتْ إلى نهاية راكدة، والأشجار تشحب وتذوي، العربات تسير على آثار الدواليب الزجاجية بصوت يُشبه نقراً مكتوباً على القيثارة يتسلّل كالأفعى. وفي تجويف التلال المتوَّجة بالبياض تهجع ديجون المتقعة الخالية من العِظام. لا مخلوقَ حياً يخترقها ليلاً عدا الأشباح القلقة متّجهة جنوباً صوب الشبكات المتسامتة الصفيرية اللون. ومع ذلك فأنا يقِظ وأتجوّل، شبحٌ سائر، رجل أبيض مرتعب من العقلانية الباردة، وجبل من الجماجم فوقي. أنكب على المناطق الباردة، والخطوات الطباشيرية غُسلَتْ بالنيلة. الأرض بأروقتها المُظلمة تعرف وقعَ خطوتي، تشعر بمسند القَدَمين، برفرفة جناح، بلهاث ورعَشة. أسمعُ الدرس يتحوّل إلى مُزاح وضحك، والأرقام تصعد إلى أعلى، وخفّاش يتدلّى عالياً كقطر لزج، ويُصفّق بجناحين كرتونيتين ذهبيتين، وأسمع القطارات تتصادم، والسلاسل تصلصلُ، والقاطرة تنفث، تشخر، تتنشّق، تطلقُ بخاراً، وتتبوّل. كل الأشياء تأتي إليّ من خلال الضباب الصافي مع نكهة التكرار، والمُخلّفات الصفراء والتجديف والـwhittikins. في قلب المركز، إلى الأسفل من ديجون بمسافة طويلة، وبعيداً عن مناطق القطب الشمالي، يقف الإله أجاكس، كتفاه موثوقان إلى دولاب طاحونة هواء، الزيتون يُسحَق، وماء المستنقع الأخضر يضجُّ بنقيق الضفادع.

الضباب والثلج، المنطقة الباردة، المعرفة الثقيلة، القهوة الزرقاء، الخبز الخالي من الزبد، الشوربة والعدس، ويقول تاجر لحم الخنزير الثقيلة، والجبن البائت، والطعام النديّ، والنبيذ القذر يجعل جميع نزلاء الإصلاحية في حالة إمساك. ولما يشتدّ الإمساك عند الجميع تتجمَّد أنابيب مياه المرحاض. ويتكوَّم الخراء كتلال النمل، ويضطر المرء إلى أنْ ينزل عن قاعدته ويتغوَّط على الأرض. ويبقى حيث يُترَك جامداً ومُتيبِّساً، ينتظر ذوبان الثلوج. في أيام الخميس يأتي الأحدب مع عربة اليد ليجرف الكُتل بمكنسة وجاروف، ويذهب جاراً ساقه المرتخية. وتُرَشُ الأروقة بأوراق المرحاض، وتلتصق بقدميك كورق الذباب. وحين يعتدل الطقس ينضج العَبَق، وتستطيع أنْ تشمَّه في وينشستر على بُعد أربعين ميلاً. وعندما تقفُ في الصباح تنظر إلى الروث الناضج، حاملاً فرشاة الأسنان، تكون النتانة من القوة بحيث تجعل رأسك يدور. ونقفُ في المكان بقمصاننا الداخلية الحمراء، ننتظر أنْ نتغوَّط، ويبدو الموقفُ أشبه بلحنٍ غنائي من إحدى أوبرات فيردي العظيمة - كأننا جوقة سندان الحدّاد مزوّدين ببكرات وحِقَنْ. وفي الليل، حين تضيق بي الحال، أندفع هابطاً إلى المرحاض الخاص بالسيد المُراقب القريب من الشارع العام. وكان برازي دائماً مملوءاً بالدم. وحتى مرحاضه لم يكن جارياً كما يجب ولكن على الأقلّ كانت تتوفَّر لي متعة الجلوس، ثم أترك له حزمتي الصغيرة كعربون احترام.

بعد انتهاء الوجبة في كل مساء يأتي الحارس الليلي ليأخذ نصيبه من البهجة. وهذا المخلوق البشري هو الوحيد في المؤسسة كلها الذي

شعرت معه بألفة. إنه نكِرة. يحملُ مصباحاً ومجموعة مفاتيح. يقوم بجولاته خلال الليل، بحركاتٍ جامدة كإنسانٍ آلي. وما أنْ يبدأ توزيع الجبن البائت حتى يظهر فجأةً لينال نصيبه من النبيذ. يقف هناك، ماداً مِخلبه، وشعره منتصب كما الأسلاك، كشعر كلب حراسة، وخداه متوردان، وشاربه يتلألأ بالندف. فيُغمغمُ بكلمةٍ أو كلمتين ويُحضِرُ له كوازيمودو الزجاجة. ثم يقفُ ثابت القدمين، ويرمي رأسه إلى الخلف ويجرع النبيذ، ببطء وبجرعة واحدة طويلة. كان يبدو لي وكأنه يصبُّ في جوفه أحجار ياقوت. وكان في تلك الحركة شيء يقبض عليَّ من شعري. كأنه كان يشرب البقية الباقية من العطف الإنساني، وكأنَّ في الإمكان جرعَ كل ما في العالم من حب وحنوّ هكذا دفعة واحدة - وكان ذلك هو كل ما يمكن عصره يوماً بعد يوم. لقد عاملوه على أنه أقلّ مرتبة من أرنب. ففي نظام الأشياء هو لا يساوي الماء المملّح اللازم لتخليل سمكة رنجة واحدة. هو مجردٌ قطعة روث حيّة. وكان يعلم ذلك. حين كان ينظر حوله بعد أنْ ينتهي من الشرب ويبتسم لنا، يبدو العالم وكأنه يتهاوى. إنها ابتسامة تُلقى عبر لجّ، حيث في أسفل الهاوية يقبع كل العالم المتحضّر النتن كمستنقع، وفوقه، وكالسراب، تحوم تلك الابتسامة المُرفرفة.

الابتسامة هي نفسها التي حيَّتني ليلاً لدى عودتي من تسكّعي. أذكرُ أني في إحدى تلك الأمسيات، كنتُ واقفاً عند الباب أنتظرُ الصديق الحميم ليُنهي جولاته، وتملّكني ذلك الإحساس بالسعادة حتى كان في وسعي أنْ أبقى منتظراً هكذا إلى الأبد. وانتظرت نحو نصف ساعة قبل أنْ يفتح لي الباب. ولأتلفّت حولي بهدوء وارتياح، أتشرّب كل ما يُحيط بي، الشجرة اليابسة المنتصبة أمام باب المدرسة بأغصانها

النحيلة الملتوية، والمنازل على الجانب المقابل من الشارع التي غيَّرَتْ لونها خلال الليل، وانحنتْ الآن بشكلٍ أوضح، وضجيج القطارات المندفع عبر فيافي سيبيريا، والدرابزينات التي رسمها أوتريللو، والسماء، وآثار دواليب العربة العميقة. وفجأةً، وبلا مقدمات، ظهر عاشقان، كانا كلما سارا بضع ياردات يتوقفان ويتعانقان، ولما لم يعُد في إمكاني متابعتهما بعيني صرتُ أتابع وقع خطواتهما، سمعت توقفهما السريع، ثم سيرهما المتهادي البطيء. كدتُ أشعر بارتخاء جسديهما ثم سكونهما عند استنادهما على السور، وسمعت طقطقة حذاءيهما حين كانت تنقبض عضلاتهما وقت العناق. وتجولا في أرجاء المدينة، وخلال الشوارع الملتوية، متوجهين إلى القناة ذات المياه الزجاجية حيث يستقر الماء أسود كالفحم. كان شيئاً استثنائياً. ولم يكن في ديجون كلها اثنان مثلهما.

في تلك الأثناء كان الصديق الحميم يقوم بجولاته، وكان في استطاعتي أنْ أسمع قرقعة مفاتيحه، وسحق حذائه، والخطو الثابت الآلي. وأخيراً سمعته قادماً على الممشى ليفتح الباب الكبير، البوابة الضخمة المقوَّسة التي لا يوجد أمامها خندق. سمعته يتحسَّس القفل، بيدين صارمتين، وبذهنٍ حذر. ولما تمايل الباب وهو ينفرج رأيتُ فوق رأسه كوكبة من نجوم تتوج الكنيسة. كل الأبواب موصدة، كل زنزانته مُرتجة. والكتب مُغلقة. الليل وشيك، مُدبب كنصل خنجر، ثملٌ كمهووس. وها هو ذا، خواء لا متناه. وفوق الكنيسة، وكتاج الأسقف، شَمَخَتْ كوكبةٌ النجوم، وكل ليلة، وطوال أشهر الشتاء، تشمخ هناك واطئة فوق الكنيسة. واطئة وبرّاقة، حفنة من نِصال الخناجر، انبهارٌ من الخواء الصِرف. تبعني العجوز حتى انعطافة الممشى، ثم أغلقَ الباب

بصمت. وحين ألقيتُ عليه تحية المساء لمحتُ ثانية تلك الابتسامة اليائسة، المستحيلة، كومضة نيزكية عبر شفا عالمٍ مفقود، ومن جديد رأيته واقفاً في قاعة الطعام، رأسه مائل إلى الخلف والياقوت ينسكب في جوفه، وكأنَّ البحر المتوسط كله مدفون داخله - بساتين البرتقال، وأشجار السرو، والتماثيل المُجنّحة، والمعابد الخشبية، والبحر الأزرق، والأقنعة الجامدة، والأرقام الصوفية، والعصافير الأسطورية، السموات الياقوتية الزُرقة، وأفراخ العقبان، الخلجان الصغيرة المشمسة، الشعراء العميان، والأبطال الملتحون. هذا كله اختفى، غاصَ تحت الجلمود الآتي من بلاد الشمال، دُفِنَ، مات إلى الأبد، صار ذِكرى، أملاً وحشياً.

تلكّأتُ لحظة على درب العربات. كل شيء أشبه بالكفن، بغطاء النعش، بخواء مُستحكم لا يوصَف. ثم حثثتُ خطاي على طول الممر المفروش بالحصى المُحاذي للسور، ماراً بالأقواس والأعمدة، والسلالم الحديدية، ومن مربعٍ إلى آخر. كل شيء مُحكَمْ الإغلاق، موصد استعداداً للشتاء. وأجد القنطرة المؤدية إلى غرفة الطعام. الضوء المُقزز للنفس ينتشر على الدَرَج من النوافذ المتجهّمة المُصقعة. والدهان يتقشّر عن كل شيء. الحجارة تتجوّف، وأعمدة الدرابزين تصرّ، والعرق الرطب ينزّ من حجارة الرصف اللوحية ويُشكّلُ جواً باهتاً، زغبياً، يخترقه النور الأحمر الضعيف عند أعلى الدرج، وارتقيتُ آخر مجموعة دَرَج، والبريج، وقد سربلني العَرَق والرعب. وأخذتُ أتحسَّس طريقي في الظلام الحالك خلال الممر القفر. كل الغرف خالية، موصدة، تتعفَّن ويدي تنزلق على طول الحائط باحثة عن مقر المفتاح. ويمسّني الرعب حين أمسك أُكرة الباب. وهناك دائماً على ياقتي يدٌ مستعدةٌ لانتزاعي إلى الخلف. وحالما ألجُ

الغرفة أرتجُ الباب. إنَّ ما أقومُ به كل ليلة إنْ هو إلا معجزة، معجزة الولوج إلى الداخل دون أنْ أختنق، دون أنْ تشق رأسي بفأس. يمكنني أنْ أسمع الجرذان تعدو خلال الرواق، تقرض فوقي بين عوارض السقف الخشبية. الضوء يسطع ككبريت مُشتعل وأقابلُ الرائحة النتنة الحلوة المُقززة للنفس لغرفة لا تهوى على الإطلاق. وفي الزاوية يجثمُ صندوق الفحم، تماماً كما تركته. النار خامدة. صمتٌ مُطبِق حتى إنه يهدر كشلالات نياغارا في أذني.

وحدي، مع اشتياقٍ هائل فارغ وخوف. الغرفة كلها من أجل أفكاري. لا شيء غيري وما أفكّر فيه، وما أخاف منه. كان في وسعي أنْ أُخرِجَ أروع الأفكار، أنْ أرقص، أبصق، أكشِّر، ألعنُ، أنتحبُ - دون أنْ يعرفَ أحدٌ بذلك، دون أنْ يسمعه أحد. إنَّ مجرّد التفكير في تلك العزلة المطلقة يكفي لدفعي إلى حافة الجنون. هي أشبه بولادة متيسّرة. قطعتُ كل الروابط. وأضحيتُ منفصلاً، عارياً وحيداً. إنه نعيم وألم في آنٍ واحد. الزمن بين يديك. كل لحظة فيه تجثمُ عليك كجبل. أنت غارقٌ فيها. صحارى، بحار، بحيرات، محيطات. الزمن يضرب باستمرار كساطور اللحم. العالم عدم. الأنا واللا أنا. ***أوماهاروموما***. كل شيء يجب أنْ يحمل اسماً. يجب تعلُّم، اختبارُ، ممارسةُ كلَّ شيء. Faites comme chez vous, cheri (تصرَّف وكأنكَ في بيتك، يا عزيزي)

يهبطُ الصمتُ كالسيول البركانية. وهناك، فوق الهضاب المُجدبة، تنطلق القطارات قَدُماً نحو مناطق معدنية شاسعة، تجرّ منتجات تجّارها. تجري على مجرى من الفولاذ والحديد، والأرض مفروشة بالخبث، والجمر، والفلز الأرجواني. في عربات البضائع أعشاب بحرية، لوح وصل السكة

الحديد، حديد مبروم، راقدات السكة الحديد، قضبانُ الأسلاك، صفائح وألواح، ومواد مُصفّحة، أطواق دُوِّرت بالتسخين، عربات الصفائح والملاط، وفلز زوري zores. دواليب مقاس ٨٠ ميليمتر أو أكثر. أمرٌ بنماذج بديعة من فن العمارة الأنجلو نورمانية، أمرٌ بجنود مشاة ولوطيين، بأفران الموقد المفتوح، بمطاحن بسمر الأساسية، بمحركات ومُحوّلات، بقوالب صب الحديد الخام وسبائك الفولاذ. الناس كافة، جنود مشاة ولوطيون، سمك ذهبي وشجر نخيل من الزجاج المغزول، وقرود تنشج، كلهم يتجولون بحريّة في الأزقة التخميسية quincumcial. في ساحة دو بريزيل عينٌ خُزاميّة.

أعودُ بسرعة البرق إلى امرأةٍ كنتُ أعرفها. تشبه سلسلة طرقتُها من بؤسي. كل واحدة مُعلّقة بالأخرى، نخاف العيش منفصلَين، من البقاء مولودين. باب الرحم دائماً مُزلَج. رعبٌ واشتياق. عميقاً في الدم يمكن التوق إلى الجنة. الغيب. دائماً الغيب. لابد أنَّ كل شيء بدأ بالسُرَّة. يقطعون الحبل السرّي، يصفعون مؤخرتك، وبريستو! يرمون بك إلى العالم، بلا هدف، سفينة بلا دفّة. وتنظر إلى النجوم ثم تنظر إلى سرّتك. يصبحُ لديك عيون في كل مكان. تحت الإبط، بين الشفاه، في جذور شعرك، في أخمص قدميك. ويغدو البعيد قريباً، والقريب بعيداً. في الداخل والخارج، تدفُّق مستمر، سلخُ جلود، قلب الداخل إلى الخارج، وتنجرف هكذا لسنين وسنين، إلى أنْ تجد نفسك في المركز تماماً، وهناك تتعفَّن على مهل، تتفتَّتْ ببطء إلى ذرّات، وتتبدَّد من جديد، ولا يبقى غير اسمك.

حلَّ الربيع قبل أنْ أفلح في الهرب من الإصلاحية، ثم فعلتُ ذلك وبضربة حظ. فقد أنبأتني برقية وصلتني من كارل ذات يوم أنَّ هناك مكاناً شاغراً في الطابق العِلوي، وقال إنه سيُرسل لي أجرة العودة إذا قرّرتُ القبول. وأجبته ببرقية عاجلة، ولما وصلَتْ النقود هرعتُ إلى المحطة دون أنْ أترك كلمة واحدة للسيد المدير أو لأي كان. مغادرة فرنسيّة، كما يقولون.

ذهبتُ من فوري إلى الفندق الكائن في ايه-بيه، حيث كان يقطن كارل. فتحَ لي الباب وهو عارٍ تماماً. كانت ليلة عطلته وكالمعتاد هناك عاهرة في سريره. ويقول: " لا تأبه لها، إنها نائمة. إذا كنت بحاجة إلى مضاجعة يمكنك أخذها. لا بأس بها "، ويسحب الأغطية عنها ليُريني نوعَ بضاعتها. على أي حال، لم أكنْ أفكّر في المضاجعة عندئذٍ. كنتُ متوتراً جداً، كرجلٍ هربَ لتوّه من السجن. أردتُ فقط أنْ أرى وأسمع أشياء. كان قدومي من المحطة أشبه بحلمٍ طويل. وشعرتُ كأني كنتُ غائباً منذ سنين عديدة.

لم أدرك تماماً أني عدتُ إلى باريس من جديد إلا بعد أنْ جلستُ وألقيتُ نظرةً متفحّصة إلى الغرفة. إنها غرفة كارل، ولا سبيل إلى الخطأ، شبيهة بقفص السنجاب وبيت خراء معاً. وبالكاد وجدَ مكاناً على

الطاولة يتّسع للآلة الخفيفة التي كان يستخدمها. الأمر هكذا دائماً معه، سواء أكانت برفقته عاهرة أم لا. وهناك دائماً قاموس مُلقى وهو مفتوح فوق نسخة ذات حواف مُذهَّبة من فاوست، ودائماً هناك كيس التبغ، وقلنسوة، وزجاجة من النبيذ الأحمر، ورسائل، ومخطوطات، وصُحف قديمة، ورسوم مائية، وإبريق شاي، وجوارب قذرة، وعيدان لتنظيف الأسنان، وملح كرشن، وواقيات ذكرية الخ، وفي مرحاض النساء قشور برتقال وبقايا شطيرة لحم خنزير.

قال: " يوجد شيء من الطعام في الخزانة، كُلْ ما تشاء! كنتُ على وشك أنْ أتلقى حقنة "

عثرتُ على الشطيرة التي ذكَرَها وعلى قطعةٍ من الجبن كان قد قضمَ منها قضمة. وبينما جلسَ هو على حافة السرير ليتلقّى جرعة من مُطهِّرٍ آرغيرول، ازدردتُ الشطيرة والجبن بعونٍ من قليلٍ من النبيذ.

قال: "أعجبتني الرسالة التي بعثتها إليّ وتتحدث فيها عن غوثه"، وهو يمسح أيره بسروالٍ داخلي قذر، " سأُريك الجواب عليها حالاً - إنني أدوّنه في كتابي. مشكلتكَ هي أنكَ لستَ ألمانياً لتفهم غوثه. خراء، لن أشرح لك هذا الآن. لقد كتبتُ كلَّ شيءٍ في الكتاب... بالمناسبة، لدي عاهرة جديدة الآن - ليس هذه - هذه شبه مجنونة. على الأقلّ، كانت معي حتى قبل بضعة أيام. لستُ متأكداً إنْ كانت ستعود أم لا. بقيتْ تُقيم معي طوال فترة غيابك. وقبل أيام جاء والداها وأخذاها، قالا إنَّ عمرها لا يتجاوز الخامسة عشرة. أتصدِّق؟ لقد بثّا فيَّ الرعب... "

أخذتُ أضحك. كان من عادة كارل أنْ يوقِعَ نفسه في ورطة كتلك.

قال: " علامَ تضحك؟ كان يمكن أنْ أدخل السجن بسببها. ولحسن الحظ أنني لم أُحبّلها. وهذا مضحك أيضاً، لأنها لم تكن تعتني بنفسها كما يجب. ولكن أتعلمْ ما الذي أنقذني؟ على الأقل هذا ما أعتقده، إنه *فاوست* . نعم! فقد تصادف أنْ رأى أبوها العجوز المسرحية مُلقاة على الطاولة، فسألني إنْ كنتُ أفهم الألمانية. وحديث أدّى إلى آخر، وإذا به يقلب النظر في كتبي. ولحسن الحظ كنتُ قد تركتُ كتاباً لشكسبير مفتوحاً أيضاً، فتركَ لديه انطباعاً ممتازاً، وقال من الواضح أني رجل على قدرٍ كبير من الجدّية "

" وماذا عن الفتاة – ماذا قالت **هي**؟ "

" كانت خائفة حتى الموت. وما حدث هو أنه كان معها ساعة يد صغيرة حين أتت، ووسط ذلك التوتر لم نعثُر على الساعة، وأصرّتْ أمها على أنْ تعثر عليها وإلا طَلَبَتْ الشرطة.أترى كيف تجري الأمور هنا. وقَلَبَتْ المكان رأساً على عقب – لكني لم أعثر على الساعة اللعينة. واستشاطتْ الأم غضباً. هي الأخرى أعجبتني، على الرغم من كل شيء. بل إنها كانت أجمل من ابنتها. خُذْ – سأُريكَ رسالةً بدأتُ بكتابتها لها. إنني أحبها... "

" تعني ***الأم***؟ "

" طبعاً، ولِمَ لا؟ لو أني شاهدتُ الأمَّ أولاً لما نظرتُ إلى الابنة قط. وكيف كان لي أنْ أعرف أنَّ عمرها خمسة عشر عاماً فقط؟ إنكَ لا تسأل العاهرة عن عمرها قبل أنْ تضاجعها، أليس كذلك؟ "

" جو، في الأمر شيءٌ مُريب. أرجو ألاّ تكون ساخراً مني؟ "

" أنا أسخرُ منكَ؟ خُذْ - أُنظر إلى هذه! "، وأراني الرسوم المائية التي رِسَمَتها - أشياء صغيرة فيها لفتة - سكين ورغيف خبز، الطاولة وإبريق الشاي، وكلها موضوعة فوق بعضها. قال " لقد أحبَّتني. كانت طفلة. كان عليَّ أنْ أُخبرها متى تُنظِّفَ أسنانها وكيف تعتمر قبعتها. خُذْ - أُنظر إلى المصاصات! كنتُ أشتري لها في كل يوم بضع مصاصات - وكانت تحبها "

" حسنٌ، وماذا فعلتَ حين حضرَ والدها ليأخذها؟ ألمْ تُثِرْ شجاراً؟ "

" لقد بكَتْ قليلاً، لا أكثر. وماذا كان في إمكانها أنْ تفعل؟ إنها قاصر. لقد اضطررتُ إلى أنْ أعِدَ بألاّ أراها بعد ذلك. وألاّ أكاتبها أيضاً. وهذا ما أنتظرُ نتيجته الآن - سأرى إنْ كانت ستبقى بعيدة أم لا. لقد كانت عذراء حين جاءتْ إلى هنا. والمشكلة الآن هي إلى متى ستقدر على البقاء بدون مضاجعة؟ إذ لم تكن تشبع منها حين كانت هنا. كادت تُهلكني "

في ذلك الوقت استيقظَتْ النائمة وأخذت تعركُ عينيها. بدت لي جميلة وصغيرة السن أيضاً، ولا بأس بمظهرها، لكنها صامتة كالجحيم. أرادتْ أنْ تعرف على الفور عمّا كنا نتحدث.

قال كارل: " إنها تقيمُ في الفندق، في الطابق الثالث. هل تودّ أنْ تُرافقها إلى غرفتها؟ سأتدبَّر الأمر "

لم أكنْ متأكداً من أني راغبٌ فيها أم لا، ولكنْ حينَ شاهدتُ كارل وهو يدكها مرةً أخرى قرَّرتُ أني أريدها. سألتها أولاً إنْ كانت مُتعبة كثيراً. سؤال بايخ. العاهرة لا تصل أبداً إلى حالة التعب الشديد من فتح

ساقيها. بعضهنّ يمكن أنْ ينمنَ وأنتَ منهمكٌ فيهنّ. على أي حال، كان قد تقرَّرَ أنْ نهبط إلى غرفتها. وعلى هذا الأساس فلن أُضطر إلى أنْ أدفع لصاحب الفندق أجرَ مبيت.

في الصباح استأجرتُ غرفةً تطلُّ على الحديقة العامة الصغيرة حيث يأتي عادةً حاملو الإعلانات لتناول غدائهم. وعند الظهيرة عرَّجتُ على كارل لأشاركه طعام الإفطار. كان هو وفان نوردن قد أخذا يكتسبان عادةً جديدة أثناء غيابي – هي الذهاب في كل يوم لتناول وجبة الإفطار في الكوبول. وسألته: " ولماذا الكوبول بالذات؟ "، قال: " أتسأل لِمَ الكوبول؟ لأنَّهم في الكوبول يُقدّمون الثريد في كل الأوقات، والثريد يجعلك تخري ". قلتُ " فهمت "

وهكذا عادَ كل شيء إلى سابق عهده. وأخذنا نحن الثلاثة نتردَّد ذهاباً وإياباً من العمل وإليه، مع قليلٍ من الخلافات، وقليل من المنافسات. وكان فان نوردن لا يزالُ يعاني من عاهراته ومن رغبته في طرح قذارته من بطنه. غير أنه الآن وجدَ لنفسه تسليةً جديدة؛ اكتشفَ أنَّ الاستمناء أقلّ إزعاجاً. وذُهِلتُ حينَ زفَّ إليّ النبأ. فلم يخطر في بالي أنَّ من الممكن بالنسبةِ إلى شابٍ مثله أنْ يجدَ أي متعة في الاستمناء. بل لقد صُعِقتُ أكثر حين شرحَ لي الأمور بالتفصيل. فقد " ابتكرَ " باباً جديداً، حسب تعبيره ويقول: " خُذْ تفاحةً وانزع اللبَّ منها ثم ادهنْ داخلها بكريما باردة لكي لا تذوب بسرعة كبيرة. جرِّبها مرة! في أول الأمر ستدفعكَ إلى الجنون. على أي حال، هكذا أرخص ولا يستغرق الأمر وقتاً طويلاً "

ثم قال وهو يُغيِّر دفّة الموضوع: " بالمناسبة، صديقك ذاك، فيلمور، إنه في المستشفى. أعتقدُ أنه فقدَ عقله. على أي حال، هذا ما أخبرتني به فتاته. فقد اتَّخذَ لنفسه فتاةً فرنسية أثناء غيابك، وكانا يُثيران شجاراً جحيمياً. إنها عاهرة ضخمة الجثة صحيحة الجسم - متوحشة. لا أمانعُ في مضاجعتها، ولكن أخشى أنْ تقتلع عيني بمخالبها. كان دائماً يظهر بوجهٍ ويدين مملوءة بالخدوش. وهي أيضاً كانت تظهرُ بين الحين والآخر مع بعض الرضوض - أو غالباً. أنتَ تعلم نوع أولاءِ النسوة الفرنسيات - حين يعشقنَ يفقدن عقولهن "

واضحُ أنَّ هناك أحداثاً وقعَتْ أثناء غيابي. وشعرتُ بالأسف لأجل فيلمور. كان معي طيّباً جداً. وبعد أنْ تركتُ فان نوردن قفزتُ إلى متن إحدى الحافلات وتوجهتُ رأساً إلى المستشفى.

أعتقد أنهم لم يكونوا قد قرروا بعد إنْ كان قد بات مجنوناً بشكل تام أم لا، لأنني وجدته في الطابق العلوي في غرفة منفصلة متمتعاً بجميع امتيازات المرضى المواظبين. وكان قد خرج لتوِّه من الحمّام حين وصلت. وما أنْ وقعَ بصره عليّ حتى انفجر باكياً. وقال من فوره "انتهى أمري. يقولون إني مجنون - وقد أكون مُصاباً بالسفلس أيضاً. يقولون إنني مُصاب بجنون العَظَمة "، وارتمى على السرير وأخذ يبكي بهدوء. وبعد أنْ بكى قليلاً رفعَ رأسه وابتسمَ - كعصفورٍ استيقظَ لتوّه من غفوة. وقال: " لماذا يضعونني في غرفةٍ تُكلِّف الكثير؟ لماذا لا يضعونني في الجناح العام - أو في مستشفى المجانين؟ لا أستطيع أنْ أتحمل تكاليف ذلك. إنني أعيش على آخر خمسمئة دولار معي "

قلت " ولهذا يحتفظون بك هنا، وسوف ينقلونك بسرعة حالما تنفد نقودك فلا تقلق "

ولابد أنَّ كلماتي تركت تأثيرها عليه، لأني ما أنْ أنهيتُ كلامي حتى سلَّمني ساعة يده والسلسلة، محفظة نقوده، ودبوساً يحمل شعار الأخوة ". وفجأةً أخذ يضحك ضحكة من تلك الضحكات العجيبة الخالية من المرح التي تجعلك تؤمن بأنَّ الذي أمامك هو أبله سواء أكان كذلك أم لا. قال: " أعرف أنكَ ستعتقد أني مجنون، لكني أريد أنْ أُكفِّر عما فعلت. أريد أنْ أتزوج. إنَّ ما حصل هو أني لم أكن أعرف أني مُصاب بالسيلان. وها أنا نقلت إليها المرض ثم حبّلتُها. قلتُ للطبيب لا يهمني ما يحدث لي، المهم هو أنْ يدعني أتزوج أولاً. وظلَّ يقول لي انتظر حتى تتحسَّن صحتك - ولكن أعلمُ أني لن أتحسَّن. إنها النهاية "

ولم أستطع أنْ أمنع نفسي من الضحك منه بسبب كلامه بتلك الطريقة. لم أفهم ماذا حدث له. على أي حال، كان يجب أنْ أعِدَه برؤية الفتاة لأشرحَ لها كل شيء. وطلبَ مني أنْ ألازمها، وأواسيها. وقال إنَّ في استطاعته أنْ يثقَ بي، الخ. فقلتُ نعم رداً على كل شيء لأهدِّئه. لم يبدُ لي مجنوناً حقاً - كان أقرب إلى إنسانٍ كفَّ عن المقاومة. مثال نموذجي للأزمة الأنغلوسكسونية، تفجُّر الأخلاقيات. كنتُ تواّقاً لمقابلة الفتاة لأحصل على الحقائق المجرّدة حول الموضوع كله.

في اليوم التالي بحثتُ عنها. كانت تقطن الحي اللاتيني. وحالما علِمتُ مَنْ أنا ازدادت مودّتها. اسمها جينيت. عملاقة نحيلة، صحيحة الجسم، من النوع القروي بأسنان أمامية نصف متآكلة. مملوءة حيوية وفي

عينيها ما يشبه النار المجنونة. وأول شيء فعلته أنها بكَتْ. ثم، لمّا وجدتُ أني صديق قديم لحبيبها جوجو - هكذا سمّته - هرعت إلى أسفل وعادت مع زجاجتين من النبيذ الأبيض، ودعتني للبقاء معها للعشاء - وأصرَّتْ. وبينما هي تشرب كانت تتذبذب بين المرح ونوبات البكاء، ولم أكنْ مضطراً إلى طرح أي سؤال عليها - فقد أخذتْ تتكلّم كأنها آلة ذاتية الدوران وكان أكثر ما يُقلقها هو - هل سيستعيد عمله حين يخرج من المستشفى؟ وقالت إنَّ والديها ثريان، ولكن ليسا راضيَين عنها، ولا يوافقان على تصرّفاتها الرعناء. وهو بالذات لم يكن يستحوذ على رضاها - فهو غير مُهذّب، ثم إنه أميركي. وتوسلتْ إليّ كي أطمئنها بأنه سيستعيد عمله، وفعلتُ دون تردُّد. بعدئذٍ توسّلَتْ إليّ كي أقول لها إنْ كان في استطاعتها أنْ تُصدّق ما قاله لها - وأنه سيتزوجها. لأنها الآن، وهي تحملُ طفلاً في أحشائها إلى جانب مرض السيلان، لم تعُد تقوى على إشعال عود ثقاب - مع رجل فرنسي على الأقلّ. هذا واضح، أليس كذلك؟ طبعاً، هكذا أكّدتْ لها. بالنسبة إليّ كان كل شيء واضحاً كل الوضوح - ما عدا كيف بحق الجحيم وقعَ فيلمور في حبائلها. مهما يكن، كل شيء في حينه. وكان من واجبي عندئذٍ أنْ أواسيها، وهكذا ملأتها بكل أنواع الهراء، قلت لها إنْ من الغريب أنَّ كل شيء سيكون على ما يرام وأني سأكون عرّاب الطفل، الخ. ثم خطرَ لي فجأةً أنه من الغريب تماماً أنْ تتمكّن من الاحتفاظ بطفلها - ولاسيما أنه في الغالب سيولد أعمى. وأخبرتها بهذا بأقصى ما يمكن من اللباقة، فقالت: " لا يهم، فأنا أريد طفلاً منه "

سألتها " وإنْ كان أعمى؟ "

فقالتْ وهي تئن: " Mon Dieu, ne dites pas ca ! Ne dites pas ca ! "
("يا إلهي، لا تقلّ هذا! لا تقُلْ هذا! ")

لا يهمّ، فقد شعرتُ أنَّ من واجبي أنْ أخبرها. وانتابتها الهستريا، وطَفَقَتْ تبكي كحيوان الفظّ، وصبّتْ مزيداً من النبيذ. وخلال بضع لحظات عادتْ تضحكُ بصَخَب. ضحكت لأنها تذكَّرتْ كيف كانا يتشاجران في السرير، وقالت: " كان يحبّ أنْ أتشاجر معه. كان متوحشاً "

عندما جلسنا نتناول الطعام جاءتْ إليها صديقتها - وكانت عاهرة وضيعة تقطنُ في آخر الرواق وسارعتْ جينيت في إرسالي إلى أسفل لأُحضِر مزيداً من النبيذ. وعند عودتي كان من الواضح أنهما تبادلتا حديثاً دسماً. وصديقتها إيفيت تعمل في سلك الشرطة، كجاسوسة، كما فهمت منها. على الأقلّ هذا ما كانت تحاولُ إقناعي به كان جلياً بما يكفي أنها مجرد عاهرة وضيعة، غير أنها مولعة برجال الشرطة وبإنجازاتهم. وبقيتا طوال فترة الوجبة تلحّان عليَّ لمرافقتهما إلى حفل لموسيقا الُرب. أرادتا أنْ تُمضيا وقتاً مرِحاً - فالجو بالنسبة إلى جينيت مع جوجو في المستشفى يُثير الضجر. أخبرتهما أنَّ لديَّ عملاً أقومُ به، وأني في ليلةِ عطلتي سأعودُ وأصطحبهما. وأوضحتُ لهما أيضاً أنه ليس في حوزتي نقود لأنفقها عليهما. وادَّعَتْ جينيت، التي صُعِقَتْ حقاً لسماع ذلك، أنه لا يهمّ على الإطلاق. وفي الحقيقة، ولكي تبيِّن لي إلى أي مدى تتمتع بروحٍ رياضية، لقد أصرَّتْ على أنْ توصِلني إلى مقرّ عملي بسيارة أجرة. وهي تفعل ذلك لأني صديق جوجو الحميم. ولذلك

فأنا صديقها هي. وقلتُ في نفسي: " إذا حدثَ أي مكروه لحبيبك جوجو فستهرعين إليّ بالسرعة الكلية. عندها سترين أي صديق سأكون! ". لقد كنتُ بالنسبة إليها لطيفاً كفطيرة، حتى إني، حين ترجّلنا من السيارة أمام المكتب، سمحتُ لها بإقناعي بشرب كأس برنو أخير معاً. وودَّتْ إيفيت لو تعرف إنْ كان في وسعها أنْ تعرِّج عليّ بعد إنهاء عملي فلديها أشياء كثيرة تخبرني بها على انفراد، كما قالت. لكني نجحتُ في الرفض دون أنْ أؤذي مشاعرها. ولسوء الحظ كنتُ متهاوناً بحيث أعطيتُها عنواني.

أقول " لسوء الحظ " بينما في الحقيقة أني سعيد بذلك حين أُعيدُ التفكير فيه. لأنه في اليوم التالي مباشرة بدأتْ الأحداث تتوالى. ففي اليوم التالي، حتى قبل أنْ أنهض من فراشي عرّجتا عليّ معاً. فقد أُخرِجَ من المستشفى - وقد حجزتاه في قصر صغير في الريف، على مبعدة بضعة أميال من باريس. قالتا إنه " قصر "، إذْ ليس من قبيل التهذيب القول " بيت المجانين "، وطَلَبَتا مني أنْ أسرِع في ارتداء ملابسي لأذهب معهما، وكانتا مرعوبتين.

ربما كان يمكن أنْ أذهب وحدي - لكني عجزتُ عن اتّخاذ قرار مُرافقة هاتين الاثنتين. وطلبتُ منهما أنْ تنتظراني في الطابق السفلي ريثما أرتدي ملابسي، مُعتقداً أنَّ ذلك سيمنحني الوقت لاختلاق عذر لعدم الذهاب. لكنهما رفضتا مغادرة الغرفة، وجلستا تراقباني وأنا أغتسل وأرتدي ملابسي، وكأنها مسألة عادية. وبينما نحن كذلك إذا بكارل يظهر فجأةً. فشرحتُ له الوضع باختصار بالإنكليزية، ثم اخترعنا

عذراً متعللين بأنَّ لديَّ عملاً مُهماً يجب القيام به. بيد أننا، ولكي نُخفف من وطأة الأمر، أحضرنا بعض النبيذ وأخذنا نُسلّيهما بكتاب فيه رسوم قذرة. وفَقَدَتْ إيفيت كل رغبة في الذهاب إلى القصر، وكانت وكارل يتماديان علانية. ولما حان وقت ذهابنا قرَّرَ كارل أنْ يصطحبهما إلى القصر. وقد رأى أنَّ من المضحك رؤية فيلمور يتجول مع جمع من المجانين، وأراد أنْ يرى ماذا يشبه بيت مجانين. وهكذا انطلقوا، وهم سكارى قليلاً، ومزاجهم على أفضل ما يكون.

طوال فترة وجود فيلمور في القصر لم أذهب أبداً لزيارته. لم يكن ذلك ضرورياً، لأنَّ جينيت كانت تعوده بانتظام وتنقل لي كل الأخبار، إنهم يأملون في أنْ يُخرجوه في غضون بضعة أشهر، كما قالت. إنهم يعتقدون أنه تسمَّمَ من الكحول - لا أكثر. وطبعاً كان مُصاباً بالسفلس، وهذا شيء رائع. وكخطوة أولية استخدموا معه مضخَّة البطن؛ نظّفوا أحشاءه كلها بشكلٍ كامل. وأصبحَ لفترة من الوقت من الضعف بحيث عجز عن مغادرة الفراش، وركِبه الغمّ أيضاً. قال إنه لا يريد أنْ يشفى - وأراد أنْ يموت. وأخذَ يُكرر هذا الهراء بإصرار إلى درجةِ أنَّ مخاوفهم ازدادت في آخر الأمر. وأعتقد أنه ما كان شيئاً حَسَناً جداً لو أنه انتحر. وعلى أي حال، بدؤوا يُطبِّقون عليه علاجاً عقلياً. وبين وقتٍ وآخر ينزعون أسنانه، بالتدريج، حتى لم يتبقَّ له شيء منها في فمه. وكان من المفترض أنْ تتحسَّن صحته بعد ذلك، والغريب أنها لم تتحسَّن. وغدا أكثر قنوطاً من ذي قبل. ثم أخذ شعره يتساقط. وأخيراً ظهرتْ عليه علائم جنون العَظَمة - بدأ يوجّه إليهم تُهماً كثيرة، وطلبَ أنْ يعرف بأي

حق يحجز، وماذا فعلَ حتى يسمح بسجنه... الخ، وكان بعد كل نوبة رهيبة من القنوط والاكتئاب تجتاحه حيوية مفاجئة ويبدأ يُهدد بنسف المكان إذا لم يطلقوا سراحه. وزيادة في سوء الأمر، وبما يتعلّق بجينيت، كان قد برأ من فكرة الزواج منها، وقال لها بصراحة ودون مواربة إنه لا ينوي أنْ يتزوج منها، وإنها إنْ كانتْ قد جُنَّتْ وحبِلَتْ فعليها أنْ تتدبَّر أمرها بنفسها.

فسرَّ الأطباء ذلك كله على أنه دلالة طيّبة. قالوا إنه يتحسَّن. أما جينيت، طبعاً، فقد رأتْ أنه يزداد جنوناً على جنون، لكنها كانت تصلّي كي يُطلقوا سراحه لتأخذه إلى الريف حيث الهدوء والسكينة، وهناك سوف يعود إلى صوابه. في تلك الأثناء قَدِمَ والداها إلى باريس في زيارة، بل وذهبا إلى أبعد من ذلك وقاما بزيارة صِهر المستقبل في القصر. ولعلّهم تصوَّروا بتفكيرهم البعيد النظر أنه من الأفضل لابنتهم أنْ تتزوج من مجنون على أنْ لا تتزوج أبداً. ورأى الوالد أنَّ في وسعه أنْ يجدَ لفيلمور عملاً ما في المزرعة. وقال إنَّ فيلمور شابٌ لا بأس به على الإطلاق. ولما علِمَ من جينيت أنَّ فيلمور يملك مالاً أبدى حتى تسامُحاً أكبر وتفهُّماً.

جرى الأمر على ما يُرام من النواحي كلها. فقد عادت جينيت إلى الأقاليم لفترةٍ من الوقت مع أبويها، وأخذتْ إيفيت تتردَّد بانتظام على الفندق لمقابلة كارل. كانت تظنُ أنه ناشر. وشيئاً فشيئاً أصبحت أكثر حميمية. وحين وطَّدَتْ علاقتها بنا جيداً أخبرتنا في أحد الأيام أنَّ جينيت ليست أكثر من عاهرة، وأنَّ جينيت علَقَة، وأنَّ جينيت لم تكن

قط حاملاً. وبشأن الاتّهامات الأخرى لم يكن لدينا الكثير من الشك، كارل وأنا، أما عن كونها ليست حاملاً، فذلك ما لم نتأكّد منه.

سألَ كارل " كيف إذن حصلَتْ على ذلك البطن الضخم؟ "، فضحكتْ إيفيت وقال: " ربما استخدمَتْ منفاخ دراجة "، ثم أضافت، "كلا، حقاً، الانتفاخ حصلَ نتيجة الإفراط في الشرب؛ إنَّ جينيت تشرب كسمكة. سوف تريان حين تعود من الريف كيف أصبحَتْ منفوخة أكثر. إنَّ أباها سكّير، وجينيت سكّيرة. وهي مُصابة بالسيلان، نعم - لكنها ليست حُبلى "

" ولكن لماذا تريد أنْ تتزوج منه؟ أصحيح أنها تحبه؟ "

" حب؟ هراء! إنَّ جينيت ليس لها قلب؛ إنها تريد مَنْ يعتني بها. ولن يقبل أي فرنسي أنْ يتزوج منها - لأنَّ لديها سجلاً في دوائر الشرطة. كلا، إنها تريده لأنه أغبى من أنْ يكتشفَ أمرها. ووالداها ما عادا يريدانها - إنها تجلب العار. أما إذا استطاعت الزواج من أميركي ثري، عندئذٍ سيكون كل شيء على ما يرام... لعلكما تعتقدان أنها تُكنُّ شيئاً من الحب، هه؟ أنتما لا تعرفانها. كين كانا يعيشان معاً من الفندق، كانت تستقبل رجالاً أثناء غيابه في العمل. كانت تقول إنه لم يكن يُعطيها ما يكفي من النقود لتنفق. كان بخيلاً. وذلك الفرو الذي كانت ترتديه - قالت إنَّ والديها أعطياها إياه، أليس كذلك؟ يا للأبله البريء! لقد رأيتها بأم عيني تعود إلى الفندق مع رجلٍ وكان هو ما يزال موجوداً هناك. ووضعتْ الرجلَ في الطابق السفلي. رأيتها بأم عيني. وأي رجل! عجوز متهدِّم. لم يستطع أنْ يحصل على انتصاب! "

لو أنَّ فيلمور عاد إلى باريس بعد إطلاق سراحه من القصر، فربما كانت زوَّدته بمعلوماتٍ سرّية عن جينيت. ولكن لمّا كان لا يزال موضوعاً تحت المراقبة وجدت افتراءات إيفيت سامّة جديرة بإقلاقه. ومرَّتْ الأحداث، وانتقلَ مباشرةً من القصر إلى بيت والديّ جينيت. وهناك، ظلوا يتملّقونه حتى أعلنَ خطبته على الملأ رغماً عنه. ونُشِرَ خبر الزواج في الصُحف المحلّية وأُرسِلَتْ الدعوات إلى أصدقاء الأسرة. وانتهزَ فيلمور الوضعَ لينغمسَ في كافة أشكال الأعمال الطائشة. وعلى الرغم من أنه كان يعي جيداً ما يفعله تظاهرَ بأنه لا يزال أبله قليلاً. فكان، مثلاً، يستعير سيارة حميه ويطوف بها أرجاء الريف وحده، فإذا رأى مدينةً أعجبته افترشَ لنفسه مكاناً وجلسَ يستمتعُ بوقته إلى أنْ تأتي جينيت باحثةً عنه. أحياناً كان ينطلقُ هو وحموه معاً - ربما في رحلة صيد سمك - ثم لا يسمع أحدٌ عنهما طوال أيامٍ عِدَّة. وأصبحَ نزوياً بشكلٍ يُثيرُ السُخط وكثيرَ المطالب. وأعتقدُ أنه تصوَّرَ أنَّ في إمكانه أنْ يحصل على ما يريد بتلك الطريقة.

حين عاد إلى باريس مع جينيت كان لديه ملء خزانة من الملابس الجديدة وجيب مملوء بالنقود. وبدا مرِحاً صحيحَ البدن، وذا بشرة سمراء جميلة. بدا لي متيناً كثمرة علّيق. ولكن حالما ابتعدنا عن جينيت بدأ يُكاشفني: لقد خسرَ عمله ونفدتْ نقوده. وقرانه سوف يُعقَد في غضون شهر أو نحوه. وفي تلك الأثناء كان الوالدان يزوّدانه بالمال. قال " إذا أحكما قبضتهما عليّ فلنْ أكونَ أكثر من عبدٍ لهما. الأب يعتقد أنه سيفتح لي دكاناً لبيع القرطاسية، وسوف تُدير جينيت العمل مع الزبائن،

وتستلم النقود، الخ. بينما أجلسُ أنا في خلفيّة الدكان لأكتب - أو أفعل أيَّ شيء. أتتصورني جالساً في خلفية دكان للقرطاسية حتى آخر حياتي؟ إنَّ جينيت تعتقد أنها فكرة ممتازة، وهي تحب أنْ تدير الشؤون المالية. إنني أفضِّل أنْ أعود إلى القصر على أنْ أستسلم لهكذا مُخطط.

كان يتظاهر، مؤقتاً طبعاً، بأنَّ كل شيء رائع. وقد حاولتُ لإقناعه بالعودة إلى أميركا، لكنه رفضَ وقال إنه لن يدع ثُلّةَ من الفلاحين الجهلة تطرده من فرنسا. كان يفكِّرُ في التواري عن الأنظار لفترةٍ من الزمن، وبعد ذلك يشتري بيتاً خارج نِطاق المدينة حيث من المُستبعَد أنْ يتعثَّر بها ثانية. ولكن سرعان ما قررنا أنَّ ذلك مستحيل: لا يمكنكَ أنْ تتوارى عن الأنظار في فرنسا كما هو الحال في أميركا.

اقترحتُ عليه: " يمكنكَ أنْ تلجأ إلى بلجيكا لبعض الوقت "، فقال على الفور: " وماذا سأعمل لأكسبَ المال؟ إذ لا يمكنكَ أنْ تحصل على عملٍ في هذه البلاد اللعينة "

سألته " لماذا لا تتزوجها وبعد ذلك تطلّقها؟ "

"في تلك الأثناء تكون قد رَمَتْ لي طفلاً. ومَنْ سيعتني به، هه؟".

قلت: " وما أدراك أنها ستضع طفلاً؟ "، مُقرّراً بذلك أنَّ اللحظة قد حانتْ للبوحِ بكل شيء.

قال: " ما أدراني؟ ". لم يبدُ عليه أنه يفهم تماماً إلامَ كنتُ أُلَمِّحُ.

أعطيته مُلخّصاً لما قالته إيفيت، فأنصتَ إليّ وهو في حيرةٍ تامة. وأخيراً قاطعني قائلاً " لا فائدة من الاسترسال في هذا الكلام؛ أعرفُ أنها ستضعُ مولوداً. لقد أحسستُ به يتحرَّك داخلها. إيفيت عاهرة حقيرة

قذرة. في الواقع، لم أكنْ أنوي أنْ أخبرك بهذا، ولكن كنتُ حتى الوقت الذي ذهبتُ فيه إلى المستشفى لا أزال أمدُّ إيفيت بالمال. ولما وقعَتْ المصيبة لم أعُدْ أستطيع أنْ أفعل أي شيء لأجلها ,وتصوّرتُ أني قدَّمتُ ما يكفي لكليهما... وقرَّرتُ أنْ أعتني بنفسي أولاً، فاستشاطت إيفيت غضباً، وقالتْ لجينيت إنها ستنتقم مني... كلا، ليت ما قالته صحيح، إذن لخرجتُ من هذه الورطة بسهولةٍ أكبر. ها أنا واقعٌ في فخ. لقد وعدتُ بالزواج منها ويجب ألا أتراجع. وبعد ذلك لا أدري ماذا سيحلّ بي. لقد قبضوا عليّ من خصيتي الآن "

لما كان قد احتلَّ غرفةً في الفندق نفسه معي فقد اضطررتُ إلى أنْ أقابلها باستمرار، شئتُ أم أبيتُ. وكنتُ أتناول طعامَ العشاء معهما كل ليلة تقريباً، مسبوقاً بعددٍ من كؤوس البرنو. وطوال فترة تناول الطعام كانا يتشاجران بصخب. وكان ذلك مُربكاً لأنني كنتُ مُلزَماً أحياناً بالانحياز إلى أحد الجانبين أو إلى الآخر. فبعد ظهر يوم أحد، على سبيل المثال، وبعد انتهائنا من تناول طعام الغداء معاً، توجّهنا جميعاً إلى مقهى كائن عند منعطف شارع إدغار-كينه. وسارت الأمور هذه المرة على أحسن ما يُرام. وجلسنا في القسم الداخلي على طاولة صغيرة، جنباً إلى جنب على جهةٍ واحدة، وظهورنا تواجه المرآة. ويبدو أنَّ الشهوة استبدَّتْ بجينيت أو شيئاً من هذا القبيل، فقد سيطرَ عليها فجأةً مزاجٌ عاطفي وأخذتْ تلاطفه وتقبّله أمام الجميع. والفرنسيون يتصرّفون هكذا عفوياً. ولم يكن قد مضى على عناقهما المطوّل كثيراً حين تفوَّه فيلمور بشيءٍ عن والديها فسرَّته هيَ على أنه إهانة. وعلى الفور صعدَ الدمُ إلى

وجنتيها من شدة الغضب. وحاولنا أنْ نُطيِّب خاطرها قائلين إنها أخطأتْ فهم الملاحظة، ثم قال لي فيلمور شيئاً بالإنكليزية بصوتٍ منخفض - شيئاً عن تملّقها قليلاً. وكان ذلك كافياً لبلوغ غضبها ذروته. قالتْ إننا نسخر منها. فقلتُ لها عبارةً حادّةً زادت الطين بلّه. ثم حاول فيلمور أنْ يقول كلمة طيبة. قال: " إنكِ سريعة الغضب ". وحاولَ أنْ يربت على خدّها، لكنها ظنَّتْ أنه رفع يده ليضربها على وجهها، فسبقته بلطمةٍ قويةٍ على فكّه بيدها القروية الضخمة تلك. وظلَّ مذهولاً برهةً من الوقت، فلم يكن يتوقَّع لكمةً كتلك، وكانت تلسعه. ورأيتُ وجهه يشحب حتى البياض، وفي اللحظة التي تلتْ نهضَ عن المقعد وبكامل كفّه لطمها لطمة قوية مفرقعة حتى كادت تقعُ عن مقعدها. " خذي! هذا سيعلّمك التهذيب! ". قال ذلك بلغتهِ الفرنسية الركيكة. ومرّت لحظة من الصمت التام. ثم، وكقصف العاصفة، التقطتْ كأس الكونياك الذي كان أمامها وقذفَته نحوه بكل قوتها، فتهشَّمَ على المرآة وراءنا. وكان فيلمور قد قبضَ على ذراعها للتو، لكنها قبضَتْ على فنجان القهوة بيدها الحرّة وحطّمته على الأرض. وأخذت تتلوّى كالمهووسة. وكان ذلك هو أقصى ما كان في إمكاننا عمله لإمساكها. وطبعاً، في تلك الأثناء، كان صاحب المقهى قد جاء راكضاً وأمرنا بالرحيل فوراً. وزعقت جينيت: "متشردان! نعم، متشردان، هذا أنتما! أجنبيان قذران! سفّاحان! قاطعا طريق! تضربان امرأة حامل! ". وكانت النظرات الحاقدة تتكاثر من حولنا. امرأة فرنسية مسكينة، وأميركيان جلفان. قاطعا طريق. وكنتُ أفكّرُ في كيف بحق الجحيم سنخرجُ من ذلك المكان دون إثارة قتال. كان

فيلمور، في تلك الأثناء، صامتاً بقدر ما هو هادئ. وكانت جينيت قد انطلقت خارجة كالسهم، وتركتنا لنواجه الورطة. وبينما هي تعبُرّ الباب التفتت إلى الخلف رافعة قبضتها وصرخت: " سأردُّ لك الصاعَ صاعَين، أيها المتوحش! سوف ترى، لا يحق لأي أجنبي أنْ يُعامل امرأة فرنسية متحضّرة هكذا! أوه، كلا! ليس هكذا! "

لمّا سمع صاحب المقهى هذا، وكنا قد دفعنا ثمن المشارب والكؤوس المُحطَّمة، شعرَ بأنه مُلزَم بإظهار شهامته نحو ممثلة ممتازة للأمومة الفرنسية كجينيت، وهكذا، ودون مزيد من الضجيج بصقَ على قدمينا ودفعَ بنا عبر الباب، " خراي عليكما، أيها المتسكعان القذران! ". قال ذلك، أو ما شابه من المُزاح.

حين أصبحنا في الشارع وبعد أنْ كفَّ الناس عن رمينا بالأشياء، بدأتُ أرى الجانب المضحك من الأمر. وقلتُ في نفسي، كم كانت فكرة رائعة لو أنَّ الأمر كله انتقلَ هكذا إلى المحكمة. " الأمر برمّته! "، مع حكايات إيفيت الصغيرة بوصفها طَبَقاً جانبياً. فالفرنسيون يستمتعون قبل كل شيء بروح النكتة. وربما لو أنَّ القاضي استمع إلى القصة من فيلمور، لحلّه من واجب الزواج.

في تلك الأثناء كانت جينيت واقفة على الطرف الآخر من الشارع تلوِّح مُهددة بقبضتها وهي تزعق بكل قوتها. وكان الناس يتوقفون ليستمعوا، وليساندوا هذا الجانب أو ذاك، كما يفعلون عادة في مشاجرات الشوارع. ولم يدرِ فيلمور ماذا يفعل، هل يبتعد عنها، أم يذهب إليها ويحاول أنْ يُهدِّئها. كان واقفاً في وسط الشارع ممدود

الذراعَين محاولاً عبثاً أنْ يقول كلمة. وكانت جينيت ما تزال تصرخ: "قاطع طرق! متوحش! خنزير قذر! "، وأشياء أخرى مُكمّلة. وأخيراً خطا فيلمور خطوة باتجاهها فظنَّتْ أنه ينوي أنْ يُكيل لها لكمة أخرى، فأطلقت ساقيها للريح. وعاد فيلمور إلى حيث كنتُ أقف وقال: " هيا، دعنا نتبعها بهدوء "، وانطلقنا يتبعنا جمعٌ قليلٌ من المشرّدين. وبين حينٍ وآخر كانت تلتفت نحونا لتلوح بقبضتها. ولم نقُمْ بأي محاولة للحاق بها، واكتفينا بتعقّبها في الشارع بتمهُّل لنرى ماذا ستفعل. وأخيراً أبطأتْ خطوها وعبرنا نحن إلى الطرف الآخر من الشارع. كانت الآن قد هدأتْ. وتابعنا سيرنا خلفها، أقرب فأقرب. ولم يتبقَّ خلفنا إلا حفنة من الناس - أما الباقون فكانوا قد فقدوا اهتمامهم بالأمر. حين اقتربنا من المنعطف توقفت فجأةً وانتظرت اقترابنا منها، فقال فيلمور: " دعْ الكلام لي، أعرف كيف أعاملها "

كانت الدموع تنهمر على خدّيها ونحن نقترب منها. من ناحيتي، لم أكنْ أعرف ماذا أتوقّع منها. لذلك دُهِشتُ قليلاً حين تقدَّمَ فيلمور منها وقال بصوت مُتظلِّم: " أكان ما فعلته جميلاً؟ لماذا تصرّفت هكذا؟ ". أما هي فطوَّقته بذراعيها وأخذت تجهش بالبكاء كطفلة وهي تناديه بصغيرها فلان وصغيرها علاّن، ثم التفتت نحوي بنظرة متوسلة وقالت "لقد رأيتَ كيف ضربني، أهكذا تعامَل المرأة؟ "، وكدتُ أقول نعم لولا أنْ أمسكها فيلمور من ذراعها وسار يقودها. قال " كفانا من هذا، إذا بدأتِ من جديد فسوف أضربكِ هنا وسط الشارع "

اعتقدنا أنَّ كل شيء سوف يبدأ من جديد. كانت النار تتلظى في

عينيها. غير أنَّ من الواضح أنها كانت مرتاعة قليلاً أيضاً، لأنَّ كل شيء خمد بسرعة. حين جلستُ في المقهى قالت بهدوء وهي عابسة أنَّ عليه ألاّ يظن أنَّ كل شيء سوف يُنسى بسرعة، بل سيسمع المزيد لاحقاً... ربما هذه الليلة. وأوفَتْ بوعدها تماماً. فحين قابلته في اليوم التالي كان وجهه ويداه مُغطّاة بالخدوش. إذ يبدو أنها انتظرتْ حتى أوى إلى سريره وعندها، ودون أي كلمة، ذهبَتْ إلى خزانة الملابس، ورمت أغراضه كلها على الأرض، ثم تناولتْ كل قطعة على حِدة ومزَّقَتها إلى مُزَق. ولما كان ذلك قد حدث مرات عديدة من قبل، ولما كانت دائماً تصلحها لاحقاً، فلم يحمِّل نفسه مغبّة الكثير من الاحتجاج. مما جعل غضبها يتعاظم أكثر فأكثر. غير أنها كانت تريد أنْ تغرز أظافيرها فيه، وهذا ما فعلته، بكل ما تستطيع من قوة، وقد أفادها في ذلك أنها حامل.

مسكين فيلمور! لم تكن قضية مضحكة. لقد أرعبته. فإذا هدَّدَ بالهرب هدَّدت بقتله. وكأنها تعني ما تقول. وكانت تقول: " إذا رحلتَ إلى أميركا فسوف أتبعك. لن تفلت مني. الفتاة الفرنسية تعرف تماماً كيف تثأر لنفسها ". وفي اللحظة التالية تلاطفه ليكون " عاقلاً " و"حكيماً "، الخ. سوف تصبح الحياة جميلة حالما يحصلان على مخزن القرطاسية. لن يكون عليه أنْ يقوم بالكثير من العمل. سوف تتولّى هي كل شيء. سيبقى هو جالساً في مؤخرة المخزن ليكتب – أو ليفعل ما يشاء.

استمرَّتْ الأمور هكذا، جيئةً وذهاباً، كالمنشار، بضعة أسابيع أو نحوها. كنتُ أتفاداهما قدر ما أستطيع، فقد سئمتُ العملية كلها مُشمئزاً منهما هما الاثنان. ثم ذات يومٍ صيفي جميل، بينما كنتُ ماراً

من أمام محل " ليونه " فمَنْ غير فيلمور سأراه يهبط الدَرَج، رحَّبتُ به بحرارة، شاعراً بالذنب لأنني تفاديته طويلاً، فسألته بأكثر من مجرَّد الفضول العادي، كيف الحال معه. فأعطاني جواباً غامضاً ونبرة اليأس في صوته.

قال: " لقد سَمَحَتْ لي بالذهاب إلى المصرف "، قالها بطريقة خاصة، مُنكسرة وذليلة، " لديَّ من الوقت نصف ساعة، لا أكثر. إنها تراقبني مراقبة مُشدَّدة "، ثم شدَّ على ذراعي كأنما يحثّني على الابتعاد عن مكان وقوفنا.

انحدرنا صوب شارع ريفولي، والنهار جميل، دافئ، صافٍ، ومشمس - أحد تلك الأيام التي ترتدي فيها باريس أبهى حُللها. ونسيمٌ معتدل سائغ يهبُّ، يكفي لنزع الرائحة النتنة من أنفك. وكان فيلمور حاسر الرأس. ظاهرياً بدا مثالاً للصحة - كسائح أميركي عادي يمشي مترهّلاً والنقود ترنّ في جيوبه.

قال بهدوء: " لم أعُدْ أعرف ماذا أفعلْ: يجب أنْ تفعل شيئاً لأجلي. أنا يائس. لا أستطيع أنْ أتمالك نفسي. ليت في وسعي أنْ أهرب منها ولو لفترة وجيزة، ربما تحسَّنتْ حالي. لكنها لا تدعني أغيب عن ناظريها. إني بالكاد أحصل على إذنْ بالذهاب إلى المصرف - يجب أنْ أسحب بعض النقود. سوف أتمشّى معك قليلاً ثم يجب أنْ أعود مسرعاً - وإلا بقيَتْ طوال فترة الغداء تنتظرني "

أنصتُّ إليه بهدوء، وأنا أقول لنفسي إنه حتماً في حاجة إلى مَنْ ينتشله من تلك البؤرة. لقد نُصِبَ له فخٌ، لم يبقَ فيه أي قدرٍ من

الشجاعة. كان أشبه بطفل - طفل يُضرَب كل يوم حتى لم يعُد يعرف كيف يتصرَّف عدا أنْ يجثم منكمشاً مُرتعداً. ولدى انحدارنا تحت صفٍ من الأشجار في شارع ريفولي، انفجر في خطبةٍ طويلةٍ لاذعة ضد فرنسا. لقد سئمَ الفرنسيين. قال: " كنتُ من قبل مولعاً بهم، ولكن ولعي كان وهماً. بتُّ أعرفهم الآن... بتُّ أعرفُ مَنْ هم حقاً. إنهم قُساة ومُرتزقة. في أول الأمر بدا الوضعُ رائعاً، لأنكَ تشعر أنكَ حر. وبعد فترةٍ وجيزةٍ يبدأ بإشاعة الكآبة فيك. ففي العمق كل شيء موات، لا مشاعر، لا تعاطف، لا صداقة. إنهم أنانيون حتى اللب؛ أكثر الشعوب أنانية على وجه الأرض! لا يفكرون إلا في المال، المال، المال. ويا لهم من مُحتَرَمين جداً، وبورجوازيين! وهذا ما يدفعني إلى الجنون. عندما أراها تصلح قمصاني أكادُ أضربها بهراوة. دائماً أراها تصلح، وتصلح، وتقتصد، وتقتصد. " يجب أنْ تقتصد! ". هذا كل ما أسمعه منها طوال الوقت. إنكَ تسمعُ هذا في كل مكان. " " كُنْ عاقلاً، يا عزيزي! كنْ عاقلاً! ". لا أريدُ أنْ أكونَ عاقلاً، ومنطقياً؛ أكره هذا، أريد أن أنطلقَ، أنْ أنهلَ من المتعة. أريد أنْ " أفعلَ " شيئاً. لا أريد أنْ أجلس في مقهى وأثرثر طوال النهار. يا إلهي، صحيح أنَّ لنا أخطاءنا - ولكنْ لدينا الحماس. من الأفضل أنْ نرتكبَ الأخطاء على ألاّ نفعلَ أيَّ شيء. أُفضِّلُ أنْ أكونَ مُتشرّداً سِكّيراً في أميركا على أنْ أبقى جالساً هنا. وهذا ربما لأنني أميركي أصيل Yankee، ولِدتُ في نيو إنغلند وأعتقدُ أني أنتمي إلى هناك. لا يمكنك أنْ تصبحَ أوروبياً بين ليلةٍ وضحاها. هناك شيء في دمكَ يجعلك مختلفاً؛ إنه المناخ العام - وكل شيء. إننا نرى الأمورَ

بمنظارٍ مختلف. لا يمكننا أنْ نغيِّر أنفسنا، مهما أُعجبنا بالفرنسيين. نحن أميركيون ويجب أنْ نبقى أميركيين. لا شك في أني أكره أولئك اللوطيين المتطهّرين هناك في الوطن - أكرههم بكل كياني. لكنني واحدٌ منهم أيضاً. إنني لا أنتمي إلى هذا البلد، وقد سئمته "

استمرَّ على هذا المنوال طوال سيرنا بين صفيّ الأشجار. ولم أنطق بحرف. تركته يقول كلّ شيء - كان من المفيد أنْ يُزيحَ العبء عن صدره. ومع ذلك، كنتُ أفكِّرُ في أننا لو نعود عاماً إلى الوراء لرأينا ذلك الشاب نفسه يضرب على صدره كالغوريلا، ويقول " أيُ يومٍ رائع! أي بلد! أي شعب! ". ولو تصادفَ أنْ مرَّ به أميركيٌ يتلفَّظُ بكلمةٍ واحدةٍ ضد فرنسا لحطَّمَ فيلمور أنفه. كان مستعداً للموت فداءً لفرنسا - قبل عام. لم أرَ في حياتي رجلاً مفتوناً ببلدٍ، وسعيداً تحت سماءٍ أجنبية كما كان هو. وحين كان يقول " فرنسا " كان يعني الخمر، والنساء، والنقود في الجيب التي تأتي بسهولة وتُنفِق بسهولة. كان يعني أنْ تكونَ أزعر، أنْ تكون في عطلة. ثم، حين تلقّى الضربة، حين طار السقف الذي أواه، ونظر إلى السماء كما يجب أنْ ينظر، وجدَ أنه لم يكن مجرَّد سيرك، بل حلبة قتال، كأي مكان آخر. بل ومكان كئيب. كنتُ دائماً أفكر حين أسمعه يهذي في فرنسا العظمى، في الحرية وكل ذلك الهراء، في ماذا يمكن أنْ تكون ردّة فعل عامل فرنسي لو أنه فهمَ ما يقوله فيلمور. لاشك في أنهم يظنونا جميعاً مجانين. ونحن حقاً مجانين بالنسبة إليهم. وما نحن إلا عُصبة من الأطفال. بلهاء خرفون. ما ندعوه بالحياة ما هو إلا مخزن للأوهام الواحد بخمسة شلنات وعشرة بنسات. وهذا الحماس

الكامن في العمق - ما هو؟ ذلك التفاؤل الجدير بأنْ يقلب معدة أي أوروبي عادي؟ إنه وهم. كلا، فكلمة وهم كثيرة جداً عليه. فالوهم يعني شيئاً ما. كلا، ليس كذلك: إنه " ضلال "، محضُ ضلال، هذا هو بالضبط. ما نحنُ إلا قطيع من الخيول البرية المعصوبة العيون. في حالة هياج. نفرٌ مذعورين. نقفز عبر شفا الهاوية، وبانغو! نريد كل ما من شأنه أنْ يُغذّي العنفَ والفوضى. نركضُ! نركضُ! لا يهم إلى أين. والزَبَدُ يتشكّلُ على الشِفاه طوال الوقت. نصرخ: هللويا! هللويا! لماذا؟ الله أعلم. إنه في دمنا. إنه المناخ. إنه أشياء كثيرة. هو النهاية أيضاً. إننا نُدمّرُ العالم كله من حولنا. ولا نعرفُ لماذا. هو قَدَرُنا. أما الباقي فمحضُ خراء...

في الباليه رويال اقترحتُ أنْ نتوقف ونشرب كأساً. فتردَّدَ برهة. ورأيتُ أنه قَلِقٌ عليها، وعلى الغداء، والصراخ الذي سيكون من نصيبه. قلتُ: " إكراماً للمسيح، انسَ كلَّ شيء قليلاً عنها. سأطلبُ شيئاً نشربه وأريدك أنْ تشربه. لا تقلق، سأخلّصكَ من تلك الورطة اللعينة "، وطلبتُ كأسين من الويسكي القوي.

حين رأى الويسكي قادماً ابتسمَ لي من جديد كطفل.

قلت: " اجرعه! ودعنا نطلب غيره. سوف يجعلك تشعر بتحسُّن. لا يهمني ما يقوله الأطباء - هذه المرة سيكون كل شيء على ما يُرام. هيا اجرعه! "

جَرَعَه دفعةً واحدة، ولما اختفى النادل ليُحضر طلباً آخر نظرَ إليّ بعينين مُترعتين، وكأني آخر صديق على وجه الأرض. كانت شفتاه

ترتعشان قليلاً، أيضاً. كان لديه شيءٌ يُريد أنْ يُفضي به إليّ ولا يعرف كيف يبدأ، فنظرتُ إليه بهدوء، وكأني أتجاهلُ استغاثته ثم، بعد أنْ أزحتُ الصِحاف جانباً، ملتُ على مِرفقيّ وقلتُ له برصانة: " انظر هنا، يا فيلمور، ماذا تريد أنْ تفعل حقاً؟ قُلْ لي! "

هنا طفرت دموعه وأخذ يُفشي مكنونات قلبه " أودُّ لو أكون في وطني مع ناسي أريد أنْ أسمع الكلام الإنكليزي ". كانت الدموع تنساب غزيرة على خديه، ولم يقُمْ بأي محاولة لإزالتها. بل تركَ كلَّ شيءٍ ينبجسُ، وقلتُ في نفسي، وحق المسيح، رائعٌ أنْ يتحرَّر المرءُ بهذه الطريقة، رائعٌ أنْ تكونَ جباناً تماماً ولو مرة في حياتك؛ أنْ تنطلقَ بلا ضابط. عظيم! عظيم! لقد أراحني كثيراً أنْ أراه ينفجر هكذا حتى إني شعرتُ أنَّ في وسعي أنْ أحلَّ أي مشكلة. شعرتُ أني شجاعٌ وعازم. واحتشدت في رأسي ألفُ فكرة دفعة واحدة. قلتُ وأنا أنحني مُقترباً منه " اسمع، إذا كنتَ تعني ما تقول فلماذا لا تنفّذه... لِمَ لا ترحل؟ أتعلمْ ماذا أفعل لو كنت مكانك؟ كنتُ رحلتُ في هذا اليوم، نعم، وحقّ المسيح، أنا أعني ما أقول... كنتُ رحلتُ على الفور، حتى دون أنْ أقول لها وداعاً. بل والحق يُقال هذا هو السبيل الوحيد لرحيلك - إنها لا تدعك ترحل، وأنتَ تعلم ذلك "

جاء النادل بالويسكي، ورأيته ينظرُ أمامه بتوقٍ يائس ورفعَ الكأسَ إلى شفتيه. ولمحتُ بارقة أمل في عينيه - بعيد، وحشي، يائس. لعله رأى نفسه يسبحُ قاطعاً المحيط الأطلسي. لقد بدا لي الأمرُ سهلاً، بسيطاً كدحرجة زند من الخشب. كان كل شيء يتطوَّر في ذهني بسرعة. كنتُ أعرفُ كل خطوة يجب اتّخاذها. لقد كان ذهني صافياً كرنين الجرس.

سألته " لِمَنْ النقود التي في المصرف؟ أهي لوالدها أم لك؟ "

هتفَ قائلاً " إنها لي، أرسلتها أمي إليَّ. لا أريد شيئاً من نقودها اللعينة؟ "

قلتُ " عظيم! اسمعْ، فلنستقلّ سيارة ونذهب إلى هناك. اسحبْ كل سنت فيه. بعدئذٍ نذهب إلى القنصلية البريطانية لنحصل على تأشيرة. ثم نستقل القطار بعد ظهر اليوم قاصداً لندن. ومن لندن تأخذ أول باخرة قاصدةً أميركا. أقولُ هذا لأنكَ عندئذٍ ستكفّ عن القلق من ملاحقتها لك. إنها لن تشتبه أبداً في أنك رحلت عن طريق لندن. فإذا خرجت تبحث عنك فمن الطبيعي أنْ تتوجه إلى الهافر أولاً أو إلى شيربور... وهناك شيء آخر - إنك لن تعود لتأخذ حاجياتك، بل ستترك كل شيء هنا. دعها تحتفظ بهم. ومع ذلك الدماغ الفرنسي الذي تحمله لن تحلم بأنك فررتَ دون حقيبة أو متاع. إنه شيء لا يُصدَّق. لن يخطر لأي فرنسي أنْ يحلم بالقيام بعملٍ كهذا... إلا إذا كان مجنوناً مثلك "

هتفَ قائلاً " أنتَ على حق! لم يخطر هذا على بالي قط. ثم إنكَ قد ترسلها إليّ لاحقاً - هذا إذا تخلّتْ عنها! ولكن لا يهمّ الآن. يا إلهي، إنني حتى لا أعتمر قبعة! "

وما حاجتكَ إلى قبعة؟ حين تصل إلى لندن يمكنك أنْ تشتريها كل ما تحتاجه الآن هو أنْ تُسرِع، يجب أنْ نعرف متى يُغادر القطار "

قال وهو يمدّ يده إلى محفظته، " اسمعْ، سوف أكِلُ أمرَ كل شيء إليك. هاكَ، خُذْ هذا وقُمْ بكل ما يلزم. إني شديد الوهن... إنني مُصاب بدوار "

تناولتُ المحفظة وأفرغتها من النقود التي كان قد سحبها لتوّه من المصرف. وكانت هناك سيارة أجرة تقف عند الرصيف. قفزنا إليها. وكان هناك قطار يُغادر محطة الشمال في الساعة الرابعة أو نحوها. تصوّرت الأمر كله - المصرف، القنصلية، الاكسبريس الأميركي، المحطة. رائع! يكاد الأمر يتم.

قلت " والآن ابتهجْ! تشجَّع! اللعنة! بعد بضع ساعات ستكون عابراً القنال. والليلة سوف تتمشّى في أنحاء لندن وسوف تملأ بطنك من اللغة الإنكليزية. وغداً ستكون وسط مياه المحيط - وحينئذٍ، يا إلهي، سوف تكون رجلاً حراً ولن تأبه لما يحدث. حين ستصل إلى نيويورك لن يكون هذا أكثر من كابوس.

كان من فرط السعادة حتى إنَّ قدميه كانتا تتحركان بعنف، وكأنه يحاولُ أنْ يركض وهو داخل السيارة. في المصرف كانت يداه ترتعشان بحيث إنه بالكاد تمكّنَ من توقيع اسمه. وهذا عمل لم أستطعْ أنْ أنوب عنه فيه - أي، أنْ أوقِّع باسمه. ولكن اعتقد أنه لو لزِمَ الأمر لأجلَستُه على المرحاض بنفسي ومسحتُ له طيزه أيضاً. لقد صمَّمتُ على أنْ أُرحِّله حتى لو اضطررتُ إلى طيّه ووضعه داخل حقيبة.

حين وصلنا إلى القنصلية كانت ساعة الغداء قد حانت، وهي مُغلقة. وهذا يعني الانتظار حتى الساعة الثانية. ولم أتذكَّر فكرة لقتلِ الوقت أفضل من الأكل. وطبعاً، لم يكن فيلمور جائعاً. واكتفى بشطيرة. قلتُ له " اللعنة، يجب أنْ تدعوني إلى غداء حافل، فهذه آخر وجبة مُشبِعة تدعوني إليها هنا - وربما لوقتٍ طويل ". وسرتُ به إلى مطعم صغير

لطيف وطلبتُ وليمة عامرة. طلبتُ أفخر نبيذ موجود على اللائحة بغضّ النظر عن السعر أو المذاق، فقد كان في جيبي نقوده كلها - كانت متعة لي أنْ أكسرِ ورقة بألف فرنك. قرّبتُها من الضوء أولاً لأنظر إلى العلامة الخفيّة الجميلة. نقود جميلة! إنها واحدة من أشياء قليلة ينتجها الفرنسيون على نطاق واسع وبطريقةٍ فنّية أيضاً، وكأنهم يُغذّون داخلها وَلَهاً عميقاً حتى الرمز.

انتهت الوليمة، وانتقلنا إلى إحدى المقاهي. طلبتُ مع القهوة مشروب الشارتروز. ولِمَ لا؟ وكسرتُ ورقةً أخرى - هذه المرة بمبلغ خمس مئة فرنك. كانت ورقة نظيفة، جديدة، نضرة. ممتعٌ التعامُل بنقود كهذه. أعادَ النادل إليّ كمية كبيرة من الأوراق المالية القديمة القذرة المُرقّعة بشرائط من الورق اللاصق، وتجمّعَتْ لديّ كومة من الخمسات والعشرات وملء الحقيبة من الفراطة. نقودٌ صينية مثقوبة. لم أعد أدري في أي جيب أحشو النقود. أصبحَ بنطلوني منتفخاً بالقطع المعدنية والورقيّة. وقد أزعجني ذلك قليلاً أيضاً، وأنا أحملُ هكذا كل تلك النقود أمام الملأ، حتى إني خشيتُ أنْ يظنونا مُحتالَين.

عندما وصلنا إلى الاكسبريس الأميركي لم يكن قد تبقّى لدينا الكثير من الوقت. فقد تركنا البريطانيون، على طريقتهم المتمهّلة التي "بتخرّي" المعتادة، ننظر ونحن على أحرّ من الجمر. هنا كان الناس يتنقّلون منزلقين على زيت خروَعْ. كانوا من السرعة بحيث إنَّ كل شيء كان يجب أنْ يُنجَز مرّتين. فبعد أنْ وُقِّعَتْ جميع الشيكات وشُبِكَتْ بمُمسكات أنيقة، اكتشفوا أنها قد وُقِّعَتْ في المكان الخطأ. ولم يكن أمامنا إلا أنْ نبدأ كل شيء من جديد. وأشرفتُ عليه، وأنا أُثبِّتْ إحدى

عينيّ على الساعة، ورحتُ أراقبُ كل حركات القلم. من المؤلم التخلّي عن النقود. ليس كلها، حمداً لله - بل جزء كبير منها. وتبقّى معي تقريباً ٢٥٠٠ فرنك في جيبي. أقول تقريباً لأني توقّفتُ عن عدّ الفرنكات. أهي مئة، مئتان، أكثر أم أقلّ - لم يعنِ لي ذلك أي شيء. أما بالنسبة إليه، فقد كان الإجراء كله يمرّ وهو في حالة انبهار. لم يكن متأكداً كم سيترك لها - وكنا سنقرِّر ذلك ونحن في طريقنا إلى المحطة.

في غمرة الإثارة نسينا أنْ نصرف جميع النقود. كنا قد استقلينا سيارة أجرة على أي حال، ولم يعُد لدينا وقت نُبدده. أهمّ شيءٍ كان أنْ نعرف موطئ أقدامنا. فأفرغنا جيوبنا وبدأنا نوزِّعُها. وضعنا بعضها على الأرض، وبعضها الآخر على المقعد. كان شيئاً مُحيّراً. أوراق نقدية فرنسية، وأميركية، وإنكليزية. وإلى جانبها الفراطة. شعرتُ برغبةٍ في التقاط القِطع المعدنية ورميها من النافذة - فقط لكي أُبسِّطَ الأمر. وأخيراً نخّلناها كلها من جيوبنا، احتفظَ هو بالعملة الإنكليزية والأميركية، وتمسَّكتُ أنا بالفرنسية.

كان علينا أنْ نُقرِّر فوراً ما يجب عمله من أجل جينيت - كم سنُعطيها، ماذا سنقول لها، الخ. حاولَ أنْ يؤلِّفَ قصّة لأنقلها عن لسانه - لأنه لا يريد أنْ يُحطِّمَ قلبها وكل ما شابه، وكان يجب أنْ أوقفه.

قلت " لا عليكَ مما ستقوله لها؛ دعْ الأمرَ لي. كم ستُعطيها، هذا هو المهم؟ بل لماذا تعطيها أي شيء أصلاً؟ "

كأنني نسفتُه بهذا الكلام. وانفجرَ يبكي. وأيُّ دموع! بكى كما لم يبكِ من قبل، حتى حسبتُ أنه سينهار بين يديّ، ودون تفكير قلت

"حسن، دعنا نعطيها كل تلك النقود الفرنسية؛ إنها كفيلة بإعالتها فترةً من الوقت "

سألَ بوَهَن " وكم يبلغُ هذا ؟ "

" لا أدري، نحو ٢٠٠٠ فرنك أو ما يُقاربها. وهي أكثر مما تستحق على أي حال "

فتوسّلَ إليّ قائلاً " يا إلهي! لا تقُلْ هذا! ثم إنه مبلغٌ حقير. لن يستقبلها أهلها بعد اليوم. كلا، أعطها النقود. أعطِها النقود اللعينة كلها... لا يهمني كم المبلغ "

تناول منديلاً من جيبه ليمسح به دموعه، وقال " لا أحتمل هذا، إنه عبءٌ ثقيلٌ على كاهلي ". ولم أفُه بأي كلمة. وفجأةً تمدَّدَ على طوله – حسبتُ أنه أُصيبَ بنوبةٍ أو ما شابه – ثم قال " يا إلهي، أعتقدُ أني يجب أنْ أعود وأواجه المأزق. إذا حصلَ لها أي مكروه فلن أغفرَ لنفسي"

كان ذلك بمثابة صدمة عنيفة بالنسبة إليّ، فصرختُ " يا إلهي! لا يمكنكَ أنْ تفعلَ ذلك! ليس الآن، لقد فات الأوان، وسوف تستقل القطار وسأذهب بنفسي لأعتني بها. سوفَ أذهب لأراها حالما أتركك، أيها المغفل المسكين. لو أنها تكهَّنَتْ بأنكَ حاولتَ الهرب لقتلتك، ألا تعلم هذا ؟ لا يمكنكَ أنْ تعود على الإطلاق. لقد بُتَّ الأمر

على أي حال، تساءلت " ما هو الخطر المتوقَّع؟ أتقتلُ نفسها ؟ هذا أفضل tant mieux.

حين وصلنا إلى المحطة كان ما يزال أمامنا اثنتا عشرة دقيقة لنقتُلها. لم أجرؤ على أنْ أقولَ له وداعاً منذ الآن. وفي الدقيقة الأخيرة،

وهو على حاله من القلق والتردُّد، تصوَّرتُ أنه يمكن أنْ يقفزَ من القطار ويهرع إليها. إنَّ أي شيء يمكن أنْ يحرفه. إنه هشّ. وهكذا جررتُه ونحن نعبر الشارع إلى الحانة وقلت " والآن سنجرع كأساً من البرنو - آخر كأس برنو سأدفعُ أنا ثمنه... من مالك أنت "

شيءٌ ما في هذه الملاحظة جعله يرميني بنظرةٍ قلقة. جرعَ جرعةً كبيرة من البرنو ثم، بعد أنْ ألقى عليَّ نظرةَ كلبٍ جريح، قال " أعلمُ أنه ما كان ينبغي أنْ أودِعَ لديك نقودي كلها، ولكن... ولكن... أو حسن. افعلْ ما تراه الأفضل. كل ما أريده هو ألا أدعها تقتل نفسها "

قلتُ " تقتلُ نفسها؟ إنها ليستْ من هذا النوع! إنْ كنتَ تصدِّق شيئاً كهذا فلابد أنكَ تعذّب نفسك أكثر مما ينبغي. أما النقود، فعلى الرغم من أني أكره أنْ أعطيها أيَّ شيء، فأعدكَ بأنْ أتوجّه من فوري إلى مكتب البريد وأرسله إليها على جناح السرعة. ولن أثِق في نفسي في هذه العملية دقيقة واحدة زيادة عمّا هو ضروري ". قلتُ هذا ولمحتُ حزمة البطاقات البريدية مُعلّقة على حاملٍ دوّار، فانتزعتُ واحدة - وهي صورة لبرج إيفل - وجعلتُه يكتب عليها بضع كلمات. " قُلْ لها إنكَ مُبحِر الآن. قُلْ لها إنكَ تحبّها وإنكَ ستكتب لها رسالة فور وصولك... وسوف أرسلها بوسيلةٍ هوائية pneumatique حين أصل إلى مكتب البريد. وهذا المساء سأذهب لأراها. كل شيء سيكون على ما يُرام، وسترى "

على الأثر عَبَرنا الشارع إلى المحطة. بقيَتْ دقيقتان. عندئذٍ بتُّ أشعرُ بأننا آمنان. وعند البوابة ربتُّ على ظهره وأشرتُ إلى القطار. لم أصافحه - لكي لا يفيضَ عليَّ بعواطفه الصبيانية. واكتفيتُ بالقول

"أسرِعْ، سيتحركُ بعد دقيقة "، ثم استدرتُ على عقبي ومشيتُ مبتعداً. حتى إني لم ألتفتْ لأرى إنْ كان قد استقلَّ القطار. خفتُ أنْ أفعل.

لم أُفكّر، حين كنتُ منشغلاً بتهيئته للرحيل، فيما سأفعل بعد أنْ أتحرَّر منه. لقد قطعتُ له وعوداً كثيرة - ولكنَّ ذلك كان لمجرَّد تهدئته. أما بالنسبة إلى مواجهة جينيت، فلم أكنْ، مثله، أتحلّى بأي قدرٍ من الشجاعة لأفعلَ ذلك. كنتُ بدوري أزدادُ رعباً. لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة حتى بات مستحيلاً الإحاطة بطبيعة ما حصل إحاطةً تامة. وابتعدت عن المحطة وأنا فيما يشبه الخَدَر اللذيذ - والبطاقة البريدية في يدي. وقفتُ مُستنداً إلى عمود الكهرباء، وأخذتُ أقرأها. بدتْ منافية للعقل والطبيعة. وأعدتُ قراءتها، لأتأكَّد من أني لا أحلم، ثم مزَّقتها ورميتُ بها إلى المجرور.

نظرتُ حولي باضطراب، أكادُ أتوقَّع أنْ أرى جينيت تهرعُ خلفي شاهرةً فأساً. لا أحد يتبعني. انطلقتُ أسير بارتياح متوجّهاً إلى بلاس لافاييت. كان نهاراً جميلاً، كما نوَّهتُ من قبل، مع بعض السُحُب الخفيفة، المنفوخة، تنسابُ مع الريح. المظلات ترفرفُ. لم تبدُ باريس بتلك الروعة من قبل، حتى إني شعرتُ بالأسف لأني رحَّلتُ اللوطي المسكين. جلستُ في بلاس لافاييت مواجهة الكنيسة أتأمَّلُ ساعة البرج، واليوم تبدو أشدَّ زُرقة من أي وقتٍ مضى. ولم أكن أقوى على إبعاد نظري عنها.

إذا لم يكن قد جُنَّ وكتبَ لها رسالةً يشرحُ فيها كل شيء، فلن تعرف جينيت ما حدث. وحتى لو علِمَتْ أنه تركَ لها ٢٥٠٠ فرنكاً أو

نحوها فلن تستطيع إثبات ذلك. يمكنني أنْ أقول دائماً أنه تخيّل الأمر، وأنَّ رجلاً مجنوناً مثله يسير دون أنْ يضع قبعته على رأسه يمكنُ لجنونه أن يدفعه إلى اختراع ٢٥٠٠ فرنك، أو أي شيءٍ آخر. ولكن كم هو المبلغ؟ تساءلتُ. كانت جيوبي مُثقَلة به. أخرجته كله لكي أحصيه بدقّة. كان معي بالضبط ٢٨٧٥ فرنكاً و ٣٥ سنتيماً. أي أكثر مما ظننتُ. إذن يجب التخلُّص من الـ ٧٥ فرنكاً والـ ٣٥ سنتيماً. أردتُ مبلغاً صحيحاً - ٢٨٠٠ فرنكاً نظيفاً. في تلك اللحظة رأيتُ سيارةً تقفُ عند الرصيف. خرجت امرأةٌ تجرُّ في يدها كلباً أبيض من نوع البودل، وكان الكلبُ يطلُّ من بين طيّات ثوبها الحريري. وأزعجتني فكرة أخذ الكلب في نزهة بالسيارة. قلتُ في نفسي، إنني رائعٌ مثل كلبها، وهنا أشرتُ إلى السائق كي يتجوّل في البوا. فأراد أنْ يعرف أين بالضبط، فقلتُ: "أي مكان، ادخل البوا، وتجوّل في كل أنحائها - وكُنْ على راحتك، لستُ في عجلةٍ من أمري". وغصتُ في المقعد وتركتُ المنازل تمرُّ مسرعةً، والسقوف المُثلّمة، وأعالي المداخن، والجدران الملوَّثة، والمبولات، وتقاطُع الطرق التي تُسبّبُ الدوار. لدى مروري بالرون-بوان فكَّرتُ في أنْ أترجّل لأتبوّل هناك. لا أحد يعلم ما قد يحدث هناك. أمرتُ السائق أنْ ينتظر. كانت المرة الأولى في حياتي التي أطلبُ فيها من سيارة أجرة أنْ تنتظرني ريثما أتبوّل. كم يستغرقُ منكَ هذا؟ ليس كثيراً. بوجود المبلغ الذي في جيبي في وسعي أنْ أدعَ سيارتَيّ أجرة تنتظراني.

أجَلتُ نظري في أرجاء المكان لكنني لم أرَ ما يستحقُّ المشاهدة. أردتُ أن أرى شيئاً نضِراً - شيئاً من ألاسكا أو من الجزر العذراء؛ جلداً

حيوانياً نظيفاً نضِراً غير مدبوغ، له رائحة طبيعيّة، ولا داعي للقول إنه لم يكن هناك أي شيء من هذا القول. ولم تكن خيبة أملي كبيرة. ولم يهمّني إنْ وجدتُ أيَّ شيءٍ أم لم أجد. المهم هو ألا أغالي في القلق. كل شيء يأتي في وقته.

انطلقنا من جديد مارّين بقوس النصر. ولدى ولوجنا البوا نظرتُ إلى كل العاهرات الثريات وهنَّ يتنزَّهنَ بسياراتهنّ الليموزين. كنَّ يعبرنَ بسرعة وكأنَّ لهنَّ وِجهة معيَّنة. يفعلنَ هذا، بلا شك، ليضفن الأهمية على أنفسهن - ليعرضنَ للعالم كيف تجري سياراتهنّ الرولز رويس والهيسبانو سويزاس بسلاسة. وفي داخلي كانت الأشياء تجري أسلس من أي رولز رويس. داخلي كان أشبه بالمخمل، بغشاء مخملي وفقرات مخملية، وشحم محوري مخملي. ماذا؟ رائعٌ أنْ يكون في جيبك نقود، لمدة نصف ساعة، وتهدرها كأنكَ بحار سكّير. تشعر وكأنما العالم كله مُلكك. وأفضل ما في الأمر أنكَ لا تعرف ماذا تفعل بها. يمكنكَ أنْ تسترخي وتدع العدّاد يجري كالمجنون، والهواء يتخلّل شعرك، يمكنك أنْ تتوقف لتتناول مشروباً، وأنْ تمنح بقشيشاً كبيراً، ويمكنك أنْ تختال في مشيتك وكأنه حدث يومي. ولكن لا يمكنك أنْ تحدث ثورة. لا يمكنك أنْ تتخلَّص من كل القذارةِ التي في بطنك.

حين وصلنا إلى ميناء أوتوي أمرته أنْ يتوجّه إلى نهر السين. وعلى جسر سيفر ترجّلت وأخذت أتمشّى على طول النهر، متّجهاً صوب جسر أوتوي. كان النهر هنا بحجم جدول صغير والأشجار تصلُ حتى ضفة النهر. كانت المياه خضراء رقراقة، ولاسيما بالقرب من الجانب الآخر منه.

وبين آنْ وآخر كان يمرّ أحد المواعين مُصدِراً صوتاً عالياً. وكان مُستحمّون بملابس ضيقة يقفون وسط العشب يتشمّسون. كل شيء كان قريباً نابضاً، خفّاقاً بالضياء الساطع.

لدى مروري بإحدى حدائق البيرة شاهدتُ مجموعة من راكبي الدراجات جالسين على إحدى الطاولات. اتّخذتُ لي مقعداً بالقربِ منهم وطلبتُ نصفَ كأس. ولما رأيتهم يبتعدون وهم يُثرثرون تذكّرتُ جينيت، تخيّلتُها تتمشّى في طول الغرفة وعرضها وتشدّ شعرها، تنشج وتثغو، كالبهيمة. تخيّلتُ قبعته مُعلّقة على المشجب. وتساءلتُ إنْ كانت ملابسه تناسبني. كان لديه معطف راغلان يُعجبني بشكلٍ خاصّ. حسنٌ، الآن هو في طريقه. وبعد قليل سيتهادى المركب يتهادى تحته. لغة إنكليزية! إذن يريدُ أنْ يسمع الكلام الإنكليزي. يا لها من فكرة!

وفجأةً، خطر لي أنه لو أردتُ لرحلتُ بدوري إلى أميركا. كانت المرّة الأولى التي تخطر لي فيها الفكرة، نحو البحر، نحو الجانب الآخر حيث رأيتُ، وأنا ألقي نظرة أخيرة على الماضي، ناطحات السحاب وهي تختفي في هبّة من ندف الثلج، ورأيتها تلتئمُ من جديد، بالطريقة المرعبة نفسها تلك، وأنا أبتعدُ مُغادراً البلاد. رأيتُ الأضواء تتسلل مُتغلغلة بين أضلعي. رأيتُ المدينة برمّتها ممتدة، من هارلم إلى باتري. الشوارع غاصّة بالنمل، والمرفّهون يمرون مُسرعين، والمسارح تُفرِغُ روّادها. تساءلتُ بطريقةٍ مُبهَمَة عمّا يمكن أنْ يكون حدث لزوجتي.

وبعد أنْ نُخِّلَ كل شيء من رأسي غمرني سلامٌ عظيم. هنا، حيث يتعرّج النهر برفقٍ مُخترقاً نطاقاً من التلال، تمتد تربة مُشبّعة بالماضي

الذي مهما نأى العقل عنه مُحوِّماً لا يمكن للمرء أنْ يفصله عن خلفيّته الإنسانية. يا لله، يا للسلام الذهبي الوامض أمام عيني ولا يمكن لعُصابيّ أنْ يحلم بغضّ النظر عنه، ونهر السين يتدفّق ببطءٍ شديد حتى لا تكاد تلاحظ وجوده؛ إنه موجود دائماً، هادئ ومنسيّ، كشريانٍ عظيم يجري عبر الجسم الإنساني. ووسط السلام الرائع الذي غمرني شعرتُ كأني تسلّقتُ قمة جبلٍ شاهقٍ، وخلال برهة قصيرة سأتمكّن من أنْ أنظر حولي، أنْ أتشرَّب معنى المشهد العام.

الكائنات البشرية تُشكّل حيوانات ونباتات حُقَبيّة غريبة. من بعيد يُبدون تافهين، وعن قُرب هم أقرب إلى القُبح والخُبث. إنهم بحاجةٍ أكثر من أي شيءٍ آخر إلى أنْ يُحاطوا بفراغٍ كافٍ - فراغٍ يتجاوز الزمن.

الشمسُ تنحدر نحو المغيب. أشعرُ بهذا النهر يتدفّق من خلالي - ماضيه، تُربته العريقة، والمناخ المتقلّب. التلال تكتنفه من كل جانب: ومساره ثابتْ.

وُلِدَ هنري ميللر في بروكلن، نيويورك، في عام ١٨٩٠ من أصلٍ ألماني. التحق بمدرسة بروكلن الثانوية، ومن ثم عمل في مركزٍ إدارة مدينة نيويورك، لكنّه تركه على الفور تقريباً ليعملَ أولاً في شركة لصناعة الإسمنت ثم في شركة البرق التي أصبحَ لاحقاً مدير المُستخدمين فيها. وبدافع من رغبته في ممارسة الكتابة انتقلَ إلى باريس وألّفَ عِدَّة روايات، أوّلها كان "مدار السرطان"، التي تقوم في أساسها على تجاربه في تلك المدينة، وقد نشرتها دار أوبيليسك بريس في عام ١٩٣٤. تبعتها رواية "ربيع أسود" (١٩٣٦)، و"مدار الجدي" (١٩٣٩)، وروايات أخرى، اختتمها بثلاثيّة "الصَلْبُ الوردي" (سكسوس، بليكسوس، نكسوس). كتاباته الأخيرة تتضمّن كُتُباً في ذكريات عن رحلات، وألّفَ أيضاً مسرحية عنوانها " ابتسامة عند أسفل السُلَّم". توفي عام ١٩٨٠.

"هذه الروايات سوف تفسح الطريق، شيئاً فشيئاً، لليوميات أو السيَرْ الذاتية - الكتب الآسرة، هذا إذا عرِفَ الإنسان كيف ينتقي من بين ما يُسمّيه تجاربه وكيف لا يُسجِّل إلا الحقيقة".

رالف والدو إمرسُنْ

ISBN 2-84306-135-x
9 782843 061356